افتـــتاحية

د. محمد عبازة

مَرَّتْ على وفاة الطاهر الحداد خمسون سنة ، الرجل الذي تعلم تعلما تقليديا زيتونيا واستطاع بفكره الثاقب أن يتفهم بعمق حركة المجتمع التونسي وحركة بُنَاه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ويعتبر من أهم المفكرين الذين حاولوا في « مشروعهم » الحضاري وأقول مشروع حضاري ـ وأنا أعي جيدا هذه الكلمة ـ لأنه استطاع بنظرته الثاقبة وفكره الخلاق وعقله المبدع أن يؤنسن المجتمع التونسي بكل أبعاده ومقوماته أي أن يعيد له انسانيته المفقودة طوال القرون الظلام والانحطاط والتحجر وتأخذ الانسانية أبعادها كاملة عند الحديث عن جانب الضعفاء في هذا المجتمع والضعفاء الذين أراد الطاهر الحداد أن يرد لهم اعتبارهم الانساني هم العمال أولئك الذين كان الاستعمار يمتص دماءهم ويسلبهم كرامتهم ويأكل عرق جبينهم وينكر حقوقهم وفوق ذلك يمنعهم حتى من ممارسة « تونسيتهم » و « عروبتهم » وذلك بالتعبير عن مميزاتهم وخصوصيتهم كعمال تونسيين بعيدين عن التنظيمات العمالية الفرنسية والتزم معهم الطاهر الحداد في أول تنظيم نقابي تونسي راغبا بذلك في اعطاء الحركة العمالية التونسية بعدا نضاليا وطنيا . لقد اعتقد الطاهر الحداد منذ عشرينات القرن الحالي أن التنظيم العمالي ينبغي أن يكون فصيلا فاعلا من فصائل الحركة الوطنية التونسية في نضالها ضد الهيمنة الاستعمارية أي التحرر السياسي من ربقة الاحتلال وضد الاستغلال الاقتصادي من طرف الرأسمال الاحتكاري الاجنبي أي تحقيق التحرر الاقتصادي للعمال التونسيين ، وبالتالي لا نُبالغ إذا اعتبرنا هذا المفكر العظيم من القلائل الذين ربطوا التحرر السياسي بالتحرر الاقتصادي بالنسبة الى الطبقة العاملة ومن هنا كانت الحركة النقابية التونسية أسبق الحركات النقابية العربية وجودا وأكثرها تجذرا وأوضحها مساهمة في حركة التحرر الوطنية .

والنوع الثاني من الضعفاء الذي استقطب اهتمام الطاهر الحداد هو : المرأة التونسية العربية المسلمة .

لم يتوان الطاهر الحداد في الدفاع عن هذا الركن الأساسي في المجتمع التونسي : المرأة . لقد ذاد عن كرامتها في أشد الأيام ظلمة وسوادا ، إذ أنه كان أكثر المتحمسين الى أن تسترد المرأة حقوقها كانسان يشعر ويحس ويتألم ، يفكر ويقرر ويرفض ، يتعلم

ويتثقف ويربي ويشارك مشاركة فعالة في بناء المجتمع الطامح الى الانعتاق والتحرر ، لقد أراد أن تخرج المرأة من بوتقة العبودية والرق الى مشارف الحرية والأمل ، أرادها أن تكون فاعلة في المجتمع على كافة مستوياته لقد صدح بأن تنبذ المرأة سلبيتها التي فرضت عليها فرضا وأن تستنشق الهواء النقي وأن تعيش عيشة راضية مطمئنة لكي تعرف الهدوء والاستقرار والسكينة ، باختصار نادى الطاهر الحداد بأن تسترد المرأة انسانيتها كاملة، وكانت المهمة صعبة . المهمة صعبة والطريق مليئة أشواكا ووحوشا ضارية تنتظر الانقضاض على كل من تحدثه نفسه بالنيل من هيبتها والتقليل من وقارها وسلطتها ، ولكن ، على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، إذ استخف الطاهر الحداد بكل هذه الأهوال وأقدم على « مشروعه » متحديا مستهيناً شاهـرًا قلمه ولسـانه لخدمة التقـدم ، تقدم الإنسانية المتناغم المتجانس دون تغليب عنصر من عناصره المكونة على العناصر الأخرى ومن هنا جاءت أصالته ومن هنا جاءت خطورته أيضا على أفكار المتحجرين .

وجاء الرد عنيفا والهجوم قويا والاتهام صارخاً وهذه سنة الطبيعة أن يتهم الأنبياء دائما بالكفر بالنواميس والخروج على الجماعة وزعزعة القوالب الجاهزة والأعراف والتقاليد المحنطة التي تعتبر مخالفتها بدعة وكل بدعة حرام .

لقد تصادم الطاهر الحداد مع السلط الاستعمارية عندما ساهم في قيادة الحركة العمالية لكن ذلك الصدام وذلك الظلم الذي تعرض له لم يؤلمه مثلما آلمه ظلم أقربائه وذويه لقد صدق فيه قول طرفة بن العبد :

وظلم ذوي القربى أشد مرارة ... علي من وقع الحسام المهند

لقد تألم الطاهر الحداد عندما تألبت عليه جماعة التهميشات والشـروح وعقليات « الكتـاتيب » وأقلام الـرجعيين الـذي سخروا الـدين الاسلامي لخدمة أغـراضهم الشخصية والمحافظة على امتيازاتهم المادية والمعنوية .

لقد كان الطاهر الحداد كاتبا ملتزما في أروع معاني الالتزام المتأتي عن الاختيار الحر المسؤول بقضايا العدل والحرية والمساواة بين الناس وكان مثقفا عضويا في أروع ما يكون المثقف العضوي (الغرامشي) تضحية والتزاما بقضايا الضعفاء والمسحوقين : العمال والمرأة ، وأكثر صدقا في مناداته بالتقدم الانساني نحو بناء مجتمع يقوم على أساس التحرر من الاستغلال بكل أنواعه وما أعسر المهمة وما أروع التضحية في سبيل المبدإ الذي يهدف إلى سعادة المجتمع بكل فئاته وما أبهى الوفاء للقيم الحضارية للانسانية جمعاء ، كذا بدأ الطاهر الحداد وكذا استمر في دربه الشاق الطويل :

فذلتهم ذلي وعزي بعزهم ... وإن وهبوني للسعير وقودا

الطاهر الحدّاد المناضل والأديب

البشير بن سلامة

في مثل هذا الشهر منذ خمسين سنة توفي المناضل الأديب والمفكر الرائد المرحوم الطاهر الحداد .. بعد أن قضى سنواته الخمس الأخيرة من عمره القصير في حالة صحية ونفسية منكودة .. وفي مناخ اجتماعي وفكري كله ارهاق وكبت ومعاناة ومضايقة من قبل خصومه الرجعيين والمحافظين .. من بعض شيوخ السياسة والدين الذين كانوا بالمرصاد له ولكل جيل الحداد من الشباب المجدد والطموح .. المتطلع الى حياة أفضل لوطنه وللشعب ، هذا الجيل الذي لم يقبل حالة الجمود والاستسلام والتخلف والقعود التي كان يراها سائدة ومسيطرة على الحياة التونسية سياسيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا .

كان جيل الثلاثينات جيلا ثائرا بكل معنى الكلمة .. كان جيلا يرفض قبول الاحتلال والاستسلام للمستعمرين .. وكان جيلا يناضل ويجاهد لتخليص الوطن وتحريره .. لا من المعمرين والسلطة الاجنبية فقط بل ومن التخلف والانحطاط ، بل ومن سيطرة المفاهيم المغلوطة والمغشوشة في كل ما يتصل بالدين والسياسة وحتى بالأدب والاقتصاد والمجتمع .

ألم يتول معركة التجديد في الأدب الشاعر الفقيد أبو القاسم الشابي حين أعلن بأعلى صوته .. ومن فوق منبر الخلدونية عمّا يكبّل شعبه ويعوقه عن التحرر والتجدد والانبعاث .

هذه اذن .. كانت حالة الشعب الذي خدره بعض قادته المزعومين في العشرينات .. من ساسة وشيوخ لم يتصد واحد منهم لمقاومة التجنيس الذي خطط له الاستعمار لمحق الذاتية الوطنية بمقوماتها الدينية واللغوية .. والحضارية .

لقد كان الاستعمار يرمي الى دمج الشعب التونسي في المجموعة الفرنسية ومسخه في دينه ولغته وجميع عناصر شخصيته الاسلامية العربية عن طريق التجنيس .. ولكن القادة الرجعيين يومئذ عجزوا عن التصدي ، وأكثرهم والى الاستعمار بالسكوت والصمت لأن مصالحهم كانت مرتبطة بالسلطة الاستعمارية والبلاط الملكي وحاشيته ، غير ان الشباب المتوثب ، من كل طبقات الشعب تصدى بفكره وبصدره وبحياته للاستعمار وأعوانه وللرجعية وأركانها .
وهذا الحداد نفسه يحذر الشعب من سياسة التجنيس والفرنسة ويدعو للتحرر والثورة قائلا :

أفق أيها الشعب المهان فقد أتوا .. إليك بتجنيس لعلك تخدع
وأيد لهم بالحس أنك ماجد وان كنت في بؤس فجنسك أرفع
يا أيها الشعب قم للمجد مقتحما حرب الحياة .. فلا عز بلا نصب
هذا زمان يموت الجاهلون به والخانعون بلا حد لمغتصب

ويحذر من الركود الفكري والاستسلام الى الرجعية الدينية والفكرية .. التي كانت تتصدى للشباب وللفكر المجدد في الدين والسياسة والأدب ... فيقول :

لا تصدق يا شعب ان رقي الـ غرب .. كفر يبدد المسلمينا
أمة الغرب لا تزال لعيسى وببوذا اليابان في المؤمنينا
وبموسى اليهود زادوا ارتقاء بعد نيل العلى مع السابقينا
كلهم في تمدن العصر فازوا لم يصبهم في الدين ما يعترينا
أفهل كان دين أحمد يحيى دون كل الأديان في العالمينا

هذه هي صرخات الحداد وتلك ثورة الشابي .. الذي كان هو الآخر واعيا كالحداد .. بأنه بدون تجديد وبدون تغير لا يمكن للشعب ان ينهض .. وان يتقدم وبالتالي أن يناضل عن حقه في الحياة والحرية والكرامة والانسانية ... وان يصل آخر الأمر الى استرجاع السيادة الوطنية .. والحداد كالشابي .. وكجيل الثلاثينات كانوا يدركون أن القيادة القديمة في السياسة والفكر والدين والأدب قد أفلست .. تماما .. لأنها ، بسبب ما هي عليه من عجز في التخطيط وتحريك الجماهير الى النضال ، وفق استراتيجية بعيدة المدى محكمة الحلقات لا تستطيع أن تحقق للشعب هدفا واحدا من أهدافه .. فضلا عن أن تقود مسيرته عبر سنوات وأجيال من الدماء والشهداء لتصل به الى شاطىء الخلاص وتحقق له السيادة الوطنية والاستقلال التام ..

هذا ما كان يعلنه الشابي والحداد ورفاقهما من جيل الطليعة في الثلاثينات فبعد سقوط حركة محمد علي النقابية القومية .. لم يبعث ذلك اليأس والاستخذاء في قلوب الشباب فكان الشابي يقول :

ان ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

وكان الحداد يعلن أيضا :

أتونس عندي في هواك تولع وأنت منى نفسي عليك تقطع

هكذا .. كان جيل الثلاثينات يبحث عن القائد الملهم والزعيم المنقذ الذي يعيد للشعب كرامته وعزته .. ويرفع رأسه بين الشعوب ..

أجل كان الحداد وكان الشابي ينطقان باسم الشباب ويتطلعان الى الغد والفجر الجديد .. ويبشران بالقيادة الظافرة والزعامة الجديدة . دون ان يعلما ان ما يبحثان عنه ويبشران به الشعب والأجيال هو موجود بينهم في شاب عبقري مثلهم .. انه المحامي الشاب الزعيم الحبيب بورقيبة الذي جمع كل طموحات الشباب لا في جيل الحداد والشابي فقط بل لكل الأجيال السابقة واللاحقة .. فهو الذي ادخرته العناية الالهية ليكون المنقذ والمحرر .. وليكون على يديه الخلاص والنصر .. وليعود به وبجهاده لتونس مجدها واستقلالها ودورها الحضاري العظيم ....

فبورقيبة .. هو الذي ـ بقيادته الرشيدة والحكيمة ـ نقل الشعب التونسي من عصور الظلام والاستسلام الى عصر الأنوار والسيادة .. وهو الذي حقق احلام جيله وحوّل طموحه المنكسر والمهزوم الى نصر وتقدم وازدهار .

فلم يعد الشعب طفلا لاعبا بالتراب .. ولم يبق للرجعية أو للاستعمار نفوذ أو سلطان .. وزالت الى الأبد جميع اخطار التجنيس والمسخ .. واسترجع الشعب كلّ مقوماته الوطنية والاسلامية والعربية .. بفضل تلك القيادة الرشيدة الفذّة التي كان يحلم بها الحداد والشابي حين يقول :

أيها الشعب ، أنت طفل صغير | لاعب بالتراب والليل مغس
أنت في الكون قوة كبلتها | ظلمات العصور .. من أمس .. أمس
أنت في الكون قوة لم تسسها | فكرة عبقرية ذات بأس

لقد مات الشابي يوم 9 اكتوبر عام 1934 .. ومات الحداد بعده بعام واحد وعلى التحديد يوم 7 ديسمبر عام 1935 .. ورغم ان كلا منهما كان يعاني لعدة سنوات قبل وفاته آلام المرض والكبت والاجهاض فان كلا منهما قد مات راضيا مطمئنا على مستقبل تونس ومصير الشعب .. لأنهما قد عاصرا ، ولو لبعض الوقت ، انبعاث حركة الدستور الجديد .... التي حققت لهما ولكل الأجيال النصر والفوز والتقدم .. فزرعت الوعي بالذات الوطنية وحب الجهاد والموت من اجل الوطن وقادت الشعب الى الاستقلال والحرية وحققت ليس فقط النصر والجلاء .. بل أقامت دولة عتيدة قوية .. وبنت الازدهار والتقدم .. وجعلت من قولة الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة | فلابدّ أن يستجيب القدر

واقعا ماثلا .. وحقيقة شامخة .. وها هي آراء الحداد في قضية المرأة .. التي أعلنها قبل أوانها .. ها هي قوانين تطبق في محاكم تونسية .. وتقوم المرأة نفسها لا بالانتفاع بها والتقدم والرقي في ظلها وحمايتها فقط .. بل وتتولى المرأة نفسها تطبيقها وتنفيذها من خلال مجلة الأحوال الشخصية وغيرها من القوانين .. بل أن المرأة قد تجاوزت في تطورها كل ما كان يحلم به الحداد ويطمح اليه فها هي اليوم بكثافة ظاهرة في التعليم والادارة وفي مجلس النواب والمجالس البلدية وكذلك ، في سلم جميع الوظائف .. وفي التجارة والصناعة .. بل هي اليوم أستاذة في الجامعة وطبيبة وعميدة .. وفي القضاء والمحاماة وهي وزيرة ومديرة وقائدة للحافلة والطائرة .. فضلا عن السفينة والسيارة وكلّ ذلك ما كان ليكون وما كان الحلم ليصبح حقيقة ضخمة وناصعة وبهذه السرعة لولا تلك العبقرية النادرة والقيادة التاريخية الفذة التي منحها الله في شخص المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة فبقيادته البارعة وجهاد شعبه المظفر تنعم تونس اليوم والمرأة التونسية بالذات بمكاسب اجتماعية وثقافية وعلمية واقتصادية وسياسية تفوق بحجمها مداها وتنوعها كل امكانياتنا الحقيقية وتتجاوز بعمقها المدة القصيرة التي تحققت فيها .. والتي لم تستطع شعوب أخرى - عربية وافريقية - رغم امكانياتها المادية الجبارة ورغم مرور أجيال على استقلالها وحكمها الوطني أن تحقق نصف ما حققته تونس بحكمة القيادة الرشيدة الرائعة .

ومن هنا .. يحق لي ولكم ، في ظل هذه الحقائق الناصعة ان نحتفل هنا وفي هذه الذكرى الخالدة - ذكرى مرور خمسين سنة على وفاة الطاهر الحداد يحق لي ولكم أن نحتفل بها احتفال البشرى والفخر والاعتزاز .. لأن جميع القضايا والاهداف التي ناضل من أجلها الحداد ومات في سبيلها قد أصبحت اليوم محققة كاملة وماثلة للعيان في القوانين والواقع المعيش .

وهذا .. بلا ريب ما يجعل الحداد في عالمه السرمدي راضيا مرضيا ... سعيدا مطمئنا .. خصوصا وقد كان هو نفسه يتوقع هذا ويأمله ممن يأتي بعده وما علق بنفسه اليأس قط من نهضة الشعب وتطور العقول .. فكان يقول :

ولكنني مهما يكن لست يائسا | فلابد للافهام أن تتبلورا
وإذا كان حتما ان يطول انتظارنا | فلابد حتما ان نجد ونصبرا

رحم الله الحداد ورضى عنه وأرضاه .. فقد عاش داعيا للاصلاح ومات في سبيله .. مناضلا عن الشعب وعن جنسيته وعن عينه وشخصيته ومكافحا عن العمال والمرأة وعن نهضة الشعب التونسي وكرامته واستقلاله .. وها

نحن اليوم نحيي ذكراه ونشيد بخصاله ونقدر مكانته ودوره في تاريخنا الثقافي والقومي . . وجدّه واجتهاده في الاصلاح الديني والتربوي . . وفي هذا دليل على ان عصره الذي كان عصر جحود وعقوق ونكران للمواهب ونقمة على المجتهدين والمخلصين . . قد تبدل بعصر يبارك المواهب . . ويمجد المخلصين . . ويحيي ذكرى النبغاء والمصلحين .

ولعلنا نشهد اليوم نتيجة للسرعة الفائقة التي تطور بمقتضاها المجتمع التونسي ظواهر تريد أن تجذبنا الى الماضي وتصدّ الشعب عن المضي قدما في سبيل التقدم .

« ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .



فكر الطاهر الحدّاد الإصلاحي

محاضرة ألقيت بجامعة غوتبورغ بالسويد باللغة الفرنسية في الأصل

أحمد خالد
ترجمة : د. محمد عبازه

● تقديم المفكر :

من هو الطاهر الحداد ؟ هو كاتب تونسي طلائعي ، عاش بين 1899 و 1935 ذو تكوين كلاسيكي سلفي ، واضب على دروس الجامعة الزيتونية (جامع الزيتونة) حيث تحصل على شهادة ختم دروس المرحلة النهائية [مستوى الأستاذية في العلوم الدينية واللغوية (التطويع) إذ لم تكن شهادة العالمية موجودة آنذاك] وبالتوازي كان يتابع دراسة القانون التونسي ولكنه منع من اجتياز الامتحان النهائي - بسبب جرأة أفكاره - في ظروف وملابسات المجادلات الحادة والعنيفة التي أثارها ظهور كتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع سنة 1930 وهو الكتاب الذي سيكون موضوع اهتمامنا في هذا البحث .

كان الطاهر الحداد ملتزما بأفكاره وعمله في كفاح التحرر الوطني ، اذ عهدت اليه مهمة « الدعاية » في الحزب الحر الدستوري التونسي (أو الحزب القديم) وكان أيضا من دعائم أول حركة نقابية تونسية أصيلة من سنة 1924 الى سنة 1925 ومن المؤمنين بالاصلاح الاجتماعي إذ انه على مستوى الأفكار يُعَدُّ الرائد الفعلي لتحرير المرأة ، لأنه توقع في مقالاته المسلسلة على أعمدة جريدة « الصواب » وخاصة في كتابه المذكور آنفا التشريع العصري الحالي الذي يقنّنُ - في تونس - الحياة الزوجية والعائلية حسب مجلة الأحوال الشخصية . والطاهر الحداد شاعر ذو حساسية مرهفة ، قصائده ذات طابع كلاسيكي جديد تتغنى بإرادة الحياة في وطن محرر من الهيمنة الاستعمارية كما كان ذلك حلم جيل العشرينات والثلاثينات ، والحداد يتغنى في قصائده أيضا بأهداف سامية كالتقدم والتطور الشامل المتّزن والتفتح على العالم الحديث مع المحافظة على الذاتية التونسية .

لقد عالج الطاهر الحداد نفس تلك المواضيع في مقالاته الصحفية بأسلوب مهذب الصنعة ولغة تجمع بين البساطة والجمال وإنا لنجد نفس المستوى الأسلوبي في كتابيه :

(1) « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » ، نشر سنة 1927 وصودر قبل توزيعه وهو كتاب خصص لتاريخ الحركة النقابية ذات الاتجاه الوطني طوال سنتي 1924 و 1925 وهي حركة خنقت في المهد واضطهدت من قبل السلط الاستعمارية .

(2) « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » نشر سنة 1930 وأثار غضب الفقهاء ورجال الدين .

يعد الطاهر الحداد واحدا من مجموعة كبيرة من رجال الفكر والشعراء والكتاب الذين طبعوا مرحلة الثلث الأول لهذا القرن في الأدب وتاريخ الفكر في تونس . ومن معاصريه يمكن ان نذكر الشاعر الوطني التونسي أبا القاسم الشابي (1909 - 1934) الذي ترجم ديوانه الى عدة لغات .

الطاهر الحداد مصلح طليعي :

ان موضوع هذا البحث هو فكر الطاهر الحداد بخصوص مشروع تحرير المرأة واصلاح الحياة الزوجية في تونس في الثلاثينات وباعتبار ان المشروع الاصلاحي لهذا المفكر امكن له ان يتحقق ويتبلور عن طريق تشريعات ملائمة بعد ربع قرن من الزمن في فجر استقلال تونس في مجلة الأحوال الشخصية رأيت من المفيد أن أقوم بمقارنة بين مشروع الطاهر الحداد وهذه المجلة (مجلة الأحوال الشخصية).وفعلا تستوحي التشريعات التونسية الحالية الأفكار والمثل الإنسانية للرئيس بورقيبة باني تونس الحديثة إذ انها استطاعت ان تجمع بين روح الشريعة الإسلامية يعني الحساسية الاسلامية وبين نمط متطور للحياة الاجتماعية للزوجين والعائلة . هذا النمط الجديد من الحياة تنظمه مجلة الأحوال الشخصية التي كانت منذ 13 أوت 1956 تاريخ سنها في فجر الاستقلال - أول إنجاز تاريخي ثوري في الحياة الاجتماعية بتونس اليوم ، ذلك العمل حلمت به وطمحت اليه العديد من المجتمعات الاسلامية في المشرق والمغرب ، ذلك القانون الذي لن يرى النور عندها(المجتمعات) بسبب تصاعد نفوذ التيارات الدينية بشكل خاص .

قبل ان أدخل في صلب الموضوع ، أود ان أُعرِّف باديء ذي بدء بكلمة « اسلام » التي يثير وقعها بعض التساؤلات فماذا نفهم من كلمة اسلام ؟

اشتقاقا تعني الكلمة موقفا دينيا وهو التسليم أو الخضوع لله وتبلور الوحي التوحيدي الذي نادى به محمد صلّى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، وانتشر بعد فترة من الزمن على رقعة من العالم ليست فقط العالم العربي .

مع هذه الدلالة على العقيدة التوحيدية والمبادىء الاسلامية ، تعني الكلمة كذلك القوانين الاجتماعية المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية والمستمدة أيضا من روح المبادرة والاجتهاد عند الفقهاء الذين يحاولون ملاءمة هذه القوانين الاجتماعية مع ظروف مجتمع دائم التغير . فكلمة اسلام تعني أيضا الأمة الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية . ولا يمكنني الادعاء بأنني أنوي الاحاطة بكل هذه التعريفات أو عرض العقيدة أو التشريعات الاسلامية بصفة عامة .

لهذا الغرض أردت أن تكون دراستي محدودة في موضوع شاسع بقدر ما هو دقيق أعني الإسلام . إذن لقد اخترت بكل وعي ان أحدد آرائي في الناحية التشريعية والاجتماعية التي تخص المرأة والحياة الزوجية في الشريعة الاسلامية كما يراها المفكر الطليعي الطاهر الحداد وكما طوعت للحياة المعاصرة عن طريق مجلة الأحوال الشخصية التونسية .

نعم لقد طبع كتاب الطاهر الحداد « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » الفكر التونسي المعاصر وهو كتاب جد هام إذ أنه يعتبر أهم دراسة كتبت عن أوضاع المرأة التونسية بصفة خاصة والمرأة المسلمة بشكل عام في بداية هذا القرن . وإذ صدم هذا الكتاب بعض التقاليد كالحجاب وتعدد الزوجات في مجتمع محافظ الى درجة التحجر فقد أثار عند ظهوره سنة 1930 جدالا عنيفا أخذ طابع صيحة غضب عامة . كانت حملة مدبرة من طرف رجال الدين ودسيسة المتبجحين بالاسلام تجاوزت حدود البلاد التونسية ووصل صداها الى بعض دول المغرب والمشرق الاسلامي وأصبح المؤلف في ذلك الوقت يشار اليه بالبنان فعاش فترة اضطهاد حقيقي . وتجرأت ثلة من أصحاب الأفكار النيرة الذين آمنوا بأهمية أفكاره المستقبلية فدافعوا عنه . لكن الطاهر الحداد لم يستطع دون شك تحمل دسائس رجال الدين ومؤامراتهم العاصفة التي تتالت عليه.وكانت تنطلق هذه الحملات أحيانا من قبل أدعياء على الدين الاسلامي متهمين اياه بالمروق عن الدين ، فانهار الطاهر الحداد تحت وطأة المرض وأصيب بخيبة أمل كبيرة ومات في سن مبكرة نسبيا أي في السادسة والثلاثين سنة 1935 بعد ان قضى السنوات الخمس الأخيرة من عمره في عزلة اجتماعية تكاد تكون تامة ، ولم يعد له الاعتبار الا بعد مماته (ولمن يريد المزيد من التوضيحات عن الجدل الذي قام بمناسبة ظهور كتاب الطاهر الحداد المذكور

فيمكنه ان يرجع الى الفصلين السادس والسابع من كتابنا أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل / الطبعة الثانية الدار التونسية للنشر 1979 والطبعة الثالثة سنة 1985) .

يحتوي كتاب الطاهر الحداد « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » على قسمين الأول شرعي والثاني اجتماعي وسوف نتحدث عن هذين المحورين .

لا تعد حمية الطاهر الحداد ودفاعه عن المرأة ظاهرة فريدة في المجتمع التونسي في الثلاثينات فالطاهر الحداد ينتمي الى محيط ثقافي وسياسي حيث ان موضوع تحرير المرأة عولج من زوايا مختلفة : بغنائية عند أبي القاسم الشابي شاعرنا الوطني الذي يتغنى مثلا هذه الأنشودة للمرأة المحبوبة في قصيدة « صلوات في هيكل الحب »

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام	كاللحن كالصباح الجديد
أنت .. ما أنت ؟ أنت رسم جميل	عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق	وجمال مقدس معبود
أنت .. ما أنت ؟ أنت فجر من	السحر تجلى لقلبي المعبود
فأراه الحياة في موقف الحسن	وجلى له خفايا الخلود
أنت تحيين في فؤادي ما قد	مات في أمسي السعيد الفقيد
وتشيدين في خرائب روحي	ما تلاشى في عهدي المحدود
من طموح الى الجمال الى الفن	الى ذلك الفضاء البعيد
وتبثين رقة الشوق والأحلام	والشدو والهوى في نشيدي

ويمكن أن نلاحظ هنا نفسا جديدا للحرية في هذه القصيدة* حيث المرأة مقدسة محبوبة يعتبرها الشاعر منقذته من الم القلق في هذا العالم،ذلك الشاعر الذي يطمح الى المطلق الى الأفق البعيد ، الى الفضاء الرحب المليء حركة وحيوية .

وقد طرحت مشكلة تحرير المرأة سياسيا في الوسط التونسي في عهد الطاهر الحداد واشتد النقاش بين المدافعين عن الحجاب والرافضين له ، وحول تحرير المرأة ، فخصصت فصلا كاملا من الكتاب الذي درست فيه الطاهر الحداد وبيئته الاجتماعية النقابية والسياسية لتاريخ المجادلات التي دارت حول هذا الموضوع .

لماذا اهتم الطاهر الحداد بالمشكلة النسائية ؟

اقتنع الطاهر الحداد بأن المرأة عنصر هام من عناصر بنية اجتماعية سليمة فالمرأة المتحررة تصبح قادرة على تربية النشيء والمساهمة في بناء المجتمع بنجاعة أكثر . ان حجب المرأة - حسب رأيه - يسبب الحياء الذي لا يكون الا خجلا زائفا ويهدم الشخصية فيساعد بالتالي على خضوع كامل الشعب الى الإرهاب الاستعماري . إذن اهتم الطاهر الحداد بتحرير المرأة لأسباب نفسية تربوية وسياسية أي وطنية بعد ان أصيب بخيبة أمل مع رفاقه في الكفاح في أول حركة نقابية تونسية ذات الاتجاه الوطني سنة 1925 .

لنستمع الى هذا المقطع المأخوذ من كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » حيث يقول :

« وهكذا أخذ الضعف عليها كل مأخذ فلم تعد تعرف من شؤون الحياة غير المنزل شيئا فهي ترتاع لأقل ورقة ادارية يأتي بها الساعي استدعاء لزوجها أو أحد اقاربها حتى ولو كان لشهادة أو نازلة مدنية وعوض ان تفكر في الأمر لعلاجه فان السذاجة وبعدها عن الحياة لا يمليان عليها شيئا سوى الهلع والتوجع المشوش لبال زوجها وأقربائها والانتصار لهم بالبكاء أما حب الوطن والتضحية من أجله فذلك ما تفزع المرأة من تصوره في ابنائها المحبوبين فضلا عن بناتها اللائي

لا يثقن بغير الضعف والانزواء وهذا ما يسير فيه الآباء تماما حذو الأمهات فكم كانوا ويكونون جميعا حربا على الشباب المندفع بقوة ايمانه الى خدمة الوطن قابلا ان يتحمل ما يناله في هذا السبيل : الآباء بالشدة والأمهات بعاطفة الضعف والرقة .

لو تأملنا كيف يتطور خلق الحياء في المرأة وما نشأ عنه في نفسها من نتائج لرأينا انه بصورته الحاضرة أكبر سبب فعال لخيبتها في الحياة وسقوطها ضحية الضعف والفساد . والكثير من الناس يريد أن يكون الحياء في المرأة رمزا لمعنى انكسارها وضعفها وبذلك يفسرون معنى أنوثتها التي يحرصون على بقائها وما ذلك في الحقيقة الا مصدر لسيادة الرجل . وأخذها بذلك راضية مستسلمة .... » ص ص 129 ـ 130

ان عزل المرأة على المستوى الاجتماعي والثقافي يؤثر تأثيرا سيئا على حالتها بشكل عام ـ يقول الطاهر الحداد : « ولنضف الى هذا كله ان انحباس المرأة في المنزل له تأثير عظيم على صحتها من حيث ضعف الهواء به وبطء تجدده والحرمان فيه من الرياضة البدنية والنفسية الواجبة للقيام باعبائه . فذلك ما أَوْهَى قواها على الحركة وزاد في بؤسها وضيق صدرها وجعلها تتعرض أكثر ما يكون لأخطار الحمل عند الولادة ... » ص 186 .

ويستمر الطاهر الحداد على هذا النسق قائلا : « ان على المرأة واجب ادارة المنزل سواء من وجهة المعاش او نظافته أو ترتيب أثاثه بما يطابق الرغبة والذوق ... » ص 185 .

ثم يضيف المؤلف انه لا يمكن للمرأة ان تتحمل مسؤولية تربية أبنائها وهي على تلك الحالة من الجهل والتخلف فيقول : « وعليها هي ذاتها ان تكون مثالا لهذه الكفاءات في نفسها حتى تقدر أن تبذرها في الغير فاذا تصورنا انها منعزلة عن حياة مجتمعها ، تجهل حياته المدنية وأوساطه العلمية والأدبية ، غير متمكنة من مشاهدة آثاره التاريخية القائمة في وجهات بلادها وفي متاحفها محرومة من حضور نواديه العاملة وسماع المحاضرات المختلفة في وصف أمراضه وطرق علاجها فان شعبا من الشعوب الطامحة الى المجد لا يمكن ان يبلغ منه ما دام نصفه يعيش بهذه الحالة ، مقيما في ظل الخفاء الدامس وما دام يربى في حجور أمهات يعرفنه صغيرا ويجهلنه كبيرا . ان الحجاب قد منع المرأة من التعلم والقدرة على الاقتصاد المنزلي وإدارة شؤون المعاش اليومي .... » ص 185 .

II القسم التشريعي (المرأة في نظر الاسلام)

ينتقد الطاهر الحداد بشدة الفكرة المخطئة القائلة بأن الحضارة العربية الاسلامية هي ثمرة مجهودات الرجال فقط ثم يردف قائلا إن المرأة ساهمت بفعالية في ازدهار هذه الحضارة ولذلك ينبغي علينا ان نتخلص ـ بكل تأكيد ـ من أفكارنا المسبقة المعادية للمرأة ، فالمرأة شئنا أم أبينا منساقة في حركة التطور العام وبالتالي يبدو من الضروري ان نوجه هذا التطور بذكاء الى الاصلح لأنه لا يتناقض مع الاسلام .

ان هذا المدح الذي ساقه الطاهر الحداد للمكانة التي تحتلها المرأة في الاسلام يطابق نظرة أصيلة للمجتمع الاسلامي طوال قرون الاشعاع .

إن امرأة كولادة تنتمي الى العائلة المالكة من الأمويين في قرطبة باسبانيا الاسلامية لعبت دورا ثقافيا من الدرجة الأولى عندما كانت تشرف على منتدى أدبي في القرن الحادي عشر ، وهذا مجرد مثال فقط .

كان الطاهر الحداد مفكرا مصلحا متفتحا الى درجة الاستغراب ولكنه أيضا راسخ الجذور في تراثه المشرق ، الذي يعود الى عصور الاسلام الذهبية في تفسيره وشرحه لمشروعه الاجتماعي بخصوص الحياة الزوجية وتحرير المرأة .

وحلل بعض المعطيات العامة لحالة العرب الاجتماعية قبل مجيء الاسلام وبعده فأبرز المكاسب العديدة التي جاء بها الدين الجديد في خصوص التنظيم الاجتماعي عند العرب وخاصة المرأة .

وانطلاقا من ملاحظة « ان الاسلام لم يكن دين تسابيح وصلوات لا يتصل بأعمال الانسان وما يلابسه من أحوال الحياة اليومية فقط ص 22 ، بمعنى ان الدين الاسلامي اهتم أيضا بالحياة الاجتماعية . ويفرق الطاهر الحدود بين ما

هو جوهري وما هو دخيل على الاسلام « بل ما كانت تلك الا كروح مطهر ومنقذ للانسان من استيلاء روح الشر وجحوده . . . » ص 22 .

وبعبارة أخرى فان التعاليم القرآنية ذات الصبغة الثابتة المستمرة كالاعتقاد في وحدانية الله ، وفي اليوم الآخر والعدالة والصلاة والحج . . . . الخ . أما الفرائض فقد حتمتها ظروف معينة وتتعلق بالحياة الاجتماعية اليومية وينبغي الا تبقى بالضرورة متحجرة حسب رأيه . وعبر الطاهر الحداد عن القاعدة الاساسية في تفكيره الديني كما يلي : » الاسلام دين يرتكز على الواقعية ومتطور حسب الواقع . . . . وبذلك كانت شريعته نتيجة ما في الحياة من تطور . . وهذا سر خلوده . . . . » ض 22 ويضيف الطاهر الحداد في هذا السياق قائلا : » فكيف بنا إذا وقفنا بالاسلام الخالد أمام الأجيال والقرون المتعاقبة بعد انقطاع ونحن لا نتبدل ولا نتغير ؟ . . . . » ص 22 .

ثم يواصل الطاهر الحداد على نفس الوتيرة موضحا أكثر فأكثر الفكرة القاعدة التي أصبحت قناعته قائلا : » بعبارة أدق وأوضح أريد أن أقول : يجب ان نعتبر الفرق الكبير البين بين ما أتى به الاسلام وجاء من أجله وهو جوهره ومعناه فيبقى خالدا بخلوده كعقيدة التوحيد ومكارم الأخلاق واقامة قسطاس العدل والمساواة بين الناس . . . » ص 22 فالشريعة الاسلامية اختارت « ان تساير بقدر الضرورة استعدادات الانسان وأحواله في بروز أثارها في التربية والتشريع ثم تأخذ في الوضوح بالتدريج الى بلوغ مستواها عند نضوج الانسان وهذا عين ما سار فيه الإسلام فيما عرف عنه من اتباع الحكمة التدريجية في تشريع احكامه . . . » ص 24 . ونحو عشرين سنة من حياة النبي قضاها في تأسيس الاسلام أوجبت نسخ نصوص بنصوص واحكام باحكام اعتبارا لهذه السنة الأزلية . . . . . . » ص 22 .

الاسلام عقيدة ودستور حياة ، فالتشريع الخاص بهذا الدستور كان حسب رأي الطاهر الحداد نتيجة تطور الحياة نفسها ، ويحاول الطاهر الحداد تفسير الطبيعة المتطورة للتشريع القرآني بامتداد فترة نزول الآيات القرآنية » ومن ذلك كانت آياته تنتظر الحوادث لتنزل عليها . . . » ص 22

هناك سؤال أساسي يقض مضجع هذا المفكر المصلح وهو « كيف بنا اذا وقفنا بالاسلام الخالد أمام الأجيال والقرون المتعاقبة بعد بلا انقطاع ونحن لا نتبدل ولا نتغير . . . » ص 22 . ان مشكلة المرأة هي أساسا مشكلة اخلاقية تمس دستور الحياة إذ ينبغي ان تخضع حسب رأيه ـ للطبيعة المتغيرة للتشريع . فالاسلام حسب قوله اخرج المرأة » من الجاهلية المظلمة الى نور الحق والحرية . . . قاوم الاسلام احتقار العرب للبنات وكراهيتهن . . . اما وأد البنات تلك العادة الشنيعة الرائجة أيام الجاهلية فقد وأدها الاسلام في أول ما شرع ، فرفع بذلك عن البنات ظلامة كبرى ص ص 24 ـ 25 .

ولنذكر الآن بعجالة بالأفكار الأساسية الهامة في مشروع الطاهر الحداد الاصلاحي التي حواها القسم التشريعي في كتابه الذي صدر سنة 1930 . وللمقارنة سوف أسرد بعض النصوص القانونية المشابهة التي جاء بها قانون مجلة الأحوال الشخصية الذي صدر في 13 أوت 1956 والذي طبق في تونس منذ أول جانفي 1957 .

وضعية المرأة الأخلاقية :

ان وضعية المرأة الاخلاقية التي عانت الأعمال والحرمان في عصور الجاهلية قد رفع الاسلام من شأنها كثيرا إذ سوى بينها وبين الرجل فيقول الطاهر الحداد . « كان الاسلام يولي الرجل والمرأة نفس الاعتبار فيفرض عليهما واجباته ويجعل مسؤوليتها في ذلك سواء . . . . » ص 25 إذ هناك العديد من أحاديث الرسول التي تحرض على حسن معاملة المرأة ، ويمكن ان نضيف مثالا آخر يبين الأهمية التي يوليها الدين الاسلامي الى المرأة اذ جعل لها في القرآن سورة من طواله وسماها (النساء) . . . . . ص 26 .

ويضيف الطاهر الحداد(1) يبدو ان الاسلام قد كرس مبدا المساواة بين الجنسين ولو كـان ظاهـريا يبـدو في بعض الممارسات مثل نظام الارث (للذكر مثل حظ الانثيين) حيث يبدو ان الرجل اعلى مرتبة من المرأة ولكن ذلك حتمته أسباب اقتصادية لأن الرجل يبقى بصفة عامة السند الأساسي للعائلة .

الحقوق المدنية للمرأة :

أما بخصوص الحقوق المدنية للمرأة ، فيبدو ان نية المشرع الاسلامي - رغبة في العدالة - كانت متجهة الى اعتبار المرأة مساوية للرجل أو السير بها في هذا الاتجاه القائل بالمساواة . ويذكر الطاهر الحداد كاملة حق المرأة في الملكية وممارسة هذا الحق الممنوح للمرأة التي يمكن ان تسند اليها مهمة الوصاية على القاصرين . لقد منحها الاسلام أيضا حق الشهادة وامكانية البلوغ الى تولي مناصب قضائية .

انه من الفظاعة بمكان - حسب رأيه - ان يراد إبقاء المرأة في وضعها الحالي محبوسة ، ولكن قبل تحرير المرأة ينبغي تربيتها . وسنتكلم بعد حين عن مشروع الطاهر الحداد التربوي ، الذي وضعه سنة 1930 .

فإن تجهيل المرأة خطر كبير لأنه يخلق لنا امرأة بضاعة ، عاجزة عن تحمل مسؤولياتها كما ينبغي والقيـام بدورهـا الاجتماعي والتربوي .

ولكي أبين مدى معاصرة أفكار الطاهر الحداد يكفيني ان أشير الى أن الفصل الرابع والعشرين من مجلة الأحوال الشخصية الصادرة في 13 أوت 1956 ورد فيه ما يلي « لا ولاية للزوج على أموال زوجته . . . الا في صورة ما اذا هنالك موافقة من الزوجة بموجب توكيل منها . » استوحى المشرع التونسي هذا الفصل من قانون الأحوال الشخصية من المذهبين السنيين الحنفي والشافعي اللذين يعطيان للمرأة حقها كاملا في التصرف في املاكها بدون مراقبة الزوج . أما رأي المذهبيين السنيين الآخرين المالكي والحنبلي بخصوص حق الملكية وممارسته من طرف المرأة فقد وقع استبعادها في الفصل الرابع والعشرين من مجلة الأحوال الشخصية التي حافظت على صبغة تشريعية اسلامية في جل فصولها ولكن دائما مع هاجس مرونة وانفتاح على الحياة العصرية . وحاليا وبعد تسع وعشرين سنة من الاستقلال حققت المرأة التونسية منذ 13 أوت 1956 حريتها كاملة فأصبحت تمارس كل اصناف العمل إذ نجدها في كل مكان : في الجامعة وفي المصالح الادارية وفي المعامل وفي المستشفيات وفي الجيش وفي الشرطة . هناك نساء وزيرات وأخريات نائبات في مجلس الشعب . وبلغت نسبة البنات اللواتي دخلن المدارس في تونس في شتى مراحل التعليم الخمسين بالمائة من عدد جملي للتلاميذ يبلغ مليونا وسبعمائة ألف يعني ربع السكان تقريبا .

نظـــام الارث :

أما بخصوص نظام الارث فيلاحظ الطاهر الحداد ان الاسلام قد حسن من وضعية المرأة بصفة ملحوظة ، فالمرأة الجاهلية لم تكن محرومة من الأرث بل كانت هي نفسها جزءا من الموروث كبضاعة فليس هناك ما يمنع - حسب اعتقاد الطاهر الحداد من تحوير نظام الارث الاسلامي باتجاه المساواة بين الرجل والمرأة . وقانون مجلة الأحوال الشخصية لم يذهب الى أبعد مما ذهب اليه مشروع الحداد الاصلاحي بخصوص الارث ، فحسب التشريع التونسي ظلت حصة البنت الوارثة بدون تغيير كما ورد في القرآن أي أنها ترث نصف ميراث الابن .

أي مفهوم للزواج ؟

يرتكز الزواج في الاسلام على العاطفة المتبادلة بين الزوجين ، والوعي التام بمسؤوليتها والاتصال الجنسي والرغبة في التناسل .

يعد الحب المتبادل بين الزوجين دعامة أساسية من دعائم الزواج في الاسلام . فاختيار الزوج أو الزوجة ـ حسب قول الطاهر الحداد « ينبغي ان يخضع للاشتراك في الذوق والميول » ولكي يدعم رأيه في هذا المجال يذكر رأي الامام أبي حنيفة وهو عالم من علماء المسلمين الاجلاء في السنة والذي يرى ان المرأة البالغة لها الحق في اختيار زوجها بحرية .

والمؤسف له حقا هو « ان الآباء يزوجون بناتهم لمن يرغبون هم فيه ورغما عن أنوف بناتهم ما دمن قاصرات ويقوم الآباء بهذه الفعلة حتى يبيعوا بناتهم ويخدموا مصالحهم الخاصة » وبناء على ذلك وقف الطاهر الحداد ضد الزواج المبكر قبل سن البلوغ ، فلنستمع اليه : « وكم من الآباء من جعلوا زواج بناتهم قربانا للوجاهة والوظائف واستدرار المال أو حتى الغلط الساذج واتباع العادات كتزويجها من ابن عمها أو من شيخ زاوية مهما بعد استعدادهما عن التناسب ..... فأي شيء هذه الابنية التي نقيمها على شفا جرف هاو ... ص 55 .

الزواج المبكر والزواج المكره

كان الزواج المبكر شيئا عاديا في الثلاثينيات وحتى فجر الاستقلال في تونس كما كان الزواج المكره .

يقارن الطاهر الحداد في مقطع جميل من كتابه « إمرأتنا في الشريعة والمجتمع » بين عش الزوجية المثالي أين يمكن للمرأة ان تتحمل مسؤوليتها كاملة مثل زوجها تماما وبين عش زوجية تقليدي مقام على الزوج المكره يؤدي في غالب الأحيان الى عدم التفاهم أو تمرد الزوجة ، فتكون النتيجة ان تتعرض هذه المرأة للعقوبة في اصلاحية تسمى « دار العدل » وتسمى أيضا « دار جواد » ، ولا يمكن أن تجد المرأة في هذه الوضعية أي مخرج لحياة أفضل فهي تغادر التسلط الأبوي لتجد نفسها في بيت « سيدها ومولاها » الذي تحصل عليها بعد ان دفع مهرا ، ولا تستطيع ان تفعل شيئا ضده ما دام يوفر لها السكن والمأكل واللباس .

وكثيرا ما تبدي المرأة المغلوبة على نفسها ظاهريا نوعا من الاستكانة ولكنها تخفي في اعماقها شعورا بالتمرد يتمثل في المقاومة السلبية مثل اهمال واجباتها البيتية ومعارضة مستمرة لكل رغبات زوجها . ولتأديب هذا التصرف من جانب الزوجة ارتأى اهل الاختصاص تكوين مؤسسة تعنى بمعاقبتها وهي عبارة عن اصلاحية حيث توضع المتمردة مع زوجين طاعنين في السن ومعروفين بعفتهما وشرفهما حسب طلب من العدالة بطبيعة الحال .

تتحمل المرأة التعيسة مع رفيقاتها المنكوبات في هذه الاصلاحية كل أنواع الكيد ، لقد حكم عليها بقضاء الليالي الطويلة وحيدة مع قلقها ولا يمكن ان تحصل على زيارة أبويها الا بعد العديد من المحاولات . وكل هذا التعذيب ـ في اعتقادهم ـ يحث المرأة على مراجعة موقفها حتى تقبل في النهاية وضعية حياتية كانت قد رفضتها من قبل .

وتعود الخلافات للبروز من جديد في أحيان كثيرة بعد رجوع المرأة الى زوجها ويعود معها مشهد الاصلاحية والعقوبة . فما معنى هذه الحياة الزوجية وما هو طعم هذه الروابط العائلية ؟ يعتقد الأباء ـ إنهم بالاكراه يفعلون ذلك بحثا عن سعادة ابنتهما وعن طريق اجبار الزوجة يعتقد زوجها المحافظة على الروابط الزوجية .

يمكن للأزواج حبس زوجاتهم بدعم من المحكمة اعتقادا منهم بأن هذا العمل يسمح لهم باجبار زوجاتهم على الخضوع عوض ان يسعوا الى المصالحة عن طريق الاقناع ،كذلك يستطيع الزوج التصريح بالطلاق بطريقة اعتباطية وبدون اعلام المعنية بالأمر . ان هذا التصرف الظالم كان يعتبر فعلا شرعيا حتى وان حدث بعد عشرين سنة من الزواج استنفذت المرأة خلالها كل قواها الجسدية وافنت شبابها ومهما كان عمر وعدد أولادها .

ولكن أين نحن من اختيار المرأة لزوجها حسب مجلة الأحوال الشخصية ؟

اختيار الأزواج واجب في التشريع التونسي . ويحدد الفصل الخامس والعشرون من هذا القانون سن الزواج بعشرين سنة كاملة بالنسبة الى الرجل وسبعة عشر سنة تامة بالنسبة الى المرأة حتى يستطيعا إبرام عقد زواج . وتحت هذه السن لا يمكن أن يتم الزواج الا بترخيص خاص من المحكمة التي لا يمكن لها ان تعطيه لأسباب هامة وفي صالح الزوجين .

تعـدد الزوجـات :

يعتقد الطاهر الحداد ان تعدد الزوجات لا يمكن أن يكون مؤسسة ذات أصول نصية في الشريعة الاسلامية إذ ورث العرب هذه العادة من المجتمع الجاهلي ، وتصدى الدين الجديد لهذه المشكلة محددا عدد الزوجات بأربعة ولكن عندما اشترط العدل في المعاملة بين هؤلاء الأربعة حذر من مغبة عدم الالتزام بهذا الشرط الذي يستحيل تطبيقه مع الزوجات الأربعة .

جاء في الآية عشرون من سورة الروم : « وجعل بينكم مودة ورحمة » وفسر الطاهر الحداد هذه الآية مؤكدا ان المودة الزوجية غير قابلة للتقسيم (بين الزوجات الأربعة) ويضيف ان التجربة قد بينت لنا ان تعدد الزوجات يسبب تعاسة كبيرة في الانقسامات العائلية بحكم تعدد الزوجات والأمهات .

وفي آية ثانية (الآية الثالثة من سورة النساء) جاء ما يلي : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ...... » ويضيف القرآن الكريم بعد قليل في نفس السورة « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وهذه الآية الأخيرة بالذات جعلت تعدد الزوجات مستحيلا .

اعتمد الفصل 18 من مجلة الأحوال الشخصية التونسية على هذه الآية المذكورة فهو يعاقب كل مخالف لهذا المحظور بالسجن والتغريم . وليس هو الحال في بقية البلاد من العالم الإسلامي حاليا .

الطــلاق :

أحل الاسلام الطلاق ولكنه أبغض الحلال حسب حديث نبوي شريف « ابغض الحلال الى الله الطلاق » فلا يقبل الطلاق الا إذا استحال التفاهم بين الزوجين وفشلت كل المساعي لاصلاح ذات البين .

عالج الطاهر الحداد مشكلة الطلاق بدقة وصرامة وندد بالطلاق ثلاثا عندما يكون الزوج في ثورة غضبية إذ يقسم هذا الأخير ان زوجته مطلقة ثلاثا وبعده يندم ويحاول ارجاع زوجته المطلقة بالثلاث فيلتجيء الى وساطة رجل متسامح (زوج مزيف / واسطة) وهي مهزلة مشينة حسبما يرى الطاهر الحداد ، وينتقد كذلك الاستعمال المفرط من طرف الرجل لحق الطلاق أمام العدول .

ولمقاومة هذه الآفة الاجتماعية اقترح الطاهر الحداد سنة 1930 انشاء محاكم مختصة في قضايا الطلاق ، فايجاد مؤسسة قضائية من هذا النوع لا يتناقض مع الشريعة الاسلامية في شيء ويمكن ان تحافظ على مصالح الزوجين وذرّيتهما . « يظهر بالاستقراء ان لا علاج لدرء هذه الحالة الا بوضع مبدأ تحكيم القضاء في كل ما يقع من حوادث الطلاق والزواج حتى لا يتم منها الا المواقف لغرض الشريعة ونصوصها ... » ص 74 .

التعويض المالي في حالة الطلاق :

يستغرب الطاهر الحداد عندما يتطرق الى الحديث عن تجاهل تعويض الضرر الحاصل للمرأة المطلقة بالرغم من ان مبدأ التعويض « معترف به في الفقه الاسلامي وعمل القضاء فيه » ص 80 عندما يسبب انسان ضررا لغيره . أما التشريع التونسي في الثلاثينيات وحتى اصدار مجلة الأحوال الشخصية يوم 13 أوت 1956 - فانه لا يمنح المرأة المطلقة أي تعويض مادي (غرامة) ولكي يدعم المؤلف مقولته فانه يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية التي توجب تعويض المرأة ويدعو الى الالتزام الدقيق بما جاء في القرآن والسنة ص ص 80 - 81 - 82 .

وأفكار الطاهر الحداد هذه التي قاومها منذ نصف قرن المحافظون والرجعيون واتهموه بالهرطقة نراها الآن مطبقة تماشيا مع قانون مجلة الأحوال الشخصية الآنفة الذكر .

وفعلا ومطابقة للشريعة الاسلامية ولمنع الناس من ارتكاب الاثام ، حرم الفصل التاسع عشر من مجلة الأحوال الشخصية زواج الرجل من امرأة طلقها ثلاث مرات والفصل الثلاثون من نفس القانون يوضح جيدا ان الطلاق لا يمكن ان يقع الا لدى المحكمة وأضيف أيضا في الفصل الواحد والثلاثين من نفس القانون في صورة ما إذا طلب أحد الزوجين الطلاق فان الحاكم ينظر فيما تتمتع به الزوجة من الغرامات المالية لتعويض الضرر الحاصل أو ما قد تدفعه للزوج من التعويضات .

الفحص الطبي ما قبل الزواج :

طرح المؤلف سنة 1930 قضية الزواج الذي يعقده رجل مصاب بمرض غير معروف ، أو معد يمكن انتقاله عن طريق الوراثة وحذر من خطورته على المجتمع ولهذا الغرض دافع بحماس عن وجوب الفحص الطبي ما قبل الزواج إذ المهم بالنسبة اليه : « ليست الفائدة في الكثرة فنسل أوفر صحة وعافية وأخلاقا أولى وأحسن من كثرة عليلة . ولقد شعر علماء العمران ورجال التشريع بهذا الخطر الساري بين الأزواج والمنتقل في الأبناء ثم يكون ارث الأجيال القادمة فقاموا يضعون البيانات الضافية عن لزوم الكشف الطبي قبل الزواج . . . » ص 149 .

ويعد هذا الكشف الطبي ما قبل الزواج واجبا على كل مؤهل للزواج في تونس حسب مجلة الأحوال الشخصية .

إن هذه الاحتياطات المشددة التي اتخذت في سبيل اسعاد العائلة والتي يستحسنها الناس الآن بدون أي تردد صدمت سنة 1930 حساسيات شعب يعيش تحت وطأة التقاليد البالية . نتجت عن شجاعة الطاهر الحداد ومواقفه التقدمية ـ وخاصة في القسم التشريعي من الكتاب ـ نقمة ثلة من رجال الدين الذين شنوا عليه حملة صحفية محكمة التنظيم بهدف عزل هذا المصلح الكبير عن المجتمع الذي أراد تغييره والدفاع عنه واتهموه بالهرطقة والالحاد .

القسم الاجتماعي من الكتاب :

ان القسم الثاني من مؤلف الطاهر الحداد « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » يكتسي صبغة اجتماعية ذات أهمية خاصة لدراسة الوسط الاجتماعي التونسي في الثلاثينات إذ صور داخل المجتمع التونسي فكانت لوحات بارعة مكتوبة بلغة جميلة وأسلوب سلس مما أعطى للكتاب أهمية أدبية .

رسام بارع للمجتمع يدخلنا الطاهر الحداد مثلا الى بيت تزوج ربه عدة نساء ، ويصف لنا الجو المتوتر الذي يخيم على الضرات ، أخوات واخوان من الأب (انصاف اخوة حسب التعبير الفرنسي) يعيشون تحت نفس السقف يختصمون طوال النهار ، يفسد هذا الجو المسموم تربية الأولاد وينعكس هذا الوضع على التوازن العائلي الذي هو قاعدة التعاون الاجتماعي بشكل عام ص ص 158 ـ 159 .

لقد خصص الطاهر الحداد عدة فصول رائعة من مؤلفه لتربية البنات زوجات وأمهات المستقبل وهي شهادة حية وأصيلة عن التربية التقليدية التي يتلقاها البنات كهذه اللوحة التي يصف فيها التعليم المهني الذي يعطى الى البنات من طرف معلمة في بيتها (دار عارفة) في ذلك العصر فلنستمع اليه : « في مدن المملكة معلمات في منازلهن يؤتى اليهن بالصغيرات يتمرن فيها تفعل الابرة من خياطة وتطريز وتشبيك فيتدرجن في هذا العمل حتى يتهيأن لسن الزواج فيعدن الى بيوتهن عند الأمهات يتدربن على ترتيب شؤون المنزل وبذلك يكمل تخريجهن في العمل ليكن أزواجا في العاصمة عشرات من هؤلاء المعلمات منبثات في جهاتها فرادي كل في منزلها يقمن بعملهن مقابل عوائد تؤخذ من أهل الصغيرات الى سن الزواج في مراسم معروفة وليست بالشيء الكثير .

بيد أنه لا يلهيها العمل عن القيام بشؤون منزلها ان لم يكن لها من الصغيرات اكبر عون لقضائها ثم انهن يأخذن العمل عن بعضهن وهي رقيبة على الجميع ومرشدة عند اللزوم .

وتجني الفتاة من ذلك انها تهيء بنفسها جهاز منزلها وثياب عرسها . أما إذا كانت فقيرة يحتاجها اهلها وتحتاج هي لتسديد حاجاتها للزواج فانها تنقب عينيها نظرا وتحزق أصابعها عملا بابرتها ولا تفي بما يلزم من شؤونها . وهناك نسوة أوروبيات يأخذن العمل من دور التجارة بأسعار معتدلة ويطفن على فتياتنا يوزعنه عليهن بثمن البخس والهوان وهن يقبلنه مضطرات اليه ويقدر في الأسبوع عملا بانتظام صباحا ومساء بما لا يزيد عن عشرين فرنكا بصرف اليوم وصناعة الشاشية بالعاصمة لا يزيد تحصيلهن فيها عن هذا القدر .

وتوجد صناعة أهم من ذلك وأوفر ربحا لمن يكتسب منها هي صناعة النسيج في الصوف والحرير وهذه الصناعة متوفرة في الجريد وقفصة والأعراض والقيروان وكل الجهات التي يتوفر فيها وجود الأغنام والأمهات هن اللائي يقمن بتعليم بناتهن صناعة النسيج ففي الجريد يقطعن الأغطية والزرابي والجبة من أجود نوع وارفعه ثمنا ، وفي قفصة يصنعن الفرش الناعمة الدقيقة وفي جهة الأعراض كذلك الا ان هذه اشتهرن فيها بصنع « الحوالي والمراقيم » والأكلمة وفي القيروان اشتهرن بنسيج الزرابي التي كان لها صدى في الأسواق الخارجية وما زال ينمو بقدر ما ينالها من التحسين . وفي هذه الصناعات ربح كثير لمن ملك الصوف او قدر على شرائه والحرير وكثيرا ما تكون مصاريف البيوت السنوية قائمة على هذا العمل النسوي الذي يكفي فيه القليل من رأسمال ابتداء ثم ينمو بسرعة مناسبة للسوق بينما يستند كثير من الرجال الى حيطان المنازل يقضون الوقت في لعبة الحصاة والنواة او يتلهون بالحديث الفارغ ـ وكم كان العمل معينا للفتيات على اعداد شؤون الزواج ثم هو قوة فعالة في بناء الزوجية على أساس التعاون بين الأزواج . . » ص ص 121 ـ 122 ويستطيع القارىء لهذا القسم الاجتماعي الثاني ان يكتشف مظهرا آخر لا يقل أهمية عن مشروع الحداد الاصلاحي الا وهو الجانب التربوي ، وهو مشروع متكامل مثالي مما لا شك فيه في مجتمع خاضع للهيمنة الاستعمارية ولكنه يطرح قضية تحرير المرأة التونسية تحريرا حقيقيا عن طريق التربية والتعليم المتعددة الاختصاصات ، والتعليم المرغوب في تدريسه ينبغي أن يكون تونسيا خالصا وفي مدارس تونسية تستطيع ان تستجيب لحاجيات الأمة ويقول : « حقا انني دائما انبه الى عدم الاتكال على الحكومة في تقرير مصيرنا ولكنني مع ذلك لست ممن يفضلون مقاطعة التعليم الرسمي إذا كان فيه مالا يوافقنا للرجوع ببناتنا الى حالتهن الأولى بالمنزل بل اني أقول يجب ان نعطي المثال بأنفسنا فنؤسس مدارس البنات طبق حاجتنا منها فنحمل الحكومة على اتباع ارادتنا متى برهنا أمامها على القدرة وحسن الاستعداد . أما مجرد اعلان المقاطعة التي يرتئيها البعض ونحن لم نؤسس ولو مدرسة واحدة للبنات . بل ولا تظهر اليوم لنا رغبة في هذا الشأن فذلك عار يسجله التاريخ لا على سواد الأمة المقبور في ميراثه القذر بل على كل من يحمل القلم فيها كشعار للنهضة ودعوة الأمة للحياة والفوز في بمعتركها المشتبك نحو التقدم ويكفي لبشاعة هذا العمل انه دعوة الى الجهل ورضى بالموت فما الذي نرجوه مع هذا غير الوقوع في هوة الانقراض التي وصلنا اليوم الى حرفها ص 198 .

ما هو التعليم الذي يشجع على اعطائه للبنت ؟

من القواعد الأولية العامة التي ينبغي اتباعها حسب رأي هذا المربي يمكن أن نذكر ما يلي :

(1) يجب أن يكون التعليم شائعا بين جميع أفراد المجتمع بقدر ما لهم من المواهب والاستعداد للانتفاع به . . . . لا ان يبقى نصف البشر جاهلا عاطلا غبيا يعيش تحت امرة وسيادة نصفه الآخر . . . . = ص 204 .

(2) يجب أن تتعلم المرأة العلوم الرياضية والطبيعية حتى يتثقف عقلها بالمنطق ومعرفة الأشياء على حقيقتها ، فإذا

أنارت المعرفة قلبها واهتمت نفسها بأهم الأشياء فلا تعود تنظر الى ما دون ذلك الا عرضا أو أنها تزدريه بتاتا . . . ص 205 .

ومدهش حقا ان يصدر هذا التفكير منن كاتب زيتوني تلقى تعليها تقليديا وتذكرنا أفكار هذا المصلح بأفكار رجل آخر وهو ابن خلدون في ميدان التربية والبيداغوجيا كما شرحها في مقدمته (انظر دراستي التي عنوانها » « الطبيعة العبقرية لنظرية ابن خلدون التربوية » نشرت في النشرة التربوية عدد مارس 1963

(3) والاختيار الثالث الأساسي في نظرية الطاهر الحداد التربوية المتعلقة بالمرأة وهو « يجب أن تعرف المرأة أصول دينها وقواعده ولغة قومها وتاريخ بلادها وجنسها على الوجه الذي يبث فيها الحياة ويبعثها على استعادة مجدها الغابر والتمسك به كتمسكها بحب الحياة ..... ومن ثم لتكون لأبنائها مصدر الروح القومي الحاث لهم على التزود بالفضائل والسير في خير السبيل المؤدية الى مجد الحياة لا ان تكون كما هي اليوم عثرة في طريق العمل تنفر من نفير الصافر وترضى لأهلها بالعيش في ظل الموت الغامر كما رضيت هي لنفسها بالعيش الدائم في ظل الخفاء بين الجدران المقامة عليها . . . » حولها ص 205 .

(4) ولكي تحرر المرأة من بوتقة الأغلال التي تشل حركتها من جراء جهلها واضطهادها يقترح المؤلف الموازنة في تربيتها بين عقلها وجسمها بادخال بعض التمارين الرياضية في الهواء الطلق مع البرامج الأخرى . حيث يقول « يجب ان تتعلم المرأة الرياضة البدنية درسا وعملا وتسير في ذلك ما استطاعت فأنا إذا كنا نهتم بنمو عقلها وكمال نفسها فبمثل ذلك يجب ان نهتم بخصوبة بدنها ففي الرياضة نشاط وقوة للجسم يعينان على النشاط الفكري وفي الرياضة مقاومة السمن المعطل للنشاط والمسرع الى الهرم . وما أحوج المرأة الى مزيد في قوة بدنها وخصوبته وهي المتعرضة وحدها لأخطار الحمل والنفاس إضافة إلى ما تؤدي من عملها النوعي والاجتماعي ولسنا في حاجة أن ننوه بفوائد الرياضة فقد أصبحت فنا قائما بنفسه متصلا بعلم الصحة ويكفي الرياضة انها حركة والحركة هي الحياة وكم يكون فضل المرأة التي تروض أطفالها من يوم بروزهم الى يوم تحتضنهم المدارس والجمعيات الرياضية .... ص ص 205 ـ 206
لقد كانت أفكاره ثورية حقا وسط مجتمع متخلف ومحافظ حيث كانت المرأة محجوبة عن أعين الناس .

صدح الطاهر الحداد خريج كلية الشريعة (جامع الزيتونة) بأراء يسمح فيها للبنت التونسية بمزاولة التمارين الرياضية في الهواء الطلق وكان لها صدى أزعج الوسط التونسي المحافظ في الثلاثينيات ، عندما كانت النساء السافرات المتحررات يمكن عدهن على أصابع اليد الواحدة (أنظر في هذا الموضوع الفصل الرابع من كتابنا عن الطاهر الحداد ووسطه الاجتماعي) . إلا أن التسلية والعمل المنتج والهزل والجد ليست من المتناقضات في الحضارة العربية الاسلامية وكان الطاهر الحداد على حق عندما استوحى اراءه وأفكاره من الأخلاق الاسلامية في عصور ازدهار هذه الحضارة داعيا الى تجانس الجسد والروح حيث قال الرسول « العقل السليم في الجسم السليم »

في مناداته بتربية البنت التونسية :

ولا غرابة في أن يلتقي رجل مشبع بالروح الأولمبية وذو ثقافة عالية الا وهو الأستاذ محمد مزالي مدير ومؤسس المجلة الثقافية « الفكر » التي أنهت في أكتوبر السنة الثلاثين لوجودها والوزير الأول الحالي ، مع الطاهر الحداد في آرائه حيث يقول « رغم المختلفة في أسسها وتطورها (من الحضارة الهيلينة ـ مهد ومصهر الفكرة الأولمبية) لم تكن الحضارة العربية الاسلامية أقل قبولا للرياضة واللعب كأسس للثقافة والتربية » ويلاحظ أيضا في فصل مخصص للأولمبية والثقافة في كتابه الذي عنوانه « الأولمبية اليوم » ومنشور باللغة الفرنسية ضمن منشورات جون أفريك Jeune Afrique في سنة 1984 ما يلي « تعتمد الأخلاق القرآنية على احترام الجسد داعية كل مؤمن للاعتناء ببدنه كاعتنائه بعقله . . . »

ويواصل الأستاذ محمد مزالي مؤكدا رأيه بأمثلة مشوقة من الرياضات المنتشرة في المدن القديمة من الشرق الاسلامي كالمصارعة وسباقات المترجلين ، سباق الخيل والسباحة ، أو الملاحة الشراعية أو المصارعة على ظهور الخيل .

أنظر محمد مزالي :

Mohamed Mzali : L'olympisme Aujourd'hui

Editions Jeune Afrique 1984 - PP - 53 - 54

والمدهش حقا عند الطاهر الحداد هو انفتاح فكره الذي يبدو متنافيا مع تكوينه التقليدي ، ولكن هذا الفكر الرائد والثاقب قد تحصل على ثقافة مزدوجة أو متنوعة المصادر مما سمح له بهذا التفتح على العالم المعاصر ، لا عن طريق معلومات بلغات أجنبية لا يعرفها ولكن عن طريق علاقاته واتصالاته الودية مع بعض المثقفين التونسيين الشبان الذين تكونوا في المدارس الغربية أمثال محمد علي الحامي ، رائد الحركة التعاونية والنقابية في تونس في العشرينات .

وبذلك استطاع الطاهر الحداد ان يرفع التحدي أمام المع المجادلين والكتاب والصحافين من الجالية الفرنسية في عصره مثل جواشيم دورال الكاتب العام لنقابة C.G.T (اتحاد عموم عملة فرنسا) . (انظر كتابي المخصص للطاهر الحداد ، الطبعة الثانية الدار التونسية للنشر ص ص 194 ـ 195)

(5) هناك اختيار آخر توقعه الطاهر الحداد مجديا في نظام التعليم المخصص للبنات وهو ان يضمن لهؤلاء البنات حق التكوين الصحي وتمريض الأطفال إذ أن هذا التعليم يعتبر ذا أهمية أولى لتهيئة البنت في المستقبل لتلعب دورها كزوجة وأم بنجاح والى هذا التعليم ينبغي ان يضاف حسب تعبيره الحرفي « يجب أن تتعلم المرأة فن التربية الى أقصى حد يمكنها ، إذ هي أول من يقوم بها للأطفال في وقت هم فيه أوفر مرونة وأكثر قابلية لانطباع ما يتلقونه من خير أو شر . فإذا توفرت لها هذه المعرفة كانت أعرف بأولى الطرق في تلقينهم الفضائل وحسن السلوك مع التحري فيما يصدر منها حتى لا يكون مناقضا لتعاليمها وبذلك تبعث للمدرسة والمجتمع انقى الأبناء عقلا وروحا . . . » ص . 206 .

(6) ينبغي الا يهمل التعليم المخصص للبنت آثارا فنية ذات مستوى أدبي واخلاقي واجتماعي رفيع لتلافي بذلك وتسد ثغرة في ثقافتها الانسانية العامة ، ولكن بعض المطالعات غير المراقبة والمسيئة الى النشء يجب تجنبها من طرف الناشئة من فتيان وفتيات لأن هذه المؤلفات لم تكتب لهم « خاصة بعض الروايات الغرامية التي تلهب العاطفة الى حد الجنون وتشوه مفهوم الحب فهي خطر واضح اليه يرجع أغلب حوادث الجنايات الغرامية في القتل والانتحار علاوة على ما يعطل من قوة الانسان ومواهبه في الحياة التي يصبح فيها عاجزا خاملا كالميت . . . . . غير ان تمكين الناشئة وهي لم تتزود من معرفة الحياة وشؤونها من قراءة عواطف وأفكار قوية لم تصل بعد لتدرك كنهها قد أدى فعلا الى نتائج محققة الخيبة والخسران في الحياة . . » ص 207

يرى الطاهر الحداد مظهرا آخر لتعليم البنت وتكوينها الا وهو الثقافة المنزلية ولذلك نراه ينصحها قائلا : يجب أن تتعلم المرأة تدبير المنزل فتجيد ترتيبه وتؤدي عملها اليومي وتصلح ما يقبل الاصلاح من أثاثه في دائرة عملها . . . . ان تدبير المنزل ليس عملا سهلا يكفي فيه حبس البنت مع أمها داخل البيت لتنقل عنها عملها الموروث من أمها البائدة . . . يجب ان نفهم مليا ان المنزل وظيفة وسكن لا سجن للمرأة . . . . » ص 207 .

وأخيرا يرى الطاهر الحداد ان برنامج تعليم البنت ينبغي أن يحتوي على تعليم مهني إذ أن ذلك يكتسي أهمية خاصة في تكوين الفتاة الناشئة ، فيقول « يجب ان نتعلم المرأة الحرف والصناعات للكسب منها حتى تكون بذلك عونا لزوجها في تنمية ثروة المنزل المشترك خصوصا عند الأولاد واتساع الحاجة الى النفقة . . . . . » ص 208 .

يعد مشروع الطاهر الحداد مشروع مستقبل بالفعل ، إذ تبلور انجازه في تونس بعد ربع قرن من الزمن ولا يستطيع أحد ان يتوقعه سوى عقل كبير واضح الرؤية مسكون بهاجس الاصلاح : ، عقل الطاهر الحداد ورغبة جيل من المثقفين الشباب ورجال العمل السياسي بقيادة رشيدة لصانع الكفاح من أجل الاستقلال ، المجاهد الأكبر الرئيس

الحبيب بورقيبة ، الذي التزم بدون تردد بالقضية الوطنية عاقدا العزم على تحرير الشعب التونسي من الهيمنة الاستعمارية والخروج به من بوتقة التخلف عبر قرون الاحتلال والانحطاط .

في ظروف الانحطاط والخنوع التي عششت بالوسط التونسي في بداية القرن لا يستغرب من الأهمية التي أولاها الطاهر الحداد - الذي كان يناضل ضد هذه الحالة من التكلس والتحجر التي كان ينغمس فيها مجتمعه - الى مشكلة تحرير المرأة الركن الأساسي في الخلية الاجتماعية القاعدية . بعد ان استعرض مساوىء الحجاب دعا مواطنيه الى الغائه ليس لغاية فسق وفجور المرأة وانما لإتاحة الفرصة لها كي تتأقلم مع مجتمع متحرك نشيط وتلعب دورها كاملا .

كان موقف الحداد صريحا ومستقبليا فقد صدم المحافظين من جهة وكان مثاليا من جهة أخرى بل خطيرا حسب وجهة نظر بعض الوطنيين أمثال الحبيب بورقيبة محرر المرأة التونسية في فجر الاستقلال سنة 1956 .

ومن المفارقات ان يقف الزعيم الحبيب بورقيبة ضد السفور ونزع الحجاب في عهد الطاهر الحداد ولكنه يعطي تفسيرا سياسيا لموقفه هذا في مقال مشهور حرر باللغة الفرنسية وعنوانه « الحجاب » نشر في جريدة الرائد التونسي يوم 11 نوفمبر 1929 .

كان في الواقع ارتداء المرأة للحجاب والتشبث بتقاليد أخرى مهما كانت قيمتها كلباس الشاشية تعتبر في نظره وسيلة للدفاع على الشخصية التونسية المهددة بالذوبان والاحتواء من قبل الاستعمار الاستيطاني وبالتالي لا يمكن أن تطرح مشكلة تحرير المرأة والسفور (نزع الحجاب) حسب اعتقاد الحبيب بورقيبة سنة 1929 - الا بعد تحرير الأمة التونسية من نير الاستعمار .

لم تعد الشخصية التونسية مهددة في خصوصيتها ابان فجر الاستقلال فكان الرئيس بورقيبة نفسه الذي قرر اعادة الكرامة الى المرأة التونسية عندما أصدر كأول عمل لتونس المستقلة - قانون مجلة الأحوال الشخصية في 13 أوت 1956 .

لقد سقط الحجاب اليوم وها هي المرأة التونسية بجانب الرجل في كل مجالات الحياة العامة . ولكن بعض الأصوات ترتفع من حين لآخر مشككة الرأي العام التونسي في هذا الانجاز التاريخي حقيقة الا وهو اصدار قانون مجلة الأحوال الشخصية ذلك الانجاز الاجتماعي الثوري . ولا تنتظر هذه الأصوات الا الادانة الحارة كما فعل أعضاء مجلس النواب المجتمعين في جلسة عادية يوم الثلاثاء 9 جويلية 1985 لتنقيح الميثاق الموافق عليه من طرفه الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 18 ديسمبر 1979 والداعي الى المساواة في الحقوق بين الجنسين (انظر جريدتي La Press et L'Action يوم 11 جويلية 1985 مقالات وافتتاحيات)

وجاء في افتتاحية La Presse ليوم 11 جويلية 1985 ما يلي : لقد كانت المناقشات التي دارت في مجلس النواب حول وضعية المرأة ومكانتها في المجتمع دالة على التزام ممثلي الشعب بالانجازات الاجتماعية الثورية للنظام البورقيبي واضحا فقد عبر النواب بقوة وقناعة عن رأي الأغلبية الساحقة من المجتمع التونسي الفخور بما تحقق بفضل عزيمة بورقيبة ورغبته في انصاف المرأة بالسماح لها بمشاركة الرجل جنبا الى جنب في تطوير بلادها وفي هذا الوقت وفي العالم كله حيث ان حقوق المرأة تعد من مواضيع الساعة حان الوقت لتدعيم الانجاز الذي تحقق منذ فجر الاستقلال والذي أمن للمرأة المساواة مع الرجل والذي أعاد للمرأة كرامتها ومكانها الحقيقي في المجتمع . . . . »

وفي افتتاحية جريدة L'Action ليوم 11 جويلية 1985 تحت عنوان « مجلة الأحوال الشخصية الانجاز الذي لا يمكن التراجع فيه » كتب الناصر بن الشيخ ما يلي « نحن نعرف أن الإسلام يعتبره كافة المسلمين الحقيقيين الدين الأمثل لأنه بالخصوص يعلق أهمية خاصة على العقل المبدع للعلوم والتقدم ولهذا كما أكد المجاهد الأكبر في العديد من خطاباته ان الغاء دور العقل والاجتهاد في القضايا الدينية يعود بالضرر على نبل وقداسة الدين نفسه .

وفي هذا الاتجاه اعتبر بعضهم ان مجلة الأحوال الشخصية لا تنتمي الى النصوص القانونية التي يمكن تصنيفها ضمن اطار القوانين الايجابية المستمدة من الشريعة القرآنية بل بالعكس كانت هذه النصوص التي صاغها بورقيبة - تونسية أصيلة وتمثل في الحقيقة الترجمة المعاصرة والمستقبلية لروح الشريعة القرآنية نفسها . . . » انتهى القول .

ومما لا شك فيه ان بعض المنتقدين وهم قلة ـ وبعض المحافظين الذين يحنون الى الماضي يمكن لهم أن يسجلوا بعض المبالغات سواء في سيرة شبابنا وابتعاده عن الأخلاق الحميدة ولكن الرد سهل لأن كل تطور اجتماعي لا يخلو من مشاكل وانه من غير المجدي ايقاف حركة التاريخ . وعند اصدار مجلة الأحوال الشخصية في 13 أوت 1956 رغب التشريع التونسي بكل تأكيد منذ البداية في تفادي الغموض الذي كان يلف القضاء والتشريع في بلدنا فوقع دمج المذهبين التشريعيين اللذين ينتميان الى الاسلام السني ـ المذهب المالكي والمذهب الحنفي .

ومع الرغبة في التوحيد والتجديد هناك أيضا رغبة تطبيق العدالة الاجتماعية بين الناس دون التمييز بين الجنسين والمحافظة على المصلحة العامة للأمة باصدار تشريع حديث بدون انقطاع وانفصال عن التراث الاسلامي الذي يمتد ألف وأربعمائة سنة .

● **المصادر :**

الطاهر الحداد ـ امرأتنا في الشريعة والمجتمع ـ الدار التونسية للنشر تونس 1972 ـ الطبعة الثانية 219 ص .

الطاهر الحداد العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية ـ الدار التونسية للنشر تونس 1966 ـ 217 ص .

مجلة الأحوال الشخصية الشركة التونسية لفنون الرسم ط 62 ـ 1970

عمر البري المدني « سيف الحق على من لا يعرف الحق » ـ تونس 1931 .

محمد صالح بن مراد « الحِداد على امرأة الحداد » ـ تونس 1932

أحمد خالد شخصيات وتيارات الدار العربية للكتاب 1982

(دراسة حول الطاهر الحداد في الصفْحات 232 ـ 264 .)

أحمد خالد أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل الدار التونسية للنشر ط 3 ـ 1985 ـ 494 ص .

Jacques Berque « Le Maghreb entre deux guerres ». Editions du Seuil, Paris 1962.
Jacques Berque « Ça et là dans les débuts du réformisme religieux au Maghreb ». In Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi - Provençal, Tome II. Paris B.P. Maisonneuve et Larose, 1962, pp.487-488.
« Arabica » t VI, 1952 « Essai d'une biographie d'Abu-l-Qâsim ach-châbbi » par Ameur Ghédira.
« Cahiers de Tunisie » 4e Tr, 1959, N° 28, pp.437-474 « Le milieu Zitounien de 1920 à 1933 et le formation d'Abu-l-Qâsim ach-chabbî. Poège (1909-1934) par M'hamed Férid Ghazi.
« Division de la Documentation Générale - Tunis » Dossier Tahar El Haddad N° 2760, Carton N° 1 (A3 - 33)
I.B.L.A. (Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes), Tunis, 1962, I. « Tahar Haddad et la Civilisation du travail », par le père Michel Lelong.
I.B.L.A. 1974, I, pp.45-66. « Souci de spécificité chez un intellectuel tunisien : Tahar Haddad », par Hamadi Sammoud.
Mohamed Mzali « L'Olympisme Aujourd'hui ». Editions « Jeune Afrique », 1984, pp.53-54.
« L'Afrique et l'Asie » revue trimestrielle, politique, sociale et économique, Bulletin des anciens du C.H.E.A.M. — Année 1963, 3e trimestre. N° 63 « Textes et livres commentés, Al-Tahar Al Haddad, une victime de l'intolérance au XXe siècle », Alger, Juin 1961, par René Jammes.
« Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée » N° 4, Aix-en-Provence, 2e Semestre 1967, pp.99-132.
« Contribution à la Connaissance de Tahar El Haddad » (1899-1935) par Noureddine Sraïeb.
« Revue des Etudes Islamiques » année 1935, Cahier III « Notre femme dans la loi et dans la Société », par Motafarrij (pseudonyme de Léon Bercher, paraît-il !).

مكانة الطاهر الحدّاد بين دعاة تحرير المرأة العربيّة

أبو القاسم محمد كرو

■ تمهيـــد :

قضية تحرير المرأة العربية في العصر الحديث ، ظهرت ـ كما هو معلوم ـ مع طلائع النهضة الفكرية والاجتماعية في العالم العربي ، أي في منتصف القرن الماضي .

وكانت تونس ومصر ولبنان ، ثم العراق وسوريا . . . هي الأقطار الأولى التي تصدى فيها الكتاب ودعاة الاصلاح الى إثارة قضايا متعددة تتصل بتحرير المرأة الاجتماعي والاقتصادي أو بتعليمها أو بالحجاب والسفور وكذلك الطلاق وتعدد الزوجات .

وما تزال هذه الأقطار الخمسة تمثل البلاد الرئيسية في تقدم المرأة وتحريك قضيتها باستمرار وهناك أقطار اخرى لم تشرع في تحريك قضية المرأة وإفساح المجال لانطلاقها ومساهمتها في بناء الحياة والتطور لمجتمعها ، الا منذ استقلالها .

وهذه الأقطار هي : المغرب والجزائر والكويت والبحرين واليمن الجنوبي والصومال والأردن . أما بقية الأقطار الأخرى فانها ما تزال في بداية الطريق ، وبعضها لم يتحرك بعد . ولكن هذا ليس موضوعنا الآن ، برغم أهميته وبالغ خطورته .

واذن . . . فأنا لا أريد أن أتحدث إليكم عما تحقق للمرأة العربية من تحرر أو تقدم ، ولا عن أي من تلك الأقطار العربية أمكن للمرأة فيه ان تحقق وجودها وتمارس بالقانون أو بالفعل كامل حقوقها او بعضها .

وانما أريد أن أسجل بعض الملاحظات التاريخية والموضوعية حول قضية تحرر المرأة العربية عموما منذ انطلاقها في القرن الماضي الى اليوم .

ثم انتقل بعد ذلك ، الى تحديد مكانة الطاهر الحداد بين دعاة تحرير المرأة البارزين في العالم العربي . . . وأنهي حديثي بمقارنات مختصرة بين الحداد وقاسم أمين .

■ الملاحظات

أولا : ان دور المرأة في معركة تحريرها ، ما زال ضئيلا جدا ، فالرجل هو الذي تصدى وحده ، في معظم الأحيان ، الى خوض المعارك وتحريك القضية دفاعا عن حقوق المرأة . . . بينما بقيت هي تتفرج او مشغولة بانوثتها او مشدودة برواسب عصورها السحيقة المعتمة . . .

واذا كان هذا الموقف السلبي من المرأة تجاه قضيتها ومصيرها له ما يبرره في الماضي البعيد والقريب ، حيث كان الجهل شاملا كل النساء . . . فإنه اليوم ضرب من التقصير وعدم النضج .

ثانيا : أن المرأة العربية عامة والتونسية خاصة . . . لم تقدر ـ كما يجب ـ هؤلاء الرواد الذين عبدوا لها الطريق نحو العلم والتحرر وممارسة الحقوق ، بفضل كفاحهم المبكر وشجاعتهم الفائقة وتضحياتهم الجسيمة . . .

ثالثا : أن الأقطار العربية التي كانت أسبق من غيرها في الاتصال بحضارة أوروبا المعاصرة وبثقافتها ومجتمعها ، مثل لبنان ومصر وتونس ، قد كانت هي الرائدة في إثارة قضية المرأة ، وبالتالي في بلوغ أشواط كبيرة في تطور المرأة وتعليمها وتحررها .

رابعا : أن التعليم كان الطريق الرئيسي الذي فتح امام المرأة عالم الحرية والعمل ، وسهل عليها وعلى المجتمع ، قبول التغيير والتطور باستمرار .

خامسا : ان العامل الاقتصادي كان له . وما زال الأثر الفعّال ، والحاسم ، في تحرر المرأة وتبدل المفاهيم الاجتماعية نحوها . . . ومكنها ، وسيمكنها أكثر ، من الاستقلال والتحرر الكاملين .

سادسا : ان المرأة رغم ما قطعته ، من مراحل في عدد من الأقطار العربية ، وفي تونس بوجه خاص لم تصل بعد الى المستوى الذي كان يطمح اليه الحداد ، ونادى به في كتابه . . . كما طمح اليه ونادى به الرواد السابقون .

سابعا : ان ما نادى به الحداد في كتابه هو دون ما جاء به الاسلام وجاهد الرسول من اجل بلوغه بالمرأة .

ثامنا : انه اذا كان ما نادى به الحداد هو دون ما جاء في الاسلام ـ من الحقوق الاجتماعية والانسانية بوجه خاص ـ فان ما تضمنه التشريع التونسي بعد الاستقلال من حقوق للمرأة ، هو دون ما نادى به الحداد . . .

لقد أعلن الحداد ـ صراحة ـ في القسم التشريعي من كتابه : أن الاسلام كان يريد ان يبلغ بالمرأة درجة المساواة التامة مع الرجل ، وأنه كان ينتظر ممن جاء بعد الرسول أن يتمم المسيرة فيحقق المساواة المرسومة . . . غير أن ما حدث ، في الواقع التاريخي ، كان عكس ذلك تماما ، إذ تعطلت المسيرة ثم جمدت الحقوق في التطبيق ثم ضاع أكثرها وسط عدد من الحيل الفقهية والعائلية والاجتماعية وحلت عوضا عنها مجموعة غريبة من العادات المفرطة في احتقار المرأة وأمتهانها . ولم يكن دور انصار تحرير المرأة سوى الدعوة الى انقاذ شخصيتها وانسانيتها من هذا الامتهان . . . وفي ذلك انقاذ للمجتمع العربي الاسلامي بكامله . . . اذ المرأة فيه لا تمثل نصف المجتمع ـ أي مجتمع ـ نوعا وعددا فقط ، بل هي التي تلد النصف الآخر وتربيه وتطبعه بطابع شخصيتها . . . فهي الأم والأخت والزوجة والبنت ، وكما تكون هي نكون نحن . . .

■ دعاة التحرر ومكانة الحداد

إذا حاولنا استعراض الذين عالجوا قضية المرأة ، ودعوا الى ضرورة تعليمها والنهوض بمستواها ، أو تحريرها من تقاليد الماضي ورواسبه ، فإننا سنجد عشرات الاسماء في القرن الماضي . . . وبالطبع مئات الأسماء في القرن الحاضر .

ولكن اذا حصرنا اهتمامنا فقط بمن ألف كتابا أو أكثر عن المرأة . . . دفاعا عنها او تشبثا بوضعها الموروث او للهجوم على انصارها والمدافعين عنها . . . فاننا نجد ، حسبما اعلم ، أن أول كتاب كتب عن قضيتها في العصر الحديث ، قد وضعه الكاتب والشاعر والصحفي الشهير ، في عصره المرحوم حمزة فتح الله ، المنحدر من اب تونسي والمولود في الاسكندرية سنة 1849 والمتوفي بمدينة القاهرة عام 1918 .

وحمزة فتح الله ، كان احد محرري جريدة الرائد التونسي مدة ثماني سنوات قبيل انتصاب الحماية على تونس هذا الرجل وضع اول دراسة مستقلة في العصر الحديث عن حقوق المرأة في الاسلام تحت عنوان : « باكورة الكلام عن حقوق النساء في الاسلام » ، وتقدم بها كبحث الى المؤتمر العلمي الشرقي ـ اي مؤتمر المستشرقين ـ المنعقد في عاصمة السويد سنة 1889 ثم قام بطبعها في مصر خلال العام الموالي 1890 .

ولا أعلم أن أحدا قبله نشر كتابا أو رسالة مستقلة عن الموضوع . . . كما اني لم أتمكن بعد من الحصول عليها لكي نتعرف على آرائه فيها .

ومن الواضح ان عنوان الكتاب والمناسبة التي كتب لها لا يسمحان بغير موقف واحد ، هو ابراز حقوق المرأة في الاسلام . . . وهذه الحقوق هي وحدها ذات أهمية كبرى . . . لا سيّما وأن أوروبا في هذا التاريخ ، لم تكن قد قطعت بعد اشواطا كبيرة في مجال حقوق المرأة[1] .

بعد كتاب حمزة فتح الله بعشر سنوات تقريبا صدر كتاب آخر . . . قدر له أن يكون ـ هو وحده ـ مصدر شهرة وتقدير لصاحبه ، واعتبره بعضهم الأساس الأول للمؤلفات الداعية الى تحرير المرأة . . . حتى كاد أن لا يذكر معه كتاب آخر أو مؤلف غيره .

هذا الكتاب نشره قاسم أمين في مصر عام 1899 تحت عنوان « تحرير المرأة » .
والعنوان ، يحمل من الجرأة والمجابهة الى حد الصدمة بالنسبة الى عصره وظروف المجتمع ومستوى الثقافة في أيامه ، أكثر مما يحتويه من آراء وتحديات فكرية حقيقية .

ومن هنا اعتبر الكتاب نقطة الانطلاق الأولى في موضوع المرأة في العالم العربي ، وأصبح مؤلفه يحتل مكانة كبيرة وبارزة بين دعاة تحرير المرأة . . . لا في مصر وحدها بل في العالم العربي كله .
وفي اعتقادي ، أن أهمية هذه المكانة التي نالها الكتاب وصاحبه متأتية من أمور ثلاثة :

أولا : اسم الكتاب « تحرير المرأة » .

ثانيا : الظرف الزماني والفكري الذي ظهر فيه الكتاب ، من حيث وضع المرأة المتدهور جدا ، وانتشار افكار الاصلاح ، وكثرة الداعين الى النهضة والتطور بصفة عامة . . . دون ان يهتم أحد منهم بقضية المرأة ، لوحدها ـ كقضية مستقلة بذاتها ـ وعلى نفس المستوى والطرح اللذين قام بهما قاسم أمين . . .[2] .

ثالثا : محتوى الكتاب وبعض آرائه بالنسبة الى عصره المتصف بالجمود والتزمت وعمق مجالات التخلف الفكري والاجتماعي ، لا سيما ما له علاقة في كل ذلك بشؤون المرأة وأوضاعها المتردية .
على أن أهم ما عالجه كتاب قاسم أمين هو ، تعليم البنات ، وقضايا الطلاق وتعدد الزوجات والحجاب وما عليه المجتمع في أيامه من عادات وتقاليد فاسدة في كل ذلك .

ومعلوم ان قاسم أمين ولد عام 1865 ، وأنه درس الحقوق في باريس ، فاطلع خلال اقامته بها على كافة مظاهر الحضارة الأوروبية ، ونهل من فكرها وعلمها وثقافتها عامة ، فكان منطقيا أن يتأثر بذلك كله ، وان يكون لما شاهده وعايشه وتعلمه صدى في فكره وتكوينه وبالتالي في مؤلفاته ، خاصة عن موضوع المرأة . . . الذي كان أكثر مظاهر الحياة الأوروبية اثارة للاهتمام وتأثيرا في نفوس الزائرين العرب والمسلمين الى أوروبا عامة وباريس بوجه خاص . . . فكيف يكون الحال بالنسبة لمن يقيم بها سنوات عديدة مهاجرا او للدراسة كما حصل للشيخ رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين والامام محمد عبده وابن ابي الضياف وسليمان الحرائري التونسي .

غير ان قاسم أمين لم يكن معجبا بالمرأة الفرنسية بل كان اعجابه وحديثه دائما عن المرأة في أمريكا أولا ، وفي انكلترا ثانيا وذلك لما بلغته المرأة في هذين البلدين من تحرر وتقدم خلال الربع الأخير من القرن الماضي بالقياس الى المرأة في أوروبا بوجه عام ، وفرنسا بوجه خاص .

وقد طفح كتاب قاسم أمين بالآراء الغربية وخاصة بالمقارنات بين أوضاع المرأة الشرقية والغربية . . . مع اعتماده على الاحصاءات والتحليل الاجتماعي والقانوني .

وهذه الخصائص نجد بعضها عند الحداد ، لا سيما في القسم الاجتماعي من كتابه .
وغني عن القول ، ان معاصري قاسم أمين لم يرحبوا بكتابه ، ولم يسكتوا عنه ، بل هاجموه بعنف شديد ، والصقوا بمؤلفه التهم التقليدية المعتادة ـ أعني التي صارت فيها بعد ، ومع غيره ، تقليدية ومعتادة ـ وهي تهم الالحاد والكفر ومحاربة الاسلام .

ففي نفس السنة ـ أي 1899 ـ ظهر كتاب للرد عليه ، وبالطبع وضعه أحد شيوخ الازهر الجاهزين ـ كشيوخ الزيتونة ـ لمثل هذه المناسبات .
اسم هذا الشيخ كما جاء في غلاف كتابه هو : « حضرة العالم العلامة الشيخ محمد احمد حسنين البولاقي » .

أما اسم الكتاب فهو : « الجليس الانيس في التحذير مما في تحرير المرأة من التلبيس » .
ولعلكم تذكرتم الآن كتاب « الحداد على امرأة الحداد » (للشيخ العلامة محمد الصالح بن مراد) .
وواضح أن ميزان القافية واحد ، ولكن بحر السجع مختلف !!
وهذا يدل على أن عقول وأقلام الشيوخ تتطور . . . ولكن في مجال السجع فقط . . . إذ أن بين الكتابين اثنين وثلاثين عاما وهما ، رغم هذه المدة الطويلة ، نمط واحد في التفكير والعقلية والمنهج والأسلوب .

بعد كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » لم يشتهر كتاب آخر ، بما في ذلك كتاب الطاهر الحداد . . . مع ان كتاب الحداد أعمق فهما للشريعة وأدق تصويرا وتحليلا لأوضاع المرأة المسلمة في عصره ، وخاصة المرأة التونسية .
ومعلوم أن كتاب الحداد ظهر في شهر أكتوبر عام 1930 . وخلال المدة بين الكتابين (أي ثلاثين سنة) ظهرت عشرات الكتب الأخرى عن المرأة في مختلف الجوانب وبمختلف الآراء والغايات والاحجام .
ويمكن ان تذكر بعض هذه الكتب ـ ذات العلاقة بقضية المرأة ، وخاصة التي لها وزن أو قيمة ذاتية .
في سنة 1901 نشر قاسم أمين كتابا آخر وأعاد طبع كتابه الأول . وكتابه الثاني كان بعنوان « المرأة الجديدة » وهو في معظمه ردود ومناقشات لخصومه الذين تهجموا على كتابه الأول .

العقاد عدو المرأة

في سنة 1912 نشر عباس محمود العقاد رسالة صغيرة بعنوان « الإنسان الثاني أو المرأة » .
ومن العنوان فقط تستطيع ان نفهم اتجاه المؤلف المعادي للقضية ، والمقام على الطبقية والمركز للدفاع عن التبعية .
والعقاد قوي في أسلوبه بارع في عرض آرائه ودعمها وتعزيزها بالنصوص الدينية والمقارنات التاريخية وخاصة في مؤلفاته الموالية وفي مقالاته عن المرأة والتي ظهرت خلال نصف قرن من حياته بعد رسالته الصغيرة تلك ذات السبع عشرة صفحة .
أما كتاباته الأخرى فاهمها :
1 ـ هذه الشجرة ، وهي دراسة تقع في 224 ص وقد نشرها عام 1945 .
2 ـ المرأة في القرآن ، وقد نشره عام 1950 .
3 ـ مجموعة من المقالات ، يمكن ان توحي لنا عناوينها بموقف كاتبها من المرأة ، مثل :
ـ عقل المرأة .
ـ المرأة حرب وسلام .
ـ مركز المرأة في العصور القديمة .
ـ مركز المرأة بعد المسيحية والاسلام .
ـ مركز المرأة في العصر الحديث .

- هل المرأة مصدر الوحي ؟
- هل للمرأة أن تحارب ؟
- من هي المرأة الخالدة .
- مطالب المؤتمر النسوي سابقة لأوانها . وهو يرد فيه على المطالب التي أعلنها أول مؤتمر عربي لاتحادات النساء العربيات والذي انعقد في القاهرة عام 1945 .

وجميع هذه المقالات قصيرة ، وتدور حول التشكيك في قدرات المرأة وطبيعتها المغايرة للرجل وحول ضعف شخصيتها ، وبأنها لا مستقبل لها . الا في ظل الرجل !! وهو يضعها - دائما - في المرتبة الثانية بعد الرجل .

والعقاد ، كما تعلمون ، لم يتزوج ، ويبدو أن له عقدة خاصة نحو المرأة تسيطر عليه كلما امسك بالقلم وكتب عنها .

وقد أطلت معه وعنه الحديث بسبب أهميته الفكرية والأدبية في العالم العربي . ويكفي دليلا على موقفه الشخصي المعادي للمرأة ، أنه لم يجد في التاريخ كله امرأة واحدة تثير اهتمامه ليكتب عنها كتابا في سلسلة العبقريات الذين اختارهم جميعا من الرجال !!

دعاة آخرون

وبالطبع هناك من عاصره وناقضه دائما . . . خاصة في موضوع المرأة ، مثل لطفي السيد وطه حسين ، وعبد الله عفيفي ورشيد رضا ودرية شفيق التي اعلنت عليه وعلى زكي مبارك وغيرهما من المناهضين للمرأة حربا شعواء خلال الأربعينات ومطلع الخمسينات .

وعلى جانب ما كتبه قاسم أمين والعقاد . . . ظهر في عام 1920 كتاب لمحمد فخري بعنوان « تحرير المرأة والسفور » .

وفي العام الموالي ظهر الجزء الأول من كتاب « المرأة العربية » لعبد الله عفيفي وظهر الجزءان الثاني والثالث عامي 1922 و 1930 .

وهذا الكتاب ضخم وشامل ، وهو بمثابة موسوعة أدبية وتاريخية واجتماعية عن المرأة العربية منذ الجاهلية الى اليوم .

والمؤلف يميل الى مناصرة قضية المرأة ، ولكن في اعتدال واتزان . . . ولعل من أسباب ذلك انه كان من كبار موظفي البلاط الملكي المصري . لكن من الانصاف للمؤلف ان نقول : بأن له في مجموع كتابه موقفا واضحا يقوم على اعتزاز بمكانة المرأة في التاريخ العربي وما اسهمت به المرأة العربية في الحضارة والمجتمع طوال القرون الماضية .

وفي عام 1925 نشر حسين فوزي كتابه عن « المرأة وآراء الفلاسفة » وهو كتاب جمع فيه خليطا من الأفكار عن المرأة . وأهميته الوحيدة تبدو في اسلوبه واهتماماته الأدبية والجمالية . . . لكن المؤلف غربي الفكر والعقلية . . . لذلك لم نستغرب حين وجدناه يقتصر في كتابه على آراء المفكرين والفلاسفة الأوروبيين ولم يذكر آراء الفلاسفة المسلمين ، وخاصة ابن رشد العظيم . . . الذي كان الوحيد بين مفكري الاسلام القدامى الذي عالج موضوع المرأة من جوانب اقتصادية واجتماعية ، ونادى منذ زمن بعيد ، ومبكر جدا ، بتحرر المرأة الاقتصادي والاجتماعي .

ولكن افكاره بقيت مهملة ومجهولة لم يتحدث عنها حتى أنصار المرأة المعاصرون ، اذ لم يشر اليها سوى كاتب واحد هو سلامة موسى[3] .

في سنة 1928 قامت معركة كبيرة في سوريا ولبنان حول تحرر المرأة ، وخاصة قضية السفور والحجاب . . . وذلك إثر ظهور كتاب « السفور والحجاب » للآنسة نظيرة زين الدين . وهو الكتاب الوحيد - من نوعه - من مساهمة المرأة في قضيتها حتى هذا العام الذي صدر فيه[4] .

وكالعادة تصدى لها الشيوخ وكالوا لها ما استطاعوا مما هو من اختصاصهم ، وكان الشيخ مصطفى الغلاييني في طليعتهم حيث اصدر كتابا كاملا للرد عليها وبسرعة عجيبة .

ولمحمد السباعي ـ والد القصاص المصري يوسف السباعي ـ كتابا عن المرأة سمّاه « المرأة الجديدة » .

ورغم تأثر محمد السباعي بالثقافة الانكليزية ، فانه لم يكن من انصار المرأة وتحررها . . . فهو ينقل الكثير من آراء خصومها متحدثا عنها بلسانهم .

فهو ـ مثلا ـ ينقل مقالا للعقاد عنوانه : « نقائص المرأة » ؟!

وهو حين يتحدث عن المساواة بين المرأة والرجل ، يسوق كلاما طويلا وتفاصيل عديدة عن تركيب المرأة وشخصيتها النفسية والانفعالية ، وشغفها بالزينة والحلي ، ثم يقول :

« فالاغضاء عن كل هذه الفوارق والذهاب الى المساواة بين الرجل والمرأة بعد وضوح قصورها عنه ، وظهور نقصها بالقياس عليه عبث لا موجب له ولا يفيد » ؟!

ولا يحمل كتاب السباعي اي تاريخ لطبعه ، ولكن حجم الكتاب وطريقة طبعه واخراجه توحي بأنه طبع خلال الحرب العالمية الأولى او بعدها مباشرة وعلى كل الاحتمالات قبل سنة 1931 التي توفي فيها المؤلف .

وهناك كتب اخرى وضعت او صدرت قبل ظهور كتاب الحداد ، واكثرها مترجم او له طابع تاريخي محض ، مثل :

1 ـ كتاب المرأة والسياسة المطبوع سنة 1919 .

2 ـ مركز المرأة من قانون حمور ابي وفي القانون الموسوي عام 1926 .

3 ـ النبوغ في النساء 1929 .

4 ـ نساء الإسلام 1929 .

5 ـ المرأة بين الماضي والحاضر لمحمود خيرت عام 1928 وكتب عديدة أخرى .

ولكن أهم كتاب ظهر بعد كتابي قاسم أمين هو كتاب « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد .

وبعده بعامين ظهر للشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، ولا يستبعد ان يكون قد نشره تباعا في مجلته ثم جمعه في سفر واحد ، وعنوانه « نداء للجنس اللطيف » !! وقد عالج فيه نفس الموضوعات المعتادة تقريبا ، ولكن بروح اقرب الى التفهم والانصاف .

وظهرت بعدهما عشرات الكتب ، منها على سبيل المثال :

1 ـ المرأة ليست لعبة الرجل ، لسلامة موسى .

2 ـ المرأة جسد وروح للدكتور جورج حنا .

3 ـ المرأة في حضارة العرب لمحمد جميل بيهم .

4 ـ حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة ، لمحمد ناصر الدين الألباني .

5 ـ الاسلام والمرأة لسعيد الأفغاني .

6 ـ المرأة المصرية لأحمد يوسف .

ولا شك ان دراسة جميع هذه الكتب فضلا عن غيرها ، وهي كثيرة جدا ـ يستغرق كتبا أخرى . . . والأحرى ان يتفرغ لدراستها الباحثون ، وان تنصرف اليها الدراسات والرسائل الجامعية .

بين الحداد وقاسم أمين

ولا أريد أن انتهي من هذا الاستقراء التاريخي دون ان اسوق بعض الملاحظات الهامة حول الرجلين الرائدين ، في مصر وتونس ، وهما في عصريهما ، والى اليوم ـ أساس هذه المعركة الفكرية والمصيرية للانسان العربي مع واقعه وتجاه مستقبله من خلال قضية المرأة .

وهذان الرائدان هما بدون جدال قاسم أمين والطاهر الحداد .

فبقدر ما ظهرت الكتب العديدة وعشرات البحوث والدراسات والمقالات عن قاسم أمين ودعوته إلى « تحرير المرأة » .

وبقدر ما نال قاسم أمين من شهرة وصيت كرائد لتحرير المرأة . . . فان صاحبنا التونسي ما زال مغموط الحق في المكانة والشهرة وفي الاهتمام والتقدير . لا في مستوى العالم العربي فقط ، بل وحتى على مستوى وطنه . وداخل حدود بلده ؟! .

هل نجد مثلا صورته معلقة في كل بيت ؟ وليس هناك بيت واحد خال من المرأة !!

هل كرمناه كما يجب ؟

هل يشرنا كتبه وآراءه في كل الاصقاع ؟

هل عرفنا به في الأقطار العربية ؟

وهل حدثنا عنه الأجيال الصاعدة بما هو جدير به ؟

وهل بيّنا لأولئك وهؤلاء ، ما في أفكاره من نظرات ثاقبة ، وفهم سديد وفكر تقدمي شجاع ، لا بخصوص قضية المرأة وحريتها ومستقبلها فقط ، بل في جميع ما عاش له وخاض غماره من نضال وطني وفكري واجتماعي جبار عن العمال الكادحين ، وعن الفلاحين المقهورين ،

لا تصدق يا شعب أن رقي الغرب كفر يبدد المسلمينا
أمة الغرب لا تزال لعيسى ويجوزا اليابان في المؤمنينا
وبموسى اليهود زادوا ارتباطا بعد نيل العلى مع السابقينا
كلهم في تمدّن العصر فازوا لم يصبهم في الدين ما يعترينا
أفهل كان دين أحمد يخشى دون كل الأديان في العالمينا ؟![5]

وبعد :

ما هي الجوانب التي تأثر فيها الحداد بآراء قاسم أمين ؟ وما هي العناصر التي اختلف بها عنه ؟ أو تفوق فيها عليه ؟

لئن كان المجال والوقت لا يسمحان بكل ما ينبغي ونرغب في بيانه وتفصيله ، فلا أقلّ من أن نحدّد المعالم الكبرى والنقاط البارزة عند الرجلين ، في شكل نقاط وملاحظات مختصرة ومحددة :

أولا : الحداد في دعوته الى تحرير المرأة كان يعبر عن طموح وطني وغيرة دينية على مستقبل شعبه . . . اذ رأى انه لا يمكن تحقيق التقدم والاستقلال الوطني بدون مشاركة المرأة . . . والمرأة الحرة المتعلمة بوجه خاص .

وقاسم أمين كان يعبر عن قضية حضارية ، بدون حلها لا يمكن أن يتحقق تقدم أو نهضة ، فهو إذن لا يربطها بالمصير الوطني وانما بالمستقبل الحضاري لبلاده .

ثانيا : قاسم أمين يرى أن تخلف المرأة ليس ناجما عن تخلف الدين بل عن تخلف المسلمين (ص 52) ويرى الحداد ذلك أيضا .

ثالثا : يرى قاسم أمين أن الإسلام قد أنصف المرأة الا في تعدد الزوجات (ص 53) بينما يرى الحداد ان التدرج نحو الكمال في التشريع قاعدة واساس اسلامي وأن المساواة التامة بين المرأة والرجل غاية مقصودة في الإسلام بما في ذلك الميراث ، في حين لم يتعرض قاسم أمين لموضوع المساواة في الميراث .

وقضية الميراث هي من القضايا الأساسية والخطيرة التي انفرد بها الطاهر الحداد عن سائر الداعين الى تحرير المرأة . ولعلها أيضا السبب الأكبر في حقد الحاقدين وسخط المحاربين له حتى اليوم .

رابعا : كلاهما نادى برفع الحجاب دفعة واحدة ، وهنا تميّز الحداد بلغته واسلوبه وحججه البارعة .

خامسا : كلاهما نادى باسناد الطلاق للمحكمة ومنع انفراد الرجل به ، غير أن قاسم أمين لم يكن من الدقة

والوضوح يمثل ما كان عليه الحداد ، وذلك برغم ما انفرد به من كثرة التفاصيل والاستشهاد بالاحصاءات عن الطلاق ، وتقديمه مشروعا جاهزا للإجراءات التي يراها للوصول الى الطلاق عن طريق المحكمة .

ورغم ان قاسم يطالب بالمساواة فعلا في الطلاق بين المرأة والرجل فإن الحداد كان أكثر تحديدا وضبطا للمساواة باعتبارها مقصدا مطلوبا لتحقيق العدل ورفع الحيف والظلم ، وهي عنده من ركائز الإسلام في التشريع وبناء المجتمع .

سادسا : انفرد قاسم أمين بالاستدلال بالقيم الغربية (ص 54) وذلك ناتج عن ثقافته . كما انفرد بالحديث عن أزمة زواج المتعلمين في عصره وخطرها على المجتمع . ومعلوم أن الحداد لم يتزوج بينما تزوج قاسم أمين .

سابعا : يختلفان تماما في موضوع عمل المرأة ، فقاسم يرى أن البيت هو عمل المرأة الأساسي ، وأن المرأة المتعلمة تحسنه اكثر من الجاهلة ، فكانه بهذا يطالب بتعليم المرأة ، لتحسن مواجهة الحياة المنزلية والمجتمع ، بينما يرى الحداد أن المرأة صنو الرجل في كلّ شيء ، لذلك لها الحق مثله في كافة مجالات العمل .

ثامنا : لم يطالب قاسم أمين بالمساواة التامة ، بما في ذلك التعليم ، لا لأنه لا يؤمن بذلك بل لأنه رأى ان المرأة ـ في عصره ـ لم تتهيأ لذلك بعد ، بينما اعتبر الحداد المساواة التامة هي اساس نهضة المرأة وتقدم المجتمع ككل .

تاسعا : يعتبر قاسم أمين ان الاسلام قد أنصف المرأة ولكن المسلمين عطلوا حقوقها . ويرى الحداد في الاسلام اعظم محرر للمرأة ، وأنه وان لم يساوي في كل شيء بينها وبين الرجل فانه كان يسعى ويهدف الى المساواة التامة . وهو ـ اي الاسلام ـ كتشريع قابل لذلك ، وسائر حتما الى تحقيقه .

عاشرا : ورغم ذلك فكلاهما يرى ان التطور حتمي وما جرى للمرأة في الغرب سيجري لها في الشرق ، والمرأة ستمارسه حتما (ص 70) وعبارة الحداد ، كما في مقدمة كتابه هي :

« ان المرأة تسير في تيار المدنية الحديثة بقوة لا تملك هي ، ولا نحن لها ردا . . . » .

حادي عشر : لم يغفل كلاهما عن العامل الاقتصادي في حياة المرأة ، وعن استغلال الرجل لمالها وجهدها .

كما نوه قاسم بدور المرأة في الريف المصري والحداد بدورها في البادية التونسية ، باعتبار هذه وتلك لم تعرف الحجاب ، وأنها تمارس العمل كالرجل تماما . وقد اتفق كلاهما أيضا على ان عمل المرأة هذا مستغل من طرف الرجل .

ثاني عشر : اغتباط الرجلين بمظاهر اليقظة والوعي التي اخذت تنتشر في عصريهما ، والتي هي الدليل القاطع عند كل منهما على ان الشعب سائر حتما الى طريق التقدم والنهضة وبالتالي نحو الحرية والحضارة .

ثالث عشر : مصادر قاسم أمين معظمها مستمد من تراث الغرب من خلال حياته فيه وتأثره به (ص74) .

أما الحداد فاعتماده كان على مؤلفات سابقيه ، وتأثره بالغرب محدود نسبيا ، لأنه لم يشاهد اي بلد منه ولا تعلم فيه ولا كان يعرف اي لغة من لغاته . . . وان عايش آثار حضارته بتونس وجالياته الحاكمة والنازحة في وطنه .

رابع عشر : كلاهما كان يؤمن بان المستقبل سيحقق ما ينادي به . وان وضع المرأة البالغ السوء في عصره سيتغير حتما عن طريق التعليم ، وتعليم البنت بالخصوص وأيضا عن طريق يقظة الضمير الوطني وانتشار التقدم والأفكار الحرة والآراء الجديدة .

وهذا . . . ما نعيشه اليوم فعلا ، وتعيشه المرأة . . . وسيزداد مع المستقبل شمولا ورسوخا وانتصارا . ورحم الله الحداد وبورك في مجده ومكانته حيث يقول[6] :

قيني . . . لانت الله في الكون فاعلا	مشيرا لمجد الناهبين معيدا
يخافك رعديد . . . ويجفوك جاهل	وتسمو بأرواح الكرام . . . بعيدا
لقد ضاع قومي اذ جفاك انخداعهم	وشأووا هوانا للحياة مبيدا

فعشت وحيدا فيك اندب حظهم   وحظى بهم ، ندبا يذيب حديدا
فذلتهم ذلي وعزي بعزهم   وإن وهبوني للسعير وقودا
سأتركهم بالرغم مني كما اشتهوا   يعيشون دهرا في الظلام مديدا
وأرعاك يا قصدي ـ وحيدا كما ترى   عسى تظهر الأيام منك جديدا

لقد مات الحداد قتيلا بنار الحقد والكمد والكبت ،، وها هو اليوم يبعث حيا من جديد ... وها هي أفكاره تدرس في المعاهد والكليات وتطبق في التشريع والمحاكم ... وها هو لافتة في كل مدينة ... وها نحن اليوم نحيي ذكراه وسنظل نحييها ونهتف مع الشاعر الرائد الهادي العبيدي ، يوم وقف وحيدا امام نعشه يرثيه ويبشره بالخلود قائلا :

قفوا حيوا المجاهدا والعميدا   وصلوا ... فالنبوغ قضى شهيدا
قفوا وابكوا الرجولة والمبادىء   فذا معناهما أمسى لحيدا
رأى جبارنا الوطن الشقيا   وأبصر عيش أمته النكيدا
فذابت نفسه الماعضا   أثار بصدره روحا مريدا
وجرد في سبيل الحق عزما   قويا صارما يبلي الحديدا
يدافع عن شريعتنا ويبدى   لفهم مرامها رأيا سديدا
ويأسف من بني وطن رأيهم   لفرط جمودهم عاشوا عبيدا
فصاح الصيحة الكبرى ينادي :   ألا يا أمتي ... فكي القيودا

*

أخي ان ساءك السفهاء سوءا   وكان زمانكم نذلا كنودا
فلا تحزن ... فذا التاريخ عدل   سيمنح اسمكم بنه الخلودا
وموتك في مباديك حياة   تفيض على الدنا فجرا جديدا

هوامش :

(1) كتب هذا البحث عام 1975 مساهمة في ذكرى مرور اربعين سنة على وفاة الحداد التي نظمها عامئذ نادي الطاهر الحداد .

وفي هذه السنة 1985 عثرت على نسخة من كتاب حمزة فتح الله المشار اليه فاذا هو درن ما كنت أتوقع ، وقد نعود إليه وإلى كتاب آخر شبيه به وضعه كاتب جزائري عام 1885 وترجم إلى الفرنسية ... وكلاهما يختلف تماما عن كتب الحداد وقاسم أمين .

(2) الذين أثاروا جانبا أو أكثر من قضية المرأة ، وخاصة الذين دعوا الى تعليم البنات كثيرون جدا قبل قاسم امين وبعده ، منهم المذكوران اعلاه والطهطاوي والحرائري ومحمد السنوسي وأحمد بن أبي الضياف .

(3) أشار إليها بعد سلامة موسى كتاب آخرون ، ولكنهم قلة ، ومن آراء ابن رشد الرائدة والرائعة كما لخصها بعضهم قوله :

« ... تستطيع المرأة ما يستطيع الرجل ، وإن قصرت عنه بعض التقصير في بعض النواحي كالفلسفة والحرب ، فانها تفوقه في غيرها كالغناء مثلا ...

« ... وإنما هي حياتنا الاجتماعية تمنع المرأة من الظهور والنبوغ . إننا نعاملها كآلـة حمل وحضـانة فنقضي على مواهبها العظمى ، ونعطلها من الفضائل السامية ، فتعيش كالنبات عبئا على زوجهـا وعلى المجتمع ... »

(4) يبدو أن صدور هذا الكتاب والجدل الذي أثاره في صحف سوريا ولبنان قد بلغ صداه وأثره إلى تونس فتحركت الاقلام في موضوع المرأة محليا وكان الشيخ محمد الجعائبي ، صاحب جريدة الصواب ، والشاب الصاعد الهادي العبيدي ممّن ناصر القضية وبادر الى الكتابة حولها . وقد تحول ذلك إلى معركة بين أنصار المرأة وخصومها شارك فيها الحداد ثم رأى أن القضية أعمق وأهم من مقالات عابرة فانصرف إلى وضع كتاب كامل عنها .

(5) من شعر الحداد .

(6) من قصيدة الحداد الرائعة « أملي » التي ناجى بها الله عقب المحنة الكبرى التي تعرض لها لمدى خمس سنوات بسبب كتابه عن المرأة والتي انتهت بوفاته ـ كمدا ـ يوم 7 ديسمبر 1935 .



■ المصادر والمراجع

1 ـ كل الكتب الواردة في النص .

2 ـ امرأتنا في الشريعة والمجتمع للحداد ط . تونس 1930 .

3 ـ تحرير المرأة لقاسم أمين ، نشر حفيده ط . 2 مصر 1941 .

4 ـ رفاعة رافع الطهطاوي ، لجمال الدين الشيال نشر دار المعارف ـ القاهرة 1958 .

5 ـ قاسم أمين ، لوداد سكاكيني ، نشر دار المعارف ، القاهرة 1965 .

6 ـ ابن رشد ، للأب يوحنا قمير ، طبع بيروت ، الجزء الأول ط . 2/1953 .

7 ـ قضية المرأة (من خلال المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث) للدكتور لويس عوض . نشر دار المعرفة ، ط 2 القاهرة 1965 .

8 ـ الطاهر الحداد ، رائد الحرية ونصير المرأة لكاتب البحث ـ طبعة اولى ، تونس 1957 .

9 ـ كفاح الشابي او الشعب والوطنية في شعره (به فصل عن الحداد) لكاتب البحث ط . 1 بيروت 1954 .

10 ـ جريدة الصباح 29 ـ 12 ـ 60 عدد خاص عن الطاهر الحداد في ذكرى مرور 25 سنة على وفاته . به مقالة ودراستين كلها بقلم صاحب هذه الدراسة .

الطاهر الحداد ونزعته التربوية

د. المنجي الصادي

توطئــة :

لأمراء في ان البيئة التي نشأ فيها الطاهر الحداد لا تختلف كثيرا عن تلك التي نشأ وترعرع فيها أبو القاسم الشابي .

وسواء كانت البيئة العائلية أو الاجتماعية أو الوطنية عامة ، فإن المؤشرات واحدة ، لاسيما ان الشاعر الشابي والاجتماعي الحداد ، كلاهما متخرجان من الجامعة الزيتونية . فندرك بذلك أن الوسط التعليمي الذي رعاهما بمبادئه التربوية وكونهما عقليا ، اتّصف بتشبعه بالروح العربية الاسلامية التقليدية .

وقد ذكر الأستاذ علي المحجوبي في دراسته عن « مصادر الحركة الوطنية في تونس »[1] (1904 - 1934) ، إن الواقع الاستعماري السائد بتونس وما اشتمل عليه من إذلال واستغلال وشطط ، قد ساعد على بروز ضمير وطني .

ذلك أن وجود نخبة واعية متشبثة بقيمها ، كان سابقا لانتصاب الحماية الفرنسية حيث أن المدرسة الصادقية أنشئت منذ سنة 1875 ، فتشكل رأي عام متفطن إلى قضاياه بظهور هذه النخبة المدرسية التي تلقت تعليما عصريا . وباتساع دائرة هذه النخبة الفكرية نما تأثير الرأي العام الوطني الذي وجد متنفسا للتعبير عن خوالجه في انتشار الصحف والمجلات خلال فترة ما بين الحربين العالميتين . وقد تبيّن أن الحركة الوطنية التونسية بقيت الى حد سنة 1930 تترصد توجهاتها وتتحفز لشق طريقها الوعرة بين الأشواك الاستعمارية . وبداية من سنة 1930 ، بدأت الحركة السياسية في تونس تغير من مفهومها للتعاون مع الحضور الأجنبي . فإذا كان الرعيل الأول من الوطنيين يقبل مهادنة منه بالحضور الفرنسي للقيام بمهمته التمدينية التي ادعاها لنفسه ، فإن الرعيل الموالي لم يعد يقتنع بهذه التعلّة لأن التونسي قد تقهقر وجوده في بلده منذ سنة 1885 إلى سنة 1930 حيث استفحل الحضور الاستعماري وتجسم أكثر ما يكون التجسيم في تنظيم المؤتمر الديني الصليبي (1930) والاحتفال بمرور نصف قرن على قيام الحماية الفرنسية في تونس (1931) ، وتفاقمت الأمور من سوء تدبير وعدم تبصر السلط الفرنسية التي خولت دفن المتجنسين التونسيين في المقابر الاسلامية . لكن تصلب المواقف الوطنية ما كان ليبلغ ذلك الحد الساخن لولا تدهور الحالة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد . وقد استخلص الأستاذ المحجوبي هذه الظاهرة حيث بيّن أن كثيرا ما أشاع الغرب أن الشرقيين يقودهم الدافع الديني في تحركاتهم ، ولا تنطبق هذه الظاهرة على واقع الحركة الوطنية التونسية حيث يشكل العامل الديني سندا للعامل الاقتصادي والاجتماعي .

معايشة الطاهر الحداد للصحوة الفكرية الثانية :

بداية من 1920 ، كان لتأثير الشيخ عبد العزيز الثعالبي على التطور الفكري عامة في تونس ، مفعول لا ينكر في تكوين جيل من المصلحين الذين يتنسبون ثقافيا إلى الاصالة الاسلامية . ومع ذلك فهم يرومون الاتجاه بالاصلاح الاجتماعي وجهة جديدة لاسيما ان النشاط السياسي اتسع مداه الى نزعات وحركات ومفاهيم جديدة طارئة على تونس . فظهرت النشاطات النقابية وما يكتنفها من تناحر بين العمال والاعراف ، وأفرزت التحركات الشيوعية والاشتراكية عند المتتسبين الفرنسيين المرتبطين بالولاء الى الاحزاب الرئيسية التي مقرها فرنسا وطنهم الأم . وقد تسربت الأفكار الجديدة الى الأوساط التونسية وبالأحرى إلى النخبة المفكرة التي تقف على رأس الحركة الاصلاحية .

لقد تضافرت الخطب الملقاة من أعلى منابر الجمعيات ، كالجمعية الخلدونية[2] ، وجمعية قدماء المدرسة الصادقية ، وما أنشأه طلبة الجامعة الزيتونية من جمعيات ثقافية تجمع شتاتهم وتجمع بين فتاتهم المتوافدة من المدن التونسية ، على خلق حركة فكرية نشيطة واكبت العمل السياسي الوطني ولا شك ان الطاهر الحداد أفاد فكريا من حضوره تلك المنتديات التي اجتهدت في توعية الرأي العام الوطني بقضاياه الوطنية المصيرية ، يضاف الى ذلك ما بذله الشعراء على مختلف مشاربهم من جهود حماسية أشاعت قصائدهم بين الاجيال الطلابية والجموع التي تتعطش للثقافة العربية . وقد تعرض الشيخ الفاضل ابن عاشور[3] الى الحماس الفياض الذي سيطر على الطلبة والشباب بصفة عامة ، الذي ارتاد كافة النشاطات النظامية التي تقوي من عزمه وحبه للعمل الصالح . قال : « واتخذ الشعور القومي من تلك الفكرة النظامية العملية سبيله للظهور في المظاهر الجماعية بتنظيم المواكب والمظاهرات الكفيلة باشاعة عزة الماضي وروح الأدب القومي فأصبح اعتماد الجمعيات الثقافية على جهود الشباب ، والتلالتفاف حول كل هيئة من الهيئات المسؤولة عن تلك الجمعيات رسميا ، نخبة من الشبان تقوم على ابتكار البرامج وتنفيذها ، في الخلدونية وقدماء الصادقية وغيرهما من الجمعيات . . . »[3]

إن مثل هذا الجهد التثقيفي على اتساع مداه وشموله مختلف الطبقات ، والذي تجسم في الكتابة الصحافية والمسامرات والخطب الادبية والسياسية والعلمية وغيرها ، والقاء القصائد ، ان كل ذلك أثمر في الثلاثينات بظهور تفكير مستنير لم يعهده طلاب الثقافة في الفترات السابقة ، من ذلك ما أثارته محاضرة أبي القاسم الشابي « الخيال الشعري عند العرب » من ردود فعل تجاوبت مع مؤلفها او تعرضت لها بالدرس والنقد . وقد تحدث محمد فريد غازي مطولا عن البيئة الزيتونية التي تكوّن فيها الشابي (وكذلك الحداد) ، فأغنانا عن استعراض النشاطات التي نظمها النادي الادبي الذي جمع بين طلبة الزيتونة وطلاب المدارس ، وما ترتب عن تلك اللقاءات من تحاور ونقاش بين شقين يوجدان على طرفي نقيض من حيث تكوينها الفكري ، « الشرقي » (الذي كان يفهم بأنه رجعي) بالنسبة للزيتونيين ، و « الغربي » بالنسبة للمدرسيين ، إنه تأثير الفكر الغربي الذي نقلته مدرسة المهجر (شعراء وأدباء لبنانيون وسوريون مستقرون بأمريكا اللاتينية خاصة) ، أو الذي اطلع عليه المثقفون باللغة العربية دون غيرها من اللغات ، عن طريق الكتب المترجمة من الانجليزية والفرنسية . لقد تأثر هؤلاء المثقفون بمبادىء الثورة الفرنسية وتطورات الغرب في المجال السياسي ، فأرادوا الاستفادة من تلك الأدبيات في كتاباتهم تحدوهم نزعة جامحة الى الفكر الثوري التقدمي الذي يستند الى النظرية الاشتراكية وحتى الماركسية ، وبذا ندرك ما هي الدوافع التي جعلت الطاهر الحداد يتهم بالكفر والالحاد . ويرى غازي أن أزمة الفكر والتربية الاسلامية التي لم تنسجم بالواقع السياسي والاجتماعي الطارىء على العالم الاسلامي ، إنما هي « أزمة عميقة تخبط فيها الفكر الاسلامي خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين »[4] .

ظهور تيار فكري جديد :

وفي سنة 1930 ، صدر للطاهر الحداد كتاب بعنوان « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » ، فأثار ضجّة كبرى أعظم بكثير مما كان لمحاضرة الشابي عن الشعر العربي يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور في ذلك : « فأثار ظهور هذا الكتاب حركة كبرى بين علماء جامع الزيتونة الأعظم ، وسعت النظارة العلمية لدى الحكومة في مصادرته ، فلم يتم ذلك .

وشكلت النظارة لجنة من كبار العلماء لتقرير رأيها في الكتاب ، فنظرت فيه وقدمت تقريرا في بيان مآخذه انبنى عليه سحب شهادة الطاهر الحداد الزيتونية عنه وحرمانه من خصائصها . . . »[5] وانبرى بعض المشايخ في التصدي لهذا التأليف الخطير على الوضع التشريعي القائم والذي يبرّر وجود الهياكل القضائية الاسلامية في ذلك العهد . فظهر كتاب « الحداد على امرأة الحدّاد » بعد سنتين فقط من نشر الحداد تأليفه ، فضلا عن المقالات الصحفية التهجمية وتأليب الرأي العام على الحداد . لكن ذلك لم يفلح إذ وجد الحدّاد تأييدا لدى فئات نيرة من المفكرين ، خاصة عند أسرة مجلة العالم الأدبي . وهكذا فإن المحافظة بكل ثمن على الإطار الفكري التقليدي الذي ساد المجتمعات الاسلامية الخاضعة لقوى استعمارية ، حال دون قبول الجماعات المحافظة حتى مبدأ النظر في نظرة الحدّاد الى نصف المجتمع التونسي المشلول بارادة بعض المشايخ الذين كانوا يرون في كل جديد مساسا بالقيم الاسلامية الخالدة ، ويتذرعون بموقفهم ذاك لسد الباب في وجه كل اجتهاد فردي أو جماعي يريد السير بالمجتمع التونسي وجهة غير التي عهدوها . لعل الحداد كان شاعرا بأن كتابه سيخلف انطباعات سيئة لدى جانب من الرأي العام . لكن المصلح الاجتماعي الحق إذا أراد تقمص دورا فعالا فلا مجال للمداراة والمراوغة ، بل عليه أن يصدم بآرائه المجتمع برمته ويترك أثرا ما ، فيملأ الدنيا ويشغل الناس .

مشروع الطاهر الحداد لتربية المرأة :

لا شك أن الطاهر الحداد المفكر كان يدعو المفكرين والرأي العام الى الوعي بقضية التعليم ومن باب أولى اصلاح التعليم العربي في الكتاتيب والمدارس القرآنية تمهيدا لاصلاح التعليم الثانوي والعالي والـذي كانت تشرف عليه الجامعة الزيتونية . وبصفتها تمثل الخلية الاجتماعية الأولى فإن المرأة كانت تحظى لديه بعناية كـاملة حيث المنطلق الفاصل لتربيتها يتمثل في تهيئة مضمونة للأجيال الصاعدة التي تشكل القدرة المنتجة في المفهوم الاشتراكي الذي تبناه الطاهر الحداد .

إن نظرته تلك تبدو متقدمة جدا إذا ما قارناها بالطلبات الوطنية المقدمة إلى السلط الفرنسية بخصوص تعليم المرأة المسلمة . فقد عرض المؤرخ الصادق الزمرلي بصفته منتميا إلى ما سمي حركة التطور التونسية ، تقريرا على المؤتمر « الاستعماري » المنعقد في مرسيليا (1906) ، أرجىء النظر فيه وفي غيره من المشاريع ، إلى مؤتمر شمال افريقيا (المنعقد من 6 إلى 8 أكتوبر 1908) وقد جاء بهذا التقرير ان القرآن يعامل المرأة والرجل بنفس الكيفية ويفرض عليها نفس الفرائض منها طلب العلم . وعلى هذا أنشئت عدة مدارس بالمشرق خاصة في تركيا ومصر . كما أن أول مدرسة للبنت المسلمة ظهرت في تونس سنة 1900 ـ 1901 ، لكنها لم تبلغ الاهداف المرسومة لها ، إذ لم تدرس فيها المعلومات العصرية باللغة العربية بل وقع الاقتصار على تعليم المعارف العلمية[6] والتركيز على إكساب التلميذات اللغة الفرنسية التي باعدت بينهن وبين محيطهن العربي الإسلامي . وعلى هذا فإن التقرير المذكور اقترح سن التعليم بالعربية وجوبا وإضافة اللغة الفرنسية كلغة حية ، واعتماد تجربة المدارس الشرقية العثمانية حيث يقع الاستعانة بمعلمات من الشام[7] .

وبالفعل ، فإن الوثائق المصوّرة تؤكد ان النظام التعليمي الذي هيأته سلط الحماية للبنت المسلمة ، كان بإشراف أرملة لاحد كبار موظفيها الفرنسيين . وأن هذه المدرسة التجريبية كانت تعد التلميذات وتعلمهن المهارات المنزلية من تطريز وخياطة ، وأن البرنامج الذي تسير عليه مستوحى من برنامج المدارس الفرنسية الابتدائية . وأن العربية تعلم عبر شرح وتحفيظ بعض الآيات القرآنية ، ويشرف مؤدب ومدرس على تعليم هذه المادة . وقد ادعت ادارة التعليم العمومي انه لم يقع التفكير بتاتا في « انبتات » البنات المسلمات ، والدليل هو اقبال الأولياء على تسجيل اطفالهم بهذه المدرسة (100 تلميذة سنة 1905)[8] . يمكن طبعا التعلل بأن تعليم البنت المسلمة مازال في بدايته وأن تطوره أمر مفروغ منه .

لكن مقترحات الطاهر الحداد كانت تدعو الى أن يعول التونسي في بعث هذا المشروع وغيره من البرامج الاجتماعية ، على جهوده ، وإلا فإن المخاطر المرتقبة من هذا التعليم الأجنبي المسلط على البنات التونسيات ، ستستفحل ولن ندرك مضارها الا بعد فوات الأوان ، لأن تربية البنت على النمط والحياة الفرنسية بدون تبصر وتكييف بالواقع الوطني ، لا شك انه سيجعلها في صراع مع بيئتها العائلية ومجتمعها . ولذا فلا مناص من إقامة تعليم وطني يستجيب لمتطلبات الحياة الاجتماعية والاخلاقية التونسية المسلمة ويبرر الطاهر الحداد مشروعه هذا بما يتضمنه من فوائد كفيلة باسعاد الأسرة التونسية وإخراجها من بؤسها المعنوي : البنت هي أم المستقبل وبتعليمها نكون قد ساعدناها على تربية أبنائها أحسن تربية ممكنة .

كما أن المتعلمة قادرة على متابعة دراسة الابناء . وبالتالي فهي في حاجة الى تحصيل نبذة من العلوم لاسيما العلوم المرتبطة بتربية الابناء كعلم الصحة وقواعد حفظها وتعاطي الرياضة البدنية التي تنشطها وتجعلها دائبة التحرك لفائدة أبنائها . ولاستكمال ثقافتها فعليها بالانصات إلى الحصص الاذاعية المفيدة والتي تزيد من ملكتها للاقبال على المعرفة . هذا وان التدبير المنزلي تعليم اساسي يجعلها قادرة على تهيئة شؤونها اليومية وخدمة أسرتها في أحسن الظروف .

ثم إن الطاهر الحداد يساند التعليم الصناعي الخاص بالبنت من اجل ان تستعد لدخول معترك الحياة ومساعدة زوجها على القيام بأعباء الحياة العائلية وفي الوقت نفسه فإن بعض اليسر المادي لا شك وأنه يساعد على إتاحة الفرصة أمام المرأة لكي تستزيد من التثقف . ولكي يهيء أسباب النجاح لمشروعه ، يدعو الطاهر الحداد الرجل إلى القيام بمسؤولياته تجاه المرأة والتغيير من سلوكه معها بحيث يجعل منها طرفا واعيا بمهامه الاجتماعية .

وهكذا فإن الطاهر الحداد في الظرف الذي كان يتفاعل معه في الثلاثينات ، لم يكن يدعو حقا الى الثورة التي تقلب الاوضاع القائمة بل كل ما في الأمر أنه كان يلح على جعل البيت يسير بصورة معقولة تستثمر فيها كافة إمكانياته التي تتاح للزوجين ، وتسخر لتربية الابناء تربية لها مردود على التطور الاجتماعي . وهو يرمي بذلك الى تمكين الأم من الوسائل الضرورية لتقوم بدورها كمربية[9] .

وما يمكن تسجيله باعجاب أن الطاهر الحداد في مشروعه التثقيفي الخاص بالبنت ، كان يعد العدة للمستقبل ، وكان منظوره يتخذ له مكانا مهما ضمن قضية الاصلاح الاجتماعي التي يقترحها على الرأي العام التونسي والتي سبقت العصر لا محالة . وقد لمح إلى ذلك الأستاذ أحمد خالد حيث قال : « والرأي عنده أن المجتمع التونسي لم يتهيأ بعد لتنفيذ ما نادى به من إصلاح لأن أفكار مواطنيه لم تع بعد الواجبات الاجتماعية التي تمهّد الترقي ، ولذلك فإنه يكتفي لتمهيد السبيل لآرائه الاصلاحية مؤملا ان تتبناها الأجيال الصاعدة ، وهكذا نفهم أن دعوته كانت دعوة للمستقبل »[10] .

في حين كان الأمر الشائع في عصره أن المرأة تعدها مؤهلاتها لتسيير البيت يعني تدبير شؤون المنزل من مأكل وملبس وغيره من الاشغال دون ان يكون لها القول الفصل أو على الاقل دون ان تقدر على اتخاذ قرار لصالح ابنائها وحتى لصالح ذاتها ، ولا يرجع ذلك الى ان السيطرة على الموقف تعود الى الزوج فقط ، بل لأن تكوينها النفسي الذي يجعلها في مصاف القاصرين ، لا يخولها الاقدام على القرار وبالاحرى تقمص التنفيذ والانجاز . علما أن ذلك الاستعداد

النفسي لم يكن جبلة فيها بل هو ثمرة المحيط الاجتماعي العائلي الذي لم يعدها لمواجهة الطوارىء والصعاب .

وعلى هذا فإن الدعوة التثقيفية التي دعا إليها الحداد هي بمثابة السلاح الذي يضمن للمرأة حدا أدنى من المعرفة الشاملة التي تجعلها في مأمن من التورط في العجز والفشل المرّ . يوضح الأستاذ محمد مزالي هذه الرؤية التثقيفية التي تشمل شعبا برمته كان محروما منها في الماضي ، فيقول : « ذلك أنه إذا صحّ أن تخلف الأمم الاقتصادي والاجتماعي إنما مرده إلى التخلف الفكري فإن من واجبنا أن نجعل الثقافة إداة لرفع مستوى المواطن التونسي وتمكينه من ممارسة الديمقراطية بالاطلاع والنظر في شؤون البلاد والعالم وحتى يكون مواطنا واعيا يعمل عن روية وتمييز »[11] .

ففي أشعاره كما في كتاباته الأخرى ، دعا الحداد الى النهضة الشاملة المتزنة لأنها قضية عناصرها متآزرة ، فلا توجد نهضة خاصة بالمجتمع الرجالي وأخرى خاصة بالنساء . كما أن الدعوة لا تخص الكبار دون الشباب ، بل هي تتجه الى المجموعة الوطنية على ما فيها من تمايز وتطاحن فكري .

لقد تطرق كثيرون الى تطور المرأة المسلمة ، فصنفوها الى مستويات ونظروا الموضوع تنظيرا سلط اضواء كاشفة على هذه القضية . فهناك امرأة من النوع القديم ، واخرى تحتل مكانا وسطا ، بل إن الطاهر الحداد كان يوجه دعوته الى العرب كافة للنهوض وتجاوز مرحلة الاستنجاد بالاجداد الى حد جعلهم مشلولين لا يقدرون على ابراز ما في دواخلهم من قوى ومؤهلات كامنة لا تترقب الا الفرصة المناسبة للازدهار والانطلاق بهم الى رحاب النهضة الشاملة ، يدعمهم تراثهم العلمي الذي استثمره الآخرون احسن ما يكون الاستثمار ، فوفروا لأنفسهم فرصة ذهبية للنهضة المضمونة العواقب[12] . وكما دعا بعضهم الى التوقف في الشعر عن البكاء على الاطلال ودخول مجالات جديدة لتطوير الشعر والادب العربي تعتمد الابتكار والطرافة دون التنكر لتقاليد القصيدة العربية ، كما كان ذلك ، نجد الدعوة تمتد الى المجال الفكري والاجتماعي ، فيكون التشبث الواعي بالتراث كدعامة للنهضة التي تتشكل من عناصر أخرى كثيرة .

لقد تطرق كثيرون إلى تطور المرأة المسلمة ، فصنفوها إلى مستويات ونظروا الموضوع تنظير سلط أضواء كاشفة على هذه القضية . فهناك امرأة من النوع القديم ، واخرى تحتل مكانا وسطا ، وثالثة عصرية تتجه اتجاها واضحا الى نمط العيش الغربي . والمفروض ان مثل هذه التصنيفات لا تشكل سوى وجهة نظر يعتمدها الباحث لحين ، مع العلم ان سنة التطور البشري تؤيد اختلاف طموحات الابناء عن طموحات الاباء ، مع ما يكتنف هذا الأمر من سلبيات وإيجابيات ، تكون حصيلة للتحليل النفسي والاجتماعي لبعض العينات من النساء من الفئات المختلفة . وما يبلغه البحث من نتائج يتحدد بأهمية تلك العينات المنتقاة[13] .

قضية المرأة في الأدب المدرسي (المنتخب من تآليف الطاهر الحداد) تدريس الأدب التونسي :

من المعلوم ان النصوص الأدبية التي ينبغي انتقاؤها من أمهات الكتب وعرضها على التلاميذ لتدارسها ، تتطلب مسبقا الشعور بالروح الوطنية التي كانت معدومة عند المسؤولين الأجانب عن التعليم في تونس ، طيلة السنوات التي كانت إدارة التعليم العمومي تشرّع التراتيب وتعد البرامج المدرسية[14] . على ان التدريس « الوطني » للنصوص الأدبية يشعر المتعلم بالرابطة المتينة القائمة بين الواقع الذي يعيش وتبلور سمات شخصيته . إذ لا يعقل أن تقتصر الدراسة الأدبية على مجرد تزويد التلميذ بالمعلومات التي تكسبه معرفة ودراية بالقضايا الشعرية والكتابة الأدبية عامة . والمفروض أن من يدرّس هذه المادة يعترف بما لها من قيمة إنسانية . ذلك على الأقل ما يقود إلى رفع التباس شاع عند بعضهم ومفاده أن التعليم الأدبي يمثل إضافة إلى تعليم اللغة العربية ، مع أن علم النفس أثبت أن الدراسة الأدبية التي تمكن التلميذ من التحليل ومن إبداء الرأي والنقد لكل ما يعرض عليه سواء عن طريق شرح النص أو خلال تحرير

المقالة ، أثبت أنها تسهم بنصيب وافر في صقل موهبته الأدبية وحمله على استيعاب بعض النماذج لقيمتها البلاغية والانسانية . وقد اعترف بذلك أحد الأساتذة الذي مارس تعليم هذه المادة . قال : « التكوين الانساني والاجتماعي المتين ، كان يخامرني منذ كنت اندفعت في الدراسات الادبية العليا وذلك بالقياس الى التكوين العلمي الذي يتلقاه الطالب في العلوم . . . والحقيقة من هذا الموضوع هي البحث عن مدى فاعلية الأدب وقسطه في تكوين الشخصية وتدعيم ملكات الانسان وتنميتها . . . »[15] .

ثم إن المقارنة على صعيد تكوين شخصية تونسية تجمع بين الاصالة والتحديث ، تدعم بفضل تميز السمات والقيم التي كانت تحرك التونسي في عهد الحماية وفي فترة ما بعد الاستقلال . وفعلا جدت بحوث حول تطور الشخصية الوطنية وإدراكها لذاتها ، ويمكن تأريخ ذلك مثلا منذ ان ظهر خير الدين وتقمّص الذاتية التونسية التي تتّجه الى التحديث ، بداية من تجسيم هذا التوجه في انشاء المدرسة الصادقية (1875) . هكذا بدأت الذات الوطنية تتفتح على ما يفيدها ويساعدها على التقدم بعد ان انكمشت على قيمها التراثية طيلة قرون،وامتهنتها القيم الاستعمارية التي قدمت لتمدينها حسب زعم المستعمر الذي اتخذ هذه المقولة شعارا ومبرّرا لما حققه من أهداف ، وهو بذلك قد دفعها دفعا الى الخروج من سباتها ومواجهة العالم الخارجي دون تعقيد نفسي . إن الاصلاحات الجذرية التي جدت إثر الاستقلال وعلى رأسها اصلاح التعليم (1958) أدت إلى تغيير نظرة التونسي الى الواقع المحيط به ، والأهم من ذلك أنها غيرت ذهنيته تغييرا ما ، فأصبح من جيل التجديد والمستقبل ، الذي لا يخشى توجيه النقد إلى نفسه لاصلاحها[16] .

من هذه الزاوية يمكن أن نتفاعل مع مدرس الأدب الذي أصبح لا يستنكف من معالجة المادة الأدبية بنظرة جديدة تخص المتعلم المتطلع الى الاكتشاف في هذا الميدان ، اكتشاف الأفكار وايضا النماذج الاخلاقية والسلوكية والاجتماعية التي لن يستفيد منها فائدة كاملة الا اذا استمدها من واقعه المحلي ، وهو أمر لا يتناقض مع المصادر الادبية العربية الاخرى التي تكون بالنسبة إليه بمثابة الاداة الصالحة للاستدلال والمقارنة . وقد نصحت التعليمات الادارية باجتناب الحصص الخاصة بدراسة الأدب لذاته ، ولا أن تعوض بتمرين لغوي أو بلاغي صرف ، بل حث على التركيز على المعاني والأفكار لاثراء المتعلم ذهنيا وشعوريا . وبالفعل « فالتلميذ في هذه المرحلة ، صار يعتبر مالكا لزمام اللغة بصفة مرضية ، عالما على الأقل بكلياتها ، فأصبح قادرا على معالجة الآثار من ناحيتها المعنوية - قادرا على تحكيم ذوقه فيها ، وفهم خصائص مؤلفيها منها واعتبار مدى تأثيرهم في تفكير عصرهم ، وقادرا كذلك على ربط هذا التفكير العربي الاسلامي بالتفكير البشري عامة »[17] .

وهكذا ومن خلال هذه التلميحات العابرة لا يسعنا الا الاعتراف بما لقضية تدريس الأدب التونسي من أهمية اجتماعية وتربوية وعلمية جامعية . فقد وقع تبادل الرأي حول هذا الموضوع منذ مدة طويلة ، وبدأت تتبلور الأمور وتتجسم المقررات منذ 1970 . وقد تجسم الاهتمام البالغ بالموضوع في عقد ندوة بتونس (نوفمبر 1976) خصتها مجلة الفكر[18] بعدد خاص يمكن اعتماده وثيقة في هذا الباب . ذلك ان الموضوع تجاوز التعليم والمدرسة ليحتل مكانا مرموقا في وسائل الاعلام وفي المجال الثقافي العام . يدخل في ذلك تشجيع الكتاب على الانتاج الجيد الذي يستحق النشر ويكون جديرا بدخول حقل الدراسة الثانوية والجامعية ، لقيمته الفكرية واللغوية . فلا تكون هناك فائدة تربوية اذا قدمنا للتلاميذ نصوصا مضطربة الفكرة مفككة المحتوى . ثم إنه لا يعقل قبول القصة أو القصيد على قلته ليشكل قاعدة للبحث الجامعي ، لمجرد أن مؤلفها اشتهر بفضلها . في هذا المقام بتفاعل عنصر الكم والكيف ويشكل أساسا انتقائيا يحكم لفائدة المؤلف أو عليه . وليست الا فضليات متجهة الى شخص دون آخر بقدر ما هي تعتمد قواعد علمية يقبلها الجميع .

هناك قطعا دوافع أدبية موضوعية جعلت خبراء التربية يختارون المؤلفين والنصوص ، منها الاعتبارات التي تخدم تكوين التلميذ وطنيا واجتماعيا ، لأن المتخرج من الدراسة الثانوية يتجه عادة الى الجامعة للاستعداد للقيام بدوره في حقل النشاط الاجتماعي المترشد ، فلا مناص من تسليحه بتربية مدنية اجتماعية تخولها له المنتخبات الادبية الوطنية أساسا . وبذا ندرك ما لنصوص الطاهر الحداد من قيمة تكوينية دعمها بعدها التاريخي ونفسها الوطني .

أدب الحداد والمرأة :

وباستقراء كتب النصوص انطلاقا من السنة الثالثة الى السادسة من المرحلة الثانوية ، تتبين حسب الجدول التالي المكانة التي احتلها الحداد بين الكتاب الآخرين ، والمحاور التي ألحقت بها نصوصه :

إحصاء النصوص المختارة من مؤلفات الطاهر الحداد							
	شعر			نثر			
	محاور	الوطن	القيم	المرأة شغل تثقيف	اصلاح إجتماعي تضامن	تقاليد	ثقافة
ثالثة		1		1			
رابعة		1	1		1	1	1
خامسة				1			
سادسة		2		3			3

ما يلاحظ في هذا الجدول أن التمهيد والتعرف على كتابات الحداد بدأ منذ السنة الثالثة حيث تكون الناشئة متحفزة فكريا متطلعة الى الاقوال الجديدة التي تبعث على الحماس الملموس ، فشمل ذلك شعرا وطنيا وتعريفا بمشاكل العملة والمرأة . يزداد هذا التنوع في المواضيع في السنة الرابعة حيث تتوازن القصائد بالنصوص النثرية في حين ان الحداد يكاد يكون غائبا في السنة الخامسة ، لكن حضوره يتكثف في السنة السادسة بتسع نصوص منها قصيدتان . لذلك يتبين أن المنتخبات التي لها صبغة اجتماعية وفكرية والتي تطرح مشكلا ما على التلميذ لا بد لها أن تترقب مزيدا من النضج الفكري لديه ، لكي يتمكن من فرصة ابداء الرأي والحكم على الأمور .

وتتمحور هذه النصوص حول الحماس الوطني وتربية المرأة والمشاكل الاجتماعية الخاصة بالشغل والشغالين وما يستوجب ذلك من اصلاح اجتماعي وحلول تضامنية بين فئات الأمة .

إن الطاهر الحداد في مقصده التربوي الخاص بالمرأة يتذرع بالمصلحة الأسرية ليتقدم بمشروعه الذي يقترح فيه ان تعلم البنت حرفة « للكسب منها » ، حيث تكون « عونا لزوجها » ، وتساهم في « تنمية ثروة المنزل » . كان إقبال المرأة على التعليم في زمانه بادرة من الغرابة بمكان . فلا أقل من أن تتقن صناعة تشتغل بها في بيتها فتدر عليها بعض النفع ، وتحتمي من الطوارىء (موت الزوج) ، أو على الاقل حتى لا تشكل ثقلا وعبئا مع أولادها على دخله المحدود . والا فمصيرها مظلم حيث تذهب للعمل في البيوت فتهمل تربية أبنائها . لكن تعليم الفتاة الفنون والآداب (وهي صورة للتعليم المثالي الذي يكون ترفا في عصره) يسمو بروحها الى الكمال . على هذا النحو تتفوق النزعة المنفعية العاجلة في تعليم البنت ، وهي المناسبة التي يحسن بالمربي أن يستغلها لوضع آراء الحداد في إطارها من حيث

المحيط والعصر ، حتى لا تسيء البنت فهم ما يرمي إليه المؤلف الذي يريد من المجتمع تخصيص مكان معين للفتاة والمرأة وجعلها طرفا فاعلا في الرقي والتطور[19] .

فعلا إن المرأة العاملة في تصور الحداد تشكل واحدا من طرفي العقد العائلي ، فهي تعمل لمساعدة بعلها واستعدادا لما عسى أن يطرأ على حياة الاسرة من مصائب يمكن التخفيف منها بدخول الزوجة سوق الشغل . فسواء فقدت زوجها أم لم تفقده ، أو أصابه مرض أو ترك البيت ، فمن واجبها أن تحمي أبناءها من الغوائل . وما يجب حمل التلاميذ على إدراكه والاقتناع به هو أن العبرة ألا يستسلم المرء (وبالاحرى المرأة الضعيفة) أمام الأحداث بل يريدها الحداد أن تكافح وتضحى من أجل بقاء الأسرة ، إنه درس في شد العزم والشجاعة النفسية لا بد أن يتلقاه التلاميذ إذا ما عمق معهم المربي الموضوع وحملهم على استنباط الحلول الملائمة لمشاكل واقعية . والأم المسؤولة لا حق لها في إهمال بناتها وهو أمر أخطر على مصير الأسرة واستقرارها من حيث الحفاظ على أخلاقياتها . وهنا أيضا تتدخل المربية لمناقشة تلميذاتها فيما يترتب عن إهمال الأبناء من عواقب وخيمة تظهر نتائجها في المستقبل . وللتلميذات أن يتساءلن عن حظوظ البنت من التعليم في الماضي وكيف يمكن للطاهر الحداد أن يقتصر على مطلب زهيد يطالب فيه بتعليم الفتاة صناعة يدوية منزلية . إن لمحة تاريخية عن الوضع التعليمي مدة الحماية كفيل بإثارة الأفكار وتبرير مطلب الحداد المتواضع الذي نظر الى الأمور نظرة شاملة ولم يعتبر ببعض المحظوظات من البنات الموسرات المعدودات اللاتي تثقفن ثقافة متسعة[20] .

ومع ذلك فإن الطاهر الحداد لم يقتصر على طرح قضية التعليم الأولي المحدود بل تجاوز ذلك الى موضوع أوسع « كيف نثقف الفتاة لتكون زوجا وأما » . لقد حفل الكتاب الموجه الى تلاميذ السنة السادسة ثانوي[21] بنصوص كثيرة (تسعة) ، مركزا على تصور الحداد في موضوع تثقيف الفتاة حيث يلتزم بالثقافة الصناعية بل الحرفية (خياطة ، تطريز) . كانت له نزاهة المصلح الاجتماعي الذي لا يمكنه إلا أن ينظر الى الواقع المحيط به ويستنبط منه الحلول الملائمة ، إن واقعيته كانت تشكل جسرا متينا بينه وبين قرائه ، وبالاحرى بينه وبين المتعلمين الذين يتعرفون بالمحسوس على عادات السابقين التي اندمجت في شخصيتهم ، فترسخ في أذهانهم دون تزييف لفظي أو زخرف يطمس الحقائق . ثم إنه لم يعمل الا على استعراض ما شاع من صناعات في زمانه ، فكان يفاضل بينها ، مقدما بذلك درسا في الجغرافيا الاقتصادية حيث قال : « وتوجد صناعة أهم من ذلك وأوفر ربحا لمن يكتسب منها : هي صناعة النسيج في الصوف والحرير ، وهذه الصناعة متوفرة في الجريد وقفصة والاعراض والقيروان . وكل الجهات التي يتوفر فيها وجود الأغنام »[22] . وهو يسترسل في وصف أنواع « الثقافة الصناعية » بمعنى التدريب . لا شك أن المربي بما له حاليا من وثائق ومراجع ، يزيد إدراكه بما لهذه المعلومات من قيمة ، سواء درّس الجغرافيا أو التربية الوطنية أو التاريخ أو الأدب ، حيث يكون التنسيق بين المواد وتوحيد المحاور عامل على تقريب المفاهيم من المتعلمين . هذه دعوة ذكية إلى الاقبال على « التنمية الشاملة » في المجال الصناعي المنزلي سبقت عصرها حيث لم تعمل السلط الاستعمارية إلا على إعاقة كل بادرة وطنية في شتى المجالات . وفضلا عن ذلك ، فان الطاهر الحداد يعتبر العمل « قوة فعالة في بناء الزوجية على أساس التعاون بين الأزواج »[23] . وقد اهتم بالمرأة الريفية وشخص معاناتها وما تقاسيه من مشاق وبؤس ، فقارن حالتها بحالة المرأة الحضرية المترفهة نسبيا ، وكأنها دعوة إلى الموازنة بين الجهات .

أما عن الثقافة المنزلية فهو ينبه البنت إلى المزالق التي سوف تتورط فيها إذا ما جاوزت طلباتها قدرات زوجها المالية . فهو يدعو الى نوع من التقشف المعقول الذي تفرضه إمكانيات الأسرة ، وذلك بالحد من الاسراف الذي يؤول إلى تعجيز الزوج الحاضر أو القادم على عقد القران والذي ترهقه الطلبات التي تمطره بها أسرة زوجته . وهذه الظاهرة الشائعة كثيرا في أيامنا جديرة بتفحصها وتحليلها من قبل المربين في السنوات الاخيرة من التعليم الثانوي حيث أن فتيات كثيرات يقبلن على ربط مصيرهن العائلي إثر تخرجهن . وبمثل هذه التوعية يكون المربي قد أسدى خدمة جليلة للتطور الاجتماعي الايجابي إذ يحمل تلاميذه على التفكير في الأمر والتروي قبل إتخاذ القرار . وما يلفت النظر في تفكيره حرصه على التدقيق في وصف نفسية المرأة الحضرية ومقارنتها بالبدوية الطيعة المستسلمة لمشيئة زوجها . فالمرأة

في المدينة ربما للجو المتوتر السائد في الدور والأزقة الضيقة تضيق ذرعا بزوجها وهي شديدة المشاكسة كثيرة اللغط والخصام ، آمرة بدل أن تكون مأمورة ، وقد حط عليها الجهل والتخريف بكلكله . وقد قاد، تفكيره إلى أن إنقاذها يمر عبر تدريبها على استخدام يديها واتقان مهارة من المهارات النافعة . فنجده يكرر القول في كيفية بلوغ الثقافة الصناعية .

لكن الحداد لا يغلق الباب في وجه الثقافة الفكرية . وهذا ما يجب التأكيد عليه مع التلاميذ حتى لا يعتقدوا أنه يعترض على تثقيف الفتاة وتعليمها في المدارس وهي تهمة يسهل دحضها حيث يقول إن عالم المرأة في تونس ليس سوى عالم كله جهل وتخريف . ويستفيد التلميذ كثيرا لو أدرك كنه هذا العالم ومايكتنفه من خرافات يتشوق إلى فك أسرارها وغموضها ، فيحمله المربي على استنتاج ما هنالك من فوائد في ترسيخ التربية الدينية في لا شعور الفتاة أمّ المستقبل ، إذ أن تسلحها بالدين يفرض عليها محو ما علق به من ترهات . والمقدرة التربوية تتمثل في أن يستغل المربي ولع الشباب بالغريب وروح المغامرة لتنوير العقول الفتية دون الاستناد إلى شفافية الأفكار العامة فحسب ، بل إلى الوقائع الناطقة التي يدركها المتعلمون في سن المراهقة التي تسخر من كل ما يناقض نواميس العقل . لا شك أن الشباب في حاجة إلى إعمال خياله ولا يتم ذلك عن طريق حشو الدماغ بالخرافات المغرقة في الغرابة والتي تركز على خوارق الأعمال . إن ثراء الخيال يكون مكسبا لو اعتمد جهود العلماء ومغامراتهم من أجل كشف الحقائق العلمية النسبية ، بحيث يطمح المتعلم إلى النسج على منوالهم وهو ينزع الى رغبة ملحة في تأصيل شخصيته الناشئة من خلال ابتكار شيء ما يضيف لبنة في صراح الرقي الانساني . يقول الطاهر الحداد في هذا الخصوص : « إن أبناء ينشأون على فطرة حية نابهة يريدون أن يتعرفوا على ما حولهم من مرئيات ومسموعات ، وهم في سن من لا يتجه لذلك عادة . وهذا كثير الوقوع . وبدل أن تهتم العائلات بهذا الانتباه الشاذ في أبنائها فتعنى بتوجيهه نحو الصلاح وتزيده قوة ونموا أو تعهد بذلك للمربي القادر عليه ، فهي بعكس ذلك تتشاءم من هذا الشذوذ . . . »[23] .

ذلك أن الطاهر الحداد الملاحظ الاجتماعي الدقيق لاحظ ما في التربية العائلية من إزعاج وهي تؤثر مستقبلا على تكوين شخصية الكهل . فالأولياء ينطلقون من جبر الطفل على احترام سلطانهم المطلق عليه ، مما يوجب عليه الطاعة لأوامرهم ونواهيهم ، فيربونه على أنانية من ينفرد بهذا السلوك . لكن المؤلف خبير أيضا بخفايا النفس البشرية ومنعرجاتها وتعقيداتها ، فهو لا يتفق مع الأولياء في تشددهم مع الصغار لأن مثل هذا الموقف يزيدهم اضطرابا وعنتا خاصة إذا ساد الاضطراب الحياة التي تربط بين الزوجين وهي التي تتعكر كلما تعكر مزاج الزوجين دون مبرر واضح .

ولم يقتصر الحدا د على هذا الوضع الحالك إلا ليقدم التعليل المناسب فيبين أن انحطاط العائلة مرده العادات البالية وتفشي السكر والقمار . والحل الصائب يتمثل في تسليح المرأة (والفتاة) بالثقافة الحية والتعليم القويم الذي يشمل تربية أخلاقية ملائمة . وهناك عوائق كبيرة يجملها في قبوع الفتاة في البيت وحرمانها من المعرفة لاسباب تهول مفهوم الحياء الذي كان يحيط بتربية الفتيات في زمانه ، وخلاصة تحليله لهذه الظاهرة الاخلاقية المرتبطة بفهم خاطىء للأخلاق أن فرض سلوك متشدد على البنت باسم الحياء عملية تعجيزية لها تفقدها ثقتها في نفسها . والنتيجة الخطيرة لهذا المنهج التربوي الاعتباطي أن الأمر ينتهي بالأم إلى إحباط كل مسعى وطني يروم الكفاح والتضحية وينطلق من المحيط الذي يتنقل فيه الابناء المرهقين نفسانيا تحت طائلة تشدد الأب المشط وعطف الأم المتناهي . ولا يمكننا بعد هذا إلا اتهام الحياة الزوجية ووصفها بأنها فاقدة للترشد وخاضعة للنزوات والبطش الصادر عن الرجل والمهانة التي تخضع لها المرأة .

فلا عجب بعد ذلك أن يلح الطاهر الحداد على « تربية » المرأة ، بمعنى تعليمها وتثقيفها حيث أنها مولدة نسل وربة بيت وزوج الرجل . ولا يكتفي بهذه الدعوة المجملة بل إنه يقترح برنامجا تعليميا يلائم عصره وهو يتمثل في تعليمها أصول الدين والتاريخ واللغة وتاريخ بلادها والعلوم الرياضية والطبيعية ، وكل ما من شأنه ان يمحو من عقل الفتاة ما علق به من خرافات وأوهام تلقتها عن أمها الجاهلة . كما أنه لا يتردد عن اقتراح نشر التربية البدنية « لأن الرياضة

حركة والحركة هي الحياة » . كما أنه ينبغي أن تتعلم مبادىء علم الصحة حتى لا « تنخدع بارشاد الجاهلات والجاهلين في طب أطفالها حتى تؤخر برءهم أو تعجل بهم الى المقبرة »[24] .

والخلاصة أن الطاهر الحداد لم يحد من نزعته التربوية المحددة الواضحة في تعليم الفتاة ما يفيدها في حياتها المقبلة . ومثل البرنامج الذي اقترحه يعد تجديدا هاما في زمانه لا يجسر عليه إلا قلة من المستنيرين الذين يثقون بفوائد التعليم وعوائده على المجتمع .

التربية الاجتماعية عند الطاهر الحداد :

إن الحداد مقتنع أشد ما يكون الاقتناع بحاجة تونس الى الاصلاح الاجتماعي الشامل الذي يخدم التطور العام دون إضرار مباشر بفئة على حساب فئة أخرى . ورأيه في ذلك واضح لا يحتاج إلى شروح إضافية إلا طريقة الاستفادة من أفكاره في الحقل المدرسي . فهو يقول : « على أن قيام حركة اجتماعية في تونس على أساس التعاون العام بين طبقات لا تبعد كثيرا عن بعضها يكون من مقاصدها بث الروح القيمة ومساعدة التعليم والتهذيب »[25] .

وبذا تتّضح أمامنا السبل التربوية على أساس التعاون والتضامن الذي يزيد من التحام أفراد الأمة التونسية التي تواجه استعمارا فكريا شرسا . إن مثل هذه النظرة إذا ما تقمصها المعلمون والتلاميذ قولا وفعلا ، لا شك أنها ستكون منطلقا لارساء قواعد العمل المتآزر الذي يجمع بين أصناف من المتعلمين لا يخضعون إلا لمبادىء موضوعية توحد بين السبل والمناهج المتوخاة ولا تبغي الا العمل الصالح والثمرة الطيبة . إن دراسته العميقة لوضع العمال حملته على استنتاج آراء متينة صائبة لا تزعزعها الأهواء . فهو يدافع باصرار عن العامل التونسي ويناشد أمته ببذل روح التآزر لتجنيب إخوة في الوطن المجاعة والتسول ، وتزداد حسرته حينما يخرج الصغار لاستعطاف المارة عوض أن يكونوا بالمدارس يتلقون المعرفة . إن الطريقة التي كتب بها واصفا حال البائسين لا شك أنها مؤثرة على التلاميذ الذين يجبذون مثل هذه النصوص التي تخاطب العقل والشعور في آن واحد ، ويكفي الاشارة الى وصفه لحبس صغار الحمالين بالسوق المركزية . وهكذا فالطاهر الحداد يتحدث عن التربية الاجتماعية فيقدم أمثلة محسوسة مقنعة (تأسيس الجمعية الخيرية سنة 1905 وقلة مواردها) . إنه يدعو الى العمل من اجل الغير فيبث روح المواطنة بين الأهالي ، وهي ظاهرة حرية باهتمام التلاميذ الكبار . وتأييدا لآراءه ، فهو يوضح النظام التعاوني لا من حيث هو مبدأ أخلاقي فحسب بل لكونه عملا ملموسا من أجل المعوزين يستند إلى روح من التآخي والتضامن لا تتردد في نبذ الأنانية المتسببة في الحسد وانتشار الأحقاد .

وبذا فإن تصوره للحياة الاجتماعية المتآزرة إنما هو تصوّر للوطن المثالي الذي يجمع بين أفراده في السراء والضراء ويمكنهم من مواجهة الخصم الاستعماري العنيد ملتحمين متآزرين . إن الطاهر الحداد مارس فكرة التضامن الاجتماعي ونظّرها التنظير الملائم ، حتى أصبح له تصور لا يخلو من طرافة وأهمية . والتعاون عند الحداد لا يتصف بالصبغة المادية المطلقة « بل إن غايته أيضا تربية الفرد تربية اجتماعية صالحة ببث روح التآخي والتعاضد على العمل ، وحب الاشتراك في المنفعة ، وتربية استقلال الفكر الذي أضاعه رأس المال الكبير ، وتنمية شجاعة النفس التي أضاعها الاحتياج لمقاومة الأزمات وما يأتي من مظالم رأس المال الكبير بما له من القوة والتفوق »[26] . كانت كتاباته تلاقي إقبالا وتأييدا لما اتصف به أسلوبه من متانة ووضوح وقوة إقناع ودقة في وصف المحيط الاجتماعي التونسي ، ورسم صور حيّة للفاقة والاحتياج الذي يتخبط فيه المواطن ، حتى قيل « إن بلاغة تحرير الطاهر الحداد ودقة تعبيره في منزلة قل أن تنال »[27] .

هكذا أصبح لمفهوم التعاون بين الناس صدى تجسم في تأسيس جمعيات وتعاونيات تحاول تسديد بعض الحاجيات الملحة أمام تفاقم الفقر . وبذلك ساد الرأي العام تأييد لمبدأ التآزر الاجتماعي الذي ينطلق من الفرد أو من

المجموعة ، متجاوبا مع النظرة الاسلامية ومعززا بالروح الوطنية التي استمرت إلى يومنا عندما تنزل بالناس كوارث طبيعية وغيرها . وهو المبدأ الذي أصبح مجالا تعليميا يصل المتعلمين بتراثهم الاسلامي وتجذرهم في تربتهم الوطنية . وأصبح التعاون سياسة رسمية ومبدأ أخلاقيا ساميا تعمل به الدولة التونسية في الداخل والخارج ، والممثلة في شخص رئيسها الذي حدد للتعاون تصورا يستجيب لأهداف اجتماعية تستند إلى أخلاقية يستنبطها الشعور . فقال بخصوص الشعور بالأخوة أنه « ينبغي أن نغذيه ونتعهده ونقويه حتى تكون تلك العاطفة التي تكونت بالاجتماعات والتوعية ، وبالمصائب التي وحدت صفوفنا وبالأفراح والأتراح والكفاح والهزائم والانتصارات . وقد ازدادت في النفوس ضياء وإشعاعا وحتى تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل فيدرسها لهم المدرسون في المعاهد رصيدا تاريخيا يشعرون من خلاله بالنخوة والاعتزاز »[28] .

الطاهر الحداد والتربية الوطنية :

إن مشاعر الطاهر الحداد الوطنية تتدفق في نثره وشعره لا مراء في ذلك . ولا يمكن الا التلميح إلى مقاصده الوطنية العميقة الحماسية التي يخاطب بها الشعب رأسا ، مستنهضا همته ومتجها اليه كقوة فاعلة قادرة على تغيير مصير أفراده . كان شعوره بالاهانة التي وجهها المستعمر الى بني جلدته ، مدعيا أنه محمل برسالة تمدينية مغررا بالاهالي الذين كانت نواياهم طيبة في الاقبال على الحياة الحديثة والعزم على الغرف من العلوم لانها عامل بناء وحياة ولان المسألة تتعلق بالحرية والعدالة والكرامة التي سيكافح الشعب من أجلها . كما أن الحداد يدعوه الى الرد على كل اعتداء يمس بعزة الأمة (حملة التجنيس) : قال

« وأيد لهم بالحس أنك ماجد   وإن كنت في بؤس فجنسك أرفع »[29]

إن العمل الملموس هو الرد المناسب على ادعاءات المستعمر ، وهو درس يكون مهما أن ينقل إلى التلاميذ أثناء حصص التربية الوطنية . فلا غموض ولا رمزية مفرطة بل إن الشاعر ينادي إلى التمسك بالقيم الواقعية والتشبث والاعتزاز بالأصول أمام هجمة الخصم .

وفي قصيد « في سبيل الوطنية » ، نجده يجمع بين حس الشاعر المعبر وبين المربي الذي ينزع الى الحث على تجميع الجهود لأن الاتحاد قوة . ويبدو كأنه صوت صادح استقطب كافة النداءات الواردة من وجهات مختلفة . إنها بحق حمية جد مؤثرة على الشباب الذين يكفيهم أن يتحدوا في سبل الخير ليشعروا بقوتهم الفعالة التي يطمحون الى تسخيرها في خدمة الأهداف النبيلة . وقد قال في ذلك :

« فالجمع يقطع أو عار ينوء بها   فرد يكد لها بالنفس والمال »[30]

وهكذا تلتقي الدعوة الاجتماعية (الى التعاون) بالدعوة الوطنية (الى الكفاح) . ان الدقة والتعمق في وصف المستعمر وطرقه في استذلال المواطنين يكسب التلميذ قوة أدبية ومبررا لمواجهته ورفع رأسه ، فيلجأ في ذلك الى بلاغة تستفز مشاعر الوطني الغيور :

« لقد مات هذا الشعب واغتيل عزه   فأصبح للأرزاء فيه تولع »[31]

حقا إنها نظرة سوداء مؤثرة سلبا على نفوس الشباب المتطلع الى حياة افضل بين شعب يعتز بأصوله ويضحي من اجل ذلك . لكن سرعان ما ينقشع هذا الوهم إذ أن الحداد يدعو الشعب الى التخلي عن الرهبة وآثارها القاضية على كل حماس فتي ، مستنكرا كل فزع لا يتصف بالواقعية ولا يخضع لنواميس المعقول فيقول :

« ولا ترهبن فالخوف موت محقق يعم بنينا شره المتطلع »[32]

إن الطاهر الحداد يلقن الشباب درسا في الصمود والثبات على المبدأ لأن إيمانه بوطنه لا تزعزعه الرهبة والأهواء . ولن تلين له قناة إلا إذا أقنع بني وطنه بما يختلج في نفسه من مشاعر وما يكنه فكره من آراء وتحديات تحول دون رده على أعقابه ودحره واستسلامه لخصومه ، وبذلك يتنازل عما اكتمل في شخصيته وعقله من رؤى وتفكير استنار بتجارب سابقة ، فأراد للشعب الحياة العصرية والثورة الاجتماعية الهادئة على الأوضاع البالية ، فبدأ يخطط للرقي بالمرأة والأم والفتاة كعماد المجتمع وأجياله المتعاقبة وعامل أساسي في النهضة الاجتماعية الشاملة . وضمن هذا المسعى المنطقي فقد ألح على التخلي عن التقاليد الموروثة التي تعوق التطور الاجتماعي الذي يبدأ من الخلية الصغرى العائلة ، وتيسير التعاقد على الزواج ، على ان تتجنب أسرة الفتاة المطالب المشطة التي تجعلها تتباهى بما حصلت عليه من مهرو وهدايا أمام الأقارب والأجوار . الأمر الذي يضع أباها في حرج مالي وأدبي إذ يفرض عليه فرضا تجهيز ابنته مهما كانت التكاليف . إنه درس واضح في التربية الوطنية لأن التكافل بين المواطنين يحتم تجاوز هذه الوقائع الظرفية والتفكير في بناء سعادة العائلة .

وبذا فإن الطاهر الحداد قد انشغل بالأوضاع الاجتماعية في مجالات متقاربة ومتساندة . فاهتمامه بقضية الشغالين يقود حتما الى التفكير في أوضاع الأسرة التونسية ، وبالذات في الأم والفتاة المحرومة من التعليم والتي لاحيلة لها إلا البقاء عالة على أهلها أو على زوجها ، مما يزيد في تفاقم المشاكل في البيت وخارجه ، فلا مناص للمؤلف المصلح من البحث عن حلول ملائمة .

إن نزوع الطاهر الحداد إلى إضفاء الصبغة التربوية على مشاريعه الاصلاحية يحملنا في النهاية على استخلاص بعض النتائج التي تغذي التفكير التنموي في كافة المجالات القائمة حاليا . من ذلك أن نداءات الطاهر الحداد في الاصلاح العائلي والاجتماعي والوطني وجدت التربة الصالحة (منذ انعقاد مؤتمر البحث في مارس 1934) التي رعتها واستفادت منها في خدمة النهضة الفكرية . إن أدراج منتخبات من تآليف هذا المصلح في الكتاب المدرسي والبحث الجامعي تجعل منها أدوات قارة في الانتاج الفكري ومراجع معتمدة في الداخل والخارج يستغلها الباحثون في كتاباتهم . ويكون مفيدا لو اتسع مجال نشرها في كتب التربية الوطنية وكتب التاريخ وغيرها ، لتتضافر الزوايا التي منها تناقش أفكار الطاهر الحداد ، على بلورة أفكاره وإبراز ما فيها من جدة وطرافة وقوة حجّة فضلا عن تحليلها لغويا وبلاغيا . ولا يمكن أخيرا ما لوسائل الاعلام من دور تعريفي هام إذا عرفت كيف تستغل أحسن الفرص لخدمة الثقافة والفكر على أسس قويمة .

مواقف الطاهر الحداد من الثورة والاصلاح من خلال كتابه : العمّال التونسيّون

عبد الحميد عبد الواحد

توطئة :

يمكننا ان نعتبر ان كتاب الطاهر الحداد لا يخلو من بعدين :

○ أولا : انه كتاب تاريخ حتى وأن لم يجمع فيه صاحبه كل جزئيات الحركة إلا أنه سجل فيه أهم الحوادث والأفكار ابتداء من بروز الحركة العمالية الى الاعتصابات الى تكوين فروع النقابات فجامعة عموم العملة التونسية .

○ ثانيا : هو كتاب دعاية لبث الوعي العمالي في وسط الطبقة الشغيلة التونسية وبقية أفراد الشعب .

يعتبر الكاتب أن الحركات الاجتماعية وبالخصوص الاقتصادية منها لا بد وأن تسبقها دعاية عامة « تشرح حقيقة هذه الحركات وأصول أعمالها وواجب عموم الشعب فيها »*

من خلال هذين البعدين تتجلى لنا مواقف وأفكار الكاتب الذي ساهم في تنظيم وبعث حركة عمالية ، كما شهد تأسيس أول منظمة عمالية تونسية كان لها الفضل رغم قصر عمرها في تأطير الطبقة العاملة .

في هذا العرض سوف نقصر اهتماماتنا على هذا الجانب بالوقوف على أبعاد أفكار الطاهر الحداد ومواقفه الأيديولوجية والسياسية التي تتراوح بين الاصلاح والثورة وذلك فيما يتعلق بالحركة العمالية والنضال النقابي .

إلا أنه يجدر بنا الوقوف قبل ذلك عند هذين المصطلحين :

- الثورة : والمقصود بها هو التغيير الجذري للأشياء . . هي هدم وقلب ما هو قائم بغية تغييره واعادة بنائه .

الثورة أيضا يمكن ان يعبر عنها بانعراجه حادة في التاريخ ، وهي . أيضا قفزة نوعية بالنسبة لمفهوم تطور الأشياء .

- الاصلاح : هو الترميم واجراء تغييرات جزئية وطفيفة من دون المساس بعمق الأشياء .

بعد هذا التحديد لننتقل إذن إلى النقاط التاله :

1 - البعد النظري لتحليلات الطاهر الحداد :

لا يخفى علينا أن الطاهر الحداد ينطلق في كتابه من العام إلى الخاص . انطلق من الوضع العالمي الى الوضع الداخلي . كما انطلق من أممية الحركة العمالية الى قطريتها ، محاولا في ذلك ابراز طبيعة الصراع والقوى المتصارعة .

في مقدمة كتابه يعرض علينا منذ البداية مقدمة - يمكن أن تعد نظرية - موجزة نستطيع أن نستشف من خلالها الخلفية الأيديولوجية التي تتحكم في مفهوم العمل النقابي والسياسي عند الطاهر الحداد مما يقودنا الى استخلاص ما يلي :

1 ـ يعتبر الكاتب ان الأرض هي التي ولدت الإنسان .

2 ـ احتياج الإنسان للتعارف والتعاون ولدته الحاجة للانتاج .

3 ـ الاقرار بالتفاوت وعدم المساواة بين الناس مما أدى الى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

4 ـ أن الانسان مادي بطبعه .

5 ـ اعتبار التاريخ مراحل ارتقى فيها الانسان من الدور البدائي والقبلي الى دور التشعب والأممية .

إن هذه الجوانب النظرية كما يمكننا أن نتبينها لا تختلف في جوهرها عن مبادىء الاشتراكية العامة التي تقول أن الفكر والادراك ما هما الا نتاج الدماغ الإنساني وأن الإنسان نفسه هو نتاج الطبيعة ، وأن المادة هي سابقة للفكر . كما أن الناس أثناء الانتاج الاجتماعي لحياتهم يقيمون في ما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم ، وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية .

2 ـ فهمه الصراع :

لا يتوانى الحداد في التصريح بأن الصراع القائم في أوروبا هو صراع بين العمل والرأس مال وأن ما حققته الطبقة العاملة الأوروبية في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن من حرية في القول ومن حرية التجمع والنشاط النقابي والتحسين في وضعيتها ما هو الا « نتيجة السنين والأيام الطويلة في الكفاح مع رأس المال . »

فتأسيس الجمعيات الخيرية وصناديق التعاون والتعاونيات كان يعتبر بمثابة عامل مهم في تخفيف وطأة البؤس . واكتسبت الطبقة العاملة بحكم التضامن القائم بين افرادها « قوة نفسية واجتماعية » مكنتها من اعلان الحق النقابي مما خول للعمال « حق الاغتصاب عن الشغل متى شاؤوا . بعد أن كانوا سوادا مهملا لا حق له الا خدمة أسياده »** .

هذا الصراع الدائر تمخضت عنه مسائل ثلاث :

1 ـ بروز نخبة مفكرة اهتمت بقضايا البشرية ومشاكل الانسانية للوقوف ضد الاستغلال والحيف والظلم اللاحق بالطبقة العاملة أساسا . انقطعت هذه النخبة للبحث في « تاريخ الانسان والحق الطبيعي فتمخضت هذه الأبحاث بعد الدرس الطويل أجيالا وقرونا على كتاب في الاشتراكية في أوروبا للأستاذ كارل ماركس الألماني الذي عد كتابه غاية أحلام الانسانية » .***

2 ـ إنشاء المؤسسات النقابية ذات الطابع الأممي . وفي هذا الصدد يتعرض الحداد الى تكوين المكتب النقابي الأممي في سنة 1902 . كما يتعرض لتأسيس الجامعة الأممية اي الأممية الثانية ، أممية امستردام وذلك في سنة 1919 مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الكبرى .

3 ـ تشكل أحزاب سياسية عمالية قوية معارضة دخلت وجها لوجه في صراع مع رأس المال « فأنكرت وجوده وسعت لاجتثاث عروقه النامية في جوف الأيام » ****

4 ـ قيام دولة جديدة هي الدولة الاشتراكية السوفييتية التي وصلت الحكم عن طريق العنف الثوري بقيادة حزب بروليتاري يدعو لبناء الاشتراكية وتحقيق المساواة .

5 ـ بروز حركات التحرر القومية أو الوطنية في ما سماه العالم القديم والتي انحصر همها في « نزع القدم الأوروبية الواطئة أرضه لاستغلالها واستغلاله بحق القوة والسلطان »*

من خلال هذا العرض يمكننا ان نتبين المسائل التالية :

○ أولا : أن رؤية الطاهر الحداد للواقع وموقفه الأيديولوجي الذي انطلق منه لا يختلف جوهريا عن مبادىء المادية الجدلية والمادية التاريخية باعتبار أنه يعترف ضمنيا :

- أن الصراع الطبقي هو محرك التاريخ .
- أن نضال الطبقة العاملة ينحصر ضمن حدود الصراع الأممي القائم بين العمل ورأس المال .

○ ثانيا : غياب البعد القومي واهمال القضايا الوطنية وحصر التناقضات الرئيسية بين الطبقة العاملة والراسمالية الاحتكارية .

من خلال هذه الاستخلاصات يبدو لنا من المفيد ان نتساءل إلى أي مدى يمكننا أن نجد انعكاس هذه المواقف في تحليل الطاهر الحداد للوضع في بلاده ؟

3 ـ الحالة الإجتماعية والإقتصادية بتونس :

لا يحدد الطاهر الحداد في هذا المضمار نمط الإنتاج ولا علاقات الإنتاج السائدة بل يكتفي بالإشارة الى غياب الرأس مال الكبير مثل ما هو الحال بأوروبا والعكس من ذلك فالسائد بها هو الرأس مال الصغير .

كما يشير الى جانب هذا الى وجود الأملاك الواسعة ، البور التي لم يتم استغلالها . ينتج عن هذا طبعا ضعف ، في الانتاج وفي المردود الخام للبلاد .

من حيث العلاقات الاجتماعية يبين الأنفة أو التعفف الذي تتميز به العائلات الكبرى فيما يتعلق بالأشغال اليدوية . فهذه العائلات « إما أن تنحاز الى الوظائف العليا في الحكومة أو تستغل بعض الأراضي بايدي عمال تستعملهم للتحصيل على إيراد سنوي من مجهودهم في تلك الأراضي »*

ولا يقتصر حديثه على المدينة بل يتعرض للكبراء في الريف أيضا الذين يستعملون « نشاطهم في ركوب الخيل واللعب بالسيوف وأنواع من الرياضة »**

كل هؤلاء الكبراء كانوا أعيان السلطة وعمادها الى حد الاحتلال حتى تحولت السلطة الى أيدي الفرنسيين ، فجاء المعمرون الفرنسيون لاحتلال الأراضي واستغلالها وبحلول الاحتلال دخلت الرأسمالية الكبرى الفرنسية الى تونس . كما دخلت من جرائها المعامل والصناعة الأروبية (خاصة السكك الحديدية والمناجم) .

وتم اجتياح الرأس مال الصناعي للبلاد التونسية مما انجر عنه « حذف جانب عظيم من عمل الصناعات التونسية » .*** وما أصاب الصناعة أصاب الزراعة .

4 ـ التقسيم الطبقي للمجتمع التونسي :

حاول الحداد أن يرسم خريطة للقوى الحية والعاملة في البلاد . احتوت هذه الخريطة على الهرم البياني التالي :

1 ـ فئة اليهود : وتأتي في قمة الهرم ويعتبرها الحداد أنها أنشط فئة رابحة تعتمد على الرأس مال النقدي الذي تخصص جزءا منه « لادانة الفلاحين والصناع ومن لهم أملاك » .****

كما تستحوذ هذه الفئة الرأسمالية على تصدير المحاصيل الزراعية وجلب الواردات . تشارك هذه الفئة طائفة من الأجانب .

2 ـ الفئة المتوسطة : وتتكون أساسا من التجار باعتبارهم موزعين صغار ومن أصحاب الأراضي والصناعة وهم من عموم التونسيين المسلمين .

تقع هذه الفئة ضحية لرأس المال النقدي .وهي سرعان ما تفقد عيشها تحت ضغط الأزمات ولكثير من أغنياء هذه الفئة « أموال نقدية نصيبها أن توضع في الصناديق حفظا لها وخوفا عليها من عوادي الزمن » *

3 ـ **العمال** : يشترك العمال في نوعية الألم الذي يعانونه وفي تعرضهم للاستغلال . ويختلفون في نوعية العمل الذي يباشرونه . يصنف الحداد العمال الى الأصناف التالية :

ـ الزراعيون

ـ الصناعيون

ـ الناقلون (مثل عملة السكك الحديدية والأرصفة البحرية) .

ـ المستعملون في دواوين الكتابة .

في عرض تحليله لا يتناول الحداد الا صنف العمال الزراعيين والصناعيين :

أ ـ عمال الزراعة :

وهم الذين يعملون في الأرض والمعروفون « بالخماسة » و « الرباعة » « نسبة الى الخمس أو الربع الذي ينالونه مقابل خدمة الأرض حتى تعطى أكلها »**

ويعتبر الخماس « مظلوم في حياته مغبون في عيشته » .***

ب ـ عمال الصناعة :

ويتعرض في هذا الصدد الى التقسيم العرفي الجاري في الصناعات والذي يعتمد على ثلاث وظائف .

ـ المعلم : وهو صاحب رأس المال .

ـ القلفة : وهو أجير يحسن صناعة معينة ومتخرج فيها .

ـ الصانع : وهو في الغالب من الأطفال ، يتمرن على الصناعة ويساعد القلفة في عمله .

بعد تحليل هذه الشرائح الاجتماعية يخلص الطاهر الحداد الى مظاهر البؤس والفاقة في المجتمع التونسي والى نفسية التنافس والتباغض وانقطاع الرابطة بين التونسيين عموما والتي ولدت جسما مريضا ألا وهو المجتمع التونسي « الذي استطاع الاستعمار الفرنسي أن يخترقه بسهولة » .*

يتعرض الكاتب بعد هذا الى تصوير أوجه البؤس وجسم الأمة المنهوك . فولد عن ذلك إنشاء الجمعية الخيرية بالعاصمة سنة 1905 لمساعدة الفقراء . كما يلاحظ خلو البلاد من روح التعاون وانعدام المؤسسات المالية ، فلم يوجد في هذا المجال الا « بنك التعاضد المالي » الذي أسس سنة 1922 قصد مساعدة صغار الزراع والصناع . ويعتبر الطاهر الحداد ان النهضة السياسية كانت سابقة للنهضة العمالية فيتعرض الى تأسيس الحزب الدستوري في سنة 1920 ، واعتبار الحكومة هي السبب في غبن المواطن .

في هذا الوضع المتأزم يجيء طرح الكاتب فيقول : « في هذه الأثناء بدأ الشعب يشعر أن الحركة السياسية وحدها لا تكفي لأفهام الحكومة ما يطلب الشعب منها بل يلزم ان تنضاف اليها نهضة العلم والاقتصاد وتأسيس المؤسسات لذلك بصدق وعزيمة ، وتلك هي القوة التي تفهمها الدول الوصية اليوم على الشعوب المستضعفة » .**

وجاء هذا العمل الاقتصادي العام الفائدة مع مجيء محمد علي .

من خلال هذا العرض ومن خلال الجزء الأول من الكتاب يبدو لنا الطاهر الحداد محترزا بل شديد الاحتراز في مواقفه . هذا عكس ما سنراه في الجزء الثاني عندما يخوض معترك النضال النقابي . فما هي مواقفه يا ترى من مجمل القضايا المطروحة ؟

1 ـ موقفه من الاتجاه الإشتراكي :

كما سبق وأن رأينا ، لا تتعارض أفكار الحداد في مقدمته مع الاتجاهات العامة للفكر الإشتراكي وذلك من دون الوقوف عند دقائق المسائل والجزئيات .

فأثناء تعرضه لماركس ورد ذكر هذا الأخير بعد الحركة العمالية في بداية القرن ، وبعد تأسيس الجامعة الأممية في أمستردام وبعد الحرب العالمية ، وهذا يتنافى والواقع باعتبار أن ماركس توفي سنة 1883 .

وفي مجرى حديثه عن الأبحاث الطويلة التي تمخضت على « كتاب في الاشتراكية في أوروبا للأستاذ كارل ماركس »* لا يتوقف الحداد ولا يرى ضرورة ذكر عنوان هذا الكتاب ولا مدلول محتواه .

2 ـ موقفه من الصراع السياسي والأيديولوجي القائم في أوروبا :

في هذا المجال لا يحدد الطاهر الحداد موقفا واضحا أو متحيزا بل نستشف مواقفه هذه من خلال :

أ ـ عرضه لتأسيس الجامعة الأممية في امستردام سنة 1919 والاعتماد على احصائيات كتاب هذه الأممية نفسها في تعرضه الى عدد المنتسبين في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى .

هذا في حين نعلم أنه خلال سنة 1919 ـ 1920 انعقد المؤتمر الأول والمؤتمر الثاني للأممية الثالثة وأن الخلاف كان قائما بين الأمميين .

ب ـ أثناء تعرضه الى الثورة الاشتراكية في روسيا يقتصر على القول : « أصابت البلاد الأوروبية . . رجات عنيفة تمخضت في بعض البلاد الأوروبية عن قيام دولة في الروسيا تمثل أحلام الإشتراكية »** وذلك من دون ذكر سلطة السوفييتات الجديدة ، ولا ذكر تاريخ هذه الثورة ، ولا ذكر الحزب الذي تكفل بإنجاز المهام الثورية مع العلم أن مبادىء هذه الثورة كانت تشغل الدنيا في ذلك الوقت والصراع فيها على أشده .

3 ـ موقفه من طبيعة الصراع في المجتمع التونسي :

في هذا المجال يمكن ان نعد الطاهر الحداد ذو رؤية متميزة في فهمه للواقع الإجتماعي من خلاله تبيانه لـ :

- هيمنة الرأس مال الصغير في تونس .
- التعرض للأوضاع البائسة والفاسدة بالبلاد .
- الوقوف على التركيبة الطبقية للمجتمع .

هذا من دون ذكر القوى السياسية المتصارعة ولا طبيعة الصراع ومن دون اعطاء البعد السياسي ما يستحقه .

من خلال هذا العرض ومن خلال هذه المواقف الباهتة التي تتراوح بين الثورية والإصلاح لنقف على أطروحاته من خلال مسيرة نضاله النقابي أو على الأقل تتبعه للحركة العمالية والنقابية .

1 ـ الاتجاه الإقتصـادي :

يمكننا ان نجزم في هذا الصدد ان السمة الغالبة والتي ميزت الطاهر الحداد في كتابه هي هذا الإتجاه الاقتصادي .

يقول في عرض آرائه « من يوم ما جاء محمد علي ونحن نتفاوض ونبحث عن عمل اقتصادي عام الفائدة يكون مطابقا لاستعداد الأمة في ماليتها وأفكارها » .*

انطلاقا من هذا المبدإ مال الطاهر الحداد مثلما مال محمد علي الى تأسيس شركات تعاونية وزراعية وصناعية وتجارية ومالية مما أدى به إلى المساهمة في تأسيس جمعية التعاون الإقتصادي التونسي ، هذه الجمعية تسعى الى تحقيق هدفين :

● أولا : هدف مادي ويتمثل في « تحقيق وطأة المعيشة وكسر حدّة الإحتكار الشخصي » .**

هذا المشروع يعتبره الطاهر الحداد قد حقق نجاحا كبيرا كاد يصل إلى دور الانجاز « لولا ما اعترض ذلك من حدوث اعتصابات برصيف العاصمة »***

من خلال هذا العرض يمكننا أن نخلص الى ما يلي :

1 ـ ان الحركة العمالية والحس النقابي عند الطبقة العاملة التونسية هو أسبق وأكثر تقدمية من هذا العمل الاصلاحي الذي سعى اليه الطاهر الحداد ومحمد علي وغيرهما .

2 ـ ان هذا العمل يعد عملا اقتصادويا بدائيا باعتبار أن الاتجاه الاقتصادوي هو اتجاه يشق صفوف الحركة العمالية بصفة عامة . يحصر نضال الطبقة الشغيلة في المطالبة برفع الأجور وتحسين الأوضاع المادية . وهو يتنكر للنضال السياسي كما يتنكر لدور الحزب القيادي ، ويغض في الأخير من شأن النظرية الثورية .
نستنتج إذن من هذا طبيعة العمل الاصلاحي الذي سلكه الطاهر الحداد منذ البداية .

2 ـ العمل النقابي :

ابتدأ العمل النقابي بالنسبة للطاهر الحداد ومحمد علي ورفاقهما مع اعتصابات ميناء تونس وبنزرت ، اتجه الاهتمام بعدها الى تشكيل هيآت نقابية منتخبة . وامتد تاريخ تأسيس هذه النقابات طيلة خريف سنة 1924 ، انتهت بتأسيس جامعة عموم العملة التونسيين .

من خلال خضم هذه الأحداث ومن خلال هذا النجاح الذي أحرزته الطبقة العاملة التونسية بلور الطاهر الحداد أفكاره ومواقفه النقابية والسياسية بأكثر وضوح . فقبل ان يعرف وجهة نظره تعرض إلى تباين الأفكار التي قادت الحركة العمالية العالمية واختلاف الطرق المتبعة في ذلك فيذكر :

1 ـ « جمهور المفكرين الذي استطاع بأفكاره الثورية الحامية ان يغير الطريق من الطلب والرجاء وانتظار الجواب إلى تمرين العمال على روح التمرد على الأنظمة المالية »* والمقصود بهذه الطائفة هم الشيوعيون أو من عرفوا بالاشتراكيين المتطرفين والذين ينظمون تحت لواء الأممية الثالثة .

2 ـ عامة الإشتراكيين الذين تخلفوا عن هذه الفقرة ـ كما يقول ـ و « الذين يرون ان خطتهم يجب ان تبقى في دائرة الجدل والمنطق من جهة وتنوير أفكار العمال وتلقينهم التربية الفاضلة من جهة أخرى » .* وتنظم هذه المجموعة تحت لواء الأممية السياسية أممية أمستردام .

3 ـ العاملون في النقابات الوطنية أو ما يعرف بالنقابات الصفراء . هذه الفئة « تريد أن تعمل على قاعدة التحابب والتقريب بين العمال والرأسمالية » .**

3 ـ وجهة نظر :

من وجهة نظره يتمسك الطاهر الحداد بمبدإ العمل النقابي ويعتبر أن نضاله يبدأ من حيث انتهت جامعة عموم العملة التونسيين التي تعتبر « صورة جامعة لاشتات المدن والقرى أعطت للحركة مشهدا رائعا لعيون الناظرين »*** في هذا العرض يبرز بجلاء إذن رفض الطاهر الحداد لـ :

- المنحى الثوري
- الصراع الطبقي
- الثورة الإجتماعية

● أولا : « فالشعور العام بالألم في المجتمع التونسي ولزوم درئه بالتضامن الإجتماعي » لا يتماشى و « الأفكار التي اشتد غليانها بالثورة لتهيئة الإنقلاب الإجتماعي »****

● ثانيا : إن « الثورة العالمية التي ينادون بها في أوروبا والتي معناها حرب الطبقات لا معنى لها في مثل البلاد التونسية »*****

● ثالثا : « إن الانقلاب الإجتماعي الذي يمكن أن يهيأ له بيت الروح الثورية لا يوجد من دواعيه اليوم شيء في المملكة التونسية التي لم تأخذ لحد الآن بشكل التطور الأوروبي في تنمية الثروة وتنظيم مواردها واتساع أعمالها . . »*
من خلال هذه المواقف الصريحة تبرز وجهة نظر الطاهر الحداد الرافضة للثورة والداعية للإصلاح .

4 ـ الدعـوة للإصـلاح :

إن الفكرة ا لأساسية التي انطلق منها الحدّاد والتي « رسخت في الأذهان والتي كرستها الجامعة هي فكرة الإصلاح وعليها تم البناء » .**

والبلاد التونسية حسب رأيه هي محتاجة بدرجة أولى إلى الإصلاح الإجتماعي الموكول على عاتق جميع طبقاتها مهما تضاربت مصالحهم .

وأجل عمل يمكن أن يقوم به الفرد هو « العمل الإجتماعي داخل المؤسسات النقابية » .***

إن الدعوة للإصلاح هذه نجدها صريحة أيضا في الفصل الأول من القانون الأساسي لجامعة عموم العملة التونسيين الذي يقول : « الغرض من الجامعة أن تجمع الأجراء جميعهم في دائرة اقتصادية بصرف النظر عن جنسياتهم وأديانهم للدفاع عن مصالحهم المادية والأدبية وتنظيمها بجميع الطرق الممكنة » .****

في هذه الدعوة يدعو الحداد الى الاحتراز من الغير والى الإستقلالية الكاملة والتنقل من العمل السياسي .

في الأخير ومن هذا المنطلق يمكننا أن نعتبر أن الطاهر الحداد كان من الداعين للإصلاح من الرافضين للمسار الثوري بالرغم من تبنيه للمبادىء العامة للاشتراكية وهو أقرب للعمل النقابي منه إلى العمل السياسي .



● الهوامش :

* العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية : الطاهر الحداد
الطبعة الثالثة ـ الدار التونسية للنشر ـ ماي 1972
* نفس المصدر . ص . 16
** « « ص . 18
*** « « ص . 20
**** « « ص . 20
* نفس المصدر . ص . 21
* نفس المصدر . ص . 23
** « « ص . 23/24
*** « « ص . 29
**** « « ص . 31
* نفس المصدر . ص . 31
** « « ص . 25
*** « « ص . 56
* نفس المصدر . ص . 35
** « « ص . 42/41
* نفس المصدر . ص . 20
** « « ص . 20

* نفس المصدر . ص . 42
** « « ص . 44
*** « « ص . 45
**** « « ص . 52

* نفس المصدر . ص . 138/137 .

* نفس المصدر . ص . 138
** « « ص . 138
*** « « ص . 139
**** « « ص . 139
***** « « ص . 140

* نفس المصدر . ص . 140
** « « ص . 142
*** « « ص . 143
**** « « ص . 162



إشكالية تحرر المرأة وفضاءاتها النظرية

منصف وناس

التجارب التحديثية المتزامنة مع « النهضة » أو التي تلتها اتجهت فيما اتجهت الى قضية تحرر المرأة لاعادة الإعتبار لها ككائن اجتماعي ومناقشة النصوص القرآنية والتشريعية التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة في المجتمعات العربية الإسلامية .

فتحرر المرأة مرتبط في أحد جوانبه بعقلنة التراث العربي الإسلامي وقدرة الهياكل الإجتماعية والإقتصادية على استيعاب التغيرات الجذرية . وعديدة هي التجارب التي يلعب فيها العامل الثقافي دورا مثبطا ، لأن نجاح هذه التجارب مرتبط بالإعداد المعنوي والتعبئة الأيديولوجية للعناصر المتأثرة بهذه التجارب .

ولئن اشتركت في دعوة تحرر المرأة حركات اصلاحية فردية قادتها رموز ثقافية في الوطن العربي مثل الطاهر الحداد وقاسم أمين وهدى الشعراوي ، وأنظمة سياسية كاملة فان ذلك لم يؤد الى نتيجة كبيرة ملموسة تغير جذريا حياة المرأة . . .

ويكتسب الموضوع أهمية خاصة إذا ما حاولنا أن نفسر كيف أن وضع المرأة العربية لم يتغير كثيرا منذ القرون الإسلامية الأولى من حيث علاقاتها الثقافية والإجتماعية والمهنية . . .

فنظرة الرجل الى المرأة تستمد شرعيتها من النظرة الإسلامية ، التقليدية التي لم تفعل أكثر المجتمعات العربية المعاصرة برغم محاولاتها الليبيرالية والتحديثية من إعادة انتاجها على مستوى العائلة والزواج والسكن والوضع المهني .

وهذه الملاحظة تستند الى قاعدة معروفة قوامها أن الأيديولوجيا يمكن أن تتخلف عن الهياكل الإجتماعية التي أفرزتها ويمكن أن تتواصل حتى بعد هدم الهياكل المولدة لها . ولعل في ذلك ما يمكن أن يدحض مقولة الترابط الميكانيكي بين الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والايديولوجيا . فكل تحول على مستوى علاقات الانتاج والبنية التحتية لا يفرز حتما تغيرا على مستوى البنية الايديولوجية . والمتأكد في هذا المجال أن الماضي بما يعنيه من تقاليد اجتماعية يؤثر تأثيرا واضحا على الواقع الإجتماعي الحالي ويكيف المواقف الثقافية للأفراد .

فالبنية الثقافية المحافظة هي التي تؤثر اليوم على علاقة المرأة بالرجل ، رغم أن الممارسات القديمة قد قضي عليها قضاء نهائيا وأصبحت المرأة مستفيدة من مؤسسات التحديث مثل التعليم والصحة والثقافة والإعلام .

فالعلاقة بين نسق القيم التقليدية والإسلام علاقة عضوية لأنها تحدد حاضر ومستقبل الأوضاع النسائية وتساعد على ضبط معيقات وموانع تحرر المرأة وفشل التجارب الإصلاحية مثل مجلة الأحوال الشخصية في تونس واصلاحات قاسم أمين في مصر . . . فلا يمكن أن ننكر اليوم بأن الحركات الدينية في الوطن العربي أو في تونس تتجه فيما تتجه الى المطالبة بإلغاء السفور وانهاء اختلاط النساء بالرجال في التعليم وإقرار مبدأ تعدد الزوجات . وهو وضع قائم ومتأكد ـ في

مجتمعات المغرب العربي ـ منذ العهود ما قبل الإسلامية ، بحكم سيطرة قيم أبوية patriarcales [1] والرغبة في الحفاظ على نقاوة الدم وسلامة الإنتماء القبلي ، ولذلك كان الزواج زواجا لحميا endogamie يخضع للمفاهيم الثقافية التقليدية . فدراسة وضع المرأة في المجتمعات العربية المعاصرة التي تواجه تحديات التبعية والإمبريالية الثقافية لا يجب أن تعزل عن الوعي الجماعي والبنية الثقافية السائدة في هذا المجتمع أو ذاك ، ولكن هذه البنية تتعرض تحت عوامل الإستهلاك والاغتراب الثقافي الى حالات من التفجر والتذرر نتيجة لعدم قدرتها على التكيف مع المعطيات الثقافية والإجتماعية الجديدة المتولد عن الفترة الاستعمارية أو مرحلة التحرر الوطني .

ولعل مصدر التوتر يكمن في هذا التمزق بين التراث الثقافي الذي يركز على قيم وتقاليد احتشام المرأة وخضوعها ومشاريع الإصلاح والتحديث المشجعة على مشاركة المرأة في الحياة العامة ومشاكل التفكك المنجرة عن هذه التحولات الفجئية والسريعة .

وهذه التحولات الفجئية هي ما نسميه اليوم بسياسات التحديث في المجتمعات العربية والتي تواجه اليوم عودة المد الديني وتركيزه على قضايا المرأة[2] كمجال للتأثير والفاعلية . . .

ولقد لعبت التجربة الايرانية دورا في تشجيع هذا المد فالطاهر الحداد لا ينظر للزواج على أساس أنه مجرد رابطة عاطفية ووجدانية ، فهو أعمق من ذلك لأنه يعني تكافؤا وترابطا وشعورا مشتركا بالمسؤولية .

ونذكر في هذا المجال بأن الحداد ، وان حاول أن يكون مصلحا ، فانه لم يقطع نهائيا مع التفكير والتشريع الاسلاميين ، فهو يلتقي مع المشرعين المسلمين في منع المرأة المسلمة من الزواج بغير المسلم، في حين يقر للرجل بحق الزواج من غير المسلمات أي من أهل الكتاب . وقد خصص بعض الجزء الثاني من كتابه للحديث عن مساوىء وسلبيات زواج المسلمة من غير المسلم . وهي مسألة يلتقي فيها مع قاسم أمين ومحمد عبده . [2]

كما طالب الطاهر الحداد بعقلنة واقع الطلاق في المجتمع وتخصيص محاكم تنظر في قضايا الطلاق ، والتمعن في حالات ووضعيات الزواج في تونس وايجاد الحلول والصيغ الملائمة دونما تسرع طالما يسمح لنا القانون الإسلامي بالاجتهاد والبحث عن الشكل المناسب . ودعمه مع ما يغذيه من احتقار للمرأة وتشدد في مسألة العلاقات بين المرأة والرجل بدليل تلك الحملة الواسعة التي انطلقت والتي سميت حملة « التشادور » لإجبار النساء على ارتداء الخمار الأسود .

إن خطر الحركات الدينية يتمثل في قدرتها على امهاء كل مكاسب تحرر المرأة والزامها بأقسى صور الاذلال، بحكم سيطرة هذه الحركات على كل الأنساق الثقافية وتحكمها في البنية الرمزية للمجتمع مما يمنحها الولاء الجماهيري والشرعية المطلقة ـ كما يحدث في إيران ـ التي تمكنها من سحق الرأي المخالف .

ولا نغفل بأن تحرر المرأة نتاج لنضال طويل لعب فيه الرجل دورا أساسيا من أجل منح المرأة حدا أدنى من الحقوق التي تمكنها من الخروج من حالة الحبس الدائم . ففي تونس ـ مثلا ـ لا يمكن اعتبار تحرر المرأة رهين جهدها فقط ، بل هو راجع أيضا الى الجهد الكبير الذي بذله مثقفون ، فقد طالب من قبل مثقفون تونسيون مثل الطاهر الحداد بإصدار تشاريع اصلاحية لحماية المرأة من الإستعباد حتى تضمن لها حقوقها الإنسانية والإجتماعية وحتى لا تكون عرضة للهدر والتجاوز . ولعل تركيز الحركة الوطنية في تونس على ضرورة الإصلاح التشريعي هو امتداد لتقاليد كان بدأها زعماء الإصلاح الوطني من خير الدين ومحمد بن حسين وبيرم الثالث وعلي باش حانبه[3] .

1 ـ الفكر الإصلاحي وتحرر المرأة

ورغم ثقافته الدينية والزيتونية ، فإن الطاهر الحداد كان حالة متفردة في الأوساط الثقافية التقليدية من حيث طريقة تفكيره وجرأته الفكرية في طرح قضايا المرأة في تونس[4] .

فقد سعى الطاهر الحداد الى أن يجد صدى لإجتهاداته في التراث الديني الإسلامي ، إلا أنه مع ذلك أثار ضجة كبيرة . والجدير بالذكر أن هدف الطاهر الحداد من وضع هذا الكتاب هو إظهار الإسلام في مظهر « دين التطور

والتسامح » . ولذلك تندرج تجربة الطاهر الحداد في إطار التفكير الاسلامي الإصلاحي ، ولا يمثل هذا الكتاب أية قيمة علمانية . فهو ينطلق من التشريع الإسلامي ويعتبر اجتهادات المسلمين هي التي جعلت الإسلام غريبا ومجهولا بين المسلمين »[5]

ولذلك يركز الحداد في كتابه على ضرورة الإختيار المتبادل بين الزوجين ، حتى يضمن للعائلة الإستقرار والتواصل والحياة الكريمة ، وحتى تكون الواجبات والحقوق متساوية ومتكاملة .

ولكن موجات اللعن والعزل حاصرت الطاهر الحداد وحكمت عليه بالإنتهاء معزولا . كما انطلقت الكتابات النقدية لرفض ودحض أطروحات الطاهر الحداد وتوضيح خطرها على المجتمع الإسلامي ، وكان الكتاب تحريض على الإلحاد والتمرد !

وقد لاحظ الباحث جاك بارك Jacques Berque [6] بأن كتاب الطاهر الحداد يأتي متقدما على عصره ومعاصريه ، لأن الوسط التونسي المتمسك بتقاليده والخاضع لإستعمار ثقافي واقتصادي رأسمالي مهيمن على كل القطاعات كان يرى في كل محاولة لإصلاح وضع المرأة محاولة لتفكيك المجتمع التونسي والمساعدة على التسرب الرأسمالي والثقافي الفرنسي . والطاهر الحداد ليس وحيدا في استباق عصره ، فقد حاول من قبل علي عبد الرزاق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » النظر في مؤسسة الخلافة الإسلامية ، كما حاول طه حسين في نفس الفترة تقريبا مناقشة الرؤية التقليدية للشعر الجاهلي فكان أن واجهوا نفس المصير الذي لقيه الطاهر الحداد وقاسم أمين لولا دعم وسند بعض المثقفين من معاصريه .

ويجدر بنا قبل أن نتعرض الى خصائص الفكر الاصلاحي ومواطن الضعف فيه ، والأسباب المشجعة على انتكاسه وتراجعه . فمما يثير الانتباه ، أن نلاحظ اشتراك كل المفكرين المصلحين في درجات متقاربة من الفشل ، وهو فشل ، يعزى في نهاية المطاف ، الى الهياكل الثقافية والسياسية السائدة ، أكثر من أنه يعزى الى المفكر نفسه . فليس من خطأ المصلح أن لا يتقبل معاصروه أفكاره واصلاحاته . . .

2 ـ خصائص وسلبيات الفكر الإصلاحي

الفكر الإصلاحي ، سواء في تونس ، أو في بقية أجزاء الوطن العربي ، رغم ما فيه من مواطن المثالية ، والتبسيط ، فهو لا يخلو من تقدمية ، وشجاعة ، مقارنة مع التفكير السلفوي ، الذي يمثله اليمين الديني التقليدي . والفكر الإصلاحي ، في جوهره ، إجابة على اشكالية الحداثة ، التي طرحها الغرب الرأسمالي .

ولكن الفكر الإصلاحي ، كان ولا يزال حركة منعزلة ، لا ترتبط بأطر وحركات سياسية ، مما يجعل حظوظ فشلها أوفر من حظوظ نجاحها . وكل التنظيرات الإصلاحية ، بدأ بجمال الدين الأفغاني ، وعلي عبد الرزاق ، والطاهر الحداد ، انتهت الى فشل ذريع ، لأنها كانت منعزلة ، منفردة ، بدون أية قاعدة جماهيرية ، مما سهل على السلطة الإنفراد بها . فالمشروع الإصلاحي ، يبقى دوما تأثير ، ما لم يرتبط بحركة سياسية أو نقابية . ونظرا لانعزال الفكر الإصلاحي ، فقد سهل الفكر الديني التقليدي اجتثاثه والقضاء عليه .

وليس غريبا ، أن يموت الطاهر الحداد وينفى محمد علي الحامي ، دون أن يتحقق لهما أي شيء من الطموحات الكثيرة ، التي كانا يخططان لها . ويمكن الإعتقاد بأن سبب الفشل يعود إلى مجموعة من الأسباب ، تتوزع كالتالي :

أولا : هيمنة اليمين الديني التقليدي ، على كل المؤسسات وارتباطه بالسلطة ، باعتباره هيكلا لاعادة انتاج تفكيرها .

ثانيا : اليمين الديني التقليدي ليس مجرد مؤسسات كما قد يتبادر الى الذهن ، فهو قد تمكن من تكييف الوعي الثقافي الجماعي حسب مصالحه ورؤاه . . .

ثالثا : استخفاف الفكر الإصلاحي بقوة وهيمنة اليمين الديني التقليدي ، ونلمس هذا الإستخفاف مع عديد المصلحين .

رابعا : الملاحظ هو أن الفكر الإصلاحي غير مرتبط بمشروع مجتمعي ، فلا يمس الإصلاح الا الجزء البسيط من المجتمع ، التعليم ، التربية ، المرأة . . .

خامسا : انعدام أية علاقة بين الفكر الإصلاحي والحركات السياسية المعاصرة له .

وهذه الملاحظات المتقدمة تدعونا الى ضرورة التفكير في أسباب نجاح حركتي التحديث في كل من تونس وتركيا ، برغم راديكالية الإصلاحات المقترحة ، خاصة في مجال الأحوال الشخصية . ان مثل هذا السؤال على غاية من الأهمية لأنه يدعونا الى التأمل في خصوصيات السياسة الثقافية في تونس ، والى التأمل أيضا في أسباب نجاحها ، ومحاولة فهم طبيعة الإستراتيجية ، التي اعتمدتها ، في حين فشل الطاهر الحداد ، حتى في اقناع بعض معاصريه ، بجزء بسيط من اصلاحاته ، بل عجز حتى عن اقناع الأنتلجانسيا التقليدية ، ببطلان تهمة الإلحاد والمروق عن الدين . أما مشروع الأحوال الشخصية ، فقد كان جزءا من حركة سياسية كاملة ، سيطرت على كل الهياكل ، فأقصت اليمين الديني ، واليسار الماركسي .

ومن ثم يتضح الفرق بين أن يكون المصلح منعزلا وضائعا ، وبين أن تتبنى نفس الفكر الإصلاحي ، حركة سياسية بكاملها . . .



الفكر الاصلاحي
من خلال شعر وخواطر الطاهر الحداد

رمضان لطيفي

توطئة :

من المعروف أن الطاهر الحداد لم يترك ديوانا شعريا مطبوعا في كتاب مستقل بذاته كبقية انتاجه الذي خص به العمال والمرأة ، لذا اعتمدنا في هذه القراءة لأشعاره عن كتاب الأستاذين : الجيلاني بن الحاج يحي ومحمد المرزوقي « حياة الطاهر الحداد » كذلك كتاب : المرحوم أحمد الدرعي « حياة الطاهر الحداد » وفي هذه القراءة سنقارن بين الأشعار والخواطر التي تشكل كتابا منفردا صدر عن الدار العربية للكتاب سنة 1974 .

ـ لقد تأثر الحداد بموجة الإصلاح التي ظهرت على يد الأفغاني ومحمد عبده وخيرالدين التونسي . . . فطبع تفكيره بالفكر الإصلاحي كما تتلمذ على يد الشيخ أحمد المرابط شهر العنابي[1] والشيخ سعد السطيفي الجزائري الأصل[2] والمصلح الشيخ عبد الحميد ابن باديس[3] وهؤلاء الشيوخ عرفوا بنزعة الإصلاح سواء في تونس أو الجزائر . . . وفي قراءتنا المقارنة بين الأشعار والخواطر أردنا أن نبين الخيط الرابط بين نتاجين مختلفين فنيا ومتحدين رؤية لدى كاتب . . شاعر

ففي الشعر يظهر الحداد واقعيا ملتصقا بقضايا شعبه وأمته بعيدا عن الرومنطيقية التي ظهرت أيام حياته كآخر تقليعة وصلت إلى بلاد المشرق والمغرب العربيين عن طريق الترجمة والأدب المهجري ، فاستهوت صديقه الشابي وطبعت أشعاره ومحاضرته بميسمها .

ورغم النكسة التي أصابت الحداد من جراء معركة غوغائية بعيدة كل البعد عن روح النقد العلمي النزيه لم يسقط شعره في بوتقة الرومنسية والإنطواء على الذات بل ظل يخاطب قومه شعرا ونثرا في صمود وثبات لأن ذلتهم ذله وعزتهم عزه كما يقول في الأبيات التالية من قصيدة « أملي »

عشت وحيدا فيك أندب حظهم   وحظي بهم ندبا يذيب حديدا
فذلتهم ذلي وعزّي بعزهم   وإن وهبوني للسعير وقودا

المرحلة السياسية :

لقد إلتحم الحداد بالشعب عند انضمامه للحزب الحر الدستوري القديم وكان من أبرز عناصره . . . فأم النوادي يخطب في الجماهير التي كانت تجتمع أسبوعيا ولا يتخلف عن مخالطة أنشطهم وأحزمهم في الدعاية وأرغبهم في الوطنية ينير لهم السبيل ويكشف لهم عن طرائق التفكير لا يألو جهدا في نصحهم وتنويرهم ولم يكن أبدا ليفعل ذلك مع أعيان

الدستوريين وأثراهم وأوجههم وإنما كان ميزانه فيهم الإخلاص والإستعداد للعمل فقد يقصد العملة منهم وأصحاب المصانع والأجراء مهما كانت إشتغالاتهم ومهما كانت ثروتهم[4]

هكذا كان الحداد محركا نشيطا يذكي النفوس بحب الوطن كسياسي محنك على صغر سنه ولا يبخل بنصيحة يوجهها لقومه سواء عن طريق الخطب والمقالات السياسية أو بقصائد تطفح بحماس فياض كما في قصيدته نصيحة لقومي التي يقول فيها :

يـا قـومي إستمعـوا لـلنصـح يبـذلـه	أخ لـكـم همـه الإخـلاص لـلوطـن
إن شئتم أن تنـالـوا الفـوز فـاتحـدوا	فنحن بـين نيـوب الجـور والـوهـن
ضعف نقـاسيـه من أمـراض كبـوتنـا	حكـم يـسـير بنـا لـلهـول والمحـن

**

يـا ويح قـوم أضـاعـوا منهم شـرفـا	بـنـاه أجـدادهـم في سـالـف الـزمـن
يـستـقـبلون رزايـا الـدهـر مـفـعـمـة	سحقـا ومحقـا وعـارا غـير مضـطـعـن

وقصيدته « نصيحة لقومي » على ما يبدو كتبت في المدة الزمنية الأولى من انبعاث الحزب التي اتسمت بشيء من تحرك الوفود الى باريس لمطالبة فرنسا بالدستور والبرلمان التونسيين . . . فرأت الحكومة الفرنسية في مطالب التونسيين خروجا عن بنود المعاهدة وقابلت هذا التحرك بإرسال مقيم عام جديد هو « لوسيان سان » الذي رفض بدوره تأسيس برلمان تونسي .

ونتيجة هذا التحرك والأحداث السخنة أظهر الباي محمد الناصر تعاطفا مع وفد الحزب المتركب من 27 عضوا والذي جاء في خطاب أحد نوابه أمام الباي ما يلي « إن الأمة التونسية مجمعة الإرادة على أن تكون مسيرة مثل ما كان أباؤها من قبل بدستور محرر يعلن ويضمن الحقوق والحريات العمومية ، وفصل السلط عن بعضها واشتراك الأمة اشتراكا تاما في الحكم »

- وقد جاء في جواب الأمير :

وماذا تظنون في أميركم ؟ ألست واحدا منكم أحس بما تحسون وأشعر كما تشعرون كونوا على ثقة بأني سأبذل مجهوداتي في تحقيق رغائبكم ولا أظن رجال فرنسا المتلىء تاريخها بالعدل والحرية يبخلون بإنجاز هاته المطالب[5]

ولما علمت فرنسا بتعاطف الباي مع الوطنيين حاكت ضده مؤامرة بواسطة وزيره الأكبر الطيب الجلولي ومدير تشريفاته أدت به الى الإستقالة . . . . . . فأعلن الشعب الإضراب العام وتظاهر مطالبا الباي بالعدول عن قرار التخلي عن العرش[6]

- ومن البديهي أن الحداد عاش هذه الأحداث بكل جوارحه كشاب يتقد حماسا ووطنية فتأثر بالأحداث والخيبات المتكررة التي جابهت الوطنيين ، فنراه يقول في القصيدة سالفة الذكر :

أعـنيـك يـا أمـة الخـضـراء فـانتبهـي	هبي الى المجـد لا تـلوي عـلى الأفـن
ظـنـوك أمـة زهـد لا حـيـاة لهـا	فـاستخـدمـوك لقصـد لـيس بـالحسـن
جـاروا عليك احتقـارا فيك واستـتروا	تحـت الـعـدالـة في الأوراق والـلسـن
عـرفـت ذاك فـقـمـت الـيـوم منـكـرة	مـا استـدرجـوك بـه حضـرة الـدمـن
قـالـوا مـؤامـرة قـلنـا مـطـالـبـة	بـالحـق لا طـلب مـنـا إلى الـشـجـن
فـاستعملوا الضغط جوراكي يـرواوهنـا	فـيـنـا فـخـاب الـذي رامـوا ولم نهن
فحـاولـوا صـدنـا بـاللين عن طلب	يـدوم مـا دام هـذا الـروح في الـبـدن
وقـال رأسـهـم هـذا يجوز وذا	محـال اجـراؤه في أيمـا زمـن
وهـكـذا جبـروت الـقـوم أقـعـدهـم	عن حق شـعـب تجـافى مـوقـف الـفـتـن

وأمام الخيبات التي مني بها الحزب والحياة المضطربة وأمام عدم جدوى العمل السياسي في صلب حزب مهترىء لا يؤمن بالعمل خارج إطار النوادي والصالونات ، جمد الحداد نشاطه الحزبي مع بعض من رفاقه أمثال أحمد الدرعي ـ محمد السعيدي والطاهر محفوظ[7]

وقبل أن ننتقل الى مرحلته الموالية نورد الخواطر عدد 54 لنقف على تلك الفترة التاريخية من الزمن في تصوير مختزل لحالة البلاد في العشرينات أكثر دقة وتعمقا من القصيدة .

لقد وضعنا خطة العمل مطابقة للأصول النظرية التي وضعناها لحياتنا الوطنية فرسمنا فيها الحماس البالغ والاحتجاج الشديد وبكل قوانا ضد الحوادث التي تأتي علينا من طريق الغالبين فلا تمر أيام أو أشهر على الحادث حتى ننساه كأنه لم يقع أو لم يتم علينا لنشتغل بالحادث الجديد مثلما اشتغلنا فيما قبله ، فمن حادث احتلال المتحزبين لإسلامبول إثر الحرب الكبرى وقبل الحرب الكمالية إلى حادث تنازل الباي في أفريل 1922 إلى حادث انطباق قوانين التجنيس الفرنسي على التراب التونسي وعلى التونسيين بالخصوص إلى حادث انتزاع الأملاك التي أدخلت في جغرافية إدارة الفلاحة والغابات إلى حادث تجنيس العدلية التونسية بوضع حكام فرنسيين المقرر من لجنة الإصلاحات الباريسية عام 1925 إلى حادث نصب تمثال الكردينال لافيجري في وسط العاصمة إلى حادث المؤتمر الأفخاريستي بتونس إلى حوادث تحجير الحريات والصحافة التي تخللت كل هذه الحوادث وأخيرا فتوى قبول توبة المتجنس والإبعاد في دوار وقفل الجرائد الوطنية ذات اللسان الفرنسي ونوادي حزب الدستور وهكذا تأخذ الحوادث الواحدة بعد الأخرى كل نشاطنا في الخصام وتوفية أحقادنا حقها في ثورة البعض على البعض سبا ولعنا وإظهار العيوب الشخصية والناس ينتظرون ويسمعون . . . .

والخواطر التي جاءت على امتداد صفحات 84 ـ 85 ـ 86 أوردنا معضمها على الرغم من طولها لنبين اهميتها التاريخية ، وليقف القارئ على ملامح تفكير الحداد وتطوره بالمقارنة لجيله من حيث رصده للأحداث التي عاشها الوطن في تلك الفترة وكيفية تحليلها تحليلا منطقيا بأسلوب يطفح مرارة ، وكثيرا ما يخرج الحداد بحلول ناجعة للنهوض بالوطن . . . لكن زعماء ذلك الوقت كثيرا ما وقفوا في وجهه وألصقوا به عديد التهم . . .

بين الشيوخ والتراث

من خلال ما أوردنا رأينا البلاد التونسية في الثلث الأول من هذا القرن تعيش الإضطراب والفوضى ، فالجهل جثم على القطر التونسي والفقر كذلك من جراء الإستعمار ولانعدام قيادة حكيمة تحرك في الشعب الروح الوطنية وتذكي في شعوره أعباء المسؤولية . . . فنرى الحداد في قصيدته بين مارق وخادر يخاطب وطنه «تونس» في لوعة وتفجع فيقول :

أتونس عندي في هواك تولع ... وأنت منى نفس عليك تقطع
نسيت بك الدنيا وعيشي وراحتي ... أريد بك الحسنى وخصمك يمنع

إلى أن يضيف في هذه القصيدة مصورا المجتمع والحالة التي تردت فيها البلاد قائلا :

ظللت تعانين الحياة مريرة ... تزيد بك البلوى وقومك هجع
أضاعوك واستخذوا السلطة معشر ... لنزف دماء الواهنين تجمعوا
شبابك موؤود ومجدك آفل ... ومالك منهوب وحقك ضائع
تنادين لكن من تناديه خادر ... يمر بعينيه الخيال فيجزع
لقد مات هذا الشعب واغتيل عزه ... فأصبح للأرزاء فيه تولع

ومسؤولية الشعب والوطن في غياب قيادة سياسية وطنية : كما ذكرنا تقع على عاتق شيوخ التدريس الذين وقفوا في وجه الحداد وأمثاله عندما طالبوا بتعصير التعليم ونشره في أوساط الشعب .

وقف الشيوخ في وجه الحداد وبقية المصلحين : باسم المحافظة على التراث واللغة ، فكأن العلوم الحديثة رجس من الشيطان ،،، الا أن غاية ما في الأمر هو خوف الشيوخ من فقدان عمدانهم : في الجامع الأعظم عند حدوث التطور ، وبفقدان العمدان تفقد الجرايات ، فيقول الحداد في قصيدته ضحيا الماضي :

إن سادتنا أضاعوا تراثا إنهم مثلنا كسالى حيارى
سيموتون مثلنا في لظى الجوع سكارى وما هم بسكارى
في الجرايات همهم ومناهم ونراهم لخيرنا أنصارا
سنرى الخبز كلنا عن قريب نائيا كالنجوم في الأفلاك

فاللغة والتراث العربيين بقيا في خانة التحنيط باسم المحافظة على التراث والأصالة : ورغم صيحات المثقفين لم يدخل الإصلاح مدارهما للتفجير والدخول بهما جدلية التطور التي حدثت وهزت الغرب لما استفاق وقفزت بدوله الى ذرى الحضارة ، فنرى الحداد في خواطره عدد 60 ص 97 يتناول مستقبل اللغة العربية ويأتي على الظواهر السلبية التي كانت أكبر حاجز في وجه النخبة النيرة التي طالبت بتعصير أساليب التعليم آنذاك لما للتعليم من أهمية للنهوض بالمجتمع فيقول :

لم يبق للغة العربية في تونس غير الكلية الزيتونة وهي فيها موؤدة منذ قرون لا تعرف الحياة ولا الحياة تعرفها ، وأهل تلك الكلية يحافظون كل المحافظة على أن تبقى في هذه الحال كأمانة عهد اليهم حفظها من التبدل والتغير مقابل جرايات ينالونها وهذا شأنهم في سائر المعارف التي يزاولونها هناك فما أشبه الكلية الزيتونية بأسواق المدينة المحدقة بها في الجمود والعجز عن التطور وإذا كانت الحال متشابهة فلا عجب أن يكون مستقبل اللغة العربية مشابها لمستقبل تلك الصناعات المائتة حولها ثم لا عجب بعد هذا أن تكون حياتنا مشهدا تاريخيا يتحرك أمام أنظار الباحثين والسواحين الأجانب لا يبعد عن تمثيل أجدادنا الا بقدر ما يقتضيه اندفاعنا المستمر في هاوية الموت .

في هذه الفقرة صور لنا الحداد حالة اللغة العربية وشبهها بالأسواق المحيطة بالجامع لما فيها من ركود وكساد ، وبطريقة غير مباشرة جعلنا نتعرف على الوضع الاقتصادي والاجتماعي وكيف كان القائمون على هذه القطاعات لا يحركون ساكنا رغم الخطر المحدق بهم والموت البطيء الذي يلفهم ، ويضيف الحداد في شعره واصفا ذلك فيقول :

وهذي مزارعنا في بوار كذلك صناعاتنا في انصرام
وتجارنا ركدوا تحت سقف يدوسهم الموت دون احترام

وأمام انعدام خطة محكمة لاستقراء التراث ونفض الغابار عليه قصد النهوض به : ظلت اللغة العربية موؤودة والصناعة والتجارة كاسدة والفلاحة بوسائلها العتيقة في انحدار إلى أن عم الموت وحل الجمود فشل كل القطاعات وبقي المجتمع في فلك الإستعمار « يعطيه بعض العلف ليستمر في خدمته » فتولد شعب خامل قابل للاستعباد كما ستبين لنا الخواطر عدد 41 ص 66

نحن شعب ما زال في انتاجه على الفطرة ولكننا نستهلك بمابقي من تراب الجدود أضعاف ما ننتج لأن حياتنا الجديدة التي وقعنا فيها وقوعا قد استعبدتنا ، والآن قل ما لنا وعجزنا عن الإستهلاك الذي ألفناه حتى استعبدنا ولكننا لم نفكر في رسم خطة لتحسين الإنتاج وتوسيع موارده عسانا نعوض ما ذهب من تراثنا ونقدر على الإستهلاك لترقية حياتنا دون أن نخسر من تراثنا إلا ما يزيدها نموا بجهودنا المتظافرة ، نعم إن الحركات السلبية هي التي تنقذنا لو أننا نحسن القيام عليها ولكن هذا التوفير لا يفيدنا شيئا إن لم نضع له رسم بناء تقوم عليه حياتنا . والهدم لا ينفع إن لم يكن للبناء لأن أهل التصوف هم الذين يهدمون الحياة لانتظار الموت في غيبوبة عن الحس .

في هذه الفقرة من الخواطر نرى تركيز الحداد على ظاهرة طغاء الإستهلاك على الإنتاج وهذا ما أدى بالمجتمع : إلى

الإنهيار وهي ظاهرة سلبية كان بإمكان القائمين على شؤون البلاد إذا كانت نواياهم صادقة وعزائمهم صلبة استغلال الإنهيار الإقتصادي للبناء بوضع خطة محكمة ومخطط سليم ينقذ الأمة من الوضع الذي تردت فيه ، وفكرة التخطيط التي وردت في الخواطر ليست غريبة عن الحداد وهو الذي ساهم مع محمد علي الحامي في إرساء التعاونيات الإقتصادية والنقابات التونسية .

وبأسلوب آخر وبطريقة كتابية أخرى يكشف الحداد عن واقع شعبه في الأبيات التالية :

ينتج الغير كل رزق ويثري	في ثرانا ونحن كالأشباح
نحن نحيا بلا ضمير ولا مال	وحرمة ولا آمال
غير خبز يلين من جوع بطن	وكساء يخفي افتضاح الحال
... أنت يا شعب مالك اليوم خل	غير غاو أو جائع محتال
يرصد العيش عاجزا عنه إلا	من طريق المخادع الدّجال
لعن الله خبزنا فلكم عاد	علينا بالذل والإتكال

نلاحظ في الخواطر والأبيات تطابق نظرة الحداد في شكلين مختلفين من الكتابة والنظرة تتمثل في الكشف عن السبب والمسبب الذي أدى بالوطن الى حالة الوهن والشلل الإجتماعي والثقافي الذي انعكس على الحالة الإقتصادية فمهد لدخول الاستعمار وسهل مهمة بقائه : وتمرير بضاعته لمجتمع استهلاكي مستعبد .

العلم والوطن وحضارة الغرب

ككل مصلح أعطى الحداد اهتماما كبيرا للعلم وحث مواطنيه على التمكن منه فقدمه كدواء ناجع يخرج الأمة العربية من الظلمات إلى النور كما فعل الغرب عصر نهضته فساد على الأرض وسخر أهلها فيقول الحداد في هذه الأبيات :

إذا ما أردنا أن ننال الرغائبا	فليس لنا غير العلوم مطالبا
بها بدد الغرب الضلال وجيشه	وقاد بها نحو الحياة النجائبا
بها ذلل الغرب السماء لعزمه	وعمر أرجاء البحار مراكبا
وغاص بقلب الأرض يطلب سرها	وشاد بها ملكا يشق السحائبا
وساد على الدنيا وسخر أهلها	عبيدا رأوا فيه عظيما وغالبا

هذه الأبيات صيحة من صيحات الحداد الذي احترق وهو ينفخ الروح في جثة أمة هامدة نخرها السوس فمزق أوصالها وبدد أشلاءها . . .

وبرؤية مدققة وأسلوب طريف ولغة متينة نرى الحداد في الخواطر عدد 25 ص 47 يحدد مزايا العلم ويكشف العاجزين من بني وطنه الذين شكلوا سدا منيعا في وجه التطور والإجتهاد كما يفضح اتكالهم على التراث المحنط بين حيطان الدواوين فيقول :

العلم قوة تفتح مغالق الغيب لتذلل الطبيعة للإنسان في حسها ومعناها فينتج رزقه وهناءه بسعي ظافر ، ولكن العاجزين يحفظون دروسهم من الكتب ليعيشوا بين حيطان الدواوين عالة على المنتجين ويحبون أن يسودوا عليهم بذلك ، وهذا منتهى الشر الذي يصيب الشعوب المتأخرة .

والحداد في قصيدته مطالبنا العلوم إلى جانب دعوته الملحة للإنكباب على العلم والنهل من حياضه وضربه المثل

بالغرب الذي امتلك المعرفة ، يشرح المجتمع ويبرز العيوب التي ولدت في صفوف الشعب الجهل والمهانة وأحنت الرؤوس وجعلت الناس منصرفين للزوايا والقباب قصد التبرك والتلهي في ضرب الدفوف والطبول كما جاء في أبياته :

جهالتنا يا قوم أحنت رؤوسنا	وأهلكت العقبى وصبت مصائبا
سكنا لعيش الغبن طول حياتنا	على أن سنلقى في الممات الرغائبا
وعمدتنا في ذاك طبل وقبة	نؤمل منها أن تصد النوائبا
ونحيي بها في كل عام مواسما	وفي كل أسبوع من الرقص أضربا
ونرجو بلوغ المجد في سعي غيرنا	كأن بلوغ المجد يعطى مواهبا

وظاهرة التصوف ذات الوجه الآخر للشعوذة التي جاءت في الأبيات نجدها كذلك في الخواطر تحتل حيزا هاما ، وهي بالتالي ظاهرة سلبية شغلت بال الحداد لما فيها من خطورة على بنية المجتمع فيصفها ويحللها في الفقرة التالية من الخواطر فيقول :

. . . نتلهف على التاريخ الذهبي لملوك الإسلام ونقدس علم التصوف وننادي في دعاتنا إلى الله بأسماء رجاله الذين عاشوا هائمين في الأرض أو عاكفين في الزوايا على قليل من الماء والتمر ، يعلمون الناس قذارة الدنيا وحقارة الحياة والإستعداد للموت ، ثم نرفع رؤوسنا معجبين ومفتخرين بما شادته المدنية الإسلامية . . . (الخواطر عدد 32 ص 54)

وقصيدة « مطالبنا العلوم » التي استشهدنا ببعض من أبياتها ، تبدأ بإبراز مزايا العلم والمعرفة التي تمكن منها الغرب وسخرها لحاجياته . . . ثم تتوغل في واقع المجتمع التونسي وتكشف نقاط الوهن وتنتهي باستنهاض الهمم وشحذ العزائم . ورغم الصورة القاتمة التي ظهر عليها المجتمع في هذه القصيدة لاحظنا بصيصا من الأمل يشد الحداد لمجتمعه فيخاطبه واضعا إياه أمام الأمر المقضي ، لأن المجتمع هو القطب الذي يدور حوله فكر الحداد والهدف المحوري لفكره الإصلاحي فتراه يستنهض قومه بقوله :

ألا نهضة يا قوم للعلم كلكم	ببذل وأعمال تزيل العواقب
نجانب فيها الإختلاف الذي غدا	لنا خُلُقًا نزداد فيه تقلبا
فليس لنا في العيش حبة خردل	إذا لم نذلل بالثبات المصاعبا
مدارس نبنيها ونشء نعده	إلى الغرب يرتاد العلوم مشاربا

ومن خلال القصيدة التي أوردنا البعض من أبياتها لاحظنا تركيز الحداد على الجانب المضيء لحضارة الغرب الذي عرف كيف يستغل العلوم وكيف يسخر المعرفة لإرادته . . . إلا أن الحداد في مواطن أخرى من شعره ونثره نجده قد هضم الحضارة الغربية وفهم بحدسه أن هذه الحضارة سائرة للزوال لأنها بنيت على استغلال الإنسان ويبين لنا ذلك في « الخواطر عدد 10 ص 32 »

الحرية التي تفخر بها أوروبا اليوم هي انطلاق أيدي الحائزين في استغلال عمالهم ومع ذلك يقال أن الرق لم يبق موجودا .

والحضارة التي تبنى على المال دون اعتبار الروحانيات تصبح مدنيتها مرتعا للشياطين تفعل فيها ما تشاء ، كما يبين لنا الحداد ذلك من خلال أبياته التالية

قد تقضت بها عصور الموالي	وأتت بعد دولة الأموال
فتبارت قوى الشياطين فيها	تنهب المال من جهود الرجال

واستعانت بالعلم شادته صرحا منه طارت لذروة الآمال
غير أن الحياة تغزو قواها بنضال يمشي بها للزوال

فحضارة الغرب مهما استعانت بالعلم فهي زائلة ما دامت حرية الإنسان لاغية ومفقودة ، فتصح فيها الخواطر :
لا وجود للحرية ما دام الإنسان حرا في تسخير الإنسان يعطيه بعض العلف ليستمر في خدمته (خ عدد 8 ص 30)

العمال والمرأة وزعماء الشعب

من المحاور الهامة التي ركز عليها الحداد في حياته الفكرية القصيرة العمال والمرأة وأفرد لكل منها كتابا ، يحمل الأول عنوان « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » والثاني « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » ومن خلال قراءتنا للخواطر والأشعار التي توفرت لدينا ، لم نجد الصدى الكبير للمحورين وما وجدناه في هذا الباب مجرد إشارات عابرة انصهرت في تفكير الحداد مع مواضيع أخرى وليدة أحداث عاشها المجتمع التونسي والحداد بصفة خاصة ، وهو الذي استهدف الى عديد المهاترات انطلاقا من تاريخ تأسيسه مع محمد علي الحامي « جامعة عموم العملة » التي شن ضدها الإستعمار دعاية مغرضة . وتألب ضدها الحزب الإصلاحي والحزب الدستوري « القديم » والقسم التونسي من المجلس الكبير ونشروا بلاغ التبرأة في 22 فيفري 1925 بجريدة النهضة . . . وكانت غضبة مضرية غضبها الحداد على إثر نشر هذا البلاغ فقد رأى فيه أن ضرب للمنكوبين من خلف واتحاد على العملة مع أضدادهم الذين يريدون أن يكونوا للعملة الفرنسيين حماية على العملة التونسيين . . . وقد عبر الحداد عن فكره في هذا الإتحاد في قصيدة له بعنوان « الخيبة » يصف فيه الزعماء[6]

وكانوا مع الأعداء في كسر وحدة بها هدد العمال من كان جائرا
جرائم سموها اتحاد طوائف ولكنه منهم أبان السرائرا
فلم نجن من ذا غير خزي أذلنا جميعا ورأس القوم ظل مكابرا

واستمر تكبر الزعماء كما استمر اشعالهم الحرائق وتغذية الفتن في صفوف شعب مكبل تحت شرنقة جهل القرون الوسطى في ظل نظام تقليدي مغلوب على أمره ، فنرى الحداد يفرد للزعماء جانبا هاما من الخواطر ، اخترنا منها الخاطرة التالية :

ـ زعماء الشعب هم الذين تكون حياتهم وسيلة متممة لحياته فيذهبون وتبقى أرواحهم وأفكارهم نورا يستهدي به والكاذبون هم الذين يجعلون ظهورهم في الشعب وسيلة متممة لحياتهم من حياته فيثيرون فيه النار لينتعشوا بحرارتها ويستضيئوا بما فيها من النور دون أن يضعوا فيها ما تأكله حتى لا تفنى ، والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل . « خواطر عدد 47 ص 74 »

ركز الحداد على الزعماء فكشف عجزهم وفضح تخاذلهم وبين دورهم السلبي في قيادة الجماهير . . . فناصبوه العداء واستغلوا دراسته حول المرأة وأشعلوا ضده فتيل معركة اتهم فيها بالزندقة والإلحاد . . . دون أن ينطلقوا من محاور الكتاب ، فجاءت مقالاتهم ومقالات تلك المعركة مسطحة خالية من الحجج الدامغة .

وفي قراءتنا لقصائد الحداد التي توفرت لدينا وقراءة أبيات لقصائده مبتورة : تضمنتها بعض الكتب ، لم نجد ما يدلنا على أن الحداد خصص بعض قصائده للمرأة ، كما فعل سعيد أبي بكر في تلك الحقبة من الزمن . . . وما وجدنا في هذا الباب سوى شطرة بيت من قصيدة « الخيبة » تناول فيها الحداد سفور البنت فيقول :

فهذا كفور ملحد حسبما اشتهوا وذلك للاسلام يرصد ماكرا
وعندهم التجديد كفر محقق ورأي سفور البنت أيضا بلامرا

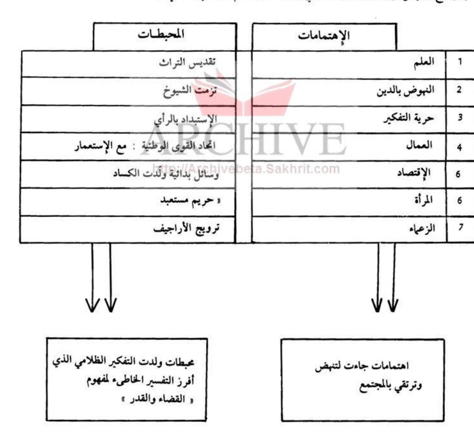
كذلك في الخواطر لا نجد صدى المرأة إلا من خلال خاطرة يتيمة ، وحسب رأينا واعتقادنا أن الحداد مل الحديث والكتابة حول هذه المسألة التي أفرد لها كتابا كاملا ومقالات نشرها في شكل ردود على القادحين في عقيدته الإسلامية ، وبأسلوب مختزل شفاف يقول في الخواطر عدد 17 ص 39 .

ـ نحب المرأة ونكرهها نحبها فريسة بين أيدينا وإن هدمت وجودنا ونكرهها حرة رشيدة معنا ، لأننا نعرف كيف نحصل على اللذة من إثارة أرواحنا وأفكارنا .

إهتمامات الحداد والمحبطات التي جابهته

ـ في استقرائنا للنصوص موضع الدراسة لاحظنا تركيز الحداد على كشف واقع عصره كشاهد أمين على الأحداث التي عاش تفاصيلها . محللا اياها بأسلوب علماني دقيق ومركز بعيد عن الإنطباعية ، وفي تحاليله كثيرا ما يضع إصبعه على موطن الدّاء ،

وفي رسمنا للوحة البيانية التالية حاولنا حصر المسائل التي كانت تشغل بال الحداد واهتمامه الداعي للنهوض بالمجتمع والوطن كما وضعنا المحبطات التي وقفت حاجزا أمام فكره الإصلاحي .



	الإهتمامات	المحبطات
1	العلم	تقديس التراث
2	النهوض بالدين	تزمت الشيوخ
3	حرية التفكير	الإستبداد بالرأي
4	العمال	اتحاد القوى الوطنية : مع الإستعمار
6	الإقتصاد	وسائل بدائية ولدت الكساد
6	المرأة	« حريم مستعبد
7	الزعماء	ترويج الأراجيف

القضاء والقدر

أمام المحبطات والتفسير الخاطىء . . . ساد العجز وتسربت الخيبة في صفوف المجتمع وبقي المبرر الوحيد للتستر وراء العجز عند شيوخ النظارة العلمية ومن ورائهم الزعماء هو القضاء والقدر ، فجاء قول الحداد :

إننا لا نحب أن نسمع الجهر بعيوبنا لأننا لم نفكر في إمكان زوالها ، ولكننا نحب الإعتذار عن خيبتنا في الحياة بالأقدار الإلاهية لأننا لا نحب أن نوصف بالعجز « الخواطر عدد 18 ص 40 »

كما يضيف في « الخواطر عدد 36 ص 61 » بأسلوب ساخر وليد المرارة

. . . عندما نشعر بالخيبة العامة في حياتنا نفوض الأمر للأقدار الإلاهية وليس بعاجز من يعترف لله بالعجز .

ومفهوم الحداد للقضاء والقدر يختلف عن مفهوم المشعوذين السطحي بل هو مفهوم نابع من إدراك الحداد لجوهر الإسلام فيقول :

كان القضاء والقدر في صدر الإسلام منبعا للشجاعة واحتقار الموت في سبيل الحياة ولكنه الآن صار رمزا للجبن والكسل والسكون لحياة الذل وخسة النفس ونحن نحب أن نقلد أسلافنا في طريق الموت لا في طريق الحياة . « الخواطر عدد 6 ص 28 » كما يتطرق في شعره « للقضاء والقدر » فيقول :

تقدمت الأقوام بالعلم واهتدوا	لما فيه من بأس يرد الكتائبا
ونحن بأحكام القضاء وقهره	نريد العلا عفوا ونأبى المتاعبا

. . . ولم يكن الحداد في تلك الفترة وحيدا في الحلبة . . . بل كان إلى جانبه الشابي الذي شغلت باله اشكالية : القضاء والقدر فجاءت قصيدته « إرادة الحياة » خير معبر عن ذلك بشاعرية مفرطة وفكر متبصر وقاد ترجم قوله تعالى : «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .

ـ وكاتب في عنفوان الشباب كالحداد يتقد نشاطا وحيوية وطموحا يتطرق إلى مواضيع كبرى واشكاليات فكرية دقيقة . . . من البديهي أن يجد الطريق أمامه مفروشة بالأشواك في زمن لفّته الخيبة والإنطواء على الذات المتواكلة والمتهالكة على تراث يعتبر منطقة حرام على المجتهد الباحث والدّارس المتفحّص !

من هنا انطلقت مأساة الحداد الذي جوبه بأبشع حملة عرفتها بلادنا ضد الفكر والإجتهاد وهي حملة أشعلت فتيلها اللجنة التنفيذية للحزب القديم وعمّق لهيبها إنتماء الحداد جغرافيا « للآفاق » . . .

واستمرت الحملة لسنوات وتصدّرت مقالاتها الصفحات الأولى من نشريات تلك الحقبة الزمنية . . . كما نجد في نصوص الحداد صدى الحملة التي استهدفته ، ومن أهم محاور خواطره موضع دراستنا هو محور التكفير والإلحاد الذي خصص له الحداد عدة فقرات ، نذكر منها فقرتين على سبيل المثال :

- الفقرة الأولى : التفكير بدء الحياة ولكننا نضع في وجهه سلاح التكفير لتثير عليه الشعب فمن أين نبدأ الحياة التي نطلبها للشعب ؟ « خواطر عدد 57 ص 89 »
- والفقرة الثانية : . . . قد بلغت حركة التكفير والتلحيد للأشخاص أن صارت سلاحا جادا في أيدي حامليه ينتقمون به لأنفسهم ممن وضعوهم موضع الأعداء ويكسبون لأنفسهم المقام المعلى في الشعب وبه أشهروا حكم الإرهاب في البلاد حتى صار الإنسان يخشى أن يقول في تونس : علموا المرأة ، أو انتقدوا عيوبكم بصراحة أو ابحثوا في تاريخكم لتعرفوه بدل أن تقدسوه بجهلكم . . . « خواطر عدد 54 ص 85

كما نجد في قصائد الحداد تلميحات لحملة التكفير والإلحاد كقصيدة « الخيبة » التي يقول فيها :

رأوا باسم دين المصطفى أن يتاجروا	فخافوا على الإسلام أن يتناثرا
وقد أشهروا الإلحاد في كل حادث	كأن الذي قالوا نما وتكاثر
وانهم أبطال دين تألبوا	على دوسه كي يودعوه المقابرا

كذلك قصيدة « الزعماء » التي اقتطفنا بعض أبياتها من كتاب دفاعا عن الحداد للأستاذ أحمد الدرعي : يقول فيها :

في القلب موت وفي الأفواه زوبعة تثير شعبا لواء العجز فانكسرا
فتعلن الدين والتقوى مراوغة وتعبد المال مهما قل أو كثرا
وترمي كالشجى حلق كل فتى يسعى إلى الحق أو يبغيه منتصرا
ترمي به في سواد الناس قائلة هذا الذي طعن الإسلام أو كفرا

○ خاتمة :

من خلال عرضنا للخواطر والأشعار إستنتجنا تداخلا دلاليا بين الفكر والوجدان وهذا التداخل قضى على شاعرية النص لدى الحداد وأفرز لنا حسب قراءتنا مادة فكرية جادة صادرة عن عقل متبصر يتمتع بقدرة هائلة على هضم الأحداث والوقوف منها موقف المفكر الواعي بمحيطه ،

وما قراءتنا التقابلية بين الأشعار : والخواطر الا دليل على صحة استنتاجنا وقصائد الحداد التي تغلب فيها الأسلوب التقريري المشحون بالأفكار والممزوج بالمشاعر ولدت غيابا للجانب الوجداني أساس كل تجربة شعرية وهذا غير مستغرب من مصلح تمرّس بالخطابة فترة انضمامه لصفوف الحزب . . .

وعندما نقارن أشعار الحداد بأشعار معاصريه مثل : سعيد أبي بكر ومحمد الشاذلي خزندار وجلال الدين النقاش نلاحظ فروقا بعيدة في تناول المواضيع ، فبينها تطرق الشعراء المذكورون للإخوانيات وتسجيل الجزئيات العابرة رالطبيعة انغمس هو في الشعر الوطني بقصائد ذات بناء عروضي متماسك من حيث وحدة القافية والتزام البحر الواحد في القصيدة ، وهذا ما نجده غالبا عند الشعراء العلماء مثل العقاد ،

وفي قراءتنا هذه لاحظنا تطورا في بعض القصائد التي كتبها في فترة محنته وعزلته بعد أن خاض تجربة وجدانية قاسية استهدفته كفرد فانحدرت به من خانة العلماء : ذات الطقوس الصارمة إلى العالم الشعري الإنفعالي . . . وهذه القصائد هي : أملي ـ في الدوالي ـ الغناء ـ

ـ أما الخواطر فهي حصيلة تجربة وعصارة فكر ورحلة مضنية يطغى عليها الأسلوب الساخر الذي تولد لدى الحداد نتيجة الصدود والخيبات التي قوبل بها كمفكر مصلح .

وأسلوب الخواطر اعتمد الجزالة في القول والوضوح في الرؤيا والدقة في التعبير كما نجد في الخواطر الحكمة والموعظة والموقف ـ والحدث التاريخي والظاهرة الإجتماعية والتصور السياسي ، تنطلق الأفكار فيها ذاتية ثم ترتبط بالمجتمع موضوعيا في جدلية مبنية على التحليل العلمي الذي لا نجده عند معاصري الحداد من الكتاب وهذا ناتج في نظرنا عن عاملين أساسين :

العامل الأول : يتمثل في الثقافة الشخصية للحداد وهو الذي لم يكتف بالزاد المتحصل عليه من التعليم النظامي الرسمي بل عمقه بالمطالعة الغزيرة لشتى فنون المعرفة .

والعامل الثاني : هو عامل التجربة والإحتكاك بعالم الصحافة والتنظيمات السياسية والإجتماعية خاصة مرحلة التأسيس النقابي مع رفيقه محمد علي الذي تعلم في ألمانيا بلاد الفكر الهيقلي المثالي المتطور إلى الجدلية المادية . . .

● وفي الختام : هذه القراءة هي مساهمة منا في تسليط الضوء على نتاج رجل يعد علما من أعلام الفكر في تونس لا زالت نصوصه تستحث الدرس والتمحيص لما فيها من ثراء فكري يستوجب منا : نفض الغبار عليه ليتجلى واضحا أمام الأجيال المتعطشة للمعرفة والمتناسلة يوميا في الخلايا الثقافية على امتداد وطننا العربي .

☆ المراجع :

1) هو الشيخ محمد بن أحمد المرابط شهر العنابي من علماء تونس وفقهائها
ولد بتونس 1887 ودرس بالزيتونة حيث تدرج إلى مرتبة الأستاذية وتولى خطة الإفتاء المالكي بالديوان من سنة 1933 إلى تاريخ توحيد القضاء سنة 1956 وهي سنة وفاته ، والشيخ محمد العنابي هو والد الأديب المحامي الطيب العنابي المتوفى في غضون شهر سبتمبر 1984 لمزيد التوضيح انظر كتاب دفاعا عن الحداد ص 47 تأليف أحمد الدّرعي تحقيق محمد أنور بوسنينة .

2) الشيخ سعد السطيفي الجزائري الأصل تعلم بمصر وتونس وكان عالما حقا بجميع العلوم التي تدرس بين عرصات الجامع الأعظم فقيها بها ، لازمه الحداد مع جملة من إخوانه وأخذ عليه فهم تلك العلوم حتى أدركها جيدا (أنظر كتاب حياة الطاهر الحداد ص 18 ، طبع الدار العربية للكتاب تحقيق ـ محمد أنور بوسنينة)

3) عبد الحميد بن باديس 1880 ـ 1940 من رواد الإصلاح في الجزائر ومن أكبر الدعاة إلى الحفاظ على إسلامها وعروبتها ونشر اللغة العربية في ربوعها . . . وهو من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صحبة رفيقه محمد البشير الإبراهيمي (انظر كتاب دفاعا عن الحداد ص 47)

4) أنظر كتاب حياة الطاهر الحداد ص 87 ـ ط ـ الدار العربية للكتاب

5) أنظر كتاب دماء على الحدود تأليف محمد المرزوقي ص 351 ـ ط ـ د . ع للكتاب

6) نفس المرجع ث 354 ـ 355

7) أنظر كتاب الطاهر الحداد حياته وتراثه ـ الجيلاني بن الحاج يحي ومحمد المرزوقي ص ـ 28 ـ طبع دار بوسلامة

8) أنظر حياة الطاهر الحداد ـ تأليف أحمد الدرعي تحقيق محمد أنور بوسنينة ص 114 .



ببلوغرافيا عن الطاهر الحداد

مقدمة :

تصدر دار الكتب الوطنية هذه البيبليوغرافيا المختصة عن المصلح التونسي الطاهر الحداد ، وذلك في اطار الاحتفال بمرور خمسين سنة على وفاته ، مساهمة منها في التعريف بأحد اعلامنا .

ولقد اجتهدنا في اعداد حصر يشمل ـ إلى جانب المؤلفات التي كتبها الحداد نفسه ـ أغلب الدراسات التي تناولت آثاره بالبحث ، استنادا الى الوثائق المودعة خاصة بدار الكتب الوطنية وكذلك معهد الآداب العربية ومركز التوثيق القومي .

وقد تمثل القسط الأوفر من العمل في تجريد بعض العناوين من الدوريات التونسية التي عبرت عما احدثته أفكار الحداد من ضجة وجدال هزّا المجتمع والفكر التونسي في النصف الأول من القرن العشرين .

ومن هذا المنطلق قسمنا المعلومات على النحو التالي :

○ 1 ـ ما كتبه الطاهر الحداد :
- كتب مفردة .
- مقالات .

○ 2 ـ ما كتب عن الحداد :
- كتب مفردة .
- مقالات .

كما أدرجنا على نفس هذا المنوال الوثائق التي جاءت بالفرنسية .

وقد تضمنت هذه البيبليوغرافيا كشافا للعناوين مرتبا ترتيبا الفبائيا مشفوعا باحالة الى رقم المعلومة .

وأخيرا فاننا نعتذر لدى قرائنا لما سيجدونه من نقص في اعداد هذه النشرة وندعوهم الا يبخلوا علينا باقتراحاتهم ومدنا بمعلومات لم نذكرها وذلك لاثراء هذا العمل حتى يكون مصدرا ييسر للباحث مهمته في فهم جوانب من شخصية الطاهر الحداد ، من آثاره الفكرية والعلمية باعتبارها جزءا هاما من الفكر التونسي المعاصر .

« مصلحة النشر والايداع الشرعي »

مؤلفات الحداد

كتب مفردة

1) الحداد ، الطاهر .
امرأتنا في الشريعة والمجتمع / الطاهر الحداد . ـ تونس : المطبعة الفنية ، 1930 . ـ 140 ص . ، 25 سم .

2) الحداد ، الطاهر .
التعليم الاسلامي وحركة الاصلاح في جامع الزيتونة / الطاهر الحداد ؛ تقديم وتحقيق محمد أنور بوسنينة . ـ تونس : الدار التونسية للنشر ، 1981 . ـ 119 ص . ، 23 سم .

3) الحداد ، الطاهر .
خواطر / الطاهر الحداد ؛ تحقيق محمد أنور بوسنينة . ـ تونس ؛ طرابلس [ليبيا] : الدار العربية للكتاب ، 1978 . ـ 101 ص .

4) الحداد ، الطاهر .
العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية / الطاهر الحداد . ـ تونس : مطبعة العرب ، 1927 . ـ 192 ص . ، 24 سم .

(5) HADDAD Tahar. Notre femme, la législation islamique et la société/Tahar Haddad. — Tunis : Maison Tunisienne de l'Edition, 1978. — 256 p. ; 24 cm.
(6) HADDAD Tahar. « Notre femme dans la loi et dans la société ». Trad. M. Matafarrij.
m : Revue des études islamiques : 1935 cahier III. — p. 201 - 230.

مؤلفات الحداد

مقالات

7) الحداد ، الطاهر .
أحرار المطوية الذين حكمت عليهم المحكمة الفرنسية بسوسة بالسجن والغرامة لاتهامهم بالاعتداء .
• إفريقيا : 9 مارس 1925 ، السنة 3 ، عدد 41 . ـ ص 1 .

8) الحداد ، الطاهر .
اعترافهم بحركتنا النقابية بعد انكارها في قضية المؤامرة .
• إفريقيا : 25 ماي 1925 ، السنة 3 ، عدد 50 . ـ ص 4 .

9) الحداد ، الطاهر .
إلى النهضة الى النهضة .
• الصواب : 4 نوفمبر 1921 ، السنة 17 ، عدد 370 . ـ ص 1 .

10) الحداد ، الطاهر .
امرأتنا في الشريعة والمجتمع : مقتطف من المقدمة .
• العالم الأدبي : فيفري 1930 ، السنة 1 ، عدد 2 . ـ ص 22 .

11) الحداد ، الطاهر .
أملي : قصيد شعري .
• المباحث : 1 أفريل ، السنة 1 ، عدد 1 . ـ ص 3 .
• العمل : 6 جانفي 1959 ، السنة 24 ، سلسلة جديدة ، عدد 997 . ـ ص 8 .

12) الحداد ، الطاهر .
أين المؤامرة والى متى ؟
• إفريقيا : 26 فيفري 1925 ، السنة 3 ، عدد 38 . ـ ص 1 .

13) الحداد ، الطاهر .
التجنيس نكث للعهد .
• الأمة : 13 نوفمبر 1923 ، السنة 3 ، عدد 50 . ـ ص 1 .

14) الحداد ، الطاهر .
الثقافة الزوجية .
• الصواب : 28 سبتمبر 1938 ، السنة 25 ، عدد 554 . ـ ص 3 .

15) الحداد ، الطاهر .
الثقافة الصحية .
• الصواب : 19 أكتوبر 1928 السنة 25 ، عدد 556 . ـ ص 3 .

16) الحداد ، الطاهر .
الثقافة العقلية .

● الصواب : 31 أوت 1928 ، السنة 25 ، عدد 552 . ـ ص 3 .

● الصواب : 14 سبتمبر 1928 ، السنة 25 ، عدد 553 . ـ ص 3 .

17) الحداد ، الطاهر .
جامعة عموم العملة التونسيين حول اجتماع 18 جانفي .
● افريقيا : 29 جانفي 1925 ، السنة 3 ، عدد 33 . ـ ص 1 .

18) الحداد ، الطاهر .
الحاكم المعبود أو صورة من شقائنا النفسي والاجتماعي .
● الأمة : 26 أوت 1923 ، السنة 3 ، عدد 4 . ـ ص 5 .

19) الحداد ، الطاهر .
الحجة طريق الحق : حول كتاب امرأتنا . . .
● الزمان : 19 أكتوبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 61 . ـ ص 2 .

20) الحداد ، الطاهر .
حديث عن البسلمة .
● لسان الشعب : 4 جانفي 1928 ، السنة 8 ، عدد 281 . ـ ص 3 .

21) الحداد ، الطاهر
حول تصريحات المقيم العام لأحد محرري جريدة الماتان .
● افريقيا : 9 مارس 1925 ، السنة 3 ، عدد 41 . ـ ص 1 .

22) الحداد ، الطاهر .
الزواج بلا استعداد .
الصواب : 13 جويلية 1928 ، السنة 25 ، عدد 547 . ـ ـ ص 3 .

23) الحداد ، الطاهر .
الزواج بالاكراه .
● الصواب : 29 جوان 1928 ، السنة 24 ، عدد 546 . ـ ص 1 ـ 2 .

24) الحداد ، الطاهر .
شيء من تصريحات المقيم لمكاتب جريدة (البتي ماتان) .
● افريقيا : 9 أفريل 1925 ، السنة 3 ، عدد 46 . ـ ص 1 .

25) الحداد ، الطاهر .
صور من حياتنا في المنزل .
● الصواب : 3 أوت 1928 ، السنة 25 ، عدد 550. ـ ص 2 ـ 3 .

26) الحداد ، الطاهر .
ضحايا الشهوة في الزواج .
● الصواب : 20 جويلية 1928 ، السنة 25 ، عدد 549 . ـ ص 3 .

27) الحداد ، الطاهر .
عاداتنا عوائق في طريق الزواج .
● الصواب : 6 جويلية 1928 ، السنة 25 ، عدد 547 . ـ ص 3 .

28) الحداد ، الطاهر .
الغناء : شعر .
● العالم الأدبي : 24 أكتوبر 1932 ، السنة 3 ، عدد 28 . ـ ص 4 .

29) الحداد ، الطاهر .
في بلادنا محرومين من الحرية .
● افريقيا : 11 ماي 1925 ، السنة 3 ، عدد 49 . ـ ص 3 ـ 4 .

30) الحداد ، الطاهر .
كلمات عديمة المنفعة .
● افريقيا : 4 ماي 1925 ، السنة 3 ، عدد 48 . ـ ص 4 .

31) الحداد ، الطاهر .
كيف نثقف الفتاة لتكون زوجا وأما .
● الصواب : 17 أوت 1928 ، السنة 25 ، عدد 551 . ـ ص 3 .

32) الحداد ، الطاهر .
كيف يستعبدون الأمة : السفرة بالليل .

● لسان الشعب : 3 ديسمبر 1924 ، السنة 5 ، عدد 165 . ـ ص 3 .

33) الحداد ، الطاهر .
كيف يقاوموننا في بلادنا ؟ وكيف العمل .
● الأمة : 25 جوان 1922 ، السنة 2 ، عدد 28 . ـ ص 1 .

34) الحداد ، الطاهر .
. . . لأنك دستوري .
● لسان الشعب : 23 ديسمبر 1924 ، السنة 5 ، عدد 168 . ـ ص 2 .

35) الحداد ، الطاهر .
مسألة المرأة .
● الصواب : 4 ماي 1928 ، السنة 24 ، عدد 538 . ـ ص 3 ـ 4 .

36) الحداد ، الطاهر .
المظالم السوداء بالجهات أو بعض ما شاهدناه بغار الملح ورأس الجبل .
● لسان الشعب : 29 أكتوبر 1924 ، السنة 4 ، عدد 162 . ـ ص 3 .
12 نوفمبر 1924 ، السنة 4 ، عدد 164 . ـ ص 3 .

37) الحداد ، الطاهر .
نحن والمستعمرون .
● الأمة : 23أفريل 1922 ، السنة 2 ، عدد 28 . ـ ص 2 .

38) الحداد ، الطاهر .
نغمة أخرى .
● الزمان : 26 أكتوبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 62 . ـ ص 1 ـ 2 .

39) الحداد ، الطاهر .
النهضة العامة كيف تنشأ وكيف تكون .
● الأمة : 18 ماي 1922 ، السنة 2 ، عدد 29 . ـ ص 3 .

40) الحداد ، الطاهر .
يكتبون حججي ويعلنون كيدهم .

* الزمان : 3 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 63 . ص 2 .

ما كتب عن الحداد
- كتب مفردة -

41) ابراهيم ، رضوان .
التعريف بالأدب التونسي / رضوان ابراهيم . ـ طرابلس ؛ تونس : الدار العربية للكتاب ، 1977 . ـ 267 ص . ، 21 سم .

42) ابن عون ، دنيا .
موقف الصحف التونسية من الطاهر الحداد اثر صدور كتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع / دنيا بن عون ؛ اشراف المولدي بشير . ـ تونس .
تونس : معهد الصحافة وعلوم الأخبار ، 1980 . ـ 59 ص ، 30 سم .
رسالة ختم الدروس الجامعية : صحافة : تونس 1980 .

43) ابن عاشور ، محمد الفاضل .
الحركة الأدبية والفكرية في تونس / محمد الفاضل بن عاشور . ـ تونس : مطبعة دار المنا ، 1956 . ـ 452 ص . ، 23 سم .

44) ابن عيسى ، الطيب .
تحرير المرأة أو من شهيرات النساء الراقيات قديما وحديثا / الطيب بن عيسى . ـ تونس : مطبعة الجمهورية ، [د . ت] . ـ 152 ص . ، 21 سم .

45) ابن مراد ، محمد الصالح .
الحداد على امرأة الحداد ، أو رد الخطأ والكفر والبدع التي حواها كتاب ـ امرأتنا في الشريعة والمجتمع ـ / تأليف محمد الصالح بن مراد . ـ تونس : المطبعة التونسية ، 1931 . 238 ص . ، 23 سم .
طبعة أولى بالمطبعة التونسية 1964 .

46) الجابري ، محمد الصالح .
الشعر التونسي المعاصر خلال قرن 1870 ـ 1970/محمد الصالح الجابري . ـ تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، 1974 . ـ 708 ص . ، 24 سم .

47) الجندي ، أنور .
الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا / أنور الجندي . ـ القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، 1965 . ـ 363 ص . ، 23 سم . .

48) خالد ، أحمد .
أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل / أحمد خالد . ـ ط . 2 . ـ تونس : الدار التونسية للنشر ، 1979 . ـ 498 ص . ، 24 سم .

49) خالد ، أحمد .
الحداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن العشرين/أحمد خالد . ـ تونس : الدار التونسية للنشر ، 1967 . ـ 435 ص .

50) خالد ، أحمد .
شخصيات وتيارات/ أحمد خالد . ـ طرابلس ؛ تونس : الدار العربية للكتاب ، 1982 . ـ 605 ص . ، 24 سم .

51) الداغر ، يوسف اسعد .
مصادر الدراسات الأدبية : الفكر العربي الحديث في سير اعلامه/ يوسف أسعد الداغر .
ـ بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ، 1972 .
ـ 3 أجزاء . ، 1622 ص . ، 24 سم .

52) الدرعي ، أحمد .
حياة الطاهر الحداد 1899 ـ 1935/ أحمد الدرعي ؛ تحقيق محمد أنور بوسنينة . ـ تونس ؛ طرابلس : الدار العربية للكتاب ، 1975 . ـ 144 ص .

53) الدرعي ، أحمد .
دفاعا عن الحداد / أحمد الدرعي ؛ تحقيق وتقديم محمد أنور بوسنينة . ـ تونس :
مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، 1976 . ـ 247 ص . ، 23 سم .

54) الذوادي ، رشيد .
الطاهر الحداد / رشيد الذوادي . ـ تونس : مكتبة النجاح ، [1977] . ـ 40 ص . ، صور ، غلاف ملون ، 20 سم . (عظماء بلادي) .

55) السنوسي ، زين العابدين .
الأدب التونسي في القرن الرابع عشر / زين العابدين السنوسي . ـ تونس : مطبعة العرب ، 1928 . ـ 300 ص . ، 22 سم .

56) السنوسي ، محمد الطاهر .
المرأة بين القديم والحديث / محمد الطاهر السنوسي . ـ تونس : المطبعة العصرية ، 1969 . ـ143 ص : صور ، غلاف ملون ، 21 سم .

57)شهير ، منجي .
في الثقافة التونسية / منجي شهير . ـ بيروت : دار الغرب الاسلامي ، 1985 . ـ

58) عبد الوهاب ، حسن حسني .
مجمل تاريخ الأدب التونسي : من فجر الفتح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر / حسن حسني عبد الوهاب . ـ تونس : مكتبة المنار ، 1968 . ـ 353 ص . ، 23 سم .

59) الفلاح ، الجيلاني .
الشعب التونسي والتجنس / الجيلاني الفلاح . ـ تونس : مطبعة العرب ، 1924 . ـ 144 ص . : صور ، 20 سم .

60) كرو ، أبو القاسم محمد .
الطاهر الحداد : رائد الحركة ونصير المرأة / أبو القاسم محمد كرو . ـ تونس : المطبعة العصرية ، 1957 . ـ 104 ص . ، 19 سم .

61) المانى ، نائلة .
المرأة من خلال الصحافة التونسية من الثلاثينات الى السنة 1956/ نائلة المانى ، اشراف محمد الهادي الشريف . ـ تونس : كلية الآداب والعلوم الانسانية ، 1983 . ـ 30 سم .
شهادة الكفاءة في البحث ، تاريخ : تونس 1983 .

62) محفوظ ، محمد .
تراجم المؤلفين التونسيين / محمد محفوظ . ـ بيروت : دار المغرب الاسلامي ، 1982 . ـ 2 أجزاء .

63) المدني القيرواني .
سيف الحق / المدني القيرواني . ـ تونس : المطبعة الأهلية ، 1931 . ـ 64 ص . ، 20 سم .

ما كتب عن الحداد
ـ مقالات ـ

64) ابراهيم ، راجح .
زعماء التجديد بمصر يخالفون أدعياء مذهبهم بتونس
● الزهرة : 8 جانفي 1931 ، السنة 43 ، عدد 7080 . ص 1 .

65) ابراهيم ، راجح .
كلمة في كتاب
● النديم : 1 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 469 . ـ ص 1 ـ 7 .

66) ابراهيم ، راجح .
مفاكهة بريئة .
● الزمان : 17 نوفمبر 1930 ، السنة 4 ، عدد 64 . ـ ص 1 .

67) ابله .
انصار . . .
● النديم : 13 ديسمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 574 . ـ ص 1 ـ 2 .

68) ابن الحسين العراقي ، محمد .
نظرة في كتاب جديد .
● الزهرة : 17 ـ 19 أكتوبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7010 . ـ ص 1 .

69) ابن الخوجة ، عبد الحفيظ .
المنبر العام : مبلغ فهم التونسي لحركة التفكير .
● الزمان : 10 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 64 . ـ ص 2 .

70) ابن شعبان ، مصطفى .
زيادة بيان .
● الارادة : 18 جويلية 1934 ، السنة 1 ، عدد 170 . ـ ص 2 .

71) ابن شعبان ، مصطفى .
عبرة وذكرى .
● الزهرة : 5 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7051 . ـ ص 2 .

72) ابن عامر ، توفيق .
ملامح الثورة في تفكير الطاهر الحداد .
أشغال ندوة الثورة في الفكر العربي المعاصر تونس 4 ـ 9 ديسمبر 1978 .
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية . ـ ص 91 ـ 102 .

73) ابن عيسى ، الطيب .
حول كتاب امرأتنا : ما يعنون بحرية التفكير ؟
● الوزير : 30 أكتوبر 1930 . ـ ص 1 .

74) ابن محمد الصالح ، فرحات .
حكم الله في المساواة بين الرجال والنساء .
● الزمان : 17 نوفمبر 1930 ، السنة ، عدد . ـ ص 2 ـ 3 .
24 نوفمبر 1930 ، السنة ، عدد . ـ ص 2 ـ 3 .

75) ابن مصطفى ، رشيد .
رجوع للحق .
● الزهرة : 13 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7032 . ـ ص 1 .

76) ابن مصطفى ، رشيد .
في المقص .
● النديم : 25 أكتوبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 468 . ـ ص 1 .

77) أبو نضال .
بعد مرور أربعين سنة على وفاة الطاهر الحداد ، اكتشاف مخطوط هام للمصلح التونسي الكبير يحمل عنوان خواطر .
● العمل : 3 جويلية 1974 ، السنة 10 ، عدد 5853 . ـ ص 6 .

78) احتجاج الزيتونيين عن صنيع صاحب كتاب امرأتنا .
● النديم : 1 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 469 . ـ ص 7 .

79) احتجاج من أكودة .
● النديم : 15 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 471 . ـ ص 3 .

دو 201

80) احتجاج من بلدة توزر عن الحداد .
● النديم : 25 أكتوبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 468 . ـ ص 2 .

81) احتجاج من بنزرت .
● الزهرة : 13 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7032 . ـ ص 2 .

82) احتجاج من جربة ضد صنيع الطاهر الحداد (43 امضاء) .
● النديم : 29 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 473 . ـ ص 3 .

83) احتجاج من شبان تونسيين .
● النديم : 1 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 469 . ـ ص 7 .

84) احتجاج من طبلبة (13 امضاء) .
● النديم : 27 ديسمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 476 . ـ ص .

85) احتجاج من غار الملح (14 إمضاء) .
● النديم : 13 ديسمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 473 . ـ ص 3 .

86) احتجاج من قصر هلال (76 إمضاء) .
● النديم : 22 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 472 . ـ ص 3 .

87) احتجاج من القلعة الصغرى .

● النديم : 1 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 469 . ـ ص 7 .

88) احتجاج من مساكن عن صنيع الطاهر الحداد (14 إمضاء) .
● النديم : 15 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 471 . ـ ص 3 .

89) الأسود ، حمزة .
الطاهر الحداد أو عقلنة التراث .
● الرأي : 11 ديسمبر 1981 ، السنة 4 ، عدد 167 . ـ ص 8 ـ 9 .

90) اقرار بمحاربة الدين .
● الزهرة : 28 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7045 . ـ ص 2 .

91) إلى متى هذا الاحتجاب ؟
● الزهرة : 11 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7056 . ـ ص 2 .

92) امرأتنا في الشريعة والمجتمع . كتاب يقع في حوالي 150 صفحة من القالب الربعي . تأليف الشيخ الطاهر الحداد .
● العالم الأدبي : 8 أكتوبر 1930 ، السنة 1 ، عدد 8 . ـ ص 19 .

93) إيمان الحداد ونظرته للاسلام والحياة بعد مرور أربعين سنة على وفاة الحداد 1899 ـ 7 ديسمبر 1935 .
● الصباح : 7 ديسمبر 1975 ، السنة 25 ، عدد 8531 . ـ ص 19 .

94) براءة من الحداد من مدينة سوسة .
● الزهرة : 18 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7036 . ـ ص 2 .

95) بعد مرور أربعين سنة على وفاة الطاهر : اكتشاف مخطوط هام للمصلح التونسي الكبير يحمل عنوان خواطر .
● العمل : 3 جويلية 1974 ، السنة 19 ، عدد 5853 ـ ص 6 .

96) بعض ما استفدناه من كتاب الحداد .

● الزهرة : 4 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7024 . ـ ص 1 2

97) البودالي ، النوري .
مناسبة ذكرى الطاهر الحداد : جوانب من شخصيته .
الصباح : 23 ديسمبر 1975 ، السنة 25 ، 8544 . ـ ص 19 .

98) بورقيبة ، الحبيب .
أعداء الطاهر الحداد حاولوا اشهار سلاحهم على فتصديت لهم وتوصلت الى القضاء عليهم .
الصباح : 21 ديسمبر 1975 ، السنة 25 ، عدد 8543 . ، ص 4 .

99) بوسنينة ، محمد أنور .
في الذكرى الواحدة والأربعين لوفاة الطاهر الحداد المصلح الذي خدم قضية العدل . . . والحرية والحق .
● الصباح :
9 ديسمبر 1976 ، عدد 8944 . ـ ص 18 .

100) بوسنينة ، محمد أنور .
مقال في ذكرى المصلح الطاهر الحداد .
● الصباح : 10 ديسمبر 1974 ، السنة 24 ، عدد 7922 . ـ ص 18 .

101) تثبت أيها الحكيم .
● الزهرة : 22 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7065 . ـ ص 1 .

102) تصريحات المفتي المالكي فضيلة الشيخ عبد العزيز جعيط [حول كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع] .
● الوزير : 13 نوفمبر 1930 ، السنة 11 ، عدد 212 . ـ ص 2 .

103) تكذيب اشاعة (قصر هلال) .
● الزهرة : 19 جانفي 1931 . السنة 43 ـ عدد 7089 . ـ ص 2 .

104) تواصل الاحتفالات بقابس بمرور 45 سنة على وفاة الطاهر الحداد .

● العمل : 11 ديسمبر 1980 ، السنة 25 ، عدد 8822 . ـ ص 9 .

105) ثقافة الحداد
● الصباح : 7 ديسمبر 1982 ، السنة 32 ، عدد 10916 . ـ ص 13 .

106) الجزيري ، حسين .
دمعة على مستقبل شاب .
● النديم : 13 ديسمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 474 . ـ ـ ص 1 .

107) الجزيري ، حسين .
كوهين فقيه .
● النديم : 29 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 473 . ـ ص 1 .

108) الجزيري ، حسين .
بجلة طائشة .
● النديم : 20 ديسمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 475 . ـ ص 1 .

109) الجزيري ، حسين
هذا سلاحهم سيدي الوصيف المحترم .
● الزهرة : 16 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7060 . ـ ص 1 .

110) الجزيري ، حسين .
يتكلم أيضا .
● النديم : 25 أكتوبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 468 . ص 1 .

111) الجندوبي ، علي .
حول كتاب الطاهر الحداد : حياته ـ أثره .
● القنفود : 24 جوان 1963 ، السنة 2 ، عدد 29 . ـ ص 3 .

112) الحجة طريق الحق : وهذه حجتنا منا اليك .
● الزمان : 26 أكتوبر 1930 ، السنة ، عدد 62 . ـ ص 1 .

113) الحداد على امرأة الحداد .

الزهرة : 9 أكتوبر 1931 ، السنة 44 ، عدد 7307 . ـ ص 2 .

114) حدود حرية الفكر .
الزهرة : 2 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7022 . ـ ص 1 .

115) حديث طريف مع الشيخ الطاهر الحداد مؤلف كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع .
● الزمان : 17 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 64 . ـ ص 2 .

116) حشرة تريد أن تبلغ الأرض . . .
طاهر الحداد . . . يشعر ويا له من شعر .
● النديم : 18 ديسمبر 1932 ، السنة 12 ، عدد 571 . ـ ص 3 .

117) الحمار ، الجيلاني .
ايضاح حقيقة .
● النهضة : 2 نوفمبر 1930 ، السنة 8 ، عدد 2340 . ـ ص 2 .

118) حوادث داخلية : جريدة النديم ازاء الحداد .
الزهرة : 3 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7023 . ـ ص 2 .

119) حوادث داخلية : صدى حركة الحداد .
الزهرة : 26 أوت 1931 ، السنة 44 ، عدد 7269 . ـ ص 2 .

120) حول زندقة الحداد (شعر) .
● الزهرة : 16 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7034 . ـ ص 2 .

121) حول كتاب امرأتنا .
الزهرة : 29 أكتوبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7019 . ـ ص 1 .

122) حول كتاب امرأتنا .
● العالم الأدبي : نوفمبر 1930 ، السنة 1 ، عدد 9 . ـ ص 26 ـ 306 .

123) حول كتاب جديد .
● الزمان : 19 جانفي 1931 ، السنة 2 ، عدد 71 . ـ ص 1 .

124) خالد ، أحمد .
أضواء على الخلفية التاريخية لمجلة الأحوال الشخصية الصادرة سنة 1956 .
● الفكر : 6 مارس 1974 ، السنة 19 ، عدد 6 . ـ ص 58 ـ 74 .

125) خالد ، أحمد .
الطاهر الحداد الشاعر السياسي .
● الفكر : 2 جانفي 1966 ، السنة 11 ، عدد 4 . ـ ص 21 ـ 26 .

126) خالد ، أحمد .
الطاهر الحداد المناضل الاجتماعي وصدى آرائه الاصلاحية في مجتمعنا اليوم . يتبع . . .
● العمل : 27 جانفي 1965 ، السنة 30 ، عدد 2900 . ـ ص 4 .
28 جانفي 1965 ، السنة 30 ، عدد 2901 . ـ ص 4 .

127) خالد ، أحمد .
الطاهر الحداد نصير المرأة في بيئته وعصره .
● مرآة الساحل : أكتوبر 1967 ، السنة 2 ، عدد 7 . ـ ص 14 ـ 16 .

128) خالد ، أحمد .
الطاهر الحداد والهادي العبيدي يناصران المرأة التونسية سنة 1928 .
● الصباح : 13 جانفي 1966 ، السنة 15 ، عدد 4210 . ـ ص 4 .

129) خالد ، أحمد .
من جدلية بين القديم والجديد .
● الفكر : مارس 1969 ، السنة 14 ، عدد 6 . ـ ص 5 ـ 18 .

130) خالد ، أحمد .
من مظاهر معركة انصار القديم وأنصار الجديد في تونس : نموذج من الكتابات المناهضة للطاهر الحداد : رسالة سيف الحق على من لا يرى الحق لعمر البرى المدني .
● الفكر : أكتوبر 1967 ، السنة 13 ، عدد 1 . ـ ص 31 ـ 35 .

131) خالد ، أحمد .
موقف : الطاهر الحداد .
● الصباح : 7 ديسمبر 1982 ، السنة 32 ، عدد 10916 . ـ ص 12 ـ 13 .

132) خالد ، أحمد .
النضال والثورة في أدب الطاهر الحداد .
● الفكر : جويلية 1975 ، السنة 20 ، عدد 10 . ـ ص 26 ـ 51 .

133) خطر يتهدد المرأة التونسية .
● الزمان : 17 أوت 1931 ، السنة 2 ، عدد . ـ ص 1 .

134) الدرعي ، أحمد .
ارفعوا براقعكم .
● الزمان : 3 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 63 . ـ ص 3 ـ 4 .

135) ذكرى الحداد .
العالم الأدبي : 10 فيفري 1936 ، السنة 4 ، عدد 18 . ـ ص 14 .

136) الرفاعي .
تقريض كتاب .
● النديم : 22 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 472 . ـ ص 3 .

137) رمضان ، الطاهر .
موقف الطاهر الحداد من المجتمع التونسي في عصره .
● النشرة التربوية للتعليم الثانوي : فيفري 1984 ، سلسلة جديدة ، عدد 7 . ـ ص 5 ـ 25 .

138) الرئيس يشرف على افتتاح ندوة حول الطاهر الحداد . ثارت للطاهر الحداد فيما يخص مسألة القدامى وتحرير المرأة .
* الصباح : 20 ديسمبر 1975 ، عدد 8542 . ـ ص 2 .

139) السنوسي ، زين العابدين .
هل من عمل .
* الزهرة : 16 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7034 . ـ ص 2 .

140) الشارني ، زينب .
التربية وآلية تحويل المجتمع عند محمد عبدو والطاهر الحداد .
* المجلة التونسية للدراسات الفلسفية : مارس 1984 ، السنة 1 ، عدد 2 . ـ ص 53 ـ 63 .

141) الشاقور وحزمة السنابل .
* الاذاعة : 1 جويلية 1967 ، عدد 189 . ـ ص 30 ـ 31 .

142) شقرون ، محفوظ .
العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية تأليف الطاهر الحداد .
* الفكر : 8 ماي 1957 ، السنة 2 ، عدد 8 . ـ ص 71 ـ 76 .

143) الشملي ، المنجي .
التعريف برائد مغبون : الطاهر الحداد .
* مجلة التجديد : 1 فيفري 1961 ، السنة 1 ، عدد 1 . ـ ص 3 .

144) الشملي ، المنجي .
التعريف برائد مغبون : 2 ـ النقابي المناضل . الحق يؤخذ غلابا .
* مجلة التجديد : 15 ماي 1961 ، السنة 1 ، عدد 4 . ـ ص 7 .

145) الشملي ، المنجي .
الحداد . النقابي المناضل .
* التجديد : 1 ـ 4 ماي 1961 ، السنة 1 ، عدد 4 . ـ ص 7 ـ 11 .

146) الشملي ، المنجي .
قضية المرأة في تفسير المنار .
* حوليات الجامعة : 1966 ، عدد 3 . ـ ص 5 ـ 27 .

147) شميل ، شبلي .
عقيدة ملحد من القرآن .
* النديم : 15 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 471 . ـ ص 2 .

148) الصحافة وامرأتنا .
* العالم الأدبي : نوفمبر 1930 ، السنة 1 ، عدد 9 . ـ ص 38 ـ 278 .

149) صفر ، الطاهر .
حول كتاب جديد .
* الزمان : 3 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 63 . ـ ص 1 .

150) الصميطي ، الطاهر الأسود .
على هامش الخمسينية : الطاهر الحداد شاعر وطني وكاتب واقعي .
* الصباح : 26 أكتوبر 1985 ، عدد 11830 . ـ ص 4 .

151) عبد الواحد ، عبد الحميد .
مواقف الطاهر الحداد من الثورة والاصلاح من خلال كتاب « العمال التونسيون . »
* الصباح : 3 جانفي 1985 ، السنة 34 ، عدد 11586 . ـ ص 9 .
4 جانفي 1985 ، السنة 34 ، عدد 11587 . ـ ص 9 .

152) العجمي ، رجب .
ضلال مصنف كتاب امرأتنا وخذلانة : مسألة تعدد الزوجات .
* النهضة : 3 ديسمبر 1930 ، السنة 8 ، عدد 2356 . ـ ص 1 .

153) العجمي ، رجب .
ضلال مصنف كتاب امرأتنا وخذلانه : مسألة حقوق الزوجين أو حرية المرأة في الاسلام .
* النهضة : 13 ديسمبر 1930 ، السنة 8 ، عدد 2375 . ـ ص 2 .

154) عزيزة ، نورالدين .
ندوة الطاهر الحداد بعد 40 سنة .
* الحياة الثقافية : ديسمبر 1975 ، السنة 1 ، عدد 4 . ـ ص 80 ـ 84 .

155) على الهامش . . . كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع .
* الزمان : 3 نوفمبر 1930 ، السنة 2 .
10 نوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 63 ـ 64 . ـ ص 1 ـ 2 .

156) العيدودي (الحبيب) .
الطاهر الحداد : حياته ، آثاره الفكرية .
* الصباح : 6 سبتمبر 1970 ، السنة 20 ، عدد 6507 . ـ ص 4 .

157) القروني ، صالح سويسي الشريف .
خطة هجومية جديدة .
* الزهرة : 18 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7062 ، ـ ص 1 ـ 2 .

158) القصار ، الطاهر .
صدى حفل الجمعية الخيرية الاسلامية .
* الزهرة : 8 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7053 . ـ ص 1 .

159) قصة سياسية مهداة الى دعاة تحرير المرأة .
* الاستقلال : 28 سبتمبر 1956 ، السنة 1 ، عدد 49 . ـ ص 1 .

160) كاهية ، علي .
الحق يظهر من معنى ومن كلم .
* الزهرة : 21 نوفمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7039 . ـ ص 1 ـ 2 .

161) كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع .
* الزمان : 19 أكتوبر 1930 ، السنة ، عدد 61 . ـ ص 1 .

24 نوفمبر 1930 ، السنة ، عدد 66 . ـ ص 1 .

162) كتـاب امرأتنـا مشيخة الاسـلام وامرأتنا .
● العالم الأدبي : أكتوبر 1930 ، السنة 1 ، عدد 8 . ـ ص 9 ـ 11 .

163) كتاب امرأتنا للشيخ الطاهر الحداد .
● النهضـة : 30 نـوفمبـر 1930 ، السنة 8 ، عدد 2374 . ـ ص 2 .

164) كتاب حياة الطاهر الحداد .
● الصباح : 9 ديسمبر 1975 ، السنة 25 ، عدد 8532 : ـ ص 18 .

165) كرو ، أبو القاسم محمد .
مكانة الحداد بين دعاة تحرير المرأة .
● الـرأي : 2 أوت 1985 ، عـدد 332 . ـ ص 12 ـ 13 .

166) كلمات شائكة .
● النديم : 25 أكتوبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 468 . ـ ص 2 .

167) كلمة الرئيس لدى اشرافه على افتتاح ندوة حول الطاهر الحداد .
● الصباح : 21 ديسمبر 1975 ، السنة 25 ، عدد 8543 . ـ ص 4 .

168) مـاذا في كتاب امـرأتنا في الشـريعة والمجتمع ؟
يصف المؤلف نظرتنا الى المرأة .
● الزمان : 10 نـوفمبر 1930 ، السنة 2 ، عدد 64 . ـ ص 1 .

169) الماطري ، محمود .
تثبت أيها المثبت .
● الـزهـرة : 25 ديـسـمـبـر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7068 . ـ ص 2 .

170) المالقي ، صالح .
صدى كتاب امرأتنا في صحف القطر الشقيق .
● الزهرة : 5 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7051 . ـ ص 1 .

171) مبلغ احترام الاشتراكيين كحرية التفكير عند التونسيين .
● الـزهـرة : 4 ديـسـمـبـر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7050 . ـ ص 1 .

172) المجـددون هنا وهنـاك : شتان بين مشرق ومغرب .
● الـزهـرة : 28 ديـسـمـبـر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7070 . ـ ص 1 .

173) مسلم ، محمد .
كيف ابتدأت حركة الشقاق ومن نظمها وشجعها على العمل .
● الارادة : 24 جويلية 1934 ، السنة 1 ، عدد 175 . ـ ص 2 .

174) معاوي ، ابراهيم .
الطاهر الحداد والاصلاح .
● مـرآة الـسـاحـل : 8 جويلية ـ أوت ـ سبتمبر 1973 ، السنة 8 ، عدد 30 . ـ ص 42 ـ 46 .

175) مقتطفات : الديانة الاسلامية .
● الـنـديم : 26 مارس 1932 ، الـسـنـة 12 ، عدد 535 . ـ ص 2 .

176) مقتطفات : المرأة المسلمة .
● الـنـديـم : 26 مـارس 1932 ، السنة 12 ، عدد 536 . ـ ص 3 .
2 أفـريـل 1932 ، الـسـنـة 12 ، عـدد 535 . ـ ص 3 .
11 جـوان 1932 ، الـسـنـة 12 ، عـدد 545 . ـ ص 3 .

177) مقتطفات : مسيو وشيخ .
● الـنـديم : 7 مـاي 1932 ، الـسـنـة 12 ، عدد 540 . ـ ص 2 .

178) من خواطر الطاهر الحداد .
● الـصـبـاح : 7 ديـسـمـبـر 1982 ، السنة 32 ، عدد 10916 . ـ ص 12 .

179) المنبـر العام : كلمـة الى النهضة وأعوانها .
● الزهرة : 11 سبتمبر 1931 ، السنة 44 ، عدد 7283 . ـ ص 2 ـ 3 .

180) المهـذار .
يسألونك عن عمي البصائر (شعر) .
● النديم : 29 نوفمبر 1930 ، السنة 10 عدد 473 . ـ ص 2 .

181) المهـذار .
يسألونك عن . . . الفقر والكفر (قصيد) .
● النديم : 15 نوفمبر 1930 ، السنة 10 عدد 471 . ـ ص 2 .

182) موقف الصحافة العربية تلقاء نـازلة الحداد .
● الزهرة : 1 . 2 . 3 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7047 . ـ ص 1 .

183) المجـوى .
الإرادة : 21 فيفري 1934 ، السنة الأولى ، عدد 34 . ـ ص 2 .
الإرادة : 7 مـارس 1934 ، السنة الأولى ، عدد 48 . ـ ص 2 .
الإرادة : 10 مارس 1934 ، السنة الأولى ، عدد 51 . ـ ص 2 .

184) ندوة تقارن بين قاسم أمين والطاهر الحداد .
● الصباح : 23 ديسمبر 1975 ، عدد 8544 . ـ ص 19 .

185) النشرة البذيئة أو حفل تكريم كتاب .
● الـزمـان : 15 ديسمبـر 1930 ، السنة عدد 68 . ـ ص 1 ـ 2 .
● الـزمـان : 5 جـانـفي 1931 ، السنة عدد 70 . ـ ص 1 .

186) النظارة والحداد .

• العالم الأدبي : نوفمبر 1930 ، السنة 1 ، عدد 9 . ـ ص 279 ـ 29 .

187) نظرة في كتاب جديد ـ 2 ـ

• الزهرة : 19 أكتوبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7010 . ـ ص 1 .

188) النقاش ، جلال الدين .

أمشروع أم حكيم .

• النديم : 22 نوفمبر 1930 ، السنة 10 ، عدد 472 . ـ ص 2 .

189) هل ذلك الرد حكيم يا حضرة الحكيم .

• الزهرة : 26 ديسمبر 1930 ، السنة 42 ، عدد 7069 . ـ ص 1 .

190) الهمامي ، الطاهر .

حياة الطاهر الحداد لأحمد الدرعي .

• الحياة الثقافية : ماي ـ جوان 1976 ، السنة 2 ، عدد 7 . ـ 118 ـ 119 .

191) الهمامي ، الطاهر .

كلمات لم تمت .

• حقائق : 6 سبتمبر 1985 ، عدد 82 . ـ ص 23 .

192) الهمامي ، الطاهر .

لماذا فشلت دعوة الاصلاح الاجتماعي في العقد الثالث من هذا القرن ؟

• الصباح : 7 ديسمبر 1982 ، السنة 32 ، عدد 10916

193) الهمامي ، الطاهر .

مع الحداد ثانية : العقل والعلم مفتاح النهضة .

• حقائق : 13 سبتمبر 1985 ، السنة ، عدد 83 . 25 ـ

ECRITS CONCERNANT TAHAR HADDAD

MONOGRAPHIES

1) ABDELMALEK (Anouar).
La Pensée politique arabe contemporaine/Anouar Abdelmalek. - Paris : Seuil, 1970. - 382 p. ; 18 cm. - (Politique ; 39).

2) BERQUE (Jacques).
Le Maghreb entre deux guerres/Jacques Berque. - Paris : Seuil, 1962. - 446 p. ; 24 cm. - (Esprit Frontière Ouverte).

3) BORRMANS (Maurice).
Documents sur la famille au Maghreb de 1940 à nos jours : thèse complémentaire.../Maurice Borrmans. - Rome : (sn), 1968. - 2 vol ; 211 + 461 p. ; 27 cm.

4) BORRMANS (Maurice).
Statut personnel et famille au Maghreb de 1940 à nos jours : thèse principale.../Maurice Borrmans. - Rome : (sn), 1969. - 2 vol ; 342 + 693 p. ; 27 cm.

5) BOURGUIBA (Habib).
— Tahar El Haddad, vengé de tous ses détracteurs/Habib Bourguiba. - Tunis : imprimerie Officielle, 1976. - 23 p. ; 14 cm.
— Allocation du Président Habib Bourguiba à l'occasion du quatrième anniversaire de la mort de l'écrivain Tahar El Haddad. - Tunis, le 19 décembre 1975.

6) CHATER (Souad).
— La femme Tunisienne : citoyenne ou sujet... ?/Souad Chater. - Tunis : M.T.E., (1975). - 267 p. ; 25 cm.

7) CHEGROUCH (Raoudha).
Tahar El Haddad, Mohamed Salah Ben M'rad : deux représentations conflictuelles du statut de la femme dans la société/Raoudha Chegrouch Gharbi ; dir. Ridha Boukraa. - Tunis : Faculté des lettres et des sciences Humaines, 1983. - 145 p. ; 31 cm. CAR : Socio. : Tunis : 1983.

8) DABBAB (Mohamed).
Index des revues et journaux Tunisiens de langue française de 1907 à l'indépendance (1956)/Mohamed Dabbab. - Tunis : CERES, 1973. - 116 p. ; ill. ; 24 cm. - (Cahiers du CERES. Série : Documentation et Bibliographie ; 1).

9) DE JONG (Simon Cornelis Nicolas).
Enseignement et civilisation : une étude de sociologie historique sur l'enseignement et les changements sociaux en Tunisie/Simon Cornelis Nicolas De Jong. - Waddinxveen : Druck : Nupro B.V., 1980. - 576 p. ; tabl. ; 23 cm.

10) JULIEN (Charles André).
— L'Afrique du Nord en marche : nationalismes musulmans et souveraineté française/Charles - André Julien. - 3e ed. rev. et mise à jour. - Paris : Julliard, 1972. - 441 p. ; 24 cm.

11) KAIRALLAH (Chedly).
Le Mouvement évolutionniste tunisien : notes et documents/Chedly Kairallah. - Tunis : Impr. de Tunis, 1938. - 3 vol.

12) KRAIEM (Mustapha).
— La classe ouvrière tunisienne et la lutte de libération nationale (1939-1952)/Mustapha Kraiem. - Tunis : U.G.T.T., 1980. - 445 p. ; 24 cm.

13) KRAIEM (Mustapha).
— Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918-1929/Mustapha Kraiem. - Tunis : U.G.T.T., 1976. - 691 p. ; 24 cm.

14) LEJRI (Mohamed Salah).
Evolution du mouvement national tunisien des origines à la deuxième guerre mondiale/Mohamed Salah Lejri. - Tunis : M.T.E., 1977. - 2 vol.
in 8° 103471/103472

15) LE LONG (Michel).
La Rencontre avec l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968/M. Lelong. - Tunis : (s.n.), 1970.

16) LIAUZU (Claude).
— Salariat et mouvement ouvrier en Tunisie : crises et mutations (1931-1939)/Claude Liauzu. - Paris : C.N.R.S., 1978. - 192 p. ; 21 cm. - (Les cahiers du C.R.E.S.M., 9).

17) MAHJOUBI (Ali).
— Les origines du mouvement national en Tunisie (1904-1934)/Ali Mahjoubi. - Tunis : Université de Tunis, 1982. - 699 p. ; 24 cm. - (Faculté des Lettres et sciences humaines, quatrième série : histoire, vol XXV).

18) MERAD (Ali).
— Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 : essai d'histoire religieuse et sociale/Ali Mérad. - Paris. - La Haye : Mouton, 1967. - 472 p. : ill. 24 cm.

19) MONTETY (Henri).
— Femmes de Tunisie/par Henri Montety. - Paris ; La Haye : Mouton et Co, 1958. - 171 p. : ill. ; 25 cm.
— (Ecole Pratique des Hautes Etudes, VI section). -

20) PRUVOST (Lucie).
Droit et religion en Islam/Lucie Pruvost. - Alger : Centre d'Etudes Siocesain, 1981. - 58 p.

21) Soixante ans de pensée tunisienne à travers les revues. - Tunis : Impr. B et M, 1955. - 108 p. ; 25 cm.

22) SRAIEB (Noureddine).
Tahar Haddad, les pensées et autres écrits/Noureddine Sraieb. - Oran : C.R.I.D.S.I.M., 1984. - 158 p.

☆ ARTICLES DE PERIODIQUES

23) A.F.
Autour du livre de M.T. Haddad.
In : *Tunis Socialiste,* 30 Nov. 1930, 12ᵉ année. p. 1.

24) A.F.
Materie et Haddad.
In : *Tunis Socialiste,* 5 Janvier 1930, 11ᵉ année, n° 2902. - p. 1.

25) L'anniversaire du grand sociologue tunisien Tahar Haddad.
In : *Le Petit Matin,* 10 Déc. 1936, 14ᵉ année, n° 5037. - p. 2.

26) ASLAN (Mahmoud).
Tahar Haddad, précurseur dans l'émancipation féminine.
In : *La Presse,* 15 Sept. 1967, n° 10145. - p. 3.

27) AYADI (Samir).
La Vie de Tahar Haddad de Ahmed Dorai...
In : *Dialogue :* 10 Nov. 1975, n° 62. - p. 68.

28) BALEGH (Hédi).
La Clé des champs avec Tahar Haddad.
In : *La Presse :* 16 Août 1972, n° 11820. - p. 3.

29) BALEGH (Hédi).
Glaner à travers les pensées de Tahar Haddad.
In : *La Presse,* 31 Oct. 1975, n° 12414. - p. 8.

30) BALEGH (Hédi).
Un penseur audacieux et moderne... Tôt ou tard, les esprits verront clair... Interview de M. Laroussi Haddad, frère de Tahar Haddad.
In : *La Presse,* 26 Déc. 1975, n° 12161. - p. 11.

31) BEN ABDALLAH.
L'Islam et la condition féminine.
In : *Monde non chrétien :* Juillet/Août 1958, n° 47-48, p. 185-203.

32) BEN BRAHIM (Ali).
« César et El Haddad »
In : *Le Temps :* 17 Juin 1975, n° 15, p. 16.

33) BEN CHEIKH (Abdelkader).
Vingt cinq ans après la mort de Tahar Haddad, un intellectuel progressiste.
In : *Tribune du progrès,* Fév. 1961, p. 14.

34) BEN GACEM (Amor).
« Haddad : auteur génial ou nom d'emprunt.
In : *Le Temps :* 11 Juin 1975, n° 10, p. 17.

35) BEN MILED (Ahmed).
En Marge des Souvenirs de Cohen Hadria.
In : *Les Cahiers de Tunisie :* 1977, T : 25, n° 97-98, p. 246-252.

36) BEN SASSI (Khaled).
Tahar Haddad : l'homme et le mythe.
In : *La Presse :* 24 Février 1971, n° 11395, p. 4.

37) BERQUE (Jacques).
Ça et là dans les débuts du réformisme religieux au Maghreb. - Paris : Maison neuve et La rose, 1962. - 813 p.
In : *Etudes d'orientalisme,* t. II, p. 471-94

38) BOUHDIBA (Abdelwaheb).
Le début de la femme en Islam.
Dans : « Raison d'être ». - Tunis : CERES, 1980. - *série sociologique* n° 5, p. 187-195.

39) CHAIBI (Mohamed Lotfi).
Tahar Haddad non destourien ?
In : *Dialogue,* 7-13 Oct. 1974, n° 5, p. 27.

40) CHAIBI (Mohamed Lotfi).
Tahar Haddad portrait avec retouches.
In : *L'Action,* 6 Déc. 1982, n° 3089 (suppl. n° 59). - p. 3.

41) Le Chef de l'Etat préside un colloque sur « Tahar Haddad »
In : *La Presse,* 20 Déc. 1975, n° 12156, p. 1.

42) CHEMLI (Mongi).
Tahar Haddad, intellectuel engagé.
In : *La Presse,* 19 Avril 1964, n° 9218, p. 2.

43) CHORFI (A.).
A l'occasion du quarantième anniversaire de la mort de Tahar Haddad, la publication de « Khawatar » confirme la solidité de sa pensée.
In : *L'Action,* 17 Déc. 1975.

44) COHEN-HADRIA (Elie).
A propos de M. Tahar El Haddad.
In : *Tunis Socialiste,* 26 Nov. 1930, n° 2862, p. 1.

45) COHEN-HADRIA (Elie), KAIRALLAH (Chedly).
Réponse à une réponse.
In : *Tunis Socialiste,* 28 Nov. 1930, n° 2866, p. 1.

46) DECROUX (Paul).
Féminisme en Islam : la femme dans l'Islam moderne. - Casablanca, 1947. - 55 p.
Extrait de la *« Gazette des Tribunaux du Maroc »*,. n° 994, 1947.

47) DEMEERSEMAN (André).
Tahar Haddad et le concept d'efficacité.
In : *Revue IBLA,* n° 2, 1976, p. 277-281.

48) DURAN-ANGLIVIEL (A.).
La fenêtre ouverte.
In : *Tunis Socialiste,* 29 Nov. 1930, n° 2867, p. 1.

49) ESSID (Hassen).
Encore El Haddad.
In : *Le Temps,* 18 Juin 1975, n° 16, p. 17.

50) ESSID (Hassen).
Rendre à César... ?
In : *Le Temps,* 13 Juin 1975, n° 12, p. 16.

51) HACHED (Fahart).
Les revendications ouvrières entrent dans une phase critique.
In : *Journal Mission,* 15 Sept. 1948, 1ᵉ année. n° 23, p. 1.

52) HADDAD (Radhia).
L'évolution de la femme.
In : *La Tunisie,* Juillet 1964, p. 41-44

53) Un inédit de Tahar Haddad « Pensées » (Khawatir), pour que « Tafkir » Pensée ne rime plus avec « Takfir » Héresie.
In : *La Presse*, 31 Oct. 1979, n° 13519.

54) JAMMES (René).
Tahar Haddad, une victime de l'intolérence au XX^e siècle.
In : *L'Afrique et l'Asie*, n° 63, 3^e trim. 1963, p. 39-43.

55) KHALED (Ahmed).
La Penée de Tahar Haddad concernant le projet de l'émancipation de la femme et de la réforme de la vie conjugale en Tunisie dans les années Trente.
In : *Dialogue :* 30 sept 1985, 12è année, n° 573, p. 53-57 Dialogue : 7 oct. 1985, 12è année, n° 574. - p. 52-55.

56) LAMOURETTE (Christine).
Polemique autour du statut de la femme Tunisienne en 1930.
In : *Bulletin d'Etudes Orientales*, 1978, T. 30, p. 11-31.

57) LAOUACHRI (Chakib).
Un revenant : Tahar Haddad.
In : *Dialogue :* 10 novembre 1975, n° 62, p. 8

58) LAOUACHRI (Chakib).
La vie et l'œuvre de Tahar Al-Haddad.
In : *Dialogue*, 22 Déc. 1975, n° 68, p. 76-77.

59) LAROUI (Abdel Aziz).
« Comparez et jugez »
In : *Le Croissant :* 24 Octobre 1930, n° 10-11 ; p. 1.

60) LELONG (Michel).
Aspects de la Pensée Tunisienne contemporaine.
In : *Revue IBLA*, 1960, 23è année - n° 92, p. 453-462.

61) LELONG (Michel).
Le combat de Tahar Haddad
In : *La Croix*, 27 Mars 1975.

62) LELONG (Michel).
Tahar El Haddad et la civilisation du travail.
In : *Revue BILA*, Janvier 1962, n° 25, p. 31-48

63) LENTIN (Albert-Paul).
Le Mouvement national en Tunisie : origine et histoire.
In : *Cahiers internationaux*, n° 35, 1952, p. 59-80.

64) MATERI (Mohamed)
La vérité sur le cas Tahar El Haddad
In : *La Voix du Tunisien*, 12 Déc. 1930.

65) M'HALLA (Moncef)
Tradition et modernité chez Tahar El Haddad à Travers « Notre femme dans la loi et la Société ».
In : *Cahiers des Arts et Traditions populaires*, 1980, n° 7, p. 125-142.

66) NOAMANE (Mohamed).
Lettre ouverte au camarade Duran Angliviel, à propos de l'affaire Tahar Haddad.
In : *Tunis-Socialiste*, 4 Janv. 1931, 11è année, n° 2901, p. 1.

67) Pour la renaissance du mouvement syndical, pour la défense des intérêts des travailleurs. - Tunis : Impr. STAG, 1961. - 32 p.
Traduit du Journal *« Ettaliaa »* organe central du P.C.T.

68) SAMMOUD (Hamadi).
Souci de Spécification chez un intellectuel Tunisien Tahar Haddad.
In : *Revue IBLA :* 1974, n° 37, p. 45-68.

69) SAMMOUD (Hamadi).
Tahar Haddad : un précurseur messager de l'espoir.
In : *France-Tunisie*, Juin 1976, n° 5, p. 4-5.

70) SNOUSSI (Mohamed Larbi)
La biographie de Tahar Haddad ou l'esprit des années 1930.
In : *La Presse*, 29 Octobre 1975, n° 2412, p. 3.

71) SNOUSSI (Mohamed Larbi)
Tahar Haddad 40 ans après...
In : *La Presse*, 20 Décembre 1975, n° 12156, p.

72) SRAIEB (Noureddine).
Contribution à la connaissance de Tahar El Haddad, (1899-1935)
In : *Revue de l'occident musulman et de la méditerranée*, n° 4.
2è semestre 1967, p. 99-132.

73) SRAIEB (Noureddine).
Luttes ouvrières et conscience nationale : Tahar Al Haddad et l'éducation.
In : *Cahiers du C.E.R.E.S.*, série sociologique, n° 2, 1975, p. 137-154.

74) SRAIEB (Noureddine).
Note sur les dirigeants politique et syndicaliste tunisiens de 1920 à 1934. Tahar El Haddad.
In : *Revue de l'occident musulman et de la méditerranée*, n° 9.
1e semestre 1971, p. 91-118.

75) SRAIEB (Noureddine).
Tahar Haddad : une pensée au service de l'action émancipatrice en Tunisie.
In : *Les Africains* /encyclopédie/, 1977, t. 7, p. 73-98.

76) Tahar Haddad : écrivain et militant.
In : *Jeunesse Magazine*, Avril 1978, n° 28, p. 33-36.

77) Tahar Haddad, l'homme et le mythe.
In : *La Presse*, 24, Février 1971, n° 12614, p. 4.

78) Tahar Haddad une figure à part.
In : *La Presse*, 12 Juin 1970, n° 11729, p. 4

☆ AUTRES DOCUMENTS

79) KHAIRALLAH (Chedly)
Note manuscrite concernant Tahar Haddad.
Tirée du livre « Bourguiba et la naissance d'une nation par Félix Garas.

80) Rapport confidentiel adressé par le Président Général de France à Tunis, au Ministère des Affaires Etrangères à Paris, l'informant de l'agitation d'ordre religieux qui s'est produite à Tunis à l'occasion de la publication d'un ouvrage de Tahar Haddad : « La femme musulmane devant la Religion et la Société ». - 20 Novembre 1930.

كشاف البيبليوغرافيا

الألف

احتجاج الزيتونيين عن صنيع صاحب كتاب امرأتنا 78
احتجاج من أكودة 79
احتجاج من بلدة توزر عن الحداد 80
احتجاج من بنزرت 81
احتجاج من جربة ضد صنيع الطاهر الحداد 82
احتجاج من شبان تونسيين 83
احتجاج من طبلبة 84
احتجاج من غار الملح 85
احتجاج من قصر هلال 86
احتجاج من القلعة الصغرى 87
احتجاج من مساكن عن صنيع الطاهر الحداد 88
أحرار المطوية الذين حكمت عليهم المحكمة الفرنسية بسوسة بالسجن
والغرامة لاتهامهم بالاعتداء 7
الأدب التونسي في القرن الرابع عشر 55
ارفعوا براقعكم 134
أضواء على الخلفية التاريخية لمجلة الأحوال الشخصية
الصادرة سنة 1956 124
أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل 48
اعترافهم بحركتنا النقابية بعد انكارها في قضية المؤامرة 8
أعداء الطاهر الحداد حاولوا اشهار سلاحهم عليّ فتصديت لهم
وتوصلت الى القضاء عليهم 98
اقرار بمحاربة الدين 90
الى متى هذا الاحتجاب 91
الى النهضة الى النهضة 9
امرأتنا في الشريعة والمجتمع 1
امرأتنا في الشريعة والمجتمع : كتاب يقع في حوالي 150

صفحة من القالب الربعي 92
امرأتنا في الشريعة والمجتمع مقتطف من المقدمة 10
أمشرع أم حكيم 188
أملي : قصيد شعري 11
أنصار 67
ايضاح حقيقة 117
ايمان الحداد ونظرته للاسلام والحياة بعد مرور أربعين
سنة على وفاة الحداد 93
أين المؤامرة والى متى ؟ 12

البـاء

براءة من الحداد من مدينة سوسة 94
بعد مرور أربعين سنة على وفاة الطاهر الحداد اكتشاف مخطوط 77
بعض ما استفدناه من كتاب الحداد 96

التـاء

تثبت أيها الحكيم 101
تثبت أيها المتثب 169
التجنيس نكث للعهد 13
تحرير المرأة أو من شهييرات النساء الراقيات قديما وحديثا 44
تراجم المؤلفين التونسيين 62
التربية وآلية تحويل المجتمع عند محمد عبدو والطاهر الحداد 140
تصريحات المفتي المالكي فضيلة الشيخ عبد العزيز جعيط
حول كتاب امرأتنا 102
التعريف بالأدب التونسي 41
التعريف برائد مغبون : الطاهر الحداد 143
التعريف برائد مغبون : النقابي المناضل الحق يؤخذ غلابا 144
التعليم الاسلامي وحركة الاصلاح في جامع الزيتونة 2
تقريض كتاب 136
تكذيب اشاعة 103
تواصل الاحتفالات بقابس بمرور 45 سنة على وفاة الطاهر الحداد 104

الثـاء

ثقافة الحداد 105
الثقافة الزوجية 14
الثقافة الصحية 15
الثقافة العقلية 16

الجيـــم

جامعة عموم العملة التونسيين حول اجتماع 18 جانفي 17

الحـــاء

الحاكم المعبود أو صورة من شقائنا النفسي والاجتماعي 18
الحجة طريق الحق : حول كتاب امرأتنا 19
الحجة طريق الحق : وهذه حجتنا منا اليك 112
الحداد على امرأة الحداد 113
الحداد على امرأة الحداد ، أو رد الخطأ والكفر والبدع
التي حواها كتاب امرأتنا 45
الحداد النقابي المناضل 145
الحداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن العشرين 49
حدود حرية الفكر 114
حديث طريف مع الشيخ الطاهر الحداد مؤلف كتاب امرأتنا 115
حديث عن البسملة 20
الحركة الأدبية والفكرية في تونس 43
حشرة تريد أن تبلع الأرض ... طاهر الحداد ... يشعر ... ويا له من شعر 116
الحق يظهر من معنى ومن كلم 160
حكم الله في المساواة بين الرجال والنساء 74
حوادث داخلية : جريدة النديم ازاء الحداد 118
حوادث داخلية : صدى حركة الحداد 119
حول تصريحات المقيم العام لأحد محرري جريدة المتان 21
حول زندقة الحداد (شعر) 120
حول كتاب امرأتنا 122.121
حول كتاب امرأتنا : ما يعنون بحرية التفكير ؟ 73
حول كتاب جديد 149.123
حول كتاب الطاهر الحداد : حياته ـ أثره 111
حياة الطاهر الحداد 1899 ـ 1935 52
حياة الطاهر الحداد لأحمد الدرعي 190

الخـــاء

خطة هجومية جديدة 157
خطر يتهدد المرأة التونسية 133
خواطر 3

الـــدال

دفاعا عن الحداد 53
دمعة على مستقبل شاب 106

الـذال

ذكرى الحداد 135

الـراء

رجوع للحق 75
الرئيس يشرف على افتتاح ندوة حول الطاهر الحداد 138

الـزاي

زعماء التجديد بمصر يخالفون أدعياء مذهبهم بتونس 64
الزواج بلا استعداد 22
الزواج بالاكراه 23
زيادة ابيان 70

السيـن

سيف الحق 63

الشيـن

الشاقور وحزمة السنابل 141
شخصيات وتيارات 50
الشعب التونسي والتجنس 59
الشعر التونسي المعاصر خلال قرن 1870 ـ 1970 46
شيء من تصريحات المقيم لمكاتب جريدة (البتي ماتان) 24

الصـاد

الصحافة وامرأتنا 148
صدى حفل الجمعية الخيرية الاسلامية 158
صدى كتاب امرأتنا في صحف القطر الشقيق 170
صور من حياتنا في المنزل 25

الضـاد

ضحايا الشهوة في الزواج 26
ضلال مصنف كتاب امرأتنا وخذلانه : مسألة تعدد الزوجات 152
ضلال مصنف كتاب امرأتنا وخذلانه : مسألة حقوق الزوجين
أو حرية المرأة في الاسلام 153

الطـاء

الطاهر الحداد 54
الطاهر الحداد أو عقلنة التراث 89
الطاهر الحداد : حياته ، آثاره الفكرية 156
الطاهر الحداد : رائد الحركة ونصير المرأة 60
الطاهر الحداد الشاعر السياسي 125
الطاهر الحداد المناضل الاجتماعي وصدى آرائه الاصلاحية
في مجتمعنا اليوم 126
الطاهر الحداد نصير المرأة في بيئته وعصره 127
الطاهر الحداد والاصلاح 174
الطاهر الحداد والهادي العبيدي يناصران المرأة التونسية سنة 1928 128

العيـن

عاداتنا عوائق في طريق الزواج 27
عبرة وذكرى 71
عقيدة ملحد من القرآن 147
على هامش الخمسينية : الطاهر الحداد شاعر وطني
وكاتب واقعي 150
على الهامش ... كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع 155
العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية 4
العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية تأليف الطاهر الحداد 142

الغيـن

الغناء : شعر 28

الفـاء

الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا 47
في بلادنا محرومين من الحرية 29
في الثقافة التونسية 57
في الذكرى الواحدة والأربعين لوفاة الطاهر الحداد 99
في المقص 76

القـاف

قصة سياسية مهداة الى دعاة تحرير المرأة 159
قضية المرأة في تفسير المنار 146

الكـاف

كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع 161

كتاب امرأتنا للشيخ الطاهر الحداد 163
كتاب امرأتنا مشيخة الاسلام وامرأتنا 162
كتاب حياة الطاهر الحداد 164
كلمات شائكة 166
كلمات عديمة المنفعة 30
كلمات لم تمت 191
كلمة الرئيس لدى اشرافه على افتتاح ندوة حول الطاهر الحداد 167
كوهين فقيه 107
كيف ابتدأت حركة الشقاق ومن نظمها وشجعها على العمل 173
كيف نثقف الفتاة لتكون زوجا وأما 31
كيف يستعبدون الأمة : السفرة بالليل 32
كيف يقاوموننا في بلادنا ؟ وكيف العمل 33

اللام

لأنك دستوري 34
لماذا فشلت دعوة الاصلاح الاجتماعي في العقد الثالث
من هذا القرن 192

الميم

ماذا في كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع يصف المؤلف
نظرتنا الى المرأة 168
مبلغ احترام الاشتراكيين كحرية التفكير عند التونسيين 171
المجددون هنا وهناك : شتان بين مشرق مغرب 172
مجلة طائشة 108
مجمل تاريخ الأدب التونسي : من فجر الفتح العربي لافريقية
الى العصر الحاضر 58
المرأة بين القديم والحديث 56
المرأة من خلال الصحافة التونسية من الثلاثينات الى سنة 1956 61
مسألة المرأة 35
مصادر الدراسات الأدبية : الفكر العربي الحديث في سير أعلامه 51
المظالم السوداء بالجهات أو بعض ما شاهدناه بغار
الملح ورأس الجبل 36
مع الحداد ثانية : العقل والعلم مفتاح النهضة 193
مفاكهة بريئة 66
مقال في ذكرى المصلح الطاهر الحداد 100
مقتطفات : الديانة الاسلامية 175
مقتطفات : المرأة المسلمة 176
مقتطفات : مسيو وشيخ 177

مكانة الحداد بين دعاة تحرير المرأة 165
ملامح الثورة في تفكير الطاهر الحداد 72
مناسبة ذكرى الطاهر الحداد : جوانب من شخصيته 97
المنبر العام : كلمة الى النهضة وأعوانها 179
المنبر العام : مبلغ فهم التونسي لحركة التفكير 69
من جدلية بين القديم والجديد 129
من خواطر الطاهر الحداد 178
من مظاهر معركة انصار القديم وأنصار الجديد في تونس 130
مواقف الطاهر الحداد من الثورة والاصلاح من خلال كتاب
العمال التونسيون 151
موقف الصحافة العربية تلقاء نازلة الحداد 182
موقف الصحف التونسية من الطاهر الحداد اثر صدور كتابه امرأتنا 42
موقف الطاهر الحداد 131
موقف الطاهر الحداد من المجتمع التونسي في عصره 137

النــون

النجوى 183
نحن والمستعمرون 37
ندوة تقارن بين قاسم أمين والطاهر الحداد 184
ندوة الطاهر الحداد بعد 40 سنة 154
النشرة البذيئة أو حفل تكريم كتاب 185
النضال والثورة في أدب الطاهر الحداد 132
النظارة والحداد 186
نظرة في كتاب جديد 187.68
نغمة أخرى 38
النهضة العامة كيف تنشأ وكيف تكون 39

الهـاء

هذا سلاحهم سيدي الوصيف المحترم 109
هل ذلك الرد حكيم يا حضرة الحكيم 189
هل من عمل 139

اليـــاء

يتكلم أيضا 110
يسألونك عن عمي البصائر (شعر) 180
يسألونك عن الفقر والكفر (قصيد) 181
يكتبون حججي ويعلنون كيدهم 40

— A —

Afrique (L') du Nord en marche : nationalismes musulmans et souveraineté française 10
A l'occasion du quarantième anniversaire de la mort de Tahar Haddad 43
Anniversaire (L') du grand sociologue tunisien Tahar Haddad 25
A propos de M. Tahar El Haddad 44
Aspects de la pensée tunisienne contemporaine. 60
Auteur du livre de M. T. Haddad 23

— B —

Biographie (La) de Tahar Haddad ou l'esprit des années 1930 70

— C —

Çà et là dans les débuts du réformisme religieux au Maghreb 37
César et El Haddad 32
Chef (Le) de l'Etat préside un colloque sur « Tahar Haddad » 41
Classe (La) ouvrière tunisienne et la lutte de libération nationale (1939-1952) 12
Clé (La) des Champs avec Tahar Haddad 28
Combat (Le) de Tahar Haddad 61
Comparez et jugez 59
Contribution à la connaissance de Tahar El Haddad (1899-1935) 72
Début (Le) de la femme en Islam 38
Documents sur la famille au Maghreb de 1940 à nos jours 3
Droit et religion en Islam 20

— E —

Encore El Haddad 49
En marge des souvenirs de Cohen Hadria 35
Enseignement et civilistion : une étude de sociologie historique sur l'enseignement et les changements sociaux en Tunisie 9
Evolution du mouvement national tunisien des origines à la deuxième guerre mondiale 14

— F —

Féminisme en Islam : la femme dans l'Islam moderne 46
Femme (La) tunisienne : citoyenne ou sujet ? 6
Femmes de Tunisie 19
Fenêtre (La) ouverte 48

— G —

Glaner à travers les pensées de Tahar Haddad 29

— H —

Haddad : auteur génial ou nom d'emprunt 34

— I —

Index des revues et journaux tunisiens de langue française de 1907 à l'indépendance 1956 8
Inédit (Un) de Tahar Haddad « Pensées » (Khawatir) 53
Islam (L') et la condition féminine 31

— L —

Lettre ouverte au camarade Duran Angliviel, à propos de l'affaire de Tahar Haddad 66
Luttes ouvrières et conscience nationale : Tahar Al-Haddad et l'éducation 73

— M —

Maghreb (Le) entre deux guerres 2
Materie et Haddad 24
Mouvement (Le) évolutionniste tunisien 11
Mouvement (Le) national en Tunisie : origine et histoire 63

— N —

Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918-1929 13
Note manuscrite concernant Tahar Haddad 79
Note sur les dirigeants politiques et syndicalistes tunisiens de 1920 à 1934 74
Notre femme dans la loi et dans la société (Voir : partie arabe) 6
Notre femme, la législation islamique et la société (Voir : partie arabe) 5

— O —

Origines (Les) du mouvement national en Tunisie (1904-1934) 17

— P —

Pensée (La) de Tahar Haddad concernant le projet de l'émancipation de la femme et de la réforme de la vie conjugale 55
Pensée (La) politique arabe contemporaine 1
Penseur (Un) audacieux et moderne... tôt ou tard, les esprits verront clair 30
Polémique autour du statut de la femme tunisienne en 1930 56
Pour la renaissance du mouvement syndical, pour la défense des intérêts des travailleurs 67

— R —

Rapport confidentiel adressé par le Président Général de la France à Tunis 80
Réformisme (Le) musulman en Algérie de 1925 à 1940 : essai d'histoire religieuse et sociale 18
Rencontre (La) avec l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968 15
Rendre à César... ? 50
Réponse à une réponse 45

Revenant (Un) : Tahar Haddad 57
Revendications (Les) ouvrières entrent dans une phase critique 51

— S —

Salariat et mouvement ouvrier en Tunisie : crises et mutations (1931-1939) 16
Soixante ans de pensée tunisienne à travers les revues 21
Souci de spécification chez un intellectuel tunisien Tahar Haddad 68
Statut personnel et famille au Maghreb de 1940 à nos jours 4

— T —

Tahar El Haddad et la civilisation du Travail 62
Tahar El Haddad, Mohamed Salah Ben M'Rad : deux représentations conflictuelles du statut de la femme dans la société 7
Tahar El Haddad, vengé de Tous ses détracteurs 5
Tahar Haddad : écrivain et militant 76
Tahar Haddad et le concept d'Efficacité 47
Tahar Haddad, intellectuel engagé 42
Tahar Haddad : l'homme et le mythe .... 36 + 77
Tahar Haddad, les pensées et autres écrits 22
Tahar Haddad non destourien 39
Tahar Haddad portrait avec retouches 40
Tahar Haddad, précurseur dans l'émancipation féminine 26
Tahar Haddad 40 ans après 71
Tahar Haddad : un précurseur messager de l'espoir 69
Tahar Haddad une figure à part 78
Tahar Haddad : une pensée au service de l'action émancipatrice en Tunisie 75
Tahar Haddad, une victime de l'intolérence au XXème siècle 54
Tradition et modernité chez Tahar Haddad à travers « Notre femme... » 65

— V —

Vérité (La) sur le cas Tahar El Haddad 64
Vie (La) de Tahar Haddad 27
Vie (La) et l'œuvre de Tahar Al-Haddad 58
Vingt-cinq ans après la mort de Tahar Haddad 33

في نظرية التطعيم الايقاعي زيادة واثبات للذات العربية

محمد الصادق دمق

من المعلوم أن قضية اللغة قد استأثرت باهتمام اللغويين منذ أقدم العصور ، إلا أن هذا الاهتمام بقي منحصرا في قضية اللفظ من حيث الاشتقاق وكيفية وضع المصطلح الجديد ، ودوّنت في ذلك الأمر العديد من الكتب اللغوية . واهتمت به المجامع اللغوية الحديثة .

الا أن اهتمام الأستاذ البشير بن سلامة كان اهتماما جديدا ، اهتماما يبحث عن مواطن القوة في لغة العباقرة من المجيدين لعلنا نظفر بقانون يمكننا من معرفة الأسباب التي جعلت لغتهم تهواها النفوس وتميل اليها الأرواح .

وعمل كهذا ، يتطلب تضلعا في اللغة وتبحرا في الأدب .

والأستاذ البشير بن سلامة من بين من عرفتهم المحافل الأدبية والفكرية مفكرا وأديبا كبيرا له عدّة اهتمامات حيث كتب في النقد ، والرواية ، والمقال السياسي ، والمقال الاجتماعي ، وبصورة عامة المقال الثقافي والحضاري حتى تجاوز صيته حدود وطننا الى الوطن العربي الكبير والى العديد من المحافل الدولية .

وهو معروف بمواكبته لمسيرة مجلة الفكر منذ ثلاثين سنة ، فهو رئيس تحريرها حاليا ، كما هو معروف بمؤلفاته التي منها :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة (1971)
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها (1974)
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي (1977)
- قضايا (1977)
- عائشة (1982)
- نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى (1984)
- لوحات قصصية (1984)
- تاريخ إفريقيا الشمالية الذي عربه بالاشتراك مع الأستاذ محمد مزالي
- والمعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي الذي ترجمه كذلك مع الأستاذ محمد مزالي .

والأستاذ البشير بن سلامة من روّاد الفكر الأول الذين سعوا الى تركيز مبدأ التونسة بما تحمله من معاني الأصالة والتفتح حيث كان الأدب التونسي عند بداية فجر الاستقلال شبه نكرة لا يعترف به معظم التونسيين أو غير التونسيين ، وكأن الأسماء التي كانت تتردد على الأفواه لا تتعدى ابن خلدون ، وابن رشيق ، والشابي ، في حين

تكثفت العزائم وأعيد الاعتبار الى النفوس وأمكن تجاوز عقد النقص التي كانت مسيطرة على الأرواح ، وبذلك وقع احياء جزء هام من التراث الفكري التونسي ، وذلك نتيجة للتشجيع الذي وجدته الأسرة الأدبية التونسية من طرف الدولة بقيادة المجاهد الأكبر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة ومن طرف الشخصيات الفكرية التي تبوأت مركز الريادة وفي مقدمتها الأستاذ محمد مزالي الذي بعث الى الوجود مجلة الفكر التي قامت وتقوم الى الآن بدور هام في ابراز ونشر نتاج الطاقات الخلاقة التونسية .

وقد وجد الأستاذ محمد مزالي في زميله وصديقه الأستاذ البشير بن سلامة رفيق الدرب في هذه المسيرة الفكرية الرائدة حيث يشير شخصيا عند تقديمه لكتاب : « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » قائلا : « وهكذا عرفني وعرفته في « الميدان » .... فقد توفرت عناصر التعاطف والتقدير والمحبة ، إذ جمعنا نضال واحد تحت لواء حزب جماهيري تحريري واحد ، وشدت بعضنا الى بعض قيم عليا واحدة ومبادىء سامية مشتركة » ـ الى أن يقول : « انه يغار على اللغة العربية ويؤمن ايمانا عميقا بأنها من مقومات كياننا وشخصيتنا ويسلم بعظمتها و بقداستها وغزارتها وقوتها واعجازها » ولكنه يتساءل في شجاعة وصدق عن « حظ لغتنا من التقدم الفكري وقدرتها على أن تحمل رسالة التقدم » وعن الحد الذي تصل امكاناتها اليه والعوائق التي تجدها في طريقها ، ثم هو يصدر حكمه مؤكدا أن اللغة العربية ، رغم حيويتها وغزارتها وطاقاتها الكامنة فيها لم تحتضن روح العصر ولم تتجاوب في كلماتها وعباراتها مع اهتمامات ومشاغل أهل العصر ، ولم يفجر منها أصحابها المعاني والآراء التي تهز وتقلقل الفكر العصري .[1]

منطلقات نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى

حين تكون المنطلقات الفكرية ذات أبعاد ثرية فإن الدراسات التي تتناولها بالنقد والتمحيص والاستنتاج تكون متنوعة ومتعددة تحمل في طياتها الطريف الذي لا ينضب معينه ما دام على صلة مستمرة بالدفق المتواصل من النبع .

فهذا الكتاب من الحجم المتوسط عدد صفحاته سبع ومائة صفحة صدر عن الدار التونسية للنشر في شهر أفريل 1984 ، وهو مقسم الى سبعة أبواب هي على التوالي :

- التمهيد
- تطور الجملة العربية عند المولّدين
- الكلام واللغة
- الحد من التفاوت بين الفصحى والعامية
- العوامل الباعثة للغة طه حسين ـ نثر طه حسين ـ
- تطور الجملة العربية في الأدب الافريقي
- نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى

المنطلق الأول لوضع النظرية

وجوب خدمة اللغة العربية إيمانا من الكاتب بأن الفصحى قد « تطورت على أساس أنها لغة الحياة وأن هناك سرا لغويا لا بد من استشفافه وهو الذي جعل هذه اللغة لا يكون مصيرها مصير اللاتينية ولن يكتب للهجات العامية العربية أن تصبح مكتوبة » .[2]

لهذا فهو يؤمن بقدرة العربية على التطور وأنها المقوم الأول من مقومات حضارتنا العربية الاسلامية التي يجب مواصلة تطويرها .

المنطلق الثاني هو المعاناة

يشير صاحب النظرية في مستهل كتابه الى ما كان يعانيه من صعوبة في اختيار اللغة التي يريد التعبير بها عمّا يجيش في خاطره ويعتلج في عقله منذ شبابه المبكر ، إذ وجد نفسه مع من لهم نفس هاجس الكتابة أمام اختيارات ثلاثة :
أما الكتابة بالفرنسية
أو الكتابة بالعامية
أو الكتابة باللغة العربية الفصحى

ورغب الكاتب منذ شبابه عن الوسيلتين الأوليين ، وكان اختياره للغة العربية الفصحى لغة للكتابة والابداع . الا أن أمرا ذا بال لاح له وشغل فكره ويتمثل في تفطنه « إلى أن ما تزخر به العامية من جوانب لصيقة بواقع الناس وحياتهم المتطورة يوما بعد يوم لا يمكن تضمينها بالفصحى بكلّ يسر » .[3]

ولقائلٍ أن يقول هل هذه الجوانب تتمثل في كثرة الألفاظ التي قد لا نجد لها الفاظا مثيلة في اللغة الفصحى أم هناك معان جديدة لم تضمن بعد باللغة العربية ؟

ويجيب الأستاذ البشير بن سلامة عن هذا السؤال الضمني قائلا : « تكمن المشكلة في خلو الجمل من هذا النفس الذي يجعل الفصحى لغة اليوم تعبر بكل طلاقة ويسر عن دفق الحياة الجديدة وتفصح بالسلاسة المطلوبة عن أخص خصائص تموجات واقع الناس والمجتمع » .[4]

المنطلق الثالث هو التجربة

وجد الأستاذ البشير بن سلامة واقعا معينا يتمثل في الصراع بين العامية والفصحى ، لا من ناحية الألفاظ والمعاني فحسب ، وانما في حرارة الحياة التي نجدها أحيانا في العامية هذه الحرارة الحياتية التي « قد تشح في كثير من الأحيان على الفصحى » .[5]

ومع ذلك فقد تعمّق في دراسة آثار العباقرة المجيدين من الكتاب والشعراء الذين كتبوا باللغة العربية والذين أقر لهم الناس والنقاد بالنبوغ فوجد عندهم ضربا من الإنتاج الطريف المتميز عن انتاج غيرهم ممن لم يبلغوا هذه الدرجة من العبقرية .

وهنا لم يكتف بهذا الشعور
وانّما وضع تساؤلا كان الركيزة الأولى لهذه النظرية .

وهذا السؤال هو : « لماذا ابتدعوا ضربا من الكتابة أو من الشعر جديدا ؟ وكيف ذللوا مشكل الفصحى والعامية ؟ » .[6]

المسار التجريبي

اعتمد الأستاذ البشير بن سلامة في مساره التجريبي على دراسة الآثار الأدبية الرّاقية ، واستخلص من بعض الآثار التي توفّرت لديه ايقاعات كان مأتاها من اللهجة العامية ، ودعا إلى مواصلة دراسة الآثار الأدبية الراقية منذ أقدم العصور والتي تندرج ضمن موجات التجديد التي عاشها الأدب العربي انطلاقا من المولّدين لمحاولة ضبط كيفية تطور الجملة العربية أسلوبا وشكلا عند العباقرة المجيدين لكن بطريقة جديدة تعتمد أحدث نظريات العلوم اللسانية

لاستخلاص الايقاعات المتأتية من العامية أو من لغة أجنبية والمتضمنة في ايقاعات اللغة العربية الفصحى بطريقة عفوية دون تصنع أو تكلف .

النتائج الأولى

تفطن الأستاذ البشير بن سلامة الى « أن الخلاّقين الذين طوروا الجملة العربية واعطوها نفسا جديدا انما هم قلة قليلة » .[7] وأن لغتهم الفصحى المتطورة التي كتبوا بها « لم تتطور بالألفاظ والمعاني فقط بل بالإيقاع[8]

مفهوم الإيقاع عند الأستاذ البشير بن سلامة

للأستاذ البشير بن سلامة عدّة تحديدات لمفهوم الإيقاع تكمّل بعضها للوصول الى صيغة شاملة تركّز معطيات الإيقاع وجوهره في العقول ، ومنها ما كتبه في مجلة الفكر ـ فيفري 1985 : « وعندما أقول ايقاعات لا أعني البحور والأوزان الخليلية لأن هذه انما هي مقاييس أرادت أن تضبط هذه الايقاعات ولكن الايقاعات الحقيقية هي في نفوس الشعراء ، ولم يحصر الخليل في الواقع الا بعضها الذي كان متداولا في ذلك الزمان ، وهذه هيّ القضية الكبرى في الواقع للشعر العربي في عصرنا الحاضر والتي أمكن للشابي بعبقريته أن يحلّها إذ هو حافظ على ايقاعات الشعر العربي الأساسية وكرع من ايقاعات الحياة العصرية بالاندماج في شعبه والتفاعل مع لهجته فطعّم بها لغته الشعرية فأتت متلائمة مع ما ينتظره الجمهور المتشوق للأدب لأنه كما يقول الفيلسوف الفرنسي « الانALAIN : ان ما يختص به الشاعر أولا هو أن يكون قويا بايقاعه » .[9]

كما حدّد صاحب النظرية مفهوما آخر للايقاع يزيد في وضوحه وتقريبه الى الأذهان فقال : « . . . هو كمية موزونة وقيمة معنوية في آن واحد . هو الوزن ووقعه . نحدّد الوزن ونقارب الوقع . لذلك تتماثل الوحدات الصوتية في التطعيم الايقاعي بالقدر الذي تتغاير فيه قيمها المعنوية . وعلى هذا الصعيد لا بد لنا أن نعلم بالنسبة الى الشابي مثلا مدى وقع اللهجة التونسية على الفصحى التي تعلمها ومدى تفاعل النظامين اللغوين وما أفرزه هذا التفاعل « كلسان » « خاص بالشابي ؟ » (9 مكرر)

ربط النتيجة بالسبب :

لم يكتف صاحب النظرية بهذا الشعور المتمثل في الاحساس بما يميز لغة العباقرة عن غيرهم من الكتاب العاديين ، بل فتش عن السبب محللا معللا الى أن وجد هذا التطعيم لايقاعات الفصحى بايقاعات من اللهجة العامية ليس فيه نشاز أو ضحالة وإنما فيه من التنغيم ما جعل النفوس تميل إليه لأنه مأخوذ من واقع اعتادته ، وتفكير مألوف وحياة ألفتها وسلوك سارت حسب انماطه .

وفي هذا الصدد يقول صاحب الكتاب : « انّ كلّ عبقريّ أضفى على الجملة العربية نمطا جديدا غيّر به صياغته ونظامها فإنه قدر في الحقيقة على اقحام ايقاعات لهجته العامية المحلية في الفصحى وتطيم صوغه لها بهذه الايقاعات من كلامه »[10]

كيفية استخراج هذه الايقاعات

إلى جانب تقديم صاحب الكتاب لعينات من هذه الايقاعات من خلال آثار طه حسين والشابي ومحمود المسعدي جعل المجال مفتوحا أمام الدارسين لمحاولة التقدم خطوة جديدة في ميدان التدعيم التطبيقي لهذه النظرية سعيا وراء توفير الامكانات لدراسة هذه الايقاعات دراسة مخبرية تعتمد على أحدث الآلات الالكترونية القادرة على ضبط الايقاعات والمقارنة بينها .

وانتهى صاحب النظرية الى نتيجة عبر عنها قائلا : « وانتهيت الى حقيقة اعتبرتها بديهية بالحدس لا محالة وتنتظر التدليل بالحس والاختبار ، وهو أن كل كاتب أو شاعر مبدع طوّر الجملة في النثر أو في الشعر انما قدر على ذلك لأنه وفّق الى أن يطعّم الفصحى بايقاعات لهجته العامية ، وان قضية الابداع في الكتابة انما هي هذا التفاعل بين ايقاعات العامية والفصحى ، وان قضية الشعر العربي من حيث الشكل ليست في التفعيلة أو غيرها ، بل تكمن في البحث عن الوحدة الايقاعية » .[11]

بعض نتائج فتح المجال أمام الباحثين

من النتائج الأولى التي تمخضت عن فتح المجال أمام الباحثين لدراسة هذه الظاهرة ما توصل اليه الأستاذان عبد الرحمان أيوب وصالح الكشو وهما من ضمن الفريق الذي يدرس هذه النظرية في بيت الحكمة .

وما توصّلا اليه هو قراءة باللهجة العامية لقصيد الشابي الذي عنوانه : « للتاريخ » والمنشور باللغة الفصحى :

البؤس لابنِ الشّعب يأكل قلبه   والمجد والإثراء للأغراب
والشعب معصوب الجُفُونِ مُقَسّمٌ   كالشّاةِ ، بينَ الذِئبِ والقصّابِ
والحقُّ مقطوعُ اللّسانِ مكبّلٌ   والظلمُ يمرحُ مُذْهَبَ الجلْبَابِ
هذا قليلٌ من حياةٍ مرّةٍ   في دولةِ الأنصابِ والألقابِ

وقراءة هذا القصيد باللهجة العامية التونسية تكون كما يلي :

البْؤسْ لابنْ الشّعْبْ يَاكُلْ قَلْبَهْ   والمَجْدْ والإثْرَاءْ للاغرابْ
والشّعْبْ مَعْصُوبْ الجْفُونْ مْقَسّمْ   كِالشَاةْ ، بَيْنْ الذّيبْ والْقَصّابْ
والْحَقْ مَقْطُوعْ اللسَانْ مْكبّلْ   والظلمْ يمزخ مْذهّبْ الجلبابْ
هذا قليلْ من حياةْ مرّةْ   في دولةْ الأنْصَابْ والألْقَابْ

استنتاجات على الصعيد الإيقاعي

« صيغ هذا القصيد بناء على إيقاع تونسي يمكن وزنه من ناحية الكم بحسب الأسباب والأوتاد والفواصل المعهودة في الشعر الشعبي التونسي (الملحون) »[12]

على الصعيد النحـوي

التركيب الفصيح : يأكل البؤس قلب ابن الشعب (جملة فعلية)
أو : البؤس يأكل قلب ابن الشعب (جملة اسمية)
التركيب في البيت : البؤس لابن الشعب يأكل قلبه

وهنا يتساءل صاحب النظرية قائلا : فهل ما حدث هو مجرد تحويل نحوي داخل الفصحى ؟ (وذلك لتقديم الجار والمجرور « لابن الشعب » « أم هو مجرد ضرورة شعرية ؟ »

ثم يجيب : « انه أكثر من ذلك : « فهو نتيجة لاحتكاك مستويين لسانيين من ناحية التراكيب النحوية . وكذلك من ناحية المستوى الذهني .

وللمزيد من توليد الأفكار وتقديم الأدلة يرى صاحب النظرية أن فعل أكل الموجود في البيت يتطلب عادة فاعلا ماديا أو على الأقل متعارفا حتى يخف التقبل الذهني ، مثل الخصاصة ـ الفقر فنقول : أكلته الخصاصة ـ أكله الفقر .

أمـا التعبير : البؤس أكـل قلبه . فهـو أقرب الى التعبير في العامية فنقـول : البُؤْسْ (كـلَاَلَـهْ + كـلَاَلَـهْ) (قَلْبُهْ + قَلْبَهْ)".

وبذلك فالتلاقح بين المستويين اللغويين أدى الى توليد لغوي فيه جمال وفيه قدرة على التفاعل مع نفسية القارىء حيث يجد نغما مألوفا الى النفس تستصغيه الاذن فتهواه الروح وتقع عليه العين فيتغلغل الى أعماق النفس ويبقى عالقا بالذهن .

الاستنتاجـات العامـة

ـ نظرية التطعيم الايقاعي لا تدعو إلى العامية ، بل تسد الباب أمام المنادين بوجوب استعمالها . وهذا ما نجده بصريح قول الكاتب : « وإني أريد أن أنبه مرة أخرى أنني لا أدعو الى العامية ولا إلى الاستعاضة عن الفصحى بلهجة من اللهجات »[13]

ـ إن اللغويين الذين تحدثوا عن الفصحى والعامية انتصر فريق منهم الى العربية الفصحى نابذا كل تطور لا يعتمد على الطرق التقليدية المعروفة ، أما الفريق الثاني فقد نادى باستعمال العامية في سياق الكتابة ، في حين أن الفريق الثالث نادى بالبحث عن لغة ثالثة تأخذ من العربية الفصحى ومن اللهجات العامية .

أما الأستاذ البشير بن سلامة فهو ليس من هؤلاء جميعا وانما هو واضح لفرضية « هي هذه العلاقـة بين نـوعية الإيقاعات في العامية وتداخلها في ايقاعات الفصحى عند العباقرة من الأدباء العرب . »[14]

وهذا مفهوم جديد لم يسبقه اليه أحد ومن هنا جاءت ريادته في هذا الميدان ، لذا نقول بصراحة انها نظرية جديدة ، بل نعتز بذلك لأنه أمر واقعي ، وما أحوجنا إلى الاعتزاز بالذات مع توخي الموضوعية والصراحة والصدق .

ومن ناحية أخرى فإن صاحب النظرية متيقن أن الوصول الى إبراز هذه الإيقاعات الكامنة في اللغة العربية الفصحى سيغير الكثير من المعطيات النقدية الحديثة حيث يقول : «ولا يخفى على القارىء الكريم أنه إذا قدّر لهذه النظرية أن تجد التطبيق العلمي عن طريق المخابر فإنّها ستقلب الكثير من المفاهيم اللغوية المعروفة في الشعر والنثر أو على الأقل تضعها محلّ الشكّ . . »[15]

ثم أن الأستاذ البشير بن سلامة لا يبحث في أصول العامية ، وانما اعتبر اللهجة العامية ظاهرة موجودة واللغة العربية الفصحى قادرة « باعجازها وطاقتها الكبرى على الديمومة والاحتفاظ بعبقريتها الكاملة في نحوها مع الارتباط

بواقع أهلها المتحول المتحرّك الذي تعتبر اللهجة المحلية جزءا منه يحمل خلاصة الحياة المعاشة ويترجم عنها أحق الترجمة ، ولكن تبقى الفصحى دائما هيّ القادرة على السموّ بذلك الواقع وتلك الحياة وهذا سرّ من أسرار بقاءها »[16] .

ثم أنّ الأستاذ البشير بن سلامة لا يبحث في أصول العامية ، وانما اعتبر اللهجة العامية ظاهرة موجودة واللغة العربية الفصحى قادرة « باعجازها وطاقتها الكبرى على الديمومة والاحتفاظ بعبقريتها الكاملة في نحوها مع الارتباط بواقع أهلها المتحول المتحرك الذي تعتبر اللهجة المحلية جزءا منه يحمل خلاصة الحياة المعاشة ويترجم عنها أحق الترجمة ، ولكن تبقى الفصحى دائما هي القادرة على السموّ بذلك الواقع وتلك الحياة وهذا سرّ من أسرار بقائها »[16] .

أصداء النظرية

أثارت هذه النظرية اهتمام العديد من المهتمين باللغة من المفكرين والنقاد .

ومن ذلك : الندوة الأدبية التي شارك فيها عدد من النقّاد بحضور الأستاذ البشير بن سلامة وقد قدّموا بحوثا تناولت العديد من جوانب النظرية والدراسة القيمة للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي التي جعلها بعنوان « نظرية جديدة في اللغة عند البشير بن سلامة » ونشرها بمجلة الفكر - أكتوبر 1984** وكذلك دراسة للأستاذ محمد كمون نشرها بجريدة الصباح وجعلها بعنوان « الجانب الابداعي في نظرية التطعيم الايقاعي . »***

كما نشرت جريدة الصباح في باب : « قضية الثلاثاء » مجموعة من المقالات النقدية الى جانب ما نشر في جرائد ومجلات أخرى

بعض الاستخلاصات العامة

ليس جديدا أن يقع تناول كتاب بالعرض والتحليل والنقد ، وليس غريبا أن تتباين الآراء حول هذه النظرية وتختلف المواقف منها ، ولكنّ المنطق يفرض على كل باحث أن يتروّى في الدراسة ويتأنى في إصدار الاحكام حتى يتمخض عن الجدل الفكري النزيه نتاج مثمر يزيد النظرية تبلورا ومبادئها رسوخا لفائدة تطوير اللغة العربية .

ومن الاستخلاصات التي ذهب اليها أحد النقاد أن الأستاذ البشير ابن سلامة قد أقام نظريته على عدة أسس « منها أن الروح المحلي خالد متواصل الوجود رغم اختلاف العصور والثقافات واللغات » ، وقد سعى الناقد الى اثبات بطلان معنى الخلود ذاهبا مذهبا غريبا في اعتبار أن مفهوم الخلود لهذا الروح يعني عدم التطور . ثم أن التطور يجعل الروح المحلي لبلد ما يختلف من مكان الى آخر حسب الظروف والمؤثرات ، وبالتالي فإن الروح المحلي الذي اعتمد في النظرية لاستنباط الايقاعات من اللهجة العامية متغيّر ومتحول وليس له سمات واضحة . لذا لا يمكن اعتماده - حسب رأي الناقد - وبذلك ينعدم الركن الأساسي لهذه النظرية .

والرأي عندي أن التطور في البيئات المحلية لا يكون تطورا فجئيا يقطع الصلة بالماضي ، وإنما هو تطور متأن متزن يتخلى عن المعطيات التي لا تتلاءم مع حياة الناس ويتبنى ما قبله معظم الناس .

وهذا ما جعل اللهجة العامية في نظر الأستاذ البشير بن سلامة فيها ما نجده مفقودا أحيانا في اللغة العربية الفصحى حيث يقول في مقدمة كتابه : « وفطنت الى أن ما تزخر به العامية من جوانب لصيقة بواقع الناس وحياتهم المتطورة يوما بعد يوم لا يمكن تضمينها بالفصحى بكل يسر . وليست القضية قضية الفاظ ولا هي رهينة زخارة المعاني ، بل أن المشكلة الأساسية انما تكمن في خلوّ الجمل من هذا النفس الذي يجعل الفصحى لغة اليوم تعبر بكل طلاقة ويسر عن دفق الحياة الجديدة وتفصح بالسلاسة المطلوبة عن أخص خصائص تموجات واقع الناس والمجتمع »[17]

وهذا لا يعني أبدا أنه يتبنى اللهجة العامية ، ولكنه يدعو الى دراستها لمعرفة بعض خصائصها الايقاعية التي قد يكون تأثر بها المجيدون من الكتاب والشعراء لتطعيم اللغة العربية الفصحى بهذه الخصائص .

على أن لهذا التطعيم مفهوما خاصا في نظر الأستاذ البشير بن سلامة حيث يقول في الكلمة الافتتاحية للندوة العلمية الملتئمة بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة أبي القاسم الشابي : « وليس التطعيم هنا مجرد الاحتكام الى خلايا دخيلة نحاول زجها في الخلية الأولى (الخلية المتقبلة) كما هو معروف في ميدان الجراحة (مثلا عبارة : تطعيم القرنية) . فالتطعيم الذي نعنيه ليس تركيبا وتأليفا فقط ولكنه تعبير كذلك . . »[18]

وإذا فرضنا وجود هذا الاختلاف في الروح المحلي للبيئة الواحدة فهل يعني ذلك القطيعة المطلقة ؟

ليس هناك قطيعة ولكن هناك ترابط بين الأجيال ، هذا الترابط الذي يكون رصيد الأصالة والطابع المميز لكل شعب من الشعوب .

واعتقادي أن الروح المحلي للبيئات التونسية متقارب واللهجات العامية على ما فيها من اختلاف جزئي بسيط تجمع بينها خصائص مشتركة يمكن استخراجها بالدرس والتمحيص .

هذا وقد تساءل ناقد ثان عن مدى صحّة اعتبار نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى للأستاذ البشير بن سلامة نظرية جديدة ، وقد ذهب مذهبا يتمثل في أنه يعرف العديد من اللغويين الذين سبقوه في هذا الميدان وذكر في معرض تحديده للاطار التاريخي لهذا المذهب المتمثل في إبراز الايقاع من خلال النص العربي انه : قبل أعوام قليلة صدر كتاب للأستاذ محمد العياشي بعنوان : « نظرية ايقاع الشعر العربي » .

وهنا أتوقف عند هذا المرجع الذي ذكره الناقد لأبين أن هذا الكتاب قد طبع سنة ست وسبعين وتسعمائة والف ـ 1976 ـ في حين أن الأستاذ البشير بن سلامة قد وضع الأسس الأولى لنظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى في كتابه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » الذي طبع سنة إحدى وسبعين وتسعمائة وألف ـ 1971 ـ

ولعل رجوعي الى كتاب « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » لبيان السبق الذي أحرزه الأستاذ البشير بن سلامة على الأستاذ محمد العياشي مأتاه التناسق في التصور بين كتابيه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » و « نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى » حيث نجد في الكتاب الأول قول الأستاذ البشير بن سلامة : « فالقضية إذن هي ليست في ابتكار الأسلوب فحسب لأن ذلك من السهل ايجاده ، بل في خلق نمط من اللغة جديد يتطلب في الحقيقة ادخال ايقاعات وموسيقى لم توجد من قبل ، أي دفع اللغة على أن تبنى بناء جديدا وهذا هو صلب القضية » .[19]

فاللغة المتطورة تكون بهذه الايقاعات المأخوذة من الواقع ، من الحياة اليومية ، ولكن عن طريق العباقرة من الكتاب والأدباء « فالكاتب المجدّد في لغته هو الذي يجتاز الأسلوب الى خلق نمط من اللغة يخلده الى أبد الآبدين كالجاحظ والتوحيدي وغيرهما »[20]

وبعض المعاني الواردة في كتاب « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » نجدها في سياق جديد واطار مبتكر في كتاب « نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى » حيث يقول الكاتب : « . . . إنّ اللغة ـ أية لغة ـ وخاصة الفصحى لم تتطور بالألفاظ والمعاني فقط بل بالإيقاع . . . »[21]

ولهذا فإني اعتبر نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى جديدة تسد الباب على من يدعو الى العامية لأنّ النظرية في جوهرها دعوة ملحة الى التخلي عن فكرة تعويض الفصحى بالعامية ، وهذا ما نجده في كتابه حيث يقول : « لماذا

الأدب الشعبي والمجتمع التونسي

من خلال كتاب على هامش السيرة الهلالية لمحمد المرزوقي

د. عبد الرحمان أيوب

يكاد المرء يعتقد ـ وهو يطلع على مؤلفات المغفور له محمد المرزوقي ـ أنه قد خصّص حياته كاملة لجمع نصوص روايات السيرة الهلالية بالبلاد التونسية ، وأن الدراسات التي كتبها حول بعض مظاهر التراث الشعبي المادي وغير المادي إنما جاءت عرضا كحيثيات ساقتها ميادين البحث له لاستجلاء خفايا مُصطلح أو ظاهرة ساقها الراوي الشعبي « الهلالي » في معرض روايته . ويكاد يذهب الظن بالمرء المهتم بمؤلفات محمد المرزوقي إلى أنه قد نشر كل ما حصّل عليه من روايات هلالية ودراسات خَصَّ بها هذه السيرة الشعبية العربية . ولكن الواقع يبدو عكس ذلك . فقد نشر المرزوقي كل ما درسه من مظاهر التراث الشعبي ووافته المنية قبل أن يُقبل على نشر ما جمعه من مقالات ونصوص حول السيرة الهلالية في كتاب مستقل .

ولقد تكرّم ابن المغفور له ، السيد رياض المرزوقي ووضع بين أيدينا هذا الكتاب حتى نستفيد منه ونفيد عنه قبل أن يحظى بالنشر ويصبح في متناول الجميع .

« على هامش السيرة الهلالية » .

يقول المرحوم محمد المرزوقي حول هذا الكتاب قبيل وفاته بمدة : (أن هذا الكتاب) « فصول كتبتها في أوقات مختلفة أثناء سنة كاملة كان أوحاها إلى الملتقى الذي انعقد بالمركز الدولي للحمامات أواخر جوان 1980 وكنت أنوي الاقتصار على نشرها في المجلات وصدر بعضها فعلا في « الحياة الثقافية » . ولكن عندما تجمع لي رصيد منها فكرت في نشرها مستقلة في كتاب خاص مضيفا إليها نصوصا من روايات تونسية مختلفة لسيرة بني هلال زاعما أن في نشرها فائدة للقراء والباحثين حول السيرة الهلالية ، أو الأسطورة الطبيعية عامة أو الأدب الشعبي بصورة أعم ، ولعلي أكون موفّقا في ذلك » .

كان تحرير هذا التقديم يوم غرة جوان سنة 1981 . أي بعد سنة من ندوة الحمامات الأولى حول سيرة بني هلال . وبعد التحري بدا أن محمد المرزوقي لم يودع هذا الكتيب لدى أي ناشر تونسي رغم عزمه على ذلك .

وقبل وصف هذا الكتاب الذي يقع في 87 صفحة مرقونة ـ تحسن الاشارة إلى حالتين عبر عنهما المرزوقي في هذا « التقديم » أما الأولى فتتمثل في أن المرزوقي شاء بهذه المقالات ـ التي هي من وحي دراسات قدمها باحثون مختصون في ندوة الحمامات ـ خَواطِرَ ـ وكأنها سريعة ومباشرة ـ حول تلك الدراسات لينقاش فيها بعض الجوانب التي تتفق وآرائه أو تخالفها . غير أن الباحث في هذا الكتاب لن يعثر سوى على إشارتين إثنتين لباحثين شاركا في الندوة المذكورة وهما هانري نورس وانيتا بيكر ، بينما شارك في الندوة عشرون باحثا من أقطار عربية وغير عربية . وجاءت المقالات الأربع الأولى من كتيب المغفور له محمد المرزوقي حافلة بالمعطيات المقدمة في دراسة هؤلاء الباحثين ولكنه لم يشر إليها

في مواقعها كما لم يشر إلى أصحابها . ولعل المغفور له لم يزعم مناقشة تلك البحوث مناقشة علمية بقدر ما شاء أن يطرح آراء حول القضايا المطروحة فيها . ولو سلك المرزوقي غير المسلك الأخير لكانت مقالاته الواردة في هذا الكتيب والتي نُشِرت منها إثنتان في مجلة « الحياة الثقافية »[1] أكثر دقةٍ وعلمية ، لكنها أتت بمثابة الملاحظات العابرة التي تفيد في إيقاظ حس القارىء بما في السيرة الهلالية من جوانب فنية ومعرفية من جهة وإبداعية « شعبية » من جهة أخرى ، وتتركه رغم ذلك متعطشا إلى معرفة المواضيع التي تعرض لها الباحثون المشاركون في ندوة الحمامات وإلى المناهج التي اعتمدوها في دراسة الجوانب المذكورة في سيرة بني هلال . وتؤدي بنا هذه الملاحظة إلى الاشارة إلى أن منهج المرحوم محمد المرزوقي في هذا الكتاب لم يتجاوز الوصف الشامل والفوقي ـ إن صحّ التعبير ـ لنصوص السيرة الهلالية ، إذ يبدو أنه لم يكن يسعى إلى استقراء نصوص السيرة الهلالية بقدر ما كان يرغب في الالمام بها جملة والتعريف بها كجزء هام من التراث الشعبي التونسي .

وأما الحالة الثانية والتي تنبني إلى حدّ ما على الملاحظة السابقة فتتمثل في تردّد محمد المرزوقي في تصنيف هذه السيرة الشعبية . فهل هي « سيرة شعبية » بمعنى « الملحمة » أم هي أسطورة طبيعية ؟ وهذا التردد بين الاصطلاحين والذي يتجلى أكثر فأكثر في المقالين الأولين من الكتاب كان له الاثر البالغ في منحى دراسات محمد المرزوقي للسيرة الهلالية : فإن كانت السيرة في حسب التعريف المعترف به في أوساط الاختصاص « المتن CORPUS » الذي تؤَرِّخ فيه الشعوب حياتها وتصوّراتها بينما « الأسطورة (الطبيعية) » هي النص الذي يتجلّى فيه تعامل الشعوب مع الظواهر الخارقة فان دراسة السيرة الهلالية لا يمكنها أن توضع في محور البحث عما هو « حقيقي » وما هو « غير حقيقي » (أي غير مقبول) بل يلزم أن توضع في محور البحث عما يرغب الناقل لها التعبير عنه حول ماضيه وحاضره بمثابتها « واقعا » ومنه يبتعد اعتبار « المتن » في حالاتها الموثقة في الزمن أو حالاته المتطورة والمتغيرة (في الزمان والمكان) ضربا من « الخيال المبتذل » ليصبح حالة تعبيرية عن ذهنية شعبية ينبغي استجلاؤها لادراك مكوّناتها . ولذا لا يستغرب ـ وقد ذهب المرزوقي إلى اعتبار سيرة بني هلال « أسطورة طبيعية » أن يعمد في بحوثه إلى تحديد ما هو « حقيقي » بمعنى « مثبت تاريخيا » وما هو « خيال » بمعنى « باطل تاريخيا » . وينتج عنه أن تصبح دراسة السيرة الشعبية ـ وهو منهج أُعتُمِد في بدايات دراسة الأدب الشعبي عامة ـ دراسة تقييمية لمعطيات لها علاقة بالتاريخ الرسمي (ومعطيات تخرج عن التحديد التاريخي) بهدف إثبات ظاهرة خارجة عن النص . ومنه تصبح الجوانب الفنية والابداعية حيثيات مهمشة لا تُقصَدُ ـ على المستوى التعبيري ـ لذاتها . والتذبذب في الاضطلاع الوارد أعلاه حَدَّدَ وجهة نظر المغفور له محمد المرزوقي في تناول الأدب الشعبي بصفة عامة ونصوص السيرة الهلالية على وجه الخصوص . ويلاحظ أن المرزوقي في أكثر من موضع من هذا الكتيب لم يعمد تحديد اصطلاح لجأ الى استعماله ، والواقع أن المصطلحات الفنية السائرة في دراسات الأدب الشعبي كانت مقالات المرزوقي في هذا الكتيب تخلو منها وعلى سبيل المثال : فأنت لا تعثر قط على مصطلح « النَّقْل » أو « التَوَاتُر » في أي موضع تناول فيه المرزوقي « انتقال روايات السيرة الهلالية » في الزمان والمكان . وقد نتساءل حول افتقار هذه المقالات الى الضبط الاصطلاحي ؟ ويبدو أن المرزوقي قد شاء التبسيط أكثر مما سعى إلى التعمق فكاد كُتَيِّبه يخلو من أي مرجع مختص في الدراسات الشعبية . وإذا استثنينا إشاراته إلى كتابيه التوثيقيين : « الجازية الهلالية » و « البدو في حلّهم وترحالهم » فإن قائمة مراجعه المثبتة في الهوامش فحسب لا تعدو المراجع التاريخية القليلة وهي التالية :

1 ـ الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون (ط . دار الكتاب اللبناني سنة 1959) .
2 ـ معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ـ لزمباور .
3 ـ رحلة التيجاني ـ ط 2 .

أما كتاب « على هامش السيرة الهلالية » الذي سنلخص أهم ما ورد فيه فيما يلي ونعلق في عجالة على ما نرى وجوب التعليق عليه فيشتمل على قسمين :

1 ـ قسم الدراسات ، 2) قسم النصوص .
فأما قسم الدراسات فيشتمل على ست مقالات وردت بعد البسملة والتقديم (ص 10) حسب الترتيب التالي في النص المرقون الذي بين أيدينا .

1 ـ « من وحي ملتقى الحمامات » . ص 2 الى ص 9 (وقد نشر بالحياة الثقافية عدد 11/1980)
2 ـ « اختلاف بين روّاة السيرة » . ص 12 الى ص 15 (هكذا حسب الترقيم الأصلي للمؤلف) .
3 ـ « ظاهرة الغيبيات في السيرة الهلالية » . ص 16 إلى ص 22 .
4 ـ « شخصيات السيرة » . ص 23 الى ص 38 .
5 ـ « أبو مخيير » . ص 39 إلى ص 44 .
6 ـ « منازل الهلاليين في الشمال الافريقي » . ص 45 إلى ص 53 (وقد نشر هذا المقال في الحياة الثقافية عدد 10/1980 وقد تقدم به المرزوقي للمشاركة في ندوة الحمامات المذكورة) . وتبدو هذه المقالات الست رغم اختلاف مواضيعها المطروقة مُشكِّلة لوحدة موضوعية نظرا لأنها لا تخرج عن حدود التعامل مع بعض جوانب السيرة الهلالية دون غيرها من رصيد الأدب الشعبي العربي .

وأما قسم النصوص فيشتمل على النصوص التالية والتي نبوّبها إلى بابين . باب النصوص المنقولة على لسان رواتها وباب النصوص التي صاغها أحد النظامين للشعر أو المرزوقي (كما فعل في كتابه الجازية الهلالية انطلاقا من رواية شعبية واحدة أو عدة روايات للسيرة الهلالية ، ولقد قدّم لها المرزوقي لتعليل وجودها ضمن هذا الكتيب كالآتي (ص 53) :

« لكي يطلع القارىء على صدق ما ذكرناه سابقا من أن الأسطورة الطبيعية تتطور وتختلف باختلاف المكان والزمان فهي تتردّد على ألسنة الرواة متأثرة بأمكنتهم وأزمنتهم ، أي أن الأسطورة تتأقلم بالمكان الذي تحل به وعلى لسان الراوي الذي يرويها مضيفا عليها من الخيال الذي يستوحيه من بيئته ولكي يطلع القارىء على مدى هذه الاختلافات في الأحداث وفي أمكنتها وفي أشخاصها وحتى في لهجة الرواية اللغوية آثرت أن أضيف إلى البحوث المتقدمة نصوصا من الروايات التونسية للسيرة لشعراء وقصاصين من القرنين الماضي والحالي » والله الموفق والمستعان ويبدو المرزوقي من هذاالتقديم مواصلا للرأي الذي أبديناه أعلاه من أن غرضه الأساسي هو إبراز الواقع من الخيال في السيرة الشعبية أو « الأسطورة الطبيعية » على حد قوله . وأما النصوص المنقولة مباشرة فهي ضمن هذا الكتيب كالآتي :

1 ـ « معركة شوشة رادس » ص 54 و 55 وهي مقطوعة في 27 بيتا من ملحمة بني هلال (صفاقس) رواية أحمد ملاك وتروي مغادرة الزازية الشريف بن هاشم ولقاء هذا الأخير مع ذياب في معركة شوشة رادس .

2 ـ « الحرب بين الهلالية وزناته » ص 56 الى 59 وهو جزء من رواية سليمان بن عمار الشتوي (من المرازيق) يركز على مقتل أبناء الهلالية من طرف العلام واندلاع الحرب بين بني هلال والزناتة في افريقيا وهذا الجزء عبارة عن تناوب بين الشعر والنثر كما هو في أغلب روايات السيرة الهلالية .

3 ـ « رجوع ذياب من الابل » ص 60 إلى 62 وهو مقطوعة نثرية تتخلّلها 12 بيتا من الشعر من رواية صالح بن عمر المحفوظي (من القيروان) وتروي استغاثة الجازية بذياب الهلالي للأخذ بثأر عامر الخفاجي الذي قتلته الزناتة . ويجعل الراوي أحداث هذه المقطوعة تدور بحاجب العيون قرب القيروان .

4 ـ « تداخل (هكذا) سعدى لفائدة بوزيد ورفاقه » ص 63 الى 65 وهي مقطوعة تكاد تكون نثرية في جلّها . من رواية عبد السلام المهذبي (من المزونة ، ولاية سيدي بوزيد) وتروي الحوار الذيم تَمّ بين الجازية وسعدي حول « بوزيد » وأبناء شيخة ، ثم تدخل سعدي لدى أبيها الزناتي خليفة لطلق سراح أبي زيد حتى يأتي بالفدية لتحرير مرعيويحي ويونس . والمقطوعة هذه من رواية طويلة نشرتها الباحثة أنيتا بيكر في اطروحتها حول روايات هلالية من الجنوب التونسي . نقلها المرزوقي عنها كما هي وأشار لذلك في الهامش .

5 - « بين الشريف والجازية » ص 66 الى 69 وهي مقطوعة شعرية (61 بيتا) من رواية عثمان قريفة من دوز لخّصها المرزوقي في صفحة تقديمية مؤكدا على أنه لم يتوصل إلى معرفة الراوي الأصلي لهذه الملحمة الشعرية . وهي تشبه إلى حد ما المقطوعة التي أوردها ابن خلدون في المقدمة حول المفارقة التي تقيمها الزازية بين الوسط البدوي والوسط الحضري - وهذه المقطوعة الشعرية تكاد تكون - كلمة كلمة - الرواية الشعرية التي جمعها برويس وفريد غازي من منطقة المرازيق والتي أثبتّها مع ترجمة فرنسية بالاشتراك مع ميشلين غالي في كتابنا « روايات تونسية لسيرة بني هلال » .

6 - « بين الهلاليين والعلام وخليفة الزناتي » ص 70 الى 80 ويقول عنها محمد المرزوقي : « هذه قطعة من سيرة بني هلال نقلتها من نسخة للمرحوم بوبكر بن عبد الرحمان الحمروني وبخطّه . سلّمها لي أخوه القاضي المرحوم عبد اللطيف الحمروني والقطعة تحكي وصول الهلاليين من الشرق واصطدامهم بالعلام وخليفة الزناتي (وهي بالتالي تكمل المقطوعة الرابعة المثبتة أعلاه بعنوان : تداخل سعدي لفائدة بوزيد ورفاقه) ويواصل المرزوقي : « واتكهن أن المرحوم بوبكر الحمروني نقلها عن المرحوم محمد التائب الذي كان من أكبر حفاظ السيرة الهلالية في الجنوب وهو من أبناء مارث (ولاية قابس) . وسيرى القارىء أن الربط بين أجزاء السيرة المنظومة قد وقع بلغة عربية فصيحة ولا أشك أنها من تحرير المرحوم بوبكر بن عبد الرحمان » . وتضمّ المقطوعة ما يزيد عن 120 بيتا من الشعر أغلبها في شكل حوار بين ذياب وسعد البيت . وقد عمد فيها المرزوقي كما فعل مع بقية المقطوعات الأخرى إلى تفسير بعض الكلمات التي رأى فائدة في تفسيرها .

النصوص المنظومة :

7 - « بوزيد ينجد الأمير اليتيم » ص 81 إلى 84 وهي مقطوعة في 62 بيتا من نظم ورواية محمد الحسيني وتقص عثور بوزيد أثناء الرِّيادة على الأمير اليتيم الذي اغتصب ملكه مملوك أبيه ويبدو من المقطوعة أن المملوك هو « سعد الوصيف » الذي يعرف بأنه « خادم » ذياب الهلالي وبالتالي يكون الأمير اليتيم هو ابن ذياب بن غانم الهلالي . ولا نذكر بين الروايات الهلالية المعروفة - شرقا ومغربا - حادثة من هذا القبيل ولعلها رواية مختلفة لا علاقة لها بالسيرة الهلالية . ووضعها المرزوقي هنا لوجود اسمي أبي زيد الهلالي وسعد الوصيف . والقارىء للمقطوعة يدرك ان ناضم المقطوعة محمد الحسيني قد انطلق من « وضع العبد الوصيف » كما في سيرة بني هلال للتعبير عن الصراع من أجل اغتصاب الملك وهي ظاهرة تناولتها سيرة بني هلال في أكثر من موضع . ومن هذه الزاوية تبدو أهمية هذه المقطوعة في نظرنا ؛ إذ أنها اعتمدت نص السيرة الهلالية لمنطلق « ملهم » لكتابة ابداعية وينصب النص الأخير الذي وضعه المرزوقي تحت عنوان :

8 - « الطائر المقفص » ص 85 و 86 وهو بمثابة موقف للمؤلف من الجازية الهلالية (وهذا المقطع قد وقع نشره في كتاب المرزوقي « الجازية الهلالية من ص 45 إلى 48) وهو عبارة عن حوار كتبه المرزوقي نفسه على لسان الشريف بن هاشم والجازية الهلالية وهي كتابة ابداعية بلغة العامة وهي بمثابة رواية محمد المرزوقي نفسه .

ومنه لا نرى مبررا لوضع النصين الأخيرين ضمن هذه النصوص التي أرادها بها المرزوقي وثائق تؤيد ما ذهب إليه من اطروحات في المقالات التي أخذت نصف الكتيب وقد يكون من الأفضل ، في صورة نشر هذا الكتيب - اخراجها منه .

ومهما كان الأمر فمجموع النصوص المثبتة مفيد في حد ذاته لأنه يقوم مقام التوثيق لبعض أجزاء السيرة الهلالية التونسية في عدة مواقع من البلاد التونسية ولو أن هذه المواقع جاءت أغلبها في الجنوب . وهي - ما عدا القيروان - صفاقس - قابس - المزونة - دوز - المرازيق . والملاحظ أن العناوين المذكورة لهذه المقطوعات المروية هي من وضع

محمد المرزوقي وكانت الفائدة تعم لو سعى المؤلف إلى مقارنة الروايات المثبتة بغيرها من الروايات السائرة أو المنشورة مثل الروايات المنشورة في الطبعات الشعبية أو الرواية التي نشرها المرحوم عبد الرحمن قيقة . غير أن توثيق هذه الروايات بقي منقوصا إذ لا يقدم المرزوقي إلا النزر القليل حول روّاتها والظروف التي حفت برواياتهم .

الدراسات :

وكما أشرت إليه أعلاه فإن المقالات التي يضمّها هذا الكتاب تبدو وكأنها مشكلة لوحدة موضوعية وذلك بناء على أنها تطرق بعض جوانب روايات السيرة الهلالية وفيما يلي تلخيص موجز وبعض التعليقات الموجزة عليها وذلك لفائدة قد يجدها الباحث والقارىء قبل أن يصبح الكتاب بين يديه .

1 - « من وحي ملتقى الحمامات » . ويتناول محمد المرزوقي في هذه المقالة المحاور التسعة التي دارت حولها « الندوة العالمية الأولى حول سيرة بني هلال » (الحمامات 1980 وهذه المحاور هي :

1) مركز انطلاق السيرة الهلالية . 2) انتشارها . 3) لقاء بني هلال بالتوارق . 4) ذياب والابل . 5) غيلان . 6) ماطوس . 7) الأسطورة والتاريخ . 8) مستقبل السيرة الهلالية . 9) لماذا نعتني بالسيرة الهلالية ؟ .

1) ويرى المرزوقي أن الأصول الأولى للسيرة الهلالية قد بدأت بالظهور في أواخر القرن الخامس للهجرة ولا يقدم أي دليل على هذا الافتراض وشأنه في هذا كتحديده لمركز انطلاق السيرة على أنه صعيد مصر وليس المغرب العربي وبصفة خاصة إفريقية (من القيروان إلى فاس) بالرغم من أن أغلب المواقع المذكورة في « تغريبة بني هلال » (وهي جزء من ثلاثة أجزاء السيرة الهلالية) والأحداث كذلك واقعة في بلاد المغرب العربي . ولم يشير المرزوقي في هذا الصدد إلى أن المواقع والأحداث التي ترويها بقية أجزاء السيرة الهلالية (السيرة والريادة) تنسب أغلبها إلى بلاد المشرق العربي من الجزيرة إلى بلاد الشام إلى مصر وبرقة وفي نفس الاتجاه يرفض المرزوقي الرأي القائل (دون إثبات لصاحب الرأي) « بأن الهلاليين هم الذين نشروا أخبار بطولاتهم (انظر الصفحة 2 من الكتيب) ولكن أخوانهم الذين استوطنوا صعيد مصرهم الذين حملوا هذه السيرة وتناقلوها وقد استغل الحكم الفاطمي في القاهرة لاشاعتها عن طريق القصاصين وذلك بهدف الانتقام من حكام افريقية للنيل من سمعتهم » . ويقول المرزوقي (ص 2) « واستخدام القصاصين في سياسة الدولة معروف لدى الفاطميين الذين كانوا لا يتورعون عن بث القصاصين في أسواق المدن والأرياف يقصون على العامة الأساطير العجيبة تَلْهِيَةً لهم عن التفكير في شؤون الدولة والحكم وهي طريقة استخدمها قبلهم المروانيون من بني أمية بتشجيعهم الشعراء على هجاء خصومهم وقبائلهم ، فشغلوا المجالس والنوادي العربية بهذه الترهات (هكذا) » .

وللأسف لم يقدم المرزوقي أي إثبات على قوله هذا خاصة وان ظاهرة « استعمال الشعراء والقصاصين الشعبيين لأغراض الدعاية السياسية » ظاهرة هامة وتناوُلُها بالدراسة والتحليل يُمكِّن من تسليط الأضواء على بعض النواحي من نصوص السير العربية والقصص الشعبي التي يبقى فهمها مغلقا . ولو حَاول المرزوقي تفحص هذه الظاهرة بالعناية الكافية لكان اعتباره لجهل أهل المشرق بالمغرب - الذي يبدو في الخلط المعاين في الروايات المشرقية حول اسناد الوظائف السياسية لغير أصحابها والخلط في المواقع والاحداث - قائما على حجّة معقولة . اذ الدعاية السياسية لا

تتطلب المعرفة الدقيقة بالاشياء بقدر ما تعمل على تشويه الحقائق والامور الخاصة بالشخص أو النظام المقصود . ولو درس المرزوقي هذه الظاهرة لاتخذت بعض أجزاء نصوص السيرة الهلالية مستوى تعبيريا متميزا ومفيدا في فهم مجرى التاريخ ، ولكن هذا يحتاج إلى المزيد من الاثباتات والتمعن .

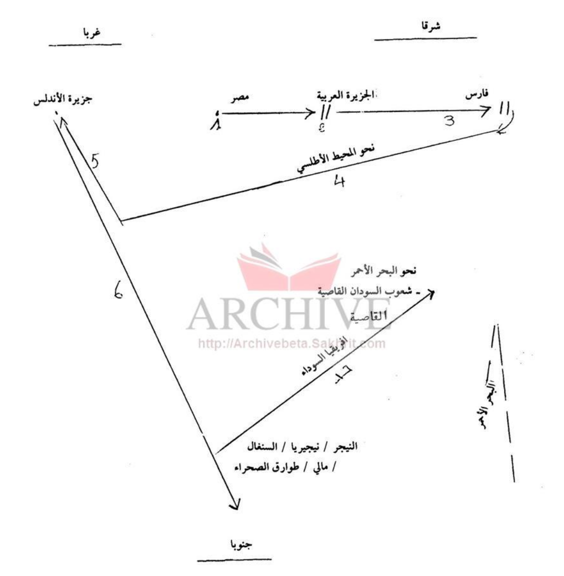
2) ثم ينتقل المرزوقي إلى الحديث عن انتشار السيرة الهلالية من حيث بناء النص ومن حيث انتشارُها في الزمان والمكان . ويرى المرزوقي أن السيرة هي الملحمة الطبيعية (راجع أعلاه حول خلطه في تحديد المصطلحات) لأنها « رواية حادثة في طفولة أمة أو شعب ثم تصبح هَزَجَها » ، نظرا لأن الملحمة تتوسع كلما ازداد توسع الأمة (الجماعة) المنتجة لها . وتعريف المرزوقي هذا يقوم ـ كما يبدو ـ على اعتبار أن السير تنشأ مع الشعوب في بدء تكوينها وتتطور مع هذه الشعوب على مدار الزمن بالاضافات التي يدخلها ناقلوا السير من طفولتها الى نضجها ، بيد أن المتعارف عليه هو ان السيرة او الملاحم تمثل حالة تعبيرية للنضج الذي تتوصل إليه الشعوب ، فتكون بمثابة المرآة العاسكة للتصوّر الشعبي لماضيه وحاضره وهو تصوّر قائم على تعدّد وجهات النظر عبر الزمان أي خلال عدة قرون .
ولعل توجه المرزوقي في هذا الحكم يقوم على اعتقاده كعدد من الباحثين في مجال التراث الشعبي بأن السيرة هي « نص أوحد » وجد في فترة زمنية معينة وادخلت الرواة عليه اضافاتها على مدار الزمن . غير ان هذا الافتراض قد ابطلته النظريات الحديثة في مجال دراسة الملاحم . لأن النص الأوحد لا يعدو « الحالة الاستنتاجية في البحث » والواقع ان السيرة هي عدد غير محدد » من الرويات المتفاوتة يتفق بعضها مع بعض ويختلف بعضها عن بعض حسب الرواة والزمان والمكان ولا يوجد بينها سوى قاسم مشترك يتمثل في البناء التحتي الموضوعي للسيرة (راجع عبد الرحمن أيوب : سيرة بني هلال مادتها ودور الذاكرة الشعبية فيها وكذلك كتاب باري لورد لورد The sing of tales وبول زمبتور Poèsie orale) .

وانطلاقا من تصوّره بان أصول السيرة الهلالية هي من الصعيد المصري فان محمد المرزوقي يحدد مسار هذه السيرة حسب الاتجاهات المثبتة في التخطيط المرسوم أدناه حيث تكون نقطة الانطلاق هي مصر ـ دون تحديد ـ (وهل مصر هي القاهرة أم صعيد مصر ؟) متجهة شرقا نحو الجزيرة العربية ففارس ثم غربا نحو المحيط الأطلسي فجزيرة الأندلسي ثم جنوبا نحو إفريقيا السوداء ثم شرقا جنوبا نحو البحر الأحمر وشعوب السودان القاصية . ويرى المرزوقي أن السيرة الهلالية قد ازدادت ثراء في تنقلها وتطبعت بطابع البيئة الناقلة لها بل واحتضنت بعض الشعوب بعض أبطالها (مثل بوزيد الهلالي) على أنه وليدها (الروايات التشادية والنيجيرية مثلا) .

والغريب أن محمد المرزوقي قد ذهب ـ تحت تأثير القراءة التاريخية لأحداث سيرة بني هلال وهي قراءة خلدونية على أغلب الظن ـ إلى هذا التخطيط في « مسالك » الهلاليين . فأسقط مسلكا هاما جدا وهو المسلك الشمالي . أي توجه الهلاليين من نجد الجزيرة العربية ألى بلاد الشام كما يثبت ذلك الجزء الأول منها والذي يطلق عليه بالسيرة . ودون شك أن السبب في ذلك يتمثل في أن المرزوقي لم يكن يعتمد اعتمادًا كاملا على القراءة النصية للروايات الهلالية بقدر ما كان يلجأ الى إخضاعها للمعطى التاريخي . كما يستغرب لجوء محمد المرزوقي إلى استعمال حرف التتالي « ثم » لتثبيت المسار الهلالي مما يجعل القارىء يعتقد أن الرحلة الهلالية قد تمت حسب الترتيب المذكور والواقع أن النصوص الهلالية تقدم مسالك متشعبة ومتداخلة تحدث أحيانا في الوقت نفسه كما تحدث اخرى على التوالي . إذ الروايات كما قلنا وليدة بيئتها : وتكون البيئة ـ بعد المنطلق الأول وهو نجد وليس مصر ـ المنطلق الأساسي نحو المواقع خارج الحدود .

وهذه السمة لا تختص بها الروايات الهلالية بل هي سمة مشتركة بين جميع السير العربية وغير العربية . ولذا غالبا ما يلجأ الباحثون للحديث عن « التصور الجغرافي لناقلي السير » وليس « للمسالك الواقعية في السير » ، (انظر . عبد الرحمن أيوب . حول مخطوطات السيرة الهلالية ببرلين) .

تخطيط المرزوقي لمسالك بني هلال



3) وسعيا لتأكيد رأيه حول انتشار السيرة الهلالية في إفريقيا السوداء ساق محمد المرزوقي الرواية التي جمعها هانري نورس حول « ذياب والغول » . ومفادها الاحتكاك الذي وقع بين بني هلال والطوارق أي البربر وذلك إثر قتل ذياب للغول الذي كان يأتي يوميا على فتاة طارقية . ومما لا شك فيه أن الطوارق هم من شعوب الصحراء ، بل هم الشعوب

الفاصلة والواصلة في الوقت نفسه بين جزئي إفريقيا اللذين تفصلهما بحار الصحاري من جهة وأن الطوارق هم من الشعوب البيض وليسوا من السود كما ذهب المرزوقي إلى ذلك من جهة أخرى . على أن الرواية التي نقلها نروس هامة في حدّ ذاتها لأنها تقدم المؤتمر الرمزي حول « الدور الذي قام به انتشار الاسلام واللغة العربية في المناطق الافريقية » . إذ الغول هنا هو رمز « العدو » وما العدو الذي قضى عليه ذياب « رمز الاسلام والعربية هنا » سوى « الجهالة » و « الهمجية » .

4) ودون ربط ينتقل المرزوقي للحديث حول تكليف ذياب برعاية الابل عوضا عن غيره من فرسان بني هلال معللا ذلك باعتراف القبيلة له بمقدرته على التغلب على الأعداء في حالة السطو أو الغارة وليس احتقارا لذياب . وكان لا بد أن يشير المرزوقي إلى أن الجازية هي التي قررت ان يذهب ذياب الى غدامس ليرعى الابل حتى تمكن أبي زيد الهلالي من تنفيذ الخطة السياسية للدخول الى تونس والقائمة على « الحيلة » و « الهدنة » ، ولكنها وبعد ان فشل أبو زيد في خطته استغاثت الجازية بل القبيلة الهلالية بذياب لتنفيذ أمر الحرب (راجع مقدمة الطاهر قيقة ـ هلاليات) .

5) ثم ينتقل محمد المرزوقي للحديث عن شخصية أسطورية معروفة في الجنوب التونسي باسم غيلان . وهي شخصية عارفة بأمور الحيوانات والكواكب وبامكانها أن تتكهن بالغيبيات ويسوق المرزوقي بعد ذلك رواية عشق « خضرة » لغيلان (وهو من الشخصيات التي اتخذها المسعدي في رواية السد) . وقد اتجأت خضرة الى صب الماء الساخن على شجرة اللوز حتى تعجل في عودة معشوقها . وهذه الرواية معروفة في الروايات الهلالية التونسية والجزائرية والليبية . غير أنها تضعها ، في إطار الريادة ، بين الجازية وذياب . وأشار المرزوقي بالأعتماد على دراسة هنري نورس الى أنها تعرف في الجزائر والمصدر الصحيح هو الدراسة التي كتبها كلود بروتو بالاشتراك مع ميشلين غالي بروتو : (انظر Actes 1è Congrès International A. I. D. M) .

6) ولاثبات دور الانتشار في تطوير الرواية الشعبية وتغييرها يسوق محمد المرزوقي اسطورة ماطوس Matius وهو الاسم الذي تعرف به ايضا قرية تونسية تقع قرب رمادة والمتمثلة في الحيلة التي اعتمدها ملك البلاد لبيع أراضيه بأثمان باهضة قبل وقوع سد مأرب (انظر . قصص العرب . ج 1 / 80 والأدب الشعبي التونسي . ص 27 و 28) وبهذا الصدد ينقل المرزوقي الرواية الهلالية على لسان محمد الحسيني حيث تم استغلال الأسطورة المذكورة مع تعويض شخوصها بشخوص هلالية مثل بوزيد الهلالي والعلام (ص 6) .

7) ومواصلة لابراز تدخل العناصر الاسطورية في الروايات الهلالية يخصص المرزوقي فقرة موجزة حول الاسطورة والتاريخ . حيث يركز على التداخل الذي يحصل حول ما يسميه بالملاحم الطبيعية التي تقوم على بعض الحقائق التاريخية وبعض الاساطير التي لها صلة بالتاريخ وذات المضمون الاجتماعي . ويرى المرزوقي ان هذا الأمر لم يعد يحتاج الى مزيد من التحليل والتعليل نظرا لأن اطروحة صالح بن حمادي حول الاساطير التونسية قد افادت الافادة الكاملة . وانطلاقا من هذا الافتراض يذهب المرزوقي الى القول بأن اغلب الاسماء الواردة في السيرة الهلالية هي من بنات خيال الرواة الشعبيين وان الجذور التاريخية فيها قليلة وكأن المرزوقي يسير بهذا نحو القول بأن انتشار السيرة الهلالية في الزمان والمكان يؤدي بها الى ان تصبح اسطورة بالمعنى الصحيح للكلمة . غير اننا نعلم ان الزمان والمكان من جهة وتطور المجتمعات من جهة اخرى يؤديان الى تخليص الاساطير من جانبها الخيالي والابقاء فيها على ما هو مقبول عقليا . . . والمرزوقي نفسه يدلي عكس اقتراحه الأول (ص 8) حسب ما قالته انيتابيكر في اطروحتها : بأن الاحداث الخيالية من الاساطير الملحمية يرمز اكثرها الى أشياء واقعية معيّنة .

8) أما عن مستقبل السيرة الهلالية فيرى المرزوقي (انطلاقا من الدراسة التي تقدّمت بها في الندوة المذكورة والتي لم يشر إليها المرزوقي علنًا) ان الظروف الموضوعيّة لم تعد متواجدة لتوسع السيرة الهلالية وأنها ستتوقف عند وضعها

المعروف اليوم . أما التجديد الذي قد يلحق بها فسيكون من باب الابداعات الفردية التي تتّخذ السيرة الهلالية كمنطلق ملهم ومن باب الدراسات الحديثة التي ستتناولها .

9) ويختم المرزوقي مقالته الأولى بالتساؤل عن اعتناء الناس بالسيرة الهلالية ويجيب لأنها سيرة شعبنا العربي على مرّ عدة قرون ولأنها تتضمّن معطيات مختلفة تخبر عن هذا الشعب . فإذا كان الأمر كذلك : هل ستفقد الذاكرة الشعبية هذه السيرة التي تؤرخها ؟ ولم يجب المرزوقي مباشرة على هذا السؤال (وهو السؤال الذي طرحته ندوة الحمامات سنة 1980) . ولكن المقالة الثانية من الكتاب جاءت بمثابة الاجابة الأولية على هذا التساؤل :

2 ـ اختلافات بين رواة السيرة (ص 12 ـ 15) .

حيث يركز على الاختلافات العديدة التي تميّز بين روايات السيرة الهلالية من شمال تونس الى جنوبها ويعزو المرزوقي المفارقات بين الروايات الهلالية التونسية على الاقل الى سببين : 1) خيال الرواة نقلة الروايات ؟ 2) تطبّع الرواية بطبيعة البيئة الناقلة لها وعقلية ناقليها . ويرى المرزوقي ان هذه المفارقات شاملة : فالرواية الهلالية تكون بدوية السمات في الأوساط البدوية وحضرية السمات في الأوساط الحضرية . غير ان جميع الروايات تبقى متحدّة بين بعضها البعض حول المحور الاساسي الذي يجمعها وهو حسب المرزوقي المحور الذي انطلقت منه ألا وهو : « قصة شعب
بدوي انطلق بايعاز من خلافة مصر الى الشمال الافريقي غازيا مخ » . والحديث حول هذا المحور ـ يمك
بدوي انطلق بايعاز من خلافة مصر الى الشمال الافريقي غازيا مخرّبا » : والحديث حول هذا المحور ـ وأقل ما يمكن أن يقال عنه ـ أنه ناتج عن تسليط نظرة تاريخية « خارج النص » إذ يبدو أن جميع الروايات الهلالية المعروفة لدينا اليوم تتفق حول محور « تحتي » واحد ـ قد اسهبنا القول فيه في أكثر من موضع ـ ويتمثل في : صراع مجموعة بشرية ـ تتّحد المجموعات الناقلة لسيرتها معها فيه ـ من أجل الحصول على القوت (راجع أيوب السيرة الهلالية : مادتها ودور الذاكرة الشعبية فيها) .

3 ـ ظاهرة الغيبيات في السيرة الهلالية (ص 16 ـ 27)

ويترك المرزوقي بعد المقالين السابقين الدراسات العامة للهلالية ليخص بالنظر بعض الجزئيات الواردة في نصوصها مثل الغيبيات التي يعود وجودها فيها لانتشار الجهل وبساطة العقول . ويتناول المرزوقي في مقالته هذه ظاهرة « خط الرمل » أو « التاقزة » التي تناولها بالوصف في كتابه « مع البدو في حلهم وترحالهم » . ويرى أن هذه الظاهرة ـ وهي مازالت منتشرة في الأوساط الشعبية ويتخذها بعض اصحاب الجاه من علية القوم عندنا لقراءة غيبهم ـ قد أخذت في الزوال نظرا لاكتساح الثقافة الأوساط التي كانت فيها منتشرة مثل بوادي البلاد التونسية وأريافها ويركز المرزوقي على أن النصوص الهلالية تعج بقصص خط الرمال الذي كان بنو هلال وأعداؤهم يلجؤون إليه لاستقراء الغيب (أي المستقبل القريب) . وعادة ما يتم ذلك قبل سفر مزمع أو حلم رآه أحدهم رغم عدم تصديقهم في واقع الأمر لما يفيد به خط الرمل . ويقف المرزوقي عند حد الافادة بوجود هذه الظاهرة ولم يعمد إلى تحليلها وخاصة في ارتباطها بظاهرة الحلم أو الرؤيا وذلك على مستوى المقابلة بين التصديق / وعدم التصديق . ولو فعل لأفاد حول دور « خط الرمل » في تحديد مفهوم الصراع في السيرة الشعبية الذي لا يقف عند حدود الصراع المادي بل يصل ـ على مستوى البناء التحتي للسير ـ الى الصراع الوجودي (انظر عبد الرحمن أيوب . ظاهرة الحلم في السيرة الهلالية . مجلة ابلا) .

1 ـ شخصيات السيرة (ص 23 ـ 38) :

وبعد تناوله لظاهرة خط الرمل يخلص المرزوقي إلى دراسة بعض شخصيات السيرة الهلالية ويتناول منها من يعتبرها المرزوقي قد قامت بدور وظائفي في السيرة الهلالية وعدد هذه الشخصيات اثنتا عشر 9 رجال و 3 نساء (وهو نصاب الرجل حظ الانثين !) وهي موزعة إلى شخصيات واقعية بمعنى أنها أثبتت تاريخيا (اي في تاريخ ابن خلدون دون غيره) وشخصيات غير واقعية . اما الشخصيات الواقعية فهي . الحسن بن سرحان (شيخ قبيلة دريد . ابن خلدون ج 6 . ص 35 / 48 / 49) .

أبو زيد الهلالي (سلامة ابن رزق حسب ابن خلدون م . س) .

الشريف بن هاشم (تولى امارة مكة سنة 430 هـ وتوفي 453 هـ . م . س / 40) .

ذياب بن غانم (م . س . ص 35 / 38 / 41) .

خليفة الزناتي (وهو في الواقع أبو سعدي خليفة اليفرني . م . س . ص 35 / 42) .

العلام (دون اثبات) .

الجازية (زوجة الشريف بن هاشم م س / 36) .

سعدي (بنت الزناتي ـ دون اثبات) .

أما الشخصيات غير الواقعية فهي حسب المرزوقي .

- ابن الخفاجي عامر .
- مرعي ويحيى ويونس (ويظن المرزوقي أن هذه الأسماء هي توزيع لام موحد وهو . مؤنس بن يحيى)
- أحمد الهلالي .
- الجارية مي

ويبدو ان الهدف الذي شاء الوصول إليه من وصف هذه الشخصيات في هذا المقال هو إبراز الشخصيات الهلالية (أو غيرها) في السيرة التي كانت لها صلة بالتاريخ الرسمي (اعتمادا على ابن خلدون) فكان في عمله خاضعا الى المفهوم التالي : « وأن كل ما هو غير مقبول منطقيا ليس من الواقع » .

ـ أبو مخيبر (ص 39 إلى 44) :

ومواصلة لدراسته شخصيات السيرة الهلالية يخصص المرزوقي مقالا حول « أبي مخيبر » ويرى أنه شخصية معروفة لدى أحفاد سليم وهلال من القبائل التونسية ويروى على لسانه كلام شعر وهو أقرب إلى الأولياء الصالحين وليس ممن يُصنّف بين الأولياء الصالحين . وهو حسب ابن خلدون « زياد بن عامر رائد الهلاليين في دخول افريقية » (ج 36/6) وقول ابن خلدون يؤيد الروايات الشعبية التي تنقل على لسان أبي مخيبر والتي تثبت العديد من أسماء المواقع والمدن في إفريقية ولم يتمكن المرزوقي بالاعتماد على المصادر التاريخية (تاريخ ابن خلدون ورحلة التيجاني) من تحديد موقع أبي مخيبر . أما الرواية الشعبية فتنسبه إلى قرية بمعتمدية (دوز) وتقع على تخوم الصحراء « نُويِّل » غير أن المرزوقي يشك في صحة الرواية المقولة على لسان أبي مخيبر حول « نُويِّل » وأهلها . ويذهب الظن به إلى أن أبا مخيبر النويلي قد يكون فعلا من أهل المنطقة ومن المتأخرين زمنا وهو غير أبي مخيبر المثبت تاريخيا . كما يشك المرزوقي في الكلام المسند إلى أبي مخيبر وأغلبه هجاء لأهل القرى والمدن . ويرى أن هذا الهجاء هو في الواقع من صنع الرواة أنفسهم . وبعد أن ساق المرزوقي أمثلة من هذا الهجاء يخلص الى الشك في شخصية أبي مخيبر على أنها شخصية واقعية ومنه يشك في صحة ما نسب إليه . وبدورنا نخلص الى التساؤل عن هذه الشخصية : ألم تكن من محض خيال العامة

وبمثابة التعلة prètexte تُعتمد لسوق (على لسانها) ما ترغب العامة في قوله عن الأخيرين من ذم وقذع . وهذه عادة منتشرة إلى اليوم بين سكان مختلف المناطق . وكان الأفضل أن تدرس هذه الشخصية من هذه الزاوية لتحديد رؤى المناطق حول بعضها البعض من خلال أقوالها عن بعضها البعض .

وتنتهي مجموعة المقالات بمقال شارك به المرزوقي في ندوة الحمامات وتم نشره سنة 1980 بمجلة الحياة الثقافية وهو :

ـ منازل الهلاليين في الشمال الافريقي (ص 45 ـ 53) :

وهو ثبت بأسماء القبائل من هلال وسليم التي استوطنت شمال افريقيا ولأماكنها والمقال مفيد من حيث أنه يرشد عن هذه القبائل منذ أوائل العهود الاسلامية الى زمن حصرها على يد المرزوقي ونكتفي هنا بهذه الاشارة إلى هذا المقال نظرا لأنه قد نشر سابقا وسيصدر قريبا في كتاب ندوة الحمامات .

الخلاصة : لا شك في أن هذه الدراسات تلقي أضواء على بعض جوانب نصوص السيرة الهلالية ولا شك أيضا في أن النصوص المدرجة في هذا الكتيب تضيف وثائق مفيدة إلى رصيد المكتبة الهلالية . إلا أن تساؤلا يبقى يتكرر في أذهاننا طيلة قراءة هذه الوثائق . هل الاعتماد على التاريخ الرسمي كفيل بابراز ثراء مادة نصوص الأدب الشعبي العربي ؟ وهل ليس من المفيد أن ننظر لأدبنا الشعبي من داخل نصوصه بالدرجة الأولى ثم نستنجد بالنصوص الرسمية التاريخية وغيرها ان اضطرت الحاجة الى ذلك ؟ .



آلهـــة الذبابـــ

أو من مجتمع الغرب إلى شريعـة الغاب : وجهان لعملة واحـدة

مصطفى مدايني

عالم منفتح كل الانفتاح ، الشجية هي المثل الذي عليه تقوم الشريعة ، الأرض هنا ، أديم لم يطأه إنسان . قدموا عنوة ، استقروا . كونوا مذاهب وأوجدوا نحلا . ثم بدأ ضرب من التجذر يسري في تلك الروابي التي ما عرفت للدم طعما ولا للموت والقتل منفذا ، الا ما كان من عداء الطبيعة ذاتها ، إنها الحياة في نواتها الأولى نهار ، ليل وليل يتلوه نهار ، تماما كحركة البحر المحيط ، مد فجزر ، جزر فمد . حركة دائبة هي العود على البدء وان تغيرت الأحوال .

هل يمكن اعتبار ما كتبه الروائي الانكليزي منذ ما يقارب الجيل عملا جديدا ، وهل جاءت « آلهة الذباب »[1] تمجيدا لانسانية الانسان ، وتخليدا لآثامه وتصويرا لشروره التي ما نبعت يوما الا في نفس عطشى للدمار . . .

وهؤلاء الأبطال الذين يحكـون تاريخنا ، ونحن في مواسم الصيـد الأول ، أليست حقيقة ممكنة الوقوع . بل ألم نجتهد يوما وكل منا بمفرده الى النزوع الى تسليط ما لنا من قوة في ممارسة نوايا القتل البطيء . . . ثم أليس الانسان حيثما حل يعتبر نفسه إلاها ، سيدا يفعل الأفاعيل ، ويحدد المسار غتبعا من الطرق أبشعها وسالكا من المسالك اشنعها . . . وأخيرا ما هو موقف الكاتب في هذه الرواية وان شاء ان يبقى متواريا ، مختفيا في ظل العديد من شخصياته . اسئلة سنحاول ان نجيب عنها ونحن نقرأ رواية وليم جولدنج الفائز بجائزة نوبل للآداب سنة 1983 الصادرة عن دار الهلال سنة 1984 وقد ترجمها الأستاذ محمود قاسم .

نشأ « حي بن يقظان »[2] في احضان الطبيعة ، وقد أوجد له « ابن طفيل » كل مقومات الحيـاة حسب العديد من الطرق الممكنة . فالهدف عند « ابن طفيل » واضح كل الوضوح . الانسان ابن بار للطبيعة ، بها يتغذى واليها يعود انها التكامل أو هو التوافق بين كائنات الوجود . فالحياة دورة متواصلة الحلقات . أما روبنسون كريزوي فقد تواجد اضطرارا في جزيرة نائية فعاش حياته حسب منطق ارتآه وتمثل في العمل من أجل البقاء . . . أما رحلات السندباد[3] فقد كانت رحلات الى جزر نائية يمضى فيها بعض الوقت يعايش خلاله العديد من المغامرات التي تنتهي بركوب البحر من جديد .

ان الأدب الانساني مفعم بتصوير الحياة في تقلباتها وتشنجاتها وتغيراتها المسرفة . . وجاءت « آلهة

الذباب » لتزعزع فينا مبادىء قارة . . . فقد جاء الموضوع أكبر من ان يحدد في اطار ضيق . وقد انطلق المؤلف من فرضية جديدة : النفس البشرية ليست في الحقيقة إلا مجموعة شرور دفينة تسعى الى الظهور حالما ينعدم عنها ما علق بها من تعقيد وتقنين . ففقدان اريحية التحضر يؤدي حتما الى انحلال جوانب الخير في النفس فينجلي عنها الصفاء ويعمها السواد و متبعا الاحقاد . ولعل ابلغ مشهد على ما تقول هذه السطور . . . :

« هناك بعيدا ، في الناحية المظلمة من العالم في أعماق ، أعماق البحار ، كان هناك جسد جرفه التيار من الشاطىء لوحش قام الأولاد بالاعتداء عليه بالضرب أو بالعض أو بكل الوسائل ، بالأيدي والاقدام وفروع الأشجار الغليظة . . . ولم يكن هذا الوحش سوى « سيمون » الذي أراد اخبارهم عن القتيل الذي اكتشفه فوق الجبل ولكن بطريقة أكثر إثارة »[4]

مجموعة أطفال وجدت نفسها في جزيرة مجهولة تمارس أول عملية قتل . وكان الضحية الطفل « سيمون » الذي جاء ليخبرهم ان الوحش الذي ملأهم رعبا ليس الا انسانا مثلهم . . . وقد جاءت عملية القتل هذه وسط رقص صاخب أقامه الزعيم جاك الذي أبى إلا أن يعود الى مراحل الصيد الأولى . لقد أبى هذا الصبي الاستكانة والرضى بثمار جافة يأكلها ومياه البحر يشربها ، لقد أبى ذلك ودعا جماعته لممارسة الصيد وسيلة حياة . ولأول مرة يسيل الدم في هذه الغابة المجهولة ، او على الأصح لأول مرة تنجز عملية قتل نفس بشرية فوق هذه الجزيرة النائية .

مارس الأطفال القتل ، قبل ذلك أوهم بدأوا يمارسونه يوميا بقيادة جاك الذي بهرته الجزيرة وأعجب بطعم الدم السخن . يصور الكاتب هذا الميل في تدرجه وتطوره .

« كان كل واحد منهم (الأطفال) يعرف لماذا لم يقم بالحركة ، وينقض على الخنزير . . . وذلك بسبب ضخامة الموقف . السكين واللحم الحي . أما السبب الرئيسي فهو اراقة الدماء »[5]

انها الخيبة الأولى في عملية الصيد او هو التهيؤ النفسي . وتتواصل التجربة :

« أمسك جاك بحربته وتقدم نحو الأمام بحذر شديد وزاد من وجود الستار ان الهضبة تشكل منزلقا تكون من مرور الخنازير . وفي اللحظة التي انتصب فيها جاك واقفا سمع حركة خلفه . . . . »[6]

وأمست الولائم متعددة ، وبدأت عملية الرقص والغناء . واشرأبت الأعناق لجاك وهو يقيم النصب : الهة الذباب ممثلة في رأس الخنزير معلقا على طرف عصا إنه القربان أو الضحية . . . . وفي هذا مزيج من التفكير الصبياني واعمال الكبار وهنا عين ما قال فيه الفيلسوف اوغوست كونت[7] بأن البشرية بدأت ابان تفكيرها البدائي صبيانية المنزع وابطال الرواية اطفال يمارسون واقعا جديدا هو بعيد كل البعد عما عرفوه سالفا من تحضر وتطور وازدهار . فكأنما لم يعايشوا نور الحضارة التي عصفت بالقرون الوسطى حيث كانت النهضة الصناعية في أوارها الأول ، ان هؤلاء الأطفال الانكليز ابناء اصفياء لبشرية لها ميولها وآراؤها ، ومع ذلك وازاء اول بادرة مغايرة لواقعهم خلقوا نمطا جديدا من العيش . . . . لكن كيف كان بلوغ هذه المرحلة او ما هو الوجه الآخر للحكاية ؟

لقد تتبعنا النفس البشرية في موقعها السوداوي ، على ان المؤلف ما زال يقر بمبدأ الثنائية . فهو صور جذوة الخير المتقدة عند البعض واصدق ممثل لها هو « رالف » . وفي الحقيقة فان هذه الشخصية هي بطل الرواية وحوله تدور الأحداث : بل به تبدأ :

« نزل الصبي الأشقر من فوق الصخرة الأخيرة ، واتجه نحو المستنقع حيث وضع قدميه وهو يمسك

في يديه سترة من الصوف يجر طرفها فوق الأرض ، قميصه الرمادي ، ملتصق بجسده وقد غطى الشعر جبهته »[8]

إنه رالف في مواجهة المجهول لأول مرة ، فوق جزيرة لم تطأها قدم وقد طوحت به الطائرةالتي تكسرت مع بعض الأطفال الهاربين من الحرب . ورالف الذي به تبدأ الرواية ، به تنتهي او على الأصح هو الذي تكتشف ان الكابوس قد انقشع ، وان ضابطا منقذا قد وصل ،

« نهض وهو يترنح في انتظار كوارث أخرى ، ولكنه رفع عينيه فوقعت على كاسكيت ابيض على حافتها السوداء علامة التاج والهلب وورقة شجر ذهبية . رأى الزي الأبيض والاكتاف والمسدس وصف الأزرار الذهبية . »[9]

لكن كيف كان طعم هذه الرحلة أو على الأصح دور رالف فيها ؟

منذ البداية بدأ «رالف» صورة لمعاني التحضر الأصيل ، وقد رافقه « بورسنيت » في الرحلة فكان صورة للعقل والرصانة والمنطق . فكان يوجهه بأسئلته العديدة وأفكاره النيرة . وظهر بورسنيت هذا صورة لمبدأ « لسقراط » ونظرته في المعرفة . فهو يسأل وفي الجواب عين التعلم والعرفان . وقد وجد رالف في صديقه خير هاد في العديد من المناسبات . لقد أوضح له اهمية القوقعة كما دعاه الى جمع الأطفال كافة وذلك قصد معرفتهم والتثبت من هوياتهم . وهي عناصر ترتيبية يسعى اليها كل من كان قد تعلم النظام وعاشه ، يقول بورسنيت عندما عثر رالف على القوقعة : « انها فعلا قوقعة ، لقد رأيتها معلقة فوق حائط عند بعض الناس ويطلقون عليها اسم « صدفة » ويقال انه عندما ينفخ فيها غلام تأتيه أمه ، ان قيمتها كبيرة »[10]

ان هذه الفقرة لها العديد من المعاني . فالقوقعة ماديا هي صدفة ، محارة تخرج صوتا . ومعنويا هي صوت المنادي وستعين الأطفال على التلاقي طيلة وجودهم بالجزيرة . وهي سبيل من سبل التشجن أيضا ، لها معنى من معاني السحر ، حيث تمكن الانسان من الالتقاء بأمه . وهذا المعنى هو حلم الأطفال وقد وجدوا في جزيرة نائية بعيدين عن الأهل والأقارب . فالقوقعة تجسد نداء الأطفال الدائم لملاقاة الأهل لكن دون جدوى . وتأخذ القوقعة مفهوما واسعا لدى الأطفال ، فهي أداة التجمع واللقاء :

« يمكننا استخدامها في نداء الآخرين ونجعل هذه المنطقة مكانا للقاء وسوف يتوافدون واحدا تلو الآخر بعد سماعهم النداء »[11]

وعندما نفخ رالف في القوقعة « بدأ صوته أشبه بالهمس ، بعد هذا الصوت الضخم الذي صدر من القوقعة ثم أعاد رالف الصفير لكن الصوت صدر هذه المرة مكبرا ووصل تردده الى مسافة أبعد من المرات السابقة بدا بورسنيت سعيدا وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة وأخذت عيناه تشعان السعادة والبهجة من خلف نظارته الطبية . أخذت العصافير تشدو بالحان رائعة وتفر الحيوانات الصغيرة هاربة . »[12]

إن القوقعة هي الاكتشاف الأول ولعلها التحسس الأول لطبيعة جديدة كل الجدة . فكأنما الانسانية اعادت الكرة في ميدان الابتكار والكشف والاختراع وقد كان لهذا الصوت صداه العميق . فإذا بالأطفال المبثوثين في أرجاء الجزيرة يسعون الى مصدر الصوت بحثا عن السلامة . وبدأ اللقاء :

« تقدم غلام من بين النخيل على مسافة مئة متر من الهضبة كان غلاما صغيرا يبلغ من العمر حوالي ست سنوات اشقر الشعر ، قصير القامة ، غليظ القسمات ، ممزق الثياب ملطخ الوجه ببقايا فاكهة »[13] ثم : « خرج ثلاثة آخرون متقاربي السن من جوني ، من ناحية قريبة وقد تلوثت أفواههم

بآثار الفاكهة ، غلام أسمر الملامح أصغر سنا من بورسنيت . . . . »[14] ثم قدم آخرون . ووصل جاك ومجموعة أطفال سيعرفون فيما بعد باسم الصيادين وعند قدومه سأل :

« أين الرجل الذي كان ينفخ في البوق ؟»[15]

ثم اكتشف بداهة :

« ليست هناك سفينة اذن ؟ »[16]

لقد كان لقاء جاك لرالف جافا . حادا بسيطا ومعقدا في آن . . . وخلال هذا اللقاء انتخب رالف زعيما قائدا وان احتفظ جاك بحريته كقائد أوحد لمجموعة الصيادين . . . ان العمود الفقري للرواية هي الصراع الدائر بين شخصيتين متناقضتين، شخصية رالف وشخصية جاك . يدعو الأول بتوجيه من بورسنيت الجميع الى التفكير في سبل الخلاص ، ومن ثم يتم اكتشاف ثان هو النار التي بدونها يصعب التعبير عن الوجود في هذه المنطقة النائية .

« فالكبار لن يعرفوا لهم طريقا خاصة انهم كانوا يعرفون ـ حسب تعبير بورسنيت ـ عزمنا على الاتجاه الى أي مكان لكنهم لن يعرفوا لنا طريقا لأننا لم نصل الى هدفنا المعروف لديهم »[17] . ولذلك وجب التفكير في الدخان كوسيلة ابلاغ « بامكاننا ان نساعدهم على معرفة طريقنا حين تقترب سفينة من الجزيرة . فلن تشعر بوجودنا عليها اذن يجب علينا ان نشعل نارا على قمة الجبل . »[18]

لكن هل يتمكن الصغار من ذلك !

نعم ، لقد تمكن جاك من اشعال النار بواسطة نظارة بورسنيت ، لكن من كلف بحراستها ومدها بالأغصان حتى تواصل اشتعالها لم يقم بواجبه على الوجه الأكمل فخبت النار ، وكانت الخيبة الأولى . وقد جاءت هذه الخيبة موازية مع حدث نجاح اول عملية صيد قام بها جاك . لكن الخيبة كانت شديدة ، فلقد بدت سفينة تمخر العباب لكنها سرعان ما توارت إذ كان الدخان ضعيفا الى درجة الاضمحلال فلم تبلغ الرسالة . ان رالف يسعى الى لم الشمل والبحث عن سبل الخلاص ، في حين يود جاك ان يحتفظ بالصيادين ويتمتع بالقنص ، ، وتتغير الميول وتتناقض . لكن الصراع ينمو بسرعة ويتطور حد المجابهة المباشرة . وعبر ذلك نعيش لحظات التأزم الكبرى . جاك يود ان يكون متوحشا بأتم معنى الكلمة . يسعى الى الصيد ويهدف الى اقامة مملكته على أسس حياتية خاصة . فتصبغ الوجوه وتتغير الملامح . . . أما رالف فيسعى جاهدا الى مواصلة لم الشمل وايجاد السبل الكفيلة بتحقيق رغبة الخلاص . وتتأزم المواقف بين جاك المتمرد ان شئنا التعبير ورالف الزعيم . وتكون الغلبة بالطبع للأقوى . أي لجاك الذي تمكن من فرض منطقة لا بواسطة العقل والفكر وانما عن طريق الفعل والغدر والحيلة . لقد اكتفى في البداية بالصيد ثم كون عسسا وحراسا بل سرق عوينات « بورسنيت » لاشعال النار مرة أخرى وأدّب بعض الصغار ومارس ضربا من الدكتاتورية والأنكى انه كان متسببا في موت موريس ، وكذلك في مقتل بورسنيت الذي يعتبر كبش فداء العقل ، وبه يرمز المؤلف الى غلبة عنصر الشر . ويصور ذلك بطريقة فنية متميزة :

« سمع رالف صوت الصخرة الكبرى قبل ان يراها . أحس ، برجفة . . . فالقى بنفسه على الأرض . . . ضربت الصخرة الضخمة بورسنيت في ذقنه وحتى أسفل قدميه . فانفجرت القوقعة الى آلاف القطع ، وتلاشت في الصخور . ودون ان يعرف الوقت لالتقاط أقل نفس سقط بورسنيت في الفراغ واستدار ناحية المسقط . تدحرجت الصخرة مرتين واختفت في الغابة . انكفأ بورسنيت على ظهره مسافة خمسة عشر مترا . فوق صخرة تحيطها المياه . تهشمت رأسه وانسالت منها مادة حمراء . اعترت اعضاءه انتفاضة كأنها مخالب خنزير قد نهشته . ثم لفظ البحر تنهيدة . . . . اصطبغت المياه

بـاللون الأحمر الـذي غطى الصخـرة وعندمـا عادت للظهـور مرة أخـرى كان جسـد بورسنيت قـد اختفى » .[19]

انها لحظة التفجع الكبير ، أهذا هو المصير لمن كان عين العقل ، بورسنيت الطفل المتحضر الذي اكتشف القوقعة ، والذي دعا الى عقد الاجتماع تلو الاجتماع والذي سعى الى ايجاد سبل الخلاص ففكر في أهمية النار والدخان كوسيلة ابلاغ لتحديد موقعهم . يكون مآله القتل ، والقتل الشنيع ، في مكان مهجور وعن طريق اطفال سعى بنفسه الى لم شملهم والتعارف عليهم من أجل التعاون قصد الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . ثم جاك هذا المتوحش الذي تناسى علامات التحضر كلية . . . فمارس جنونه كما يمليه عليه خياله . . . لقد خشي في البداية لون الدم ثم ها هو في الأخير ينغمس فيه متلذذا ، فارضا جبروته مبرزا مدى قوته وسطوته بل انه صاح عنوة أمام رالف المنبهر : « أنا الزعيم »[20]

انه الصراع من أجل البقاء . وقد آن أوانه بالنسبة لرالف ، لقد شاهد موت صديقه بورسنيت كما تتبع مشهد موت موريس فماذا يخبىء له القدر وقد بلي بمتوحش لا يتورع عن استعمال كل الوسائل للاحاطة به والتشنيع بأمثاله . لقد فرض جاك زعامته . ومن ثم تغيرت المعطيات وتداخلت العلاقات وتشابكت الأهواء . رالف كان يهدف من زعامته ايجاد مخرج للجميع اما جاك فكان يهدف الى الزعامة ، ولا غير الزعامة .

واثر هذه اللوحة المأساوية تبدأ رحلة رالف عبر المجهول . فيمسي الزعيم خارجا عن القانون قانون الغاب الذي فرضه جاك ويسعى هذا الأخير للامساك به والانتقام منه ان لم يذعن ويتعظ بالأمر الواقع . لكن رالف يواصل الهروب مدافعا عن نفسه بقوة وعنف وان كان في قراراتـه يكره استعمـال القوة والعنف : « حاول ان يقنع نفسه بأنهم سيتركونه لحاله ، وسيعاملونه كأنه خارج على القانون ، ولكن احساس بالتشاؤم بدأ يتسرب اليه ، فحطمت القوقعة . . . ومات سيمون وانساب بـورسنيت فوق الجزيرة كأنه ضباب ، وهؤلاء المتوحشون المصبوغون لم يكفوا . ثم هذه الرابطة التي لا تنتهي بينه وبين جاك ، ، لهذا فان جاك لن يتركه أبدا يعيش في سلام »[21]

لقد واجه « رالف » العالم المجهول اولا ثم ها هو يصارع من أراد به الخير . وإذ تأكد ان السلامة مطلب صعب التحقيق فقد هب في عنف للدفاع وفر وجوده : « سلك رالف طريقه بين الأعشاب في اتجاه الغابة محاولا بشتى الطرق إلا يلمح أحدهم أثرا له ، لكنه وجد فجأة متوحشا صغيرا أمامه ملطخ الوجه مسلحا بحربة وهو يسعل من أثر الدخان ويفرك عينيه من أثر الصبغات . فاضطر أن يقفز عليه كالقط وضربه بعنف ثم ولى هاربا . . »[22]

ولاحظ رالف ان النار قد بدأت تتسرب للغابة فواصل هروبه بحثا عن الأمان في الشاطىء ، وفي نفس الوقت تواصلت المطاردة التي لم تكن في الحقيقة إلا في صالح رالف . لقد عمت النار الغابة .

« تذكر (رالف) البريق الذي كان يكسو هذا الشاطىء ذات يوم ، أما الآن فالجزيرة ليست سوى كتلة من الخشب الميت . مات سيمون . . . وجاك . . . بدأت الدموع تنسال من عينيه وامتـزجت بالنحيب انها المرة الأولى منذ أن وصلوا الجزيرة . استسلم لاحزانه وشعر بداخله بتشنجات تمزقه من رأسه الى أخمص قدميه . بينما خيط الدخان الأسود يغطي الاطلال المحترقة على الجزيرة . . ثم بـدأ الأطفال الآخرون في البكاء والنحيب وكأنها عدوى . امتزجت الدموع بالشعور القذرة . وبكى رالف على نهاية بـراءته وعلى اسوداد القلب البشـرى ونهاية ذلـك الصديق المخلص الـذي كان يسمى بورسنيت . »[23]

ان هذه الفقرة التي وردت في نهاية صفحات الرواية تلخص أهم الأحداث ومفاصل عقدها . بل انها الرؤية القاتمة لوضعية البشر في كوكبنا . لقد عاش رالف تجربة فريدة هي عبارة عن حلم أسود ، هو الى الكابوس أقرب منه الى الخيال .

وكأنما قرأ الضابط حالة الصغار « فأحس بالتأثر استدار ليعطي للأولاد الفرصة للتماسك وهو ينظر الى السفينة القابعة ساكنة بعيدا . . . »[24] بهذه الكلمات يفتح المؤلف الحدث على مصراعيه ، ليدل على النهاية . انها الرحلة الى جزيرة مهجورة رحلة لم يكن للأطفال ضلع فيها . يعايش الأولاد فيها تجربة مرة تنتهي بالنظر للبحر من جديد في سبيل رحلة أخرى لكنها رحلة معلومة أو على الأقل هي رحلة لا تكلف الصغار مشقة التخطيط لها .

لكن ماذا عن موقف المؤلف ، بعبارة الا يمكن أن تكون آلهة الذباب هي انسانية الانسان في مسيرتها وقد جبلت على الخطأ فكأن التاريخ البشري هو حلقات متسلسلة لأخطاء تتكرر باستمرار . ثم ألا يمكن ان نستنتج من تمكن رالف من الهروب من عدوه جاك وافلاته من الحريق ان المؤلف انما أراد ان يبرز ان الخير وان غلب وأهين فانه لا محالة متغلب في الأخير . وأيضا أليس في مقولة المؤلف على لسان رالف : « لقد اهملتم الشعلة حتى انطفأت »[25] تعبير على واقعنا اليومي المعيش . فالشعلة المتقدة ، والتي تهدي البشرية في تطورها كثيرا ما تنعدم ، فتتداخل الأهواء وتتناقض الطموحات بين الشعوب فتفرز الحروب والمعارك المدمرة للانسانية ، أليس في هذا تصوير لمأساة الانسان .

إن « آلهة الذباب » هي تصوير لشطحات الانسان وهو يمارس شروره على الأرض . وان أبطال هذه الرواية هم أطفال ما بلغوا بعد سن الرشد .

وقد سعى المؤلف من وراء ذلك الى انتقاد البشر في سلوكهم متهما اياهم في التفريط في أعز ما يمكن ان يملك ، ألا وهو السلام والأمان والطمأنينة . قال جاك متبجحا ومدافعا عن نفسه ابان انطفاء الشعلة :

« كان عليكم ان تروا كمية الدماء التي انسالت منه » .[26] ألا يذكرنا هذا بشخصية باندور[27] التي هبطت الى الأرض حاملة معها كيس شرور حيث افرغته في عالمنا . . . ان « آلهة الذباب » هي مجموعة الشرور الدفينة فينا والتي تنتظر التربة الصالحة للبروز وعالمنا هو تربة صالحة لكافة أنواع الشرور الممكنة . . .

لكن ماذا عن رواية « طقوس المرور » الصادرة سنة 1981 ؟ هل ستسم الكاتب بنفس الموقف ام انها ستكون مغايرة تماما لما قلنا سالفا ، هذا ما سيكون موضوع دراستنا القادمة ان شاء الله .

● هوامش :

1 ـ آلهة الذباب ـ رواية وليم جولدنج ـ دار الهلال ـ مارس 1984 ترجمة : محمود قاسم
2 ـ حي ابن يقضان ـ ابن طفيل : قدم لها المؤلف العديد من المقدمات مبرزا فيها ان الانسان ابن بار للطبيعة
3 ـ وردت رحلات السندباد في « الف ليلة وليلة » وهي من أدب المغامرات .
4 ـ آلهة الذباب ـ ص 134
5 ـ آلهة الذباب ـ ص 32
6 ـ آلهة الذباب ـ ص 48
7 ـ أوغست كونت فيلسوف فرنسي قارن بين اطوار حياة الانسان واطوار حضارته .
8 ـ آلهة الذباب ص 11
9 ـ « ص 187

10 - » ص 18
11 - ش» ص 19
12 - » ص 20
13 - » ص 20
14 - » ص 21
15 - 16 - » ص 22
17 - » ص 35
18 - » ص 38
19 - ح ص 162
20 - » ص 162
21 - » ص 165
22 - » ص 174
23 - ل ص 181
24 - » ص 181
25 - » ص 62
26 - » ص 63
27 - باندور ، شخصية اغريقية تمثل المرأة الشريرة وقد نزلت من السماء الى الأرض حاملة كيس شرور زرعتها في الأرض فانتجت من الشرور ما لا يحصى ولا يعد .

● **تعليق** : مرت هذه الرواية في السوق التونسية ولم نقرأ حولها أية دراسة تماما كما كان الأمر ابان صدورها أول مرة بانكلترا .



النظام الجامعي العربي خصائصه وشروط إصلاحه

أبو يعرب المرزوقي

من اليسير أن ندرك العلاقة الرابطة بين علم الفكر العربي ابن خلدون والبحث في أزمة النظام الجامعي العربي خاصة ونظام التعليم العربي عامة . ذلك أن مسألة التعليم فلسفة ومناهج طرائق ومضمونا قد شغلت وحدها أكبر أبواب المقدمة أعني الباب السادس ؛ وهي ، في خطة هذا الأثر الثوري ، ثمرة العمران الأسمى : فالتعليم ، وهو صناعة الصناعات بوصفه الفنيات الرمزية لتأسيسها وتبليغها ، لعلمها وتنميتها ، يعد آية بلوغ العمران لأسمى غاياته ، أعني عودته على نفسه موضوعا لادراكه ومادة لتعليم أجياله صيرورته المادية والرمزية بوصفها لحمة تاريخه وسداه[1]

ومن اليسير كذلك أن يكون علم العمران منطلق محاولات الفهم التي لا بد من الاقدام عليها أمام التناقض المبين بين كم التعليم العربي زمانا وعددا وكيفه تأثلا وتبرزا : فالنهضة العربية شرعنا فيها منذ قرنين وعدد المتعلمين يناهز الأربعين مليونا عنيت المترددين على المدارس حاليا بصرف النظر عمن تخرج ومع ذلك فلا هذا البعد الزماني ولا هذا الحجم العددي بمحققين لتأثل علمي نقلنا الى القفزة النوعية أو الى بروز شخصيات علمية تصبح اعلام نظام التعليم العربي فيصبح ذا حركية ذاتية يستهلك ما ينتج أعني تكون مادة التعليم فيه وشكله من انتاج متعلميه[2] .

لعل ابن خلدون ، بما في مقدمته من مبادىء ونظريات[3] ، سيكون شرارة قادحة تجعلنا نغوص إلى أعماق المجتمع العربي والى طبيعة التعليم وكيف يكون فنتجاوزه إلى فهم ابعاد أزمتنا والى وضع نظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة مسهمين بذلك في الانتقال النوعي الذي اصبحت الأمة العربية على أبوابه بعد أن توفرت الشروط المادية لذلك وبعد مضي ثلث قرن على دخول الأمة حرب التوحيد الأهلية بين المحافظين على التجزئة لارتباطهم بالمستعمر السابق والداعين الى الوحدة لادراكهم شروط النهضة الحقيقية[4] .

لذلك فإن بحثنا هذا لن يكون مقصورا على تبرج المتعالمين من الوصافين بالاحصاء والمشيدين بالأعداد والخالطين بين مراكز محو الأمية المنحطة والمعاهد العلمية المنتجة للعلم والعلماء ؛ ولن نتوقف عند التقويم والوصف بهدف تحديد الجدوى وتحسينها : ذلك أن هذا الموقف لا يكون مقبولا الا في حالة كون النظام التعليمي نظاما تعليميا حقيقيا له قيام ذاتي يمكن تقويمه واصلاحه وتحسينه أما اذا كان هذا النظام ليس له من مسماه الا العدم ، فإن أهم عمل هو البحث عن شروط تحقيق قيام المسمى لتصح التسمية وعندئذ يمكن التقويم والاصلاح[5] .

وهكذا فاننا ننطلق من البحث في شيء نسلم منذ البدء بعدم وجوده أو بصورة أدق بأن وجوده مقصور على عدمه أي انه لا يتحدد أساسا إلا بالسوالب .

يتألف بحثنا هذا من محورين أولهما يعالج خصائص النظام الجامعي العربي الراهن وأسباب تخلفه والثاني يتصدى لشروط النهضة العلمية العربية وطبيعة نظام التعليم الجامعي كيف تكون . وهكذا تكون حطتنا مألفة من العناصر التالية :

I . 1 ـ خصائص النظام الجامعي العربي .
I . 2 ـ عوامل تخلف النظام الجامعي العربي .
II . 1 ـ نظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة .
II . 2 ـ الاصلاحات المقترحة .

I . النظام الجامعي العربي وأسباب تخلفه

I . 1 . خصائص النظام الجامعي العربي :

يعد النظام الجامعي العربي الراهن خليطا هجينا من النظم السائدة في العالم[6] ومن بقايا النظام التعليمي الاسلامي الذي كان ، هو بدوره ، حصيلة هجينة للنظم التعليمية في الشرق القديم وعند اليونان[7] . لذلك فإن وصف النظام الجامعي العربي في حاله الحاضرة لا يمكنه أن يدعي الانطلاق من معطى موجب موضوعي أو من نظرية موجبة بوصفهما حيزا محددا يمكن توجيه الفكر اليه لترصد هذه الخصائص ؛ بل إن عوامل الوحدة الوحيدة التي يمكن أن نعود اليها هي في الموجود سوالب وهي في اللاموجود موجبات وسنحاول في هذا الفصل ضبطها قدر المستطاع .

إن عوامل وحدة النظام العربي السالبة في مجال التعليم عامة وفي مجال التعليم الجامعي خاصة ، هي بشيء من الايجاز العناصر التالية وهي مستمدة من وجوده بما هو واقع راهن .

1 ـ حضور الماضي حضورا ميتا : ومعنى ذلك أن ما هو حاضر من ماضينا في نظام تعليمنا بكل مراحله ، ليس الا ما لم نستطع التخلص منه أو ما لم نبقَ عليه الا على سبيل بجاملة الذات أو الدفاع عنها . ولا يمكن أن يعد مثل هذا الحضور أمرا موجبا ؛ ذلك أن الماضي الذي لا يمثل المعين المغذي لأن ماضيا بديلا يؤدي هذه الوظيفة ـ أعني ماضي الغرب وحاضره الذي نستمد منه كل شيء ـ لا يمكن ان يعتبر حيّا . وهو إذن عامل وحدة سالب[8]

2 ـ محو وحدة الذاكرة المقصود : ومعنى ذلك أن الدويلات العربية توطيدا للتجزئة الحالية تعود بها الى التراث الواحد فتتناهشه تناهش الكواسر لماض جيفته لكي لا تأخذ منه الا ما يدعم التجزئة . فإذا كان مصير الوثائق والآثار والأعمال الفكرية التي تتألف منها مادة كل تعليم غير مستلب أعني آثاره السابقة المتراكمة في ذاكرته الموضوعية ، إذا كان مصيرها أن تعامل بمنطق دويلات الطوائف فكيف سيكون لهذا التعليم البعد الزماني الكافي للتحول الكيفي وللابداع ؟ . وهل بوسع أي دولة اقليمية أن تتحمل مسؤولية تراث كالتراث العربي تحمل الفكر الغربي لتراثه ؟ . عامل فقدان الذاكرة وتشويهها عامل وحدة سلبي يشترك فيه ما يسمى بالنظم الجامعية العربية : الذاكرة الموضوعية المحطمة عن قصد[9]

3 ـ التبعية المباشرة : وعامل حضور الماضي الميت علته التبعية المباشرة لنظام التعليم العربي : وأعني بالتبعية المباشرة تبعية نظام التعليم الجامعي العربي لنظام التعليم الجامعي الفرنسي والانجليزي والأمريكي والروسي (الأولين في المجالات المدنية والثانيين في المجالات العسكرية) وهي تبعية مباشرة قاتلة لأنها تجعل النظر العربي غير ملائم لواقعه لأنه مرتبط بنظر ملائم لواقعه : والثاني يسمى نظرا لأنه نظر في واقع في حين أن الأول ليس له من النظر الاسم لأنه نظر

في نظر منفصل عن الواقع أعني غير متواصل مع جذوره المولدة له كما سيتبين في المحور الثاني . وهذا أيضا عامل وحدة سالب : فهو عامل وحدة لأن جميع اشباه النظم الجامعية العربية تشترك فيه ؟ . وهو سالب لأنه عامل سلب[10]

4 ـ التبعية اللامباشرة : وعامل قتل الذاكرة الموضوعية علته التبعية غير المباشرة لواقع التعليم العربي : وأعني بالتبعية غير المباشرة أن التعليم العربي حتى عندما يسعى الى الارتباط بواقعه فهو يرتبط بغير واقعه أي انه يرتبط بواقع تبعية الدويلات الانفصالية بالمستعمر السابق فيصبح نظاما ايديولوجيا لتبرير الانفصال عقائديا ونظاما تكنولوجيا لخدمة حاجات المستعمر صناعيا : أي ان وظيفته تقتصر على انتاج اليد العاملة لسيد الأمس أما مباشرة (ـ الهجرة ـ) أو بصورة غير مباشرة (العمل في المحميات التي كانت مستعمرات مباشرة لصالح سادة الأمس) . .[11] والذاكرة الموضوعية الواحدة التي ما زالت العائق العنيد أمام هذا التوظيف هي التي تتطلب التبعية المباشرة تحطيمها باسقاط التجزئة الحالية على وحدة التراث تفتيتا لها وقتلا لأساس دلالاتها أعني وحدتها المادية في مخزوناتها الأثرية أو الذاكرة الموضوعية .

أما عوامل الوحدة الموجبة فهي لا توجد الا في ما هو معدوم من الوجود العربي الواحد لذلك فإنه لا يمكن ان يدركها الا الباحثون الذين تخلصوا من العوامل السوالب التي ذكرناها في الفقرة السابقة . وأعني خاصة مقابلات السوالب أي :

1 ـ الحضور الحي للماضي : ذلك أن الاستعاضة عن مراحل الذات الماضية بمراحل ذات أخرى هي بدورها ماضية تسليم لا مبرر له بموت الماضي الأول وحياة الماضي الثاني في حين أن هذا الأخير لم ينهض نهضته في القرنين الخامس عشر والسادس ثم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (الثورة العلمية والثورة التقنية) الا بجعل مراحل ذاته الماضية في تجسمها المادي والرمزي موضوعا لفكره بحثا ومادة لتعليمه تبليغا . فالنهضة الأولى عودة الى اليونان للسيطرة على الهجمة العربية على الغرب والثانية عودة الى حصائل العودة الأولى واتماما لها : وهذا الأمر عام في مجالي الأدبيات والانسانيات عمومه في العلميات والتقنيات : بل ان فلسفة هيجل على مستوى الحضارة بغلبة مدلولها الرمزي وفلسفة ماركس على نفس المستوى بغلبة مدلولها المادي ليست الا فلسفة تستهدف تحديد درجات فاعلية الماضي الغربي في الحاضر الغربي لادراك خطوط القوى في شق معالم المستقبل الغربي[12]

ان نظام التعليم العربي والجامعي منه خاصة لا يمكن أن يصبح ذاتي الحركة ما دام يستعيض عن مراحل ذاته بمراحل ذات غيرة وذلك باهمال مخزونه من الآثار والوثائق والمؤلفات والاقتصار على وثائقية الغرب : وهذا الاقتصار يتجسم خاصة في التعليم بغير اللغة القومية : ذلك أن استعمال المكتبة العربية التي لها وراءها اربعة عشر قرنا يعدم بجرة قلم ما أن يصبح التعليم باللغة الأجنبية : ولا يمكن أن يكون البحث المتحفي الذي يقوم به بعض المنعزلين عربا كانوا أو مستشرقين بمحي للمكتبة العربية إذا كانت آخر ما يذكر في مراجع كل تدريس ومصادره ذكرا يصاحبه الجهل فالاحتقار[13] .

2 ـ تخليص الوثائقية العربية من التوظيف الإقليمي ومنطق التجزئة : ذلك أن هذا الموقف التوظيفي سيكون المولّد الواجب لانحطاط الفكر العربي وللتوكيد على فقدان الناشئة لحصيلة التجربة الروحية والعلمية العربية والاقتصار على أجزاء مجتثة الجذور فاقدة لعوامل عبقريتها الناتجة عن علاقتها بمحيطها الواحد المولد لها : وعوض أن يستند فكر الناشئة الى مكتبة عربية تمتد زمانا طيلة أربعة عشر قرنا ومكانا على جل المعمور من الأرض المتحضرة فانها ستقتصر بالنسبة الى أجيالنا على منتوج هزيل ضئيل زمانا ومكانا وذلك لأن خوف الدويلات من أن يبرز نظام التعليم لاشرعية وجودها لعدم مطابقة حدودها لحدود الثقافة العربية ، فانها ستجعل المضمون الأساسي لمناهج التعليم مكتبة المستعمر كأفق واسع ومكتبة الأقليم كأفق ضيق . أما المكتبة العربية الواحدة التي تدعو الى الاستعاضة بها عن هذا

التوظيف الاقليمي فهي عامل الوحدة الموجب الثاني الذي يدركه من تخلص من العامل السالب الثاني سابق الذكر[14] .

3 ـ تخليص النظام الجامعي العربي من التبعية المباشرة . وتتمثل التبعية المباشرة في ارتباط التعليم العربي بكل مراحله وخاصة المرحلة الجامعية منه بالتعليم الغربي مباشرة على المستويات التالية بحسب درجات هذه التبعية المباشرة : لغة التدريس ووثائقيته ثم النظريات المدرسة وتطبيقاتها ثم مناهج التدريس وطرائقه وأخيرا نظام التعليم وسياسته . وهذه التبعية تفقد مضمون التعليم كل ارتباط بظروفه الزمانية والمكانية والتاريخية والاجتماعية = فسواء تعلق التدريس بالانسانيات أو بالعلميات فإن المادة واحدة لكأن القانون مثلا يمكن أن يفصل عن المؤسسات أو الطب في الأمراض أو الفيزياء عن التكنولوجيا أو الرياضيات عن الفيزياء الخ . . ولا يعني هذا الفصل ربط التعليم بنقائص الواقع العربي في هذه الميادين فنجعل العلم العربي متخلفا تخلف التقنية في المجتمع العربي : بل يعني أن يكون هذا التخلف موضوع الفكر بصورة يتولد عنه التقدم إذ أن سد الحاجة بالاستيراد للجاهز يغني عن الاكتشاف والابداع والتجريب بطريقة الخطإ والصواب[15] .

إن التخلص من التبعية المباشرة لا يكون الا بجعل حاجات المجتمع العربي الروحية والتقنية الأدبية والعلمية موضوع البحث العلمي وعدم استيراد الحلول حتى وان كان المستوى النظري للمعالجة واحدا في البحث الجامعي عامة بصرف النظر عن تمايز النظم . لكن هذا التخليص من الارتباط المباشر ارتباط النظام الجامعي العربي بالنظام الجامعي الغربي ، اعتمادا على الربط مع الواقع العربي لا بما هو متخلف بل بما هو مولد للحاجات أي بما فيه من ثغرات لا يمكن أن يكون محررا للنظام الجامعي اذا لم نخلصه كذلك من التبعية اللامباشرة .

4 ـ تخليص النظام الجامعي العربي من التبعية على المباشرة . وإذا كانت التبعية اللامباشرة هي تبعية النظام الجامعي العربي لواقع عربي تابع فإن تخليص النظام الجامعي العربي منها يعني ادراك طبيعتها والسعي الى التخلص منها باستعمال التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة أداة لهذا التخلص : ذلك أن المجتمعات التابعة تبقى على مستوى الانتاج المادي والفكري مقصور دورها على المجالات الدنيا التي يستخدمها النظام المسيطر أعني المجتمعات المستعمرة استعمارا مباشرا سابقا واستعمارا غير مباشرا حاليا : ذلك أن المجتمعات العربية المجزأة لكونها مجزأة عاجزة عن اقتحام مجال البحوث النظرية العليا لارتباطها بامكانات اقتصادية تفوق امكاناتها ؛ ولكنها لا تشعر بهذه الحاجة الأكيدة شرطا للتقدم وللوجود الحر لأن حاجاتها التي يحصرها الحاكم نائب المستعمر في حاجات الدولة الانفصالية أعني امكانات المحافظة على بقاء الدولة مع نهب المجتمع وتفقيره ؛ لذلك فإن أي مواطن عربي مدرك هذه المعادلة يعلم أن بهرج الدويلات العربية إنما هو برهن المستقبل العربي واقعا وتعليما : واقعا بالربط المتزايد لاقتصاديات الأقاليم العربية وتفكيك عناصر الوحدة وتعليما بقتل المخزون الوثائقي العربي والارتباط بالمخزون الوثائقي الذي هو تراث مستعمر الأمس .

إن حديثنا عن عناصر الوحدة الموجبة يبدو ، لكونها تنتسب الى ما هو معدوم في الوجود العربي لأنه ماض يستهدف القتل أو مستقبل يستهدفه المنع ، من جنس الحديث عن الواجب لا عن الواقع ؛ لكن المجتمعات التي عاشت للمستعمر المباشر وتعيش الاستعمار اللامباشر الجديد لا يمكنها أن تعتبر واقعها المفروض واقعا مرجعا وواجبها الممنوع واجبا من جنس الاحلام ، بل هو عين الواقع الشرعي في غياب شرعية الواقع المفروض بحكم الاستعمار والتجزئة . بل ان هذا الواقع المفروض لو خلصناه من التبعية لصارت بعض انجازاته قابلة للتثمير وخاصة فيما يتعلق بتوفير الأرضية الأولية تكوينا للبشر وتجهيزا للمحيط ؛ لكن هذه الانجازات لو بقيت في واقع الانفصال لصارت عامل تشديد للتبعية ومن ثم عامل استعباد للبشر وتفقير للوطن من خلال تحويله الى هوامش على ذمة سلب المستعمر ونهبه المستمر لثرواتها من خلال الابقاء على حياة دويلات عالات تحيا ببيع أشلاء الوطن واسترقاق أبنائه الذين يتحولون عمالا للمستعمر اما على أرض الوطن أو بالهجرة .

وحاصل القول ان سوالب النظام الجامعي العربي التي لا يدركها من يقتصر همه على المقارنات الاحصائية لعدد

المرسمين وعدد المتخرجين وكلفة التعليم الخ من الأرقام التي لا تفيد شيئا في واقع يزداد تبعية يوما بعد يوم ، ان هذه السوالب هي سوالب الواقع العربي وتعود كلها الى التبعية الواقعية سياسيا والتبعية الفكرية تعليميا وما ينتج عن الأولى من التبعية الاقتصادية وعن الثانية من التبعية الثقافية . أما موجباته وهي محرراته من مكبلاته أعني وحدة الأساس التاريخي للوجود العربي وتتمثل في وحدة المحددات الشكلية اعني وحدة الكتابة الوثائق والتعليم والتنظير ثم وحدة الأساس الموضوعي المتمثل في المحددات المضمونية اعني الخبرات الآلية وحرفها والخبرات الرمزية وحرفهـا . أما الأساس الوظيفي البنيوي فتمثله وظائف التعليم الثابتة أعني وظيفـة الاستعلام عن المحيط الاجتمـاعي والطبيعي لفهمهما وللفعل فيهما . وأخيرا فإن الأساس الوظيفي الظرفي يتمثل في الاستجابة للحاجيات الآزفة لمجتمع في طور التحرر من مكبلات وجوده أعني التبعيتين المباشرة واللامباشرة

I . 2 . عوامل تخلف النظام الجامعي العربي

كيف يمكن انطلاقا من الخصائص التي ذكرنا أن نحدد عوامل تخلف النظام الجامعي العربي : ذلك أننا حتى لو فرضنا أن كل المعطيات الاحصائية تفيد أن نظام التعليم العربي عامة والجامعي منه على الخصوص قابلة للمقارنة مع النظم التعليمية في العالم ، فإن ذلك لن يمنع من وصف هذا النظام بالتخلف ما لم يصبح التعليم العربي وليد حاجات واقعه غير المستلب : أي ما لم يصبح منتجا ونتاجا لمحدداته الشكلية ومحدداته المضمونية .

1 ـ فهل النظام الجامعي العربي ناتج ومنتج محدداته الشكلية ؟ . هل النظام الجامعي العربي ونظام التعليم التابع له ـ وهو المستعمل للغات الأجنبية أداة للتواصل المعرفي والانتاج العلمي ـ قادر على انتاج المحددات الشكلية العربية الجديدة واحياء المحددات الشكلية السابقة تكفي نظرة على المنتوج الجامعي من بحوث وأطروحات ورسائل ودراسات لكي نعلم أن هذه ، لكونها بلغة أجنبية ، ليست في متناول المواطن العربي الا اذا اغترب ولا فرق بينها وبين المنتوج الفكري الأجنبي من حيث ظروف التواصل والتبليغ . فإذا كان الانتاج الفكري خلال نصف قرن تقريبا (وهو عمر الجامعات العربية) لا يضيف شيئا للمكتبة العربية وخاصة في العلميات فكيف ننظر التحول الكيفي في الفكر العربي ؟ . وإذا كان التراكم الجديد لا ينتسب الى القديم فإن في ذلك حكما على القديم بالموت ونسبة للجديد الى قديم الآخرين الذي يتواصل في حاضره[16] .

2 ـ وهل النظام الجامعي العربي ناتج ومنتج لمحدداته المضمونية اعني للخبرات الآلية وحرفها وللخبرات الرمزية وحرفها التي تستعمل كمضمون لكل تعليم ؟ . هل التعليم الجامعي العربي يجعل من الممارسات الآلية والحرف التابعة لها ومن الممارسات الرمزية والحرف التابعة لها موضوعا أولا لمشاغله هو ذو مضمون لا علاقة له بمسار حضارة المجتمع الآلية وحضارته الرمزية ؟ . وكيف يمكن لهذه الخبرات الآلية والرمزية أن تكون موضوعـا لتعليم فعال ومنافس لنظم التعليم العالمية إذا كانت الدويلات العربية بما هي مجزئة للوطن حكم عليه باستحالة أن يكون جهازا ناجحا في مجال الحضارة المادية والرمزية ؟ . لذلك فإن الدويلات العربية ستكون مستوردة لما يفوق قدرتها ومقتصر انتاجها عما لا يتعدى التبعية الفكرية والتقنية وهما تبعيتان تزدادان يوما بعد يوم[17] .

3 ـ وهل النظام الجامعي العربي يستطيع ، في غياب كونه ناتجا ومنتجا لمحدداته الشكلية أعني المدونات والوثائق والبرامج التعليمية والنظريات ، أن يصبح نظاما منتجا للعلم فاعلية والعلماء فاعلين ؟

إن الجواب عن هذا السؤال يستدعي تحديد علة عدم قدرة النظام الجامعي العربي بحثا وتعليما على انتاج محدداته الشكلية الحاضرة وسعيه الى قتل محدداته الشكلية الماضية = إن هذه العلة هي عدم استعمال اللغة القومية . إذ في هذه

الصورة تبقى الجامعة أجنبية في المجتمع لا يتصل بها الإنسان إلاّ إذا اغترب وعوض أن نعرب العلوم والوثائق فرنسنا أو سكسنا المتعلمين فصرنا في غنى عن تعريب الوثائق لعدم الحاجة . وحتى عندما يقدم البعض على تعريب بعض الوثائق فإنها تبقى بدون استعمال لأن المتعلمين في غنى عنها ما دامت غير كافية وما دام الأصل بديلا عنها وهو في المتناول . ولعل حجة الإطلاع على الأصل التي هي من الشروط الواجبة في البحث العلمي هي المبرر لهذا الخلل : لكن شتان بين هذا الشرط إذا كانت الوثيقة موضوع البحث وبين هذا الشرط إذا كانت الوثائق الأجنبية هي المصدر والمرجع الوحيد في أي بحث . ثم إن الحاجة الى اللغات الأجنبية تكون مقبولة إذا تعلقت بدرجات التخصص العليا أما إذا كانت هذه الحاجة عامة حتى في ما هو مشاع من المعارف والبحوث فذلك دليل على فقدان المكتبة العربية لفقدان التدريس باللغة القومية إذ التدريس هو وظيفته انتاج هذه المكتبة واستعمالها[18] .

4 ـ وأخيرا هل يستطيع النظام الجامعي العربي ، في غياب كونه منتجا وناتجا لمحدداته المضمونية أعني الخبرات الآلية وحرفها والخبرات الرمزية وحرفها ، أن يصبح منتجا للتقنية فاعلية والتقنيين فاعلين ؟ . وهنا كذلك يستدعي الجواب عن هذا السؤال تحديد علة عجز النظام الجامعي العربي بحثا وتعليما على انتاج محدداته المضمونية الحاضرة وقتل محدداته المضمونية الماضية : إن هذه العلة هي عدم توفير شرط قيام اقتصاد له القدرة على تمويل البحث العلمي ومدّه بالتقنيات العليا والمخابر الكبرى والمعامل العظمى التي يتكون فيها الرجال وتحصل فيها الخبرة الآلية والرمزية . وهذا الشرط هو تجاوز مرحلة الدويلات الانفصالية والاقتصاديات الهزيلة الى الدولة العربية الواحدة والاقتصاد العربي القوي الذي يمكنه في عقود قليلة نقلنا من أمة تابعة الى أمة سيدة على مصيرها ومسهمة في التاريخ الكوني بما لها من كفاءات تتوقف دون النبوغ لفقدان الشروط الموضوعية : إذ ما من أحد الا ويدرك هذه الحقيقة : فالطالب العربي قبل العودة الى الوطن له نفس الانتاجية العلمية التي للطالب الغربي والمهاجر العربي له نفس القدرة في البحث : لكنه يصبح عقيما في الدويلات المجزأة لانعدام الشروط الموضوعية للنهضة العلمية[19] .

وبذلك يتضح أن أسباب تخلف النظام الجامعي العربي صنفان . الصنف الأول ويتألف من سببين مباشرين هما عدم كون هذا النظام منتجا وناتجا لمحدداته الشكلية والمضمونية . والصنف الثاني يتألف من سببين غير مباشرين هما علتا السببين المباشرين أعني عدم استعمال اللغة القومية لانتاج المحددات الشكلية وعدم وجود الوحدة العربية لانتاج المحددات المضمونية ـ وإذن فان النظام الجامعي العربي ، لكي يصبح فعالا ، يوجد بين خيارين لا ثالث لهما : فإما البقاء أداة لتكريس التبعية بالمعنيين اللذين ذكرنا أو التحول الى أداة تحرير منها وذلك بالتعريب الشامل المنتج لمحدداته الشكلية والتوحيد الكامل المنتج لمحدداته المضمونية .

II ـ شروط النهضة العلمية العربية

لكن عدم ادراك خصائص نظام التعليم العربي عامة والتعليم الجامعي خاصة وعدم التخلص من أسباب تخلفة مردهما أساسا إلى أن هذا النظام الهجين يعود بالأساس إلى كونه وليد عطالتين احداهما خاصة بنظام التعليم العربي والأخرى بأساسه في الدويلات العربية الحديثة . فأما العطالة الأولى فهي التي تمثلت في كون النظام الراهن كان في البدء وليد النقل أو الابقاء على النظام الذي أحدثه المستعمر وصار بالتدريج وبمفعول الترميم الظرفي حصيلة تاريخية لا يوحد بينها نظام نظري يحدد فلسفة التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة[20] . وأما العطالة الثانية فهي عطالة النظم السياسية العربية التي كبلها عائقان : عائق التبعية للمستعمر وعائق التبعية للسياسيات الشعبوية التي يتحكم فيها الأحكام الايديولوجية الواضعة لنظم ليس لها من التعليم الا المحو السطحي للأمية والمظاهر الزائفة للتقدم[21] إذ أن كلفة تعميم لغة أجنبية على المتعلمين العرب في المرحلتين الأولين من التعليم العام ، فضلا على ضرر هذا الاجراء ولا جدواه ، كانت وحدها كافية لتحسين كيفية التعليم لو وقع الاختيار على حصر تعليم اللغات الأجنبية على الممتازين من المتخرجين في الاختصاصات الضرورية والاعتماد على سياسة البعثات أولا ثم التعريب الشامل بعد ذلك بالاعتماد

على هؤلاء المبعوثين من الممتازين تدريسا وتوثيقا . ووضوح مثل هذه المفاضلة هو الذي يجعل الباحث النزيه يميل الى أن اختيار تعميم اللغات الأجنبية كان لهدف سياسي انفصالي لا من أجل نشر المعرفة والتقدم العلمي إذ أن أي باحث بارز يصبح ، إذا أراد ذلك ولضرورة بحثه ، قادرا على استعمال أي لغة أجنبية يريد بمجرد قضاء سنة بين أهل تلك اللغة وتعلمها في معاهدهم ثم مواصلة التقدم في اختصاصه فيها تجاوز المتوفر في الوطن .

لذلك فإن البحث في شروط النهضة العلمية العربية يتطلب أساسين أولهما يتعلق بنظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة ، والثاني يتعلق بتطبيق تلك النظرية أو بوضع الخطة التي يتألف منها ما يمكن أن نسميه نظاما تعليميا عربيا قابلا للمقارنة مع النظم السائدة حاليا في العالم المتقدم الغربي والشرقي ، مقارنة في مجالي انتاج العلم والعلماء مباشرة وانتاج المحددات الشكلية والمحددات المضمونية بصورة غير مباشرة لا في الاحصائيات الوهمية الجوفاء .

II . 1 ـ نظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة .

وبين أن عسر تحديد نظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة مرده الى تعدد وظائف المؤسسة التعليمية وتداخلها . واختلاط هذه الوظائف هو العلة الأساسية في تضخم كلفة نظم التعليم وقلة جدواها في جميع البلاد فضلا عما ينجر عن أسباب التخلف التي سبق فحللناها[22] .

ويمكن بصورة موجزة حصر هذه الوظائف في العناصر التالية : الوظيفة التربوية (تعليم الطفل السيادة على نفسه وسياسة جسمه) والوظيفة المهنية (تعليم الطفل التعامل مع الحرف المادية والحرف الرمزية وانضباط العمل) والوظيفة النظرية (تعليم الطفل الفهم والتفسير ووضع الفرضيات والنظريات والبحث العلمي عامة) وأخيرا الوظيفة المدنية (تكوين المواطن والمساهمة في الحياة الجماعية والحياة السياسية المدنية والعسكرية)

وإذا كانت الوظيفة الأولى متممة لدور الأسرة والثانية لدور المنشأة الاقتصادية والثالثة لدور المدرسة الخالص فان الرابعة تعود الى الدولة بوصفها جهاز التنظيم المركزي . ولا يمكن لمجتمع واع بهذه الوظائف وتمايزها أن يضعها على نفس المستوى وأن يعتبر مؤسسة التعليم مكلفة إذا هو علم كيف يربطها بهذه الخلايا التي تنوب عنها مؤسسة التعليم في استكمال وظائفها الخاصة بها : وإذن فإن التحليل السليم لهذه الوظائف يحدد بالضرورة سياسة توزيع كلفة التعليم على هذه الخلايا الأربع فيصبح التعليم بذلك جزءا من الوظائف الأخرى ويصبح منتجا مباشرة للمحددات الشكلية (وهي خاصة بالمدرسة) والمحددات المضمونية (وهي خاصة بالمنشأة الاقتصادية) ثم المحددات العضوية والنفسية (وهي خاصة بالأسرة : انتاج البشر أنفسهم) وأخيرا المحددات الاجتماعية النفسية (وهي خاصة بالدولة) : فإذا أسهمت الأسر والمنشآت ومعاهد البحث والدولة في تمويل هذه الوظائف فيصبح التعليم من المسائل غير العويصة اقتصاديا فتفرغنا لطرح الأشكال من جانبه النظري والعلمي واستطعنا أن نبرز طبيعة الوظائف الخاصة بالتعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة وهي الوظيفة الوحيدة التي تبدو بالمقارنة مع الوظائف الأخرى أكثر الوظائف جدوى وفاعلية وأقلها كلفة .

ذلك أن التعليم ، مع أدائه لهذه الوظائف الاجتماعية الأخرى اعداد للبشر تربية ومهنة ومدنية ، يبقى في جوهره مؤسسة انتاج المحددات الشكلية للمعرفة ، أعني أنه بالكتابة والتوثيق والتعليم والتنظير يشكل خبرات المجتمع الآلية والحرف الممارسة لها وخبراته الرمزية والحرف الممارسة لها : وبذلك يكون نظام التعليم عامة والجامعي خاصة الجهاز الذي يرصد به المجتمع محيصه وذاته ليعلمها ويسيطر عليها ويضع الطرائق المساعدة على تغييرهما في الاتجاه الذي تتواضع عليه الارادة الجماعية : نظام التعليم عامة والتعليمالجامعي خاصة نظام استعلامات على المحيط والذات وعلى الآخرين للتعامل معها على علم لا بحكم الصدفة والاتفاق .

ان نظام التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة هو الذي ينقل الخبرات بصنفيها من وجودها النفسي والعام الى وجودها الرمزي المتعين ماديا في المحددات الشكلية فيجعل الخبرة مادة للتداول وبذلك يسهم جميع المواطنين في عملية الترميز الجماعي التي هي عين حياة المجتمعات والتي قلنا إن عدم التعريب قاتل لها وقاطع مع المخزون الرمزي للأمة ورابطا للأجيال بالمخزون الرمزي لغير الأمة .

لذلك فإن ارتباط نظام التعليم بالممارسات الرمزية في المجتمع أي باللغة القومية خاصة وبالممارسات الآلية فيه أي بالتقنية والاقتصاد القومي خاصة وارتباطه بالممارسات التربوية العضوية النفسية (الأسرة) وبالممارسات المدنية الاجتماعية النفسية (الدولة) هي التي تمد هذا النظام بحركيته الذاتية : فتعامله مع المجتمع بما هو مجموعة رمزية وبما هو مجموعة مادية وبما هو مجموعة حيوية وبما هو مجموعة سياسية هو عين حياته وبدونها لا يكون نظام التعليم الا ما ذكرنا من العناصر السالبة في الفصل الأول من هذا البحث .

طبيعة التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة باتت واضحة : فهو المرصد المستمر لخبرات المجتمع الآلية والرمزية ولمجراه العضوي النفسي ولمجراه الاجتماعي النفسي وصياغة ذلك بتعيينه في الكتابة والتوثيق والتعليم والتنظير أو في ما أطلقنا عليه اصطلاحا بالمحددات الشكلية للمعرفة وللوجود الإجتماعيين .

فكيف يمكننا انطلاقا من هذا المفهوم للتعليم عامة وللتعليم الجامعي خاصة تحديد النظام التعليمي المحقق للأهداف غير المقصودة لذاتها وللأهداف المقصودة لذاتها في كل نظام تعليم له قيامه الذاتي المتخلص من السوالب التي حددناها :

II . 2 . الاصلاحات الواجب ادخالها على النظام التعليمي العربي

والواقع أن المجتمع ككل وبصرف النظر عن التعليم بما هو مؤسسة مخصوصة يمثل نظاما من التبادل المعلوماتي اما بصورة عامة بمجرد تواجد البشر وتمايز خبراتهم وتجاربهم وتصوراتهم أو بصورة مخصوصة ضمن خلايا التواجد المكثف للبشر حول عمل موحد أو وظيفة مشتركة ، وهذا النوع الأول من التبادل المعلوماتي يضاف إليه الإعلام والممارسات الفكرية والثقافية العامة . لكن حديثنا سيتعلق بنظام التعليم في معناه الخاص أي بما هو وظيفة اجتماعية منفصلة وظيفتها انتاج المعرفة وتبادلها واستهلاكها المعرفة عامة نظرية وتطبيقية طبيعية واجتماعية . وعلى منوال التبادل المعلوماتي المنبث في المجتمع ككل ينقسم التعليم بما هو مؤسسة مخصوصة الى تعليم عام وتعليم جامعي والأول يقتصر دوره على اطلاع الأجيال على الخبرة السابقة وتعويدهم على العمل اليدوي والفكري في حين يتعلق دور الثاني على انتاج الخبرة الجديدة نظريا وتطبيقيا وانتخاب المبدعين من المنظرين للنظر والتطبيق معا . ولنقل تيسيرا للتمييز إن التعليم العام وظيفته استيعاب التراث خاصة بجميع أبعاده الإنسانية والعلمية والتعليم الجامعي وظيفته تنمية هذا التراث وانتاج التراث الجديد وهو معنى البحث العلمي في مدلوله العميق أعني انتاج المحددات الشكلية بصياغة المحددات المضمونية .

وإذن فمقترحاتنا ستقتصر على التعليم في معناه المخصوص عامه وجامعيه وذلك من وجوه أربعة : وجه المضمون المعلم وطرائق التعليم والتقدير الزماني لمراحل التعليم وأخيرا التحييز المكاني لتعاطي التعلم .

أ ـ البرامج أو المناهج : أدى اختلاط وظائف التعليم الى جعل مؤسسة التعليم مجتمعا في المجتمع بديلا عنه ونائبا على جميع خلاياه الأخرى في أداء وظائفها مما أثقل كاهل البرامج وغلب عليها طابع الحشو . لذلك فإن برامج التعليم ستكون ، بفضل إعادة الوظائف غير المخصوصة بالتعليم الى أصحابها ، خفيفة جدا لا تثقل كاهل المتعلم ولا تحط من مستوى المعلم : فالمطلوب هو تسويد المتعلم على شروط الحيازة على الخبرات الرمزية والخبرات الآلية واعداده لاحتراف واحدة من هذه او من تلك مع توفير شرطي هذه الشروط أعني التربية العضوية النفسية (السيادة على الجسم والشخصية) والتربية الاجتماعية النفسية (التكيف مع المحيط الإجتماعي والاندماج فيه) . وإذا كان الأولان يقعان بمواد تتعلم فالثانيان لا يتطلبان الا الممارسات المعيشة في المحيط المدرسي والاجتماعي . لذلك فإن جميع المواد المعلمة والمتعلقة بالتربية العضوية النفسية والإجتماعية تزول من برامج التعليم فلا يبقى الا ممارستها والتعود عليها في الحياة الجماعية داخل المدرسة وخارجها كما سنبين عند الحديث عن التنجيم الزماني للتعليم .

أما المواد المتعلقة بالخبرة الرمزية والخبرة الآلية فهي التي تعود إلى تعليم اللغة والآداب القومية ثم التقنية والصناعات الضرورية في المجتمع بالممارسة التطبيقية في المراحل الأولى ثم تدريجيا بادخال نظرياتها في المراحل الموالية : ومعنى

ذلك مثلا أن تعليم اللغة لا يكون بحفظ النحو والصرف بل بالكلام السليم والكتابة السليمة وحفظ النصوص النموذجية من جميع الأجناس الأدبية ؛ ولا يحتاج الى النحو والصرف الا في المراحل الموالية للتعليم الأساسي كما سنرى كما أن تعليم التقنية لا يكون بحفظ العلوم ، بل بالممارسة للمواد والتعرف على خصائصها من خلال استكشاف المحيط الطبيعي الجامد والحي وادراك قوانينه العامة وبعدها يأتي ادخال النظر بالتدريج الى أن يصبح هو المجال الأساسي في التعليم الجامعي .

ب ـ **الطرائق التعليمية** : ما دامت المدرسة سيقتصر دورها على التعليم المتعلق بالخبرة الرمزية والخبرة الآلية فان طرائق التعليم ستكون صنفين : الخاص بهذه الخبرات ثم الخاص بالتربية العضوية النفسية والتربية الاجتماعية النفسية : ذلك أن طرائق التربيتين التاليتين لا تحدث في وسط اصطناعي ، بل هي قواعد سير الميادين التي تجري فيها التربيتان ، أعني قواعد التعامل مع الجسم والشخصية في التربية البدنية والتربية النفسية أعني الرياضة البدنية والرياضة الروحية أو تعاطي الفنون الجميلة وليكن ذلك في النوادي والجمعيات الرياضية والثقافية التابعة الى المدرسة في المرحلة الأولى والعامة خارج المدرسة في المراحل الموالية .

أما طرائق التعليم الرمزي والتعليم الآلي فإن أفضل حل لها هو تقريبها قدر المستطاع من طرائق التربيتين السابقتين أي بجعلها غير اصطناعية : أعني بجعل المدرسة وسطا اجتماعيا يحيا فيه التلميذ وكان المدرسة نواد وجمعيات أو حرفا آلية ورمزية بحيث يمارس التلميذ العمل اليدوي وكأنه في معمل والعمل الرمزي وكأنه في ناد فكري فيعيش اللغة والآداب والرياضيات والمنطق ممارسة قبل التنظير : فإذا أحصينا الحرف الآلية والحرف الرمزية الضرورية في التعليم جعلنا من المدرسة وسطا معيشيا من الممارسات الآلية والرمزية المعدة للمحترفين لهذه الحرف ممارسة ونظرية وبذلك يفقد التعليم طابعه الهامشي في الحياة الاجتماعية فيصبح في تواصل مستمر مع المحددات المضمونية والمحددات الشكلية لكل حياة جماعية .

ج ـ **التنجيم الزماني** : ينقسم التعليم حاليا الى ثلاث مراحل طويلة وبدون جدوى تذكر لأنها غير محددة الأهداف ومتصلة اتصالا معقا لكل منها بدون لواحقها : فلو توفقنا الى الوصل الوظيفي بينها مع جعل كل منها مرحلة قابلة للاستقلال عن الموالية لها رغم كونها معدة اليها حققنا ثورة في أداء التعليم لوظائفه المخصوصة أعني انتاج والعلماء والعلم والتقنية والتقنيين ووظائفه العامة أعني انتاج الإنسان والمواطن .

ويبن أن التحليل المتعمق يبرز فساد التقسم الثلاثي : ذلك أن التعليم في الواقع لا يمكن تنجيمه بصورة نظرية مطابقة لطبيعة وظائفه الا حسب المراحل الأربعة المرتبطة بوظائفه الأربعة المذكورة . فمرحلة التعليم العام تتألف من فترتين أولاهما وهي التعليم الأساسي يغلب عليها التربيتان وثانيهما وهي التعليم الاعدادي ويغلب عليها التعليمان . أما مرحلة التعليم الجامعي فهي كذلك تتألف من فترتين أولاهما وهي التعليم الجامعي المهني فيغلب عليه الاعداد الى الاسهام المباشر في المحددات المضمونية والثانية وهي التعليم الجامعي النظري أو البحث العلمي المختص ويغلب عليها الإعداد للإسهام في المحددات الشكلية .

ويمكن أن نقترح التدخيم الزماني التالي ؛ أخذا بعين الاعتبار للتخفيف الذي ذكرناه سابقا ، بحيث يكون مقدار الساعات الأسبوعية لا يتجاوز عشرين ساعة في جميع المراحل ضمن سنة تعليمية مؤلفة من أربع حصص كل حصة مؤلفة من شهرين ونصف مع عطلة تتوسطها وتكون بالتناوب لنصف المتعلمين بحيث لا تتوقف المدارس كما يكون عدد الحصص خمسا في الأسبوع مناصفة خمسا لنصف المتعلمين صباحا وخمسا لنصف التلاميذ زوالا فتكون المدرسة بذلك ذات قابلية مضاعفة : ويتوقف التعليم أسبوعيا يومي الخميس والجمعة . وهذا هو التنجيم المقترح :

I . التعليم العـام :

1 ـ **الأساسي** : ويتألف من 6 سنوات ، كل سنة في أربع حصص بشهرين ونصف وكل أسبوع 20 ساعة عشر منها بالتناصف للخبرة الآلية والخبرة الرمزية وعشر بالتناصف للتربية العضوية النفسية والإجتماعية النفسية ، أعني التربية البدنية والفنون والحياة المدنية والإجتماعية المصاحبة لها[23] .

2 ـ **الاعدادي** : ويتألف من خمس سنوات بنفس التقسيم مع الاقتصار على الخبرة الآلية والخبرة الرمزية في المدرسة عشر ساعات لكل منها وجعل التربية العضوية النفسية والتربية الاجتماعية النفسية تجري في النوادي والجمعيات العامة المستقلة عن المدرسة ، والتابعة لغير وزارة التعليم وليس فيها اختبارات أو امتحانات ، بل هي اختيارية وجزاؤها هو ما يوجد في الرياضات عامة[24] .

II . 2 . التعليم الجامعي :

1 ـ **التعليم الجامعي الأساسي** : ويتألف من أربع سنوات بنفس التقسيم ونفس الحصة الزمانية وكلها مخصصة اما للحرف الآلية أوللحرف الرمزية بحسب التوجيه الذي تم في مرحلة التعليم الاعدادي[25]

2 ـ **التعليم الجامعي الإعدادي** : ويتألف من ثلاث سنوات بنفس التقسم وبالاختصار على عشر ساعات أسبوعية ، إذ أنه لا ينتسب الى هذا التعليم إلا نخبة المحترفين للحرف الآلية والحرف الرمزية من المبدعين في التنظير لهذه الميادين ويكون ذلك دائما ضمن احترافهم المتصل بدون تفرغ إطلاقا : والهدف هو التنظير للاختصاص خلال تلك الحصص والتخرج بعد ثلاث سنوات بعد تأليف بحث في الاختصاص يعد شهادة باحث وهي المؤهل للبحث الممارس وللتدريس الجامعي[26] .

د ـ **التوزيع المكاني** : إذا ما استثنينا المرحلة الأولى من التعليم العام والمرحلة الأخيرة من التعليم الجامعي فإن المدرسة في المرحلتين الوسيطتين يقتصر دورها على التعليم المندمج في الحياة الجماعية بأبعادها الأربعة التي ذكرنا ، أعني التربيتين والتعليمين . أما المدرسة في المرحلة الأولى والأخيرة فهي : وسط معيشي للتربية خاصة في الأولى وللبحث خاصة في الأخيرة . وما عدا ذلك تقتصر فيه المدرسة على مجرد ادارة ادماج المتعلمين والمعلمين في الحياة الجماعية بابعادها المذكورة : التعليم الأساسي العام والتعليم الاعدادي الجامعي فقط لها وجود مستقل ادرايا ومضمونيا : المدرسة الأساسية ومعاهد البحث . وما عدا ذلك توابع للوظائف الأربعة المذكورة للتربية العضوية النفسية والاجتماعية النفسية في النوادي والجمعيات وللتعليم الآلي والتعليم الرمزي في المعامل والمعاهد والادارات والممارسات الاجتماعية عامة .

● **الخاتمة** :

وهكذا فلقد حاولنا وصف النظام الجامعي العربي بتحديد خصائصه السالبة وخصائصه الموجبة وسعينا قدر المستطاع الى وضع نظرية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة واستمددنا منها المقترحات الواجبة لإصلاح الواقع التعليمي غير مقتصرين في هذين العنصرين الأخيرين على التعليم العربي . ولم نشأ أن نتحدث عن وصف الوضع الراهن وتحديد الأهداف الظرفية[27] أو نحاول دراسة نجاعة هذا النظام بالمعنى الإحصائي الوضعي[28] ولا حتى الوصف المؤسسي والتاريخي[29] أو الحديث في عموميات التعليم الجامعي وكيف يكون[30] ، بل حاولنا تحديد

خصوصيات النظام الجامعي عامة من خلال تحديد طبيعة التعليم في علائقه بمحددات المجتمع العضوية النفسية (انتاج البشر أنفسهم) والاجتماعية النفسية (انتاج المؤسسات الاجتماعية) والمحددات المضمونية (انتاج الخبرة الآلية والرمزية وحرفها) والمحددات الشكلية (انتاج الكتابة والتوثيق والتعليم والتنظير) مقترحين بذلك نظرية في التعليم والعلم مصدرها الأساسي مقدمة ابن خلدون[31] والتحليل العلمي لآلية التواجد الاجتماعي وعلاقة التعليم به[32] ، وهي نظرية لا تستجيب للظرفي في نظام التعليم العربي فقط بل هي محاولة لحل مشكلة التعليم الاقتصادية والنظرية في جميع المجتمعات الإنسانية .

وإذا كانت منهجية هذه الدراسة لم تستند الى المساحيق التجميلية الجامعية واتخذت أسلوب الحماس فلا يعني ذلك أنها مجانبة للدراسة العلمية : بل هي دراسة تأسيسية بعدها يصبح للبحث العلمي الوصفي لنظام الجامعة العربي المعدوم معنى ومدلول .

● المراجع والهوامش :

(1) الفصول الأخيرة من الباب الخامس والفصول الأولى من الباب السادس تحدد موضوعي التعليم اللذين سنطلق عليهما المحددات المضمونية : أعني خبرات الصناعات الآلية وحرفها ثم خبرات الصناعات الرمزية وحرفها كالكتابة والخط الخ . . .

(2) وهوما يجعل التعليم منتجا لما يستهلك (المحددات الشكلية) ومسهما في انتاج المحددات المضمونية بعودته عليها واثرائها ببحثه النظري فيها وما ينجر عنه من تنسيق وتنظيم لها : وبذلك يصبح التعليم المحرك الأساسي للانتاج الاقتصادي والرمزي في المجتمع .

(3) كثيرا ما يشير الباحثون الى نظريات ابن خلدون التربوية وهي موضوع الفصول المتوسطة بين تصنيف العلوم والحديث عن الفنون الأدبية في الباب السادس ولا يذكرون شيئا عن نظرية التعليم بما هو منتج المحددات الشكلية والمضونية وناتجها : وهذه النظرية عالجناها في كتابنا الابستمولوجيا البديل محاولة في فقه العلم ومراسه ، الدار التونسية للنشر 1985 .

(4) كيف لا نعجب من عدم حصول التحول الكيفي في جهاز انتاج المعرفة العربي بعد قرنين من النهضة ـ خاصة وأن شعوب آسيا الذين نهضوا قد شرعوا في نهضهم بعدنا ولكنها كانت ناجحة عندهم على الأقل على المستوى العلمي .

(5) وبدون هذا لا نخرج من تركيز مؤسسات وظيفتها توطيد التخلف والمساهمة في تنميته وذلك بانتاج انصاف متعلمين يعزفون عن العمل اليدوي الغفل ويعجزون عن العمل اليدوي المنظر ولا يبلغون للعمل النظري فيبقون عالة ويصبحون من عوامل الافساد فضلا على انعدام الانتاج العلمي .

(6) وأعني خاصة على المستوى المدني النظامين الفرنسي والسكسوني في البلاد العربية التي استعمرتها فرنسا وانقلترا وعلى المستوى العسكري النظامين الأمريكي والروسي مع ما يتركب عن ذلك من تردي التكوين وانعدام احداث المكتبة التي هي الشرط الأساسي لكل نهضة علمية سلمية .

(7) النظام العربي القديم في بعده الديني يواصل النظم الشرقية القديمة وفي بعده الفلسفي يواصل النظام اليوناني ولم يتحقق التوحيد الفعلي لهذين البعدين مؤسسيا وان كان الغزالي قد أسهم في تحقيق التداخل بين برامج التعليمين ، راجع في ذلك مقالنا حول منزلة فكر الغزالي في الفكر الإنساني ، ندوة الفكر الاسلامي بالقيروان 1985 .

(8) وأحسن الأمثلة على ذلك حضور الفقه الإسلامي في النظم القانونية العربية .

(9) وأحسن الأمثلة عن ذلك ، في مجال الانسانيات الجزائر الأدبية والفنية التي تسعى الى احداثها دويلات الطوائف في الحاضر واسقاطها على الماضي اما بالعودة الى ما تقدم على الثورة العربية أو بتمزيق التراث الواحد في العهد العربي السابق .

(10) ذلك أن نسبة النظر العربي الى النظر الغربي تجعل معيار تقويمه لذاته لا معيار التقويم الطبيعي أعني نسبة المحدد الشكلي الى المحدد المضموني ، بل ، معيار مرضي هو مقارنة ذاته القاصرة مع ذات غيره التي تتحول الى معيار ، وذلك هو عين السلب ، إذا اعتبار الآخر معيارا نفي لشرعية الذات واغتراب مطلق في الآخر .

(11) وواضح أن الكوادر الفنية والنظرية في الوطن العربي هي في حدمة المستعمر سواء مباشرة اذ تهاجر أو بصورة غير مباشرة اذ يستعملها في أرض الوطن بكلفة أدنى : إذ كيف يمكن لنظام تعليمي أن ينمو في اقتصاد هزيل لا يوفر ظروف العمل ولا يستوعب الكوادر المتخرجة منه ولا يحدث سوقا كافية لاستيعاب منتوجه أبحاثا وطرائق

(12) فعندما يؤول التاريخ بالتوكيد على أهمية مراحله الغربية وأدوار الغرب فيه فإن ذلك يولد وعيا بالذات وبتميزها تربى عليه الأجيال فتصبح فعالة وقادرة على الابداع العلمي والتقني ، ذلك أن موقف الذات من ذاتها عامل أساسي في تحديد مرضيتها أو طابعها السوي : وعندما تصبح الذات الجماعية موضوعا للدراسة النسقية كما هو ناتج فلسفتي هيجل وماركس ، فان ثقافة الفرد الواحد تصبح حائزة على مجهود المجموعة ذلك أن الذي يفكر نفسيا هو الفرد لكن الذي يمد الفكر بفاعليته وجدواه هو الوسائل الرمزية والآلية التي وفرها له ماضيه الذي استوعب الماضي الانساني وحوله الى ماض ذاتي أهلي بفضل اللغة القومية وتأويل التاريخ الإنساني من منظر فوقي .

(13) ليس لي علم كاف بما يجرى في غير اختصاصي ؛ ولكني استبعد أن يكون الأمر على خلاف ما يجرى فيه : ولم أر على حد علمي تدريسا يكاد يصل الى حد المهازل مثل تدريس الفكر العربي فلسفة وعلما وتقنية وتقاليد .

(14) وهذا ما حدث بالفعل على الأقل بالنسبة الينا في تونس : فالمدلول المعياري للثقافة الفرنسية والموقف المخزي من الثقافة العربية حول التعليم الى فراغ عربي وملاء فرنسي جعل الثقافة الفرنسية تنقلب الى المرجع الأساسي في تفكيرنا والثقافة العربية لا تبلغ الى مستوى ثقافة الملح والنوادر المشتتة ، فضلا مما تعاني منه المكتبة العربية من بعثرة وتشتيت بحسب المراكز الاقليمية اللامتصلة وذلك خدمة لمتجهيات الدويلات الطائفية .

(15) لا يمكن للمرء أن يصبح عداء باستعارة سوق العدائين فيعدو بها ظنا أنه يعدو فعلا وعندئذ يصبح عدوه المزعوم تنمية لسوق المعير وقتلا لسوقه : ذلك فعلا ما يحدث لمن يريد استيراد التقدم عوض انتاجه وعوض أن ننمي واقعنا بجعله مادة فكرنا نعوض الواقع بواقع يتماشى مع فكر الآخر فلا ينجح الفكر ويموت الواقع : من يستقر عزمه على الاستيرادالدائم وهو ما لا نستطيع غيره بحكم التجزئة ، لا يمكنه ان يصبح في يوم ما منتجا خاصة وأن المصدر سيسعى جهده ليبقيه في حاجة الى الاستيراد ، وهو علة الاستتباع ومقابلها حماية المستتبع للنظام الحاكم : ومعنى ذلك أن النظام الحاكم يبيع الوطن لحماية النظام .

(16) وهو ما حدث فعلا في الجامعات العربية : تكفي نظرة على مكتباتها رصيدا وعلى متوجاتها تأليفا لكي تعلم أن المكتبة العربية قتلتبعدم تداول الماضي منها وبعدم اضافة الجديد اليها إذ ما يضاف يُضاف الى المكتبة الفرنسية أو الانجليزية .

(17) لو اقتصرنا على المنهجية الاحصائية لتبين لنا أن عدد المثقفين قد ازداد وعدد المتوجات كذلك : لكن المثقفين ليسوا منتجين بل هم تضخيم لسوق الفكر الغربي لا غير والمتوجات ليست منتجة بل هي ربط للسوق بالتجهيزات الغربية فإذا ارتبط ذلك بالسوق العالمية وقوانين أطراف التبادل أدى ذلك الى التدهور المستمر للفكر والاقتصاد في الوطن العربي .

(18) لم أر في حياتي أسخف من الربط بين التقدم العلمي والتقني وتعميم تدريس اللغات الأجنبية وقتل اللغة القومية . فمن البين ان نسبة البالغ من المتعلمين الى البحث والتعليم الجامعي لا تفوق 5 في المائة في أفضل الحالات فلم نعمم اللغة على جميع المتعلمين ؟ ثم حتى بالنسبة الى هؤلاء الخمسة في المائة من منهم يصل الى مرحلة تتجاوز ما هو مشاع من المعرفة ويمكن ان يكون بأي لغة اتفق ؟ وإذن فالحاجة الى اللغات الأجنبية لا يكون الا في ما ليس مشاعا من المعرفة ، أي في ما برز من البحوث بتلك اللغات وكان لأصحابها السبق غير المشاع بعد في تلك الميادين . وما أن تصبح مشاعة عوضتها أي لغة نريد : فلم لا يكون ذلك من حظ العربية ، وهذا الموقف هو الذي يولد الحاجة الى المكتبة العربية ويحدث السوق للتأليف والترجمة فينمو الزاد العلمي المشاع .

(19) ولو فرضنا أن البلاد العربية المجزأة قدمن عليها الرب بأفضلانظمة الحكم وبأحكم وما حكم القادة ـ وهو فرض أبعد ما يكون عن الممكن فضلا عن قربه من الواقع ـ لاستحال عليها تحقيق الشروط الموضوعية للنهضة العلمية وبالتالي لما تسميه الخروج من التخلف : فميزانية الدولة التونسية مثلا لا تكفي مهما أجدنا التسيير لبرنامج بحث متوسط في مجال محدود من المجالات العلمية والمعلوم لدى كل من له دراية بالمعرفة العلمية أن الأسمى هو الذي يقود الأدنى لا العكس فإذا تعذر البحث في المجالات الرائدة توقف البحث وصار ذيلا للدول المستعمرة لا غير ونفس الحقيقة صادقة في مجال التنمية الاقتصادية .

(20) والمعلوم أن نظام التعليم الموروث عن الاستعمار الفرنسي ـ وهو الذي لنا به دراية أكثر من النظام الموروث عن الاستعمار السكسوني ـ تولد عن النظام الكنسي الكاتولوكي وما أدخله عليه التطعيم العسكري عند نابليون وما أدخلته عليه الراديكالية والوضعية الفرنسية : وهذا النظام الذي حاولنا استيراده بلغته ومضمونه ونظامه وأدواته فكان أن فشلنا في فرنسة أجيالنا وفي تحقيق شروط النهضة العلمية .

(21) من المظاهر الزائفة للتقدم هي التشبه بالمستعمر في المظهر وهي ظاهرة كان ابن خلدون أول من عالجها وحاول تحديد مدلولها وعلتها .

(22) ومعنى ذلك أن محاولتنا التنظيرية لن تكون مقصورة على تحليل الظرف العربي بل هي تسعى الى فهم الظاهرة بصورة كلية ، أعني اننا نسعى الى دراسة ظاهرة التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة في ذاتها بصرف النظر عن الظرف .

(23) ويعتبر التعليم الأساسي العام حلقة من التعليم تكتفي بذاتها وإن كانت تعد الى المرحلة الموالية . ومن ثم فإنه لا ينتقل منها الا من استطاع التمكن من الشروط النظرية للمارسات الآلية والرمزية التي ينجح فيها الجميع لكونها في متناولهم إذا لم يكونوا من المعاقين بدنيا وفكريا : شريطة أن يكون الاختيار أداة فرز موسع لا يمنع من الارتقاء الى الاعدادي الا من اتضح عجزه الكامل في البعد النظري وهو ما سيكون نادرا نظرا لاقتصار هذا الجانب على أمور بسيطة ولنجاعة الطرائق المختارة .

(24) أعني الجزاء الرياضي المعنوي المتمثل في الرموز في المنافسات كالنقائش والكؤوس وشهادات التشجيع والتقدير .

(25) وهو التعليم المشروط في تكوين الاطارات العليا في الحياة الاقتصادية والادارية مثل كونُ التعليم الاعدادي في التعليم العام هو الشرط الأدنى للكوادر الوسطى في المجالين .

(26) التدريس الجامعي ينتخب معلميه من بين الباحثين البارزين ومعنى ذلك أن المعلمين الجامعيين ليسوا قارين بل هم متداولون : إنهم الباحثون الممتازون الذين تتعاقد معهم معاهد البحث على تكوين الباحثين .

(27) كما هو الشأن في نشرية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعنوان استراتيجية تطوير التربية العربية ، الطبعة الأولى بيروت 1979 .

(28) مثل دراسة

L'Enseignement Supérieur et son efficacité , France , Etats - Unis , URSS , Pologne , de Pascale GRUSSON et Janina Markiewiez - Lagneau , La Documentation Française Paris 1983 '

American Universities and Colleges ,

(29) مثل دراسة :

edition , American coucil ou education , Washington 1964 .

(30) مثل العدد العشرين من مجلة الفكر العربي آدارنيسان 1985 بعنوان المؤسسة الجامعية فكرة ودور .

(31) راجع في ذلك كتابنا الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر ، الدار العربية للكتاب تونس 1983 .

(32) نفس المصدر وكذلك كتاب الابستمولوجيا البديل محاولة في فقه العلم ومراسه الدار التونسية للنشر تونس 1985 .



ببلوغـرافيـا الصحافة الساخـرة

1985 ـ 1906

أحمد جليد

أقدم هذه القائمة البيبليوغرافية للصحافة التونسية الساخرة هزلية وانتقادية كانت .. وذلك حتى يتمكن الباحث من أداة عمل فعالة لميدان لم يحظ الحظوة اللائقة به . إذ نجد هذا الموضوع لم يطرق الا في مناسبتين اثنتين ومن الجانب الهزلي فقط : ضمن رسالة دكتوراه مرحلة ثالثة بجامعة السربون كان قدمها الأستاذ « عزيز ڤليوز » سنة 1978 ومن خلال محاضرة للأستاذ حمادي الساحلي نشر دار ابن شرف سنة 1977 .

أما المعلومات البيبليوغرافية التي حرصت على اثباتها بالنسبة الى كل هذه القائمة حتى يستفيد المطلع أكثر من هذا العمل .

وهي : العنوان ، صاحب الامتياز ، المدير أو الهيئة المشرفة ، تاريخ صدور العدد الأول ، مكان النشر ، المطبعة وتاريخ الانقطاع أو حصر الأعداد الصادرة .

وقد اعتمدت في جمع هذه المعلومات على جملة مراجع أهمها . فهرس الدوريات لدار الكتب الوطنية

فهرس مركز التوثيق القومي .

أضواء على الصحافة التونسية لعمر بن قفصية .

أطروحة الأستاذ عزيز ڤليوز ، ومحاضرة الأستاذ حمادي الساحلي اللذين سبق ذكرهما .

آملا ان ينال هذا العمل رضا المطلع

والله ولي التوفيق .

1) أبو قشه : مجلة كشكولية ، هزلية حسَّاسة الشعور « تجسم اللب في قالب القشور » أسبوعية / صاحب الامتياز الهاشمي التونسي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1908 ، ـ تونس ، طرابلس : المطبعة التونسية ، المطبعة الشرقية ، 1908 .

ـ صدرت خلال سنتي 1908 ـ 1909

تونس : 10 أعداد .

طرابلس : 19 عددا .

2) أبو نواس : جريدة أسبوعية فكاهية هزلية / المدير سليمان الجادوي . ع 1 ، سنة 1 ، 1909 ، ـ تونس : نهج ابن زياد ، 1909 ـ

ـ صدرت سنتي 1909 ـ 1910 في 15 عددا .

3) الاصلاح : صحيفة وطنية انتقادية أسبوعية / المدير الشاذلي بودربالة الحاج أحمد . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1920 . ـ تونس : المطبعة العمومية ، 1920 .
ـ صدر منها ـ 2 ـ عددان فقط .

4) أضواء المدينة : صحيفة الأدب والفن والفكاهة نصف شهرية / المدير المسؤول الناصر بوعزيز . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1970 .ـ تونس : مطبعة ارتيبو ، 1970 .
ـ صدر منها 15 عددا خلال سنتي 1970 ـ 1971 .

5) الامتاع : جريدة هزلية / نادي الصحافة بدار الشباب منزل تميم . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1979 . ـ منزل تميم : الدار ، 1979 .
ـ صدر منها 3 أعداد فقط خلال سنتي 1979 ـ 1980 .

6) الانشراح : جريدة أدبية فكاهية انتقادية نصف شهرية / المدير المسؤول صاحب الامتياز محمد محمود اللوز . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1937 . ـ صفاقس : مطبعة شكلوته ، 1937 .
ـ صدر منها 3 أعداد .

7) الأنيس : جريدة تبرز مفاكهة منتقدة مصارحة أسبوعية / المدير صاحب الامتياز محمد أحمد شبشوب . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1937 .
ـ صفاقس ، تونس : مطبعة موراس ، مطبعة التليلي ، مطبعة دار الهدى ، مطبعة الارادة ، المطبعة التونسية ، 1937 .
ـ صدرت في ثلاث مراحل
1937 ـ 1938 . 1947 ـ 1950 . 1953 ـ 1955 .

8) الباء والتاء : أسبوعية نقدية اخبارية مستقلة / المدير المسؤول الطيب الرزقي . ـ ع 1 ، سنة 1 ـ 1983 . ـ تونس : دار الأحداث ، 1983 .
ـ صدر منها 3 أعداد فقط .

9) بالمكشوف : جريدة سياسية هزلية أسبوعية / صاحب الامتياز الطاهر الزقناني ، ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1951 . ـ تونس : مطبعة التليلي ،1951 .
ـ صدر منها 14 عددا .

10) البهلول : جريدة أسبوعية جامعة / صاحب الامتياز عمر فضة .
ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1951 . ـ تونس : مطبعة الشريف ، 1951 .
ـ صدر منها 9 أعداد تقريبا .

11) بورو بودور : جريدة أسبوعية فكاهية انتقادية / محمد الهاشمي التونسي . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1920 . ـ تونس : (شارع فار بباردو) ، 1920 .
ـ صدرت خلال سنتي 1920 ـ 1921 في 6 أعداد تقريبا .

الامتياز عزالدين بلحاج . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1936 ، ـ تونس : مطبعة النهضة ، المطبعة الفنية ، مطبعة العرب ، 1936 .
ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1936 ، ـ تونس : مطبعة النهضة ، المطبعة الفنية ، مطبعة العرب ، 1936 .
ـ صدر منها 8 أعداد . فقط .

13) البيان : جريدة سياسية اقتصادية اجتماعية انتقادية أسبوعية / المدير صاحب الامتياز علي بن أبي الضياف ، ـ ع 1 ، سنة 1 ، 1946 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، مطبعة الشريف ، 1946 .
ـ صدرت خلال السنوات 1946 ـ 1951 فيها بعض الانقطاع ومجموع الأعداد 106 .

14) ترويح النفوس : جريدة أدبية انتقادية تصويرية / المدير عزوز الخياري ـ ع 1 ،سنة 1 ، 1906 . ـ تونس ، 1906 .

15) التصاوير التونسية : صحيفة اسبوعية تصويرية ، سياسية أدبية انتقادية اشتراكية / المدير وصاحب الامتياز المسؤول عبد العزيز المجدوب . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1920 . ـ تونس : المطبعة الحجرية ؛ 1920 .
ـ صدر منها عدد 1 .

16) جحا : جريدة هزلية فكاهية أدبية أسبوعية / المدير وصاحب الامتياز ابن عيسى بن الشيخ أحمد . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1909 . ـ تونس : المطبعة التونسية ، مطبعة النهضة ، مطبعة التقدم ، 1909 .
ـ صدرت عن مراحل على امتداد 1909 ـ 1950 مع بعض الفراغات
كما صدرت بعناوين مختلفة وهي جحا ، الضحك وجحجوح ومجموع اعداد 644 ـ

ـ جحجوح : انظر العنوان السابق .
ـ جحـا ـ

17) الرقيب جريدة فكاهية انتقادية / المدير وصاحب الامتياز علي المعاوي . ـ ع 1 ، سنة ؛ 1948 . ـ تونس : مطبعة التليلي : 1948 . أسبوعية .
ـ صدر منها 38 عددا خلال سنتي 1948 ـ 1949

18) الزهو : صحيفة فكاهية انتقادية أسبوعية / المدير المؤسس الحاج عثمان الغربي ، ثم ابنه محمد الغربي . ـ ع 1 ، سنة 1 ، 1921 . ـ تونس : المطبعة التونسية ، مطبعة النهضة ، 1921 .
ـ صدرت عن فترات ثلاث .
ـ 1921 ـ 1942 . 1946 ـ 1955 . 1962 .
في جملة 1308 عدد .

19) زهو البال : جريدة فكاهية انتقادية أسبوعية / المدير وصاحب الامتياز العربي التركي ؛ رئيس التحرير مصطفى بن شعبان . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1936 . ـ تونس : المطبعة الفنية ، 1936 .
ـ صدر منها 4 أعداد .

20) الستار : مجلة فنية جامعة شهرية . ثم جريدة فكاهية نقدية جامعة / المدير المسؤول وصاحب الامتياز حمادي الجزيري ، ع 1 ،سنة 1 ؛ 1956 . ـ تونس : مطبعة التليلي ، مطبعة العهد الجديد ، 1956 .
1956 . صدر منها 3 أعداد . 1961/60 صدر منها 27 عددا .

21) السردوك : جريدة أسبوعية فكاهية مصورة / صاحب الجريدة الشاذلي الفهري . ـ ع 1،سنة 1 ؛ 1937 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، المطبعة الفنية ، 1937 .
ـ صدر منها 10 أعداد خلال السنوات 1937 ـ 1939 .

22) السرور : جريدة مفاكهة مازحة مؤانسة / صاحب الامتياز المسؤول علي الدوعاجي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1936 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، مطبعة العرب ، 1936 .
ـ صدر منها 6 أعداد .

23) سعادة الشباب : صحيفة أسبوعية اجتماعية أدبية علمية رياضية صحية فكاهية . . . / صاحب الامتياز علي بن عمر . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1946 . ـ تونس : مطبعة الارادة ، 1946 .
ـ صدر منها 16 عددا خلال سنتي 1946 ـ 1947 .

24) السهم : جريدة سياسية اقتصادية اجتماعية انتقادية / المدير المسؤول الطاهر المهذبي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1937 . ـ ـ تونس : مطبعة النهضة ، 1937 .
ـ صدر منها 2 عددين فقط .

25) الشباب : ضاحكة عابثة مازحة / صاحب الامتياز محمود بيرم . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1936 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، 1936 .
ـ صدر منها 20 عددا خلال سنتي 1936 ـ 1937 .

26) الصاعقة تضحك على الباطل كل أسبوع / صاحب الامتياز الحاج علي بن مصطفى . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1936 . ـ تونس : مطبعة العرب : 1936 .
ـ صدر منها عدد 1 .

ـ الضحك : انظر جريدة ـ جحا ـ

27) العفريت : جريدة أسبوعية وطنية نقدية / المدير المسؤول أحمد بن عبد الله . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1957 . ـ تونس : مطبعة العمل ، 1957 .
ـ صدر منها 27 عددا خلال سنتي 1957 ـ 1958 .

28) الفرززو : جريدة أسبوعية انتقادية جامعة / المدير المسؤول الهادي العبيدي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1955 . ـ تونس : الشركة التونسية لفنون الرسم ، 1955 .
ـ صدر منها 21 عددا خلال سنتي 1955 ـ 1956

29) قزدور : صحيفة اصلاحية انتقادية فكاهية / صاحب الامتياز حمودة العباسي ؛ المدير المسؤول عثمان المحجوب . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1920 .) ـ تونس : المطبعة العمومية ، 1920 .
ـ صدر منها 2 عددين .

30) القنفود : جريدة أسبوعية فكاهية جامعة /صاحب الامتياز الحبيب البرجي . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1962 . ـ ـ تونس : المطبعة العصرية ، 1962 .
ـ صدرت في 46 عددا خلال السنوات 1962 ـ 1964
ـ (السلسلة الجديدة صدر منها 40 عددا خلال السنوات 1978 ـ 1980) .

31) القيروان : جريدة إصلاحية علمية أدبية فكاهية أسبوعية / المدير عمر العجرة . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 17 أوت 1920 . ـ القيروان : (نهج جامع الزيتونة ، بالقيروان ، 1920 .
ـ صدر منها 67 عددا خلال السنوات 1920 ـ 1924 .

32) كراكوز : جريدة هزلية فكاهية أسبوعية / المدير وصاحب الامتياز الحاج الصادق بن الخوجة . ـ ع 1 ؛ سنة 1 ؛ 1910 . ـ تونس : المطبعة التونسية ، 1910 .
ـ صدر منها عدد 1 .

33) الكشكول للسياسة والأدب والفكاهة أسبوعية / صاحب الامتياز حسن علي العيادي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1937 . ـ صفاقس : مطبعة موراس ، 1937 .
ـ صدر منها 4 أعداد.

34) كل شيء بالمكشوف : جريدة أسبوعية سياسية انتقادية / المدير وصاحب الامتياز الهادي السعيدي . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1937 . ـ تونس : مطبعة الاتحاد ، مطبعة العرب ، 1937 .
ـ صدر منها 15 عددا خلال السنوات 1937 ـ 1939 .

35) كل شيء بالمكشوف : جريدة تصدر يوم الأحد تنتقد كل أحد / المدير المسؤول الطيب الرزقي ، رئيس التحرير عبد المجيد بوديدح . ، ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1978 . ـ تونس : الشركة التونسية للصحافة والاعلام وفنون الرسم ، 1978 .
ـ صدر منها 112 عددا خلال السنوات 1978 ـ 1980 .

36) المبشر : جريدة سياسية أدبية انتقادية أسبوعية / المدير صاحب الامتياز أحمد الجزيري ، الحاج علي بن مصطفى . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1922 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، مطبعة العرب ، المطبعة الأهلية ، 1922 .
ـ صدرت في ثلاث مراحل :
1) 24 عدد : 1922 ـ 1924
2) 2 عددين : 1936
3) 6 أعداد : 1950

37) مجلة صلاح المجتمع : مجلة خلقية علمية فكاهية / المدير ورئيس التحرير الحاج محمود المهيري . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1938 . ـ صفاقس : مطبعة الزيتونة ، 1938 .

- صدر منها 2 عددين .

38) المزعج : جريدة فكاهية هزلية / المدير محمد بن عمران . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1906 . ـ تونس ، 1906 .
- صدر منها عدد 1 .

39) المضحك : جريدة هزلية فكاهية أدبية أسبوعية / المدير المسؤول صاحب الامتياز عبد الله زروق وعبد العزيز المحجوب . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1910 . ـ تونس : مطبعة التقدم ، مطبعة النهضة ، 1910 .
- صدرت في مرحلتين
1910 ثم 1921 ـ 1923
مجموع الأعداد 106 .

40) الممثل : جريدة فكاهية انتقادية تصويرية أسبوعية / المدير محمد الشريف بن يخلف . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1922 . ـ تونس : المطبعة الأهلية ، مطبعة العرب ، 1922 .
- صدر منها 44 عددا خلال السنوات 1922 ـ 1924 .

41) المنجنيق : جريدة هزلية انتقادية أسبوعية / المدير محمد بن الحنيفية . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1923 . ـ تونس : (زنقة الحج) ، 1923 .

42) النديم : صحيفة فكاهية اخلاقية انتقادية أسبوعية / المدير وصاحب الامتياز حسين الجزيري . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1921 . ـ تونس : المطبعة الأهلية ، مطبعة الشمال الافريقي ، مطبعة الارادة ، 1921 .
- صدر منها 906 عددا على امتداد السنوات 1921 ـ 1942 .

43) النسناس : جريدة الأدب والفكاهة والفائدة أسبوعية / المدير وصاحب الامتياز محمد المختار سعادة . ـ سنة 1 ؛ 1920 . ـ تونس : المطبعة الأهلية ، المطبعة التونسية ، 1910 . استئنفت سنة 1937 .
- صدر منها 2 عددين .

44) النشّاب : جريدة أسبوعية فكاهية اخبارية سياسية جامعة / المدير وصاحب الامتياز عبد الملك القبرصلي . ع 1، سنة 1 ؛ 1953 .
- صدر منها عدد 1 .

45) النمس : جريدة هزلية فكاهية انتقادية أسبوعية / مدير الجريدة وصاحب الامتياز محمد التونسي . ـ ع 1، سنة 1 ؛ 1920 .
- تونس : المطبعة الأهلية ، المطبعة التونسية ، 1910 . استأنفت سنة 1937 .
- صدر منها في الفترتين 23 عددا

46) الوداد : جريدة هزلية فكاهية انتقادية أدبية أسبوعية / المدير صاحب الامتياز الشاذلي بن محمد البلدي ؛ المحرر علي النجاز . ـ ع 1 سنة 1 ؛ 1920 . ـ تونس : مطبعة النهضة ، المطبعة التونسية ، 1920 .

ـ صدر منها 4 أعداد خلال سنتي 1920 ـ 1921

47) الوطن : جريدة أسبوعية جامعة / المدير وصاحب الامتياز محمد بن فضيلة . ـ ع 1 ، سنة 1 ؛ 1936 . ـ تونس : مطبعة العرب ، المطبعة الفنية ، مطبعة الشريف ، 1936 .
ـ صدرت في فترتين وعلى امتداد سنوات 1936 ـ 1938 . 1948 ـ 1958 .

48) ولد البلاد : صحيفة أسبوعية هزلية تصويرية / المدير البشير الفورتي . ـ ع 1، سنة 1 ، 1910 . ـ تونس : المطبعة العلمية ، 1910 .
ـ صدر منها 9 أعداد .



في البنية الصراعية للخطاب المسرحي

قراءة دلائلية لمسرحية الحلاج لعز الدين المدني

محمود الحاجي

يبدو أن النص المسرحي والعملية الإخراجية يتحركان بشكل عام داخل بنية صراعية تكون فيها الشخصية المسرحية في احترام مع شخصية واحدة أو مجموعة من الشخصيات . وتكون المواجهة جدلية معرفية و / أو حركية ايمائية . فمسرح شكسبير يتفق ـ على هذا الأساس ـ ومسرح تشيكوف أو بريشت مثلا ، في رسم علاقات داخلية تحدد موقع الشخصية المقصودة من الشخصية المضادة .

ونستطيع أن نضرب أمثلة كثيرة متنوعة تحمل البعد الصراعي مباشرة من خلال عناوينها وأسمائها . فأوغسطو بُوَالْ يطلق على مسرحه : « مسرح المُضْطَهَد »[1] ، والمدني يسمي بعض مسرحياته : « ثورة صاحب الحمار » ، « ديوان ثورة الزنج »[2] لما للثورة في حركيتها الداخلية من تغيير للعلاقات بين القوى المتعادية المتصارعة . وكذلك الشأن بالنسبة لـ « مسرح التسييس » الذي يطرحه سعد الله ونوس حيث يبدو النص المسرحي عبارة عن ساحة جدل ومنازعة فكرية ، فنية وسياسية .

وفي هذا الإتجاه ، يعتبر جاك لَصَّال[3] أثناء إخراجه لاحدى مسرحيات مكسيم غوركي « المصطافون » أن المسرحية هي عبارة عن « عجلة حرب »[4] ، في حين شبه أنطوان فيتاز[5] المسرح بـ « الحرب »[6] ونحن نعلم ما تحمله قصص الحرب من هيمنة فاعل على آخر أو عقد الصلح بين الفواعل المتنازعة . ويردّ المدني على هذه التعريفات بكون المسرح هو أكثر من ذلك ، إنه « صراع »[7] .

حرب أو صراع ، فالمسرحية هي مكان خصب للتّضادّ والمواجهة .

كيف يمكن لنا تحديد البنية الصراعية داخل الخطاب المسرحي ؟

إن مفهوم البنية ـ بالمعنى الذي جاء عليه في علم اللسان البنيوي حسب لوي يلمسلاف[8] ـ هو عبارة عن « خطوط علاقاتية وكل متكامل من العلاقات الداخلية المتركبة ضمن نمطية معينة »[9] . وهذا التعريف من شأنه أن يسهل علينا الدخول إلى مفهوم الصراعية ، ولعل مصطلح « العلاقات » هو وحده كاف للتدليل على ذلك . ففي العلاقات تنظيم وبناء ، ومن ثم تستطيع العلاقات أن تولد نظاما نمطيا خاصا بها .

وتحدث العلاقات بين الفواعل في النص اللساني أو بين الممثلين في عملية الإخراج وتحدث كذلك بين الأشياء التي يطمح اليها الفواعل والممثلون في كلا المستويين كما تحدث بين المساحات المختلفة والأزمنة المختلفة حين وعندما تتم عملية السعي للحصول على هذه الأشياء المادية أو المعنوية أو كليهما . فالخطاب المسرحي بهذا التعبير هو هذا الكل المشتمل على علاقات داخلية بين الفواعل والأشياء والمساحات والأزمنة .

وإذا كان غرضنا من هذا البحث هو معالجة البنية الصراعية فإن محور هذه البنية هو الإنسان ـ الشخصية . فالشخص يقع طرحه داخل الخطاب الدرامي (= النص المسرحي المكتوب) لا « طرحا تاريخيا عيانيا »(٢) وإنما طرحا لسانيا . فهو كائن من ورق لذلك سنسميه « فاعلا ـ عاملا » . وأما إذا كان الشأن بالكائن اللساني نفسه داخل الخطاب الإخراجي (= العرض المسرحي) فإننا سنطلق عليه لفظ « ممثل » باعتباره كائنا بشريا يموج بالحركة والانفعال . ونحرص هنا ألا نخلط بين المستويين حتى يشاركنا القارىء انتقالنا من عالم النص اللساني المكتوب إلى عالم النص الممثل المشاهد . وسنركز في هذا البحث على القسم الأول أي الفاعل ـ العامل ، ونرجو أن نتناول القسم الثاني في بحث لاحق . ولعل هذا ما يفسر أن الإنتقال من عالم إلى آخر هو انتقال من كتابة إلى أخرى ، انتقال من الواقع الدرامي المتخيل الى الواقع الإخراجي المتخيّل أيضا دون أن تكون هناك مطابقة بين العالمين ودون أن تكون قطيعة بينهما .

هذه الملاحظات المنهجية تدفعنا إلى طرح السؤال التالي : كيف يمكن لنا تقييم « الحقل المَوْضِعِي »(٥) للفاعل ـ العامل ، أو بعبارة أخرى : متى يجب أن نأخذ بعين الإعتبار وضع الفاعل وموقفه داخل الخطاب المسرحي ؟

للإجابة على هذا السؤال ، نقول بأن وضع الفاعل يتوقف على مدى مشاركته في محاور الكلام والتخاطب التي يُلزِمُ نفسه الإشتراك فيها . ولكي نستطيع ضبط درجة مساهمته في التخاطب فلا بد أن نهتم أيضا إلى مختلف الفواعل التي شاركته الحوار . فنحن عندما أقدمنا على تحديد موقع الفاعل داخل الحقل الخطابي فإن تقديره للقوى المعارضة له حيث يجد نفسه مضطرا لمحاولة قيس قواه . وهذا ما يسميه آلان باديو : « منطق المواقع » و « منطق القوى »(٦) .

ومن هذا المنظور فإنه لا يمكن تعريف الفاعل إلا من خلال نظام دلالي تكون أهم ركائزه الأشياء التي يسعى الفاعل للحصول عليها . فإذا اعتبرنا هنا شخصية الحلاج المقسمة الى ثلاثة فواعل : حلاّج الأسرار (فاعل 1) ، حلاّج الحرية (فاعل 2) ، حلاّج الشعب (فاعل 3) ، فإننا نستطيع أن نعتبر أن التحليل الدلائلي الذي نروم القيام به إنما هو يدور في لحظاته الأولى حول نظم الدلالة اللسانية وتتمثل في علاقة الفاعل بمبتغاه . ويمكن رسمها على الشكل التالي :

الفاعل ـ العامل ⟵⟶ الشيء المرغوب فيه

ويدل السهم ذو الحدّين على أن العلاقة بين الفاعل وما يرغب فيه هي علاقة تفاعلية جدلية تنطلق من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نعتبر أن كل حلاج (أيْ كلّ فاعل) يبحث في الحقيقة عن شيء معين . فإذا كان حلاج الأسرار يبحث عن بديل جذري لفهم التصوّف والدّين مثلا ، فإن حلاج الحرية يبحث عن اتحاد الجمهوريات الثلاثة وعن مفهوم جديد للإنسان الثوري وعن نشر مؤلفاته . وأما حلاج الشعب فيبحث عن درهم واحد زيادة على أجرته اليومية ، ولما لم يتمكن من تحقيق مطلبه صار بحثه متجها إلى تكوين نقابة تحمي مصالحه ومصالح رفاقه .

وعملية البحث هذه ـ وإن اختلفت من فاعل لآخر ـ فهي تدفع صاحبها إلى الدّخول في بنية المواجهة ضد فاعل آخر يحتل عادة مكانة متعالية على الفاعل الباحث عن رغبته ومبتغاه . نذكر هنا : أبو القاسم الجنيد (رئيس المتصوفين ببغداد) في مواجهته لحلاج الأسرار ، كما نذكر القُرْمُطِيّ والزّنجي والقائد البَابَكي في مواجهتهم لمشروع الوحدة الذي نادى به حلاّج الحرية ، وأخيرا نذكر أبا الوفاء القَوْمسي (وكيل الصناعة أمين السوق ونقيب التجار) في موقفه المتصلب من الزيادة في أجرة حلاج الشعب اليومية وأجرة رفاقه .

فكل هؤلاء هم فواعل متعالية يمكن تقسيمها إلى قسمين كبيرين :

ـ أ ـ فأما الجُنَيْد والقَوْمِسِي فيمكن اعتبارهما : « فواعل متعالية مُحرِّكة » (وذلك على الأقل في المرحلة الأولى من علاقة حلاج الأسرار وحلاج الشعب بكل واحد منهما على حدّة) . فقد قضى الأول عشرين سنة في حضرة شيخه الجنيد يتزود من دروسه في التصوف ، بينما قضّى الثاني مدّة ثلاثة شهور تقريبا ـ إذا اعتبرنا شهادة ابن بهلول ، قاضي القضاة (ص . 83) ـ وذلك في حلج القطن والصوف تحت اشراف القَوْمسي .

ـ ب ـ وأما القادة الثلاثة فهم فقط « فواعل متعالية محَاسِبَة » لم تحرك حلاج الحرية خلال ترحاله ولكنها حاسبته في نهاية المطاف عندما طلبت منه أن يرحل وألا يزعجها بالحاحه . ولعل هذا ما يفسر ـ من وجهة النظر المتبعة ـ تسمية هذا الفاعل « حلّاج الحرية » . فهو « حُرٌّ » في حركاته وتنقلّاته من جمهورية شعبية إلى أخرى ، وهو أيضا يدعو إلى الحرية في اتحاد القوى الثورية . ومحاسبة القادة له كذلك العقوبة التي فرضها عليه أعضاء المحكمة تجعل موضوع الحرية موضوعا اشكاليا لا مجال هنا للبحث فيه .

ففي داخل محور التضاد والمواجهة تتحرك مسرحية المدني . وإن كان حلّاج الأسرار وكذلك حلّاج الشعب لم تقع عقوبتها نسبيا من لَدُن الجنيد والقومسي فلأن كل واحد منهما قد اختار الخروج عن حلقة الشيخ وعن سوق القومسي بوعي كامل (شأن حلاج الأسرار) وبارادة فردية ـ جماعية (شأن حلاج الشعب وبقية عمال السوق) ، فإننا نرى أن حلاج الحرية قد دفع بنفسه في مغامرة « الوحدة » لأهميتها وأبعادها (بالنسبة اليه طبعا) ، ولكن خاب ظنه وسعيه وفشل فشلا ذريعا في جمع شمل القادة الثلاث الذين ما انفكوا في اثباط عزائمه . فكان العقاب غير منتظر واطرد وأبعد عن الديار .

وبهذه الكيفية ، فقد حدث لكل من الحلاجات الثلاثة قطيعة كاملة للعقد تدخل ضمن بنية عقدية سلبية تتفجر في النهاية لتولد الارهاصات الجنينية الأولى للصراع الأرحب ، صراع جماعة العيارين ضد شرطة الملك . وتتخذ علاقات التصادم والتصارع بُعْدًا من التعقد والتشابك حيث يمتزج الفاعل ـ العامل مع الفاعل الجماعي في تنظيم استراتيجي لمواجهة القوة الحاكمة الغالبة . ولكن حتى في صياغة رؤية الجماعة فإن الهزيمة والفشل هما من نصيب حلاج الشعب .

وحتى يوضع حد لرحلة الفواعل الثلاثة الذين حاولوا دكّ حواجز المخطورات وتحريك باب المحرمات والدخول إلى عالم الممنوعات ، فإن المسرحية تُخْتَم بإقامة محكمة لكل واحد منهم على حِدة . وأعضاء المحكمة هنا هم الوجه الأكثر تعاليا للفواعل المحركة والمحاسبة في ذات الوقت لأنهم يمثلون الإجتماع البشري ولأنهم يمثلون القانون نيابة عن الخليفة المقتدر . وبهذا الشكل يصبح القومسي شاهد عيان أمام أعضاء المحكمة للشهادة ضد حلاج الشعب ، في حين أنه رغم محاسبة حلاج الحرية من طرف القرمطي والزّنجي والبابكي فإنهم لم يحضروا محاكمته لأنهم في علاقة صراعية مع أعضاء المحكمة . لهذا فإن حلاج الحرية سيحاسب ويحاكم بدون شواهد عدل وعيان ، كذلك حلاج الأسرار الذي لم يحضر الجنيد محاكمته ولكن حضرها الجمهور .

من هنا ، نستطيع الحديث عن علاقات التعالي والتداني أو علاقات الحاكم بالمحكوم (أي المهيمن والمهيمن عليه) في هذه المسرحية . وعلاقات الهيمنة هذه يمكن وصفها ورسمها على شكل نسقي معين :

(1) الفواعل المتعالية جدا ، وهي محركة ومحاسبة معا : أعضاء المحكمة باعتبارهم فاعل جماعي ينوب الخليفة المقتدر بالله ؛

(2) الفواعل المتعالية ، وهي إما محركة أو محاسبة وتخضع للفواعل الأولى :

الجنيد ، القومسي ؛

(3) الفواعل ـ العوامل :

حلّاج الأسرار ، حلّاج الحرية ، حلّاج الشعب .

مع العلم أنه لا يمكن لنا بأية حال إدماج القادة الثلاث في صلب هذا الرسم لأنهم لا يخضعون إلى هذا التنظيم الايديولوجي والقيمي . فهم يعتبرون ـ كما ذكرنا سابقا ـ فواعل متعالية ضدّية بالنسبة لأعضاء المحكمة أي لممثلي الدولة العباسية .

هذه وجهة نظر دلائلية لبعض البُنَى الصراعية التي تشتمل عليها مسرحية الحلاج . وقد تحرك بحثنا داخل هذا المنظور لقراءة هذا النمط من البُنَى ، سَاعِين في ذلك ألا نقوم بمجرّد اسقاطات اصطلاحية من النظرية الدلائلية على النص المسرحي ، وإنما كانت انطلاقتنا من النص عينه لاستنطاقه واستقرائه في محاولة كشف البنية الصراعية . وتأتي هذه المحاولة لا من وجهة نظر السوسيولوجية العامة أو السياسية (علم الإجتماع العام أو السياسي) التي بحثت في هذا الموضوع وإنما بالاعتماد على علم اللسان وعلى المنحى الدلائلي .

● الهوامش :

(1) نعني بالقراءة الدلائلية ، عملية البناء في نظم الدّلالة . وهذه القراءة تختلف كثيرا عن القراءة السيميائية التي تُعْنَى بنُظُم العلامة . وكثيرا ما يقع الخلط بين القراءتين ، ويكفي أن ننظر إلى أغلب القائمات الاصطلاحية التي حاول بعض الدارسين العرب ثبتها في بحوثهم حتى نلمس هذا الخلط . كما تجدر الإشارة إلى أننا عندما نتحدث عن الدلائلية فإننا نخص هنا « الدّلائلية السّرْديّة والخطابية » والمعروفة بأسم « الدّلائلية العامة » .

(2) جاك لصّال (Jacques Lassalle) هو مدير مسرح ستراسبورغ (Théatre de Strasbourg)

(3) أنطوان فيتاز(Antoine Vitez) هو مدير المسرح القومي بالشايو بباريس Théatre National de Chaillot à Paris

(4) لوي يلمسلاف(Louis Hjelmslev) هو اللساني الدّانماركي الذي يعتبر المؤسس الأصلي للنظرية الدّلائلية العامة التي طوّرها وهذّبها أ ـ ج ـ قريماص (A - J. Greimas) مع مجموعة اللسانيين ـ الدلائليين التي تعمل حوله في المدرسة العليا للعلوم الإجتماعية بباريس .

● المصادر والمراجع :

ـ أ ـ عزالدين المدني ، الحلاج . رحلة مسرحية ، نشر مؤسسات بن عبد الله ، 1973 ، تونس ؛ ثورة صاحب الحمار ، الدار التونسية للنشر ، 1971 ؛ ديوان ثورة الزنج ، الدار التونسية للنشر ، 1973 .

ـ ب ـ أوغسطو بُوَال ، مسرح المضطهد ، نشر ديكوفارت (الإكتشاف) ، 1985 .

ـ ت ـ استعمل لصّال هذه العبارة ضمن برنامج « متعة المسرح » ، التلفزة الفرنسية (الشبكة الثانية) ، 16 ماي 1984 ، وذلك حول إخراجه لمسرحية « المصطافون » لمكسيم غوركي .

ـ ث ـ « أن تُبْدِعَ مسرحا من كل شيء » ، حوار بين أنطوان فيتاز ودانيال سالْناف ، مجلة ديغراف ، عدد 8 ، 1976 ، ص . 116

ـ ج ـ ورد ردّ المدني في إحدى لقاءاتي التي أجريتها معه بدار المسرح البلدي بتونس في شهر فيفري 1983 .

ـ ح ـ أنظر . ج ـ قريماص و ج . كورتاس في : قاموس عقلاني تجريدي في النظرية اللغوية ، مقال « بنية » ، ص . 361 ، دار النشر هاشات ، باريس ، 1979 .

ـ خ ـ أنظر طيب تيزيني ، من التراث إلى الثورة . حول نظرية مقترحة في التراث العربي ، ج 1 دار ابن خلدون ، بيروت ، 1976 ، ص . 16 .

ـ د ـ جان كلود كوكي ، « خطاب الحقيقة » ، في الإعتقاد . مقاربات الستمولوجية ودلائلية ، مجموعة مقالات بالفرنسية والإنجليزية أشرف عليها هِرْمَان برات ، نشر وَلْتر دي غريتر ، برلين ـ نيويورك ، 1983 ، ص . 58

ـ ذ ـ آلان باديو ، نظرية التناقض ، ماسبيرو ، 1975 ، ص . 80 ، 82 ، 101 .

ثبت قائمة اصطلاحية

حسب العلاقات الموجودة بين المصطلحات وحسب مستوياتها في البحث

المقابل العربي	المصطلح الفرنسي
علم اللسان البنيوي	La linguistique Structurale
السيميائية ، علم العلامات	La Sémiologie
الدلائلية	La sémiotique
الدلائلية السردية والخطابية	La sémiotique narrative et idscursive (ou)
(أو) الدلائلية العامة	la sémiotique générale
نظام ، نُظُم الدلالة	Système (S) de signification
البنيَة	La structure
القراءة الدلائلية	La lecture sémiotique
التحليل الدّلائلي	L'analyse sémiotique
وجهة نظر	Un point de vue
النّصّ اللساني	Le texte Linguistique
الخطاب المسْرحي	Le discours théatral
العلاقة	La relation
علاقات داخلية	Relations internes
الكائن اللساني	L'etre linguistique
الفاعل ، الفواعل	Sujet (S)
الفاعل ـ العامل	L'actant - sujet
الفاعل الجماعي	L'actant Collectif
شيء ، أشياء	Objet (S)
الحقل الموضعي (أو المَوْقعي)	Le champ positionnel
الرّغبة ، المبتغى	Le désir
الممثل	L'acteur
المساحة	L'espace
الزمان	Le temps
الشخصية ، الشخص	Le personnage
فاعل مُتعال ، فواعل متعالية	Destinateur
فاعلٌ متعال محرّك	Destinateur - manipulateur
فاعل متعال محاسب	Destinateur - judicateur
فاعل متعال ضدّي	Atnt: - Destinateur
البنية الصراعية	La structure conflictuelle
بنية المواجهة (أو البنية التّواجهيّة)	Structure de confrotation
محور التّضادّ والمواجهة	Axe de contradiction et de confrontation
العلاقة الصّراعيّة	La relation conflictuelle
منطق المواقع ، منطق القُوى	Logique des places , logique des forces

علاقةُ تعال ٍ وتدانٍ	Relation de Supériorité infériorité
علاقة المُهَيمِن والمهيمَن عليه	dominé / Relation dominant
بنية عقديّة سلبية	Structure contractuelle négative
قطيعة كاملة للعقد	Rupture totale du contrat
ممنوع ، ممنوعات	Interdit (S)
خيبة ، فشل	Echec
عقوبة	Sanction
التنظيم الإيديولوجي والقِيَمي	L'organisation idéologique et axiologique
نمطية	Typologie
نظام نمطي	Système typologique
تقييم	Evaluation

الباب الثالث من رواية سفر النقلة والتصور

محمد الهادي بن صالح

سبق للحياة الثقافية أن نشرت الباب الأوّل من هذه الرواية بالعدد 36 ـ 37 والباب الثاني بالعدد 38

الوثيقة الثالثة

خميس ؟ نكبة جمعيّة

جمعية فقدت خميس فجأة . لم تكن جمعية مهيأة لذلك . ولذلك بكت وحيدة بحرقة ولوعة . بكت معها بكرتها التي بلغت أربع سنوات طويلة . بكت الطفلة لأنّ أمها تبكي . وبكى معها طفلها الّذي بلغ ثلاث سنوات طويلة . بكى الطّفل لأنّ أمّه تبكي ولأنّ أخته هي الأخرى تبكي . وبكى ابنها الذي بلغ عامين طويلين . بكى الطّفل لأنّ أمّه تبكي ولأنّ أخته تبكي ولأنّ أخاه يبكي . وبكت معها ابنتها التي بلغت عامها الأول لأنّ كلّ من في البيت يبكي . هذه البنت التي تتسلّق نجاد صدر أمّها محاولة إزاحة عصابتها عن شعرها الأشعث الذي لم تجد متسعا من الوقت حتى تغسله في الحمام من أنها حاولت توفير ثمن الحمّام فتستعين به في إدارة شؤون المنزل كأنّ الطفلة تنبهها الى أنها لم تقطع شعرها . كأن الطفلة تنبّهها إلى أنها ما زالت عاقلة لم تخلع أثوابها .

خميس قال لجمعية ذاك الصباح ماله والاضراب . لابدّ له أن يعمل حتى تأكل جمعيّة وحتى يأكل صغاره وحتى يأكل هوّ . خميس قال لها : بلاغات الحكومة واضحة . أجهزة الإعلام تدعو لكسر الاضراب والحكومة ضامنة أمن من يريد أن يعمل . وخميس قرّر أن يعمل لأنّ الله يبغض عباده البطّالين . خميس قرّر أن يعمل وأن يكون مواطنا صالحا يأتمر بأمر حكومته وحزبه لا بأمر نقابته واتحاده . خميس رفض الانخراط في الاتحاد لأنه لا يريد أن يحجز من راتبه قيمة انخراطه .

خميس خرج ككل صباح باكرا جدّا لأنّه يحاول دائما أن يوفّر ثمن تذكرة الأطوبيس . خرج خميس كعادته من تحت البيوت الرابضة في جانب الهضبة التي يرتقيها ويتسلّق شعابها واحدة واحدة فتقذف به آخر الأمر الى «الجبل الزاهر» فيدعو لأهل هذا الحي بالمزيد من الرفاهة والنعيم ثمّ ينزل الشارع منكمشا ذليلا في عزّ هؤلاء الخيرين ويمشي آمنا على الرصيف إلى غاية مقبرة الحلاج . يقطع الطريق السريعة إلى حيّ «مريم» فيتسلّق الجبل والحمد لله .. إنّه جبيل صغير ثم ينزل السفح الى طريق معبّدة وبذلك يدلّ آخر حاجز طبيعي يفصله عن مكان عمله فيسير جنب الطريق مسافة طويلة حددها زمنيا بفترة لا تقلّ عن العشرين دقيقة . أي من «الدرفيل» إلى «سيدي مدين» أين يغيب في متاهة الحي الصناعي بأوحاله وقاذوراته وفواضله المنثورة ثمّ يتّجه وئيدا متعبا الى المصنع فيطلق تحيّة وسلاما الى العسّاس ثمّ يجلس حذو الباب يستريح بعد قطع مسافة طويلة حدّدها زمنيا بخمسين دقيقة في جملتها . يتحادث مع العسّاس فترة قصيرة حتى يفتح الباب . والعسّاس لا يفتح الباب إلاّ الساعة السابعة . لا تأخير ولا تقديم . ولن يسمح لأيّ شخص أن يدخل مهما بلغت وظيفته . ولّما يفتح الباب يكون قد جمع كلّ معداته وقد حشرها كلّها في جرابه وتناولها في يده مستعدًا لمغادرة المكان .

خميس صدم هذه المرّة بحاجز غير طبيعي . هذا الحاجز بشري يأمره بالعودة من حيث أتى وخميس رجل مطيع ولا يأتمر الا بأمر حكومته وحزبه . الرجل يأمره بالعودة وخميس يرفض هذه العودة . لم تطل المجادلة كثيرا إذ خرج فجأة لسان لهب من فوهة البندقية المسددة نحوه . ركع خميس دون إرادته . وضع خميس يده على بطنه وهو يذكر أنّه رجل مطيع لا يأتمر إلاّ بأمر حكومته وحزبه وله أربعة أطفال حسب رغبة حكومته وحزبه إذ المنح العائلية لا تصرف الاّ لأربعة أطفال حسب قرارات حكومته وحزبه .

جمعية بقيت وحيدة مع اطفالها بلا دليل ولا معيل . وجمعية آمنت بخميس ولا تعرف أين تتجه وقد فقدت دليلها مشاغبا أو هكذا قيل لها . لقد مات خميس مشاغبا . ما الجاه الى الخروج . هكذا قالت لها حكومة خميس وحزبه .

جمعية لا تريد أن تصدّق أنّ خميس قد مات لأن خميس رجل حنون لا يرضى أن يتركها في ورطتها هذه . وفي انتظار عودته لابدّ لها من أن تجوع ويجوع الصغار . يجوع الصغار حسب ارادة حكومة خميس وحزبه .

فصل القبض من كتاب التصوّر

الباب ينغلق . ترى مالنهاية ؟ ثقل المسؤولية . رأسك يرفع عاليا . لماذا ؟ أحرى به أن ينكّس . تنقلب بكرسيك إلى الوراء . يشدك الحائط . تستند بكرسيّك إلى الحائط . تئزّ ساقا الكرسيّ تحت ثقل جسدك . تخشى أن تتكسرا بك فتقع . تستعيد وضعك الأمثل . رأسك بين يديك مستندا بمرفقيك الى مساحة المكتب . هذا الشاب الأسمر الطويل النحيف يطرق الباب حائرا . ينفتح له الباب . تطوّقه العجوز بذراعيها الهزيلتين ؟ . . . . تدسّ رأسها في صدره ؟ كنت تقول صدره كثّ الشعر . لم تتحقق إن كان كثّ الشعر أم خفيفه ، جزئيات لا أهميّة لها . المهمّ أنّ المرأة تدسّ رأسها أشيب الشّعر ، ترى أكانت تصبغه بلون أشقر أم أسود أم كانت تتركه على طبيعته أشيب أم خصلات وفتائل . لم تلاحظ شعرها وهي في خزينة الأموات . ألم تلاحظ أنك تستنكر فحص الأموات الذين تكلّف في البحث في قضاياهم ؟ كثيرا ما كنت تسند أمر المعاينة الى مساعدك . لا يهمّ . المهمّ أنها دست رأسها ورأسها فقط في صدره . يبعدها عن الباب قليلا لماذا ؟ حتى يتيسر له غلق الباب أو حتى يتقي العيون الفضولية وإن كان يعرف أن لا عين ترقبه ما دامت الشّقة لا يقابلها في ذاك البهو الاّ شقّته . تقول وتستغفر الله أنه أغلق الباب . العجوز جائعة تلحّ والشاب نافر مكره . جرّته الى المخدع ، أحسّ بالخديعة . أحسّ بالمهانة . أحسّ بالذلّ . أمن أجل بعض الدينارات تستعبده هذه الحيزبون محمرّة العينين والشدقين ؟ تناول قضيبا حديديا وضرب على رأسها مرّتين .

ملاحظة أولى : إنّ الرجل ليست له علاقات نسائية ذات بَال وهذا هام جدّا . .

جرس الهاتف يرنّ فتسعى يدك الى السماعة . ترفع السماعة :

- آلو . وي .
- سي مصطفى . فتاة في انتظارك .
- قل لها تخرج .
- تقول : إنها رأتك في مكتبك من النّافذة المطلّة على الحديقة .
- لتنتظرني إذن حتى ساعة الخروج .

تدفن رأسك في الأوراق بعد أن أعدت سماعة الهاتف الى مكانها .

تقول سندس عبد الحفيظ : إنّ علاقتها به لا تتعدى علاقة الزمالة . وهو إنسان مهذب لطيف ما حاول إثارتها بطريقة أو بأخرى رغم وجودها وإياه في غرفة مكتب واحدة . كان دائما محتشما في كلّ تصرفاته . وبعد صمت أردفت دامعة العينين :

« كثيرا ما حاولت أنا إثارته فلم أجد منه إلاّ الصّدود حتى صرت أشكّ في . . . أشكّ في . . . بل جزمت . ولذلك صرت أعامله معاملة الزميلات . أتتصوّر أنّه لا يوجد بهذه الادارة رجل واحد ـ حتى الشيوخ ـ لم يعرض عليّ مزاياه إلاّ هوّ . ولهذا أطلب دائما أن أكون معه في نفس الغرفة . هوّ أسلم من الرّجال وأسلم من النساء . . .

مسحت دموعها ثمّ قالت عروسيّة المؤدب هادئة :

. . لا اتصوّر أنّه ذاك الانسان الذي تهزّه نزوة أو يتصرّف تصرفا لا أخلاقيّا . عرفته زميلا طيبا متزنا . بداية علاقتي به تعود الى يوم . . . . بدأنا نتحدّث أحاديث تافهة في شؤون الحياة فكان لا يتحرّج من إعلان فقره رغم مظاهر النعمة البادية عليه حتى قال لي مرّة ضاحكا .

« لو لم أكن معوزا لتزوّجتك » .

اعتقدت آن ذاك أنها حيلة للهروب منّي . غضبت شديد الغضب وهجرته . بل وعاديته . وقف لي مرّة وقال لي : إنّه ما سعى إلى معرفتي قطّ . ولكنه يرفض أن لا يفهمه الغير . حاولت إزاحته بالتهديد والوعيد لكنّه أصرّ على أن يعرف الأسباب التي نفّرتني منه . حينئذ لم أجد بدّا من الاعتراف له بأنّ قوله « لو لم أكن معوزا لتزوّجتك اعتبره تهربا بلباقة » ضحك ثانية هذه المرّة وقال لي : لو لم أكن لك احتراما ومحبّة ما أصررت أن أعرف أسباب نفرتك . والحمد لله أنك أرحتني . عرفت حسن نيّته فانغمست معه من جديد في التجربة . وعرفت حقيقته . عرفت أنه المعوز بحقّ . وعرفت أنّ مظاهر ثراء مصدرها حسن نظامه واتزانه . وعرفت أيضا إتفاقه مع العجوز حول استعمال السيارة وهي التي أقرضته باقي التسبقة لاقتناء شقّة في عمارة معدة لعملية كراء ـ بيع . كلّ مكاسبه راتبه . راتبه البسيط . حاولت إقناعه بأنّ راتبي وراتبه يمكناننا من حياة فاضلة بلا أطفال فقال : إنّه من فئة ما تزال تؤمن بأن للإنسان وظائف أخرى غير الاستهلاك . لو فكّر سكان العالم مثل تفكيرك هذا لانقرض العالم في ظرف زمني قصير . قال لي انّه يرفض هذه المادية الخسيسة . هناك معطيات أخرى غير الأكل والحبّ تفرضها الحياة . لو كانت وضعيتي المادية غير ما هي عليه في حاضري لتصرّفت معك تصرّفا آخر . عرضت عليه جسدي حتى أعرف حقيقته فما راعني الاّ رفضه متعللا بأنه ما تعوّد الاعتداء على حرمة الغير . ولا تعوّد السطو على شيء ليس له . هوّ العجب في كلّ تصرفاته .

احمرّ وجه عبد الله وقال غاضبا :

. . كم حاولت معرفة هذا الرجل ؟ عجزت . عجزت . إنّه طلسم . لكنني كنت أحس انه من صنف المجرمين الذين تكون مقاومتهم واجبا إنسانيا . سندس عبد الحفيظ تقول انّه الإنسانية . انه الشهامة . إنّه الرّجولة . مع العلم أن سندس هذه ـ ان لم تعرفها سيدي المفتش ـ هيّ الممثلة الشخصيّة لجلالة الأنوثة . كنت دائما أقول أنّ وراء هذا الرجل حقيقة أخرى خفيّة وإننا سنرى منه العجب . وها نحن قد عشنا ورأينا . وان يعشق عجوزاء ويقتلها فهذا لا يهزّني لأنّه إنسان شاذ في نظري وفي نظر كلّ عاقل فطن . وأنا كرجل أتحلى بالاستقامة أكره الشذوذ .

قطّب عبد الله وجهه وفي نظراته التشفي والكراهيّة عندما دخل الزين . أحد زملائه . همس له عبد الله :

« السيد مصطفى مفتش شرطة » .

اهتزّ الرجل واجفا . فقال عبد الله :

« جاء يبحث في قضية حسن . زميلنا حسن » .

« حسن ؟ » .

« حسن قاتل العجوز » .

« أيّ عجوز وأيّ قاتل ؟ » .

« حسن ذاك الفاجر . . . » .

« أي فاجر ؟ » .

« مالك يا زين ؟ » .

« مالي يا عبد الله . أتسألني هذا السؤال ؟ » .

أدركت أنّ الرجل قد فقد السيطرة على أعصابه بمجرّد سماعه لفظة شرطة . هذا الرهط من المخلوقات المسالمة يرفض كلّ من يعكّر أو بامكانه أن يعكّر سير حياته الرتيبة . هوّ لا يرى في الشرطة الاّ الوجه البشع . نظراته ذكّرتك بنظراتهم اليك في تلك الأيام . نظرات الاتهام والتحفظ . الشرطة لديه فئة تتهم الآخرين . طمأنته :

« يا سيّد زين . يا سيّد زين .... »

« نعم سيّدي . نعم سيّدي » .

« اهدأ . اهدأ . لا أحد يتهمك . لا أحد يطلب منك شيئا دون ارادتك » .

جلس على كرسي يرتعش من الخوف . مدّ له عبد الله كأسا من الماء . همس له :

« أرأيت ما فعل بك الفاجر ؟ أرأيت ... »

« أيّ فاجر ؟ » .

« الفاجر حسن » .

« وما دخل حسن في ما أنا فيه ؟ مسكين حسن » .

« والله مسكين أنت . أنت المسكين الذي سيقتله الخوف » .

« كم يسعدني يا عبد الله أن تبيّن لي أسباب حقدك عليه . مع أنّ الولد من ألطف المخلوقات التي عرفتها » .

« إنّه الخبث . وأنا أكره الخبثاء » .

وقف عبد الله وسط القاعة يائسا محدّقا في الزين الذي بدأ يهدأ . كان عبد الله يتهيأ لإلقاء خطبة طويلة . حشا يده اليمنى في جيب سرواله يحاول أن يمطط قامته النحيفة بضع صنتمترات ثمّ يحكّ عينيه بين الفينة والأخرى ويمسح نظارتيه ويحدق في علبة التبغ التي وضعتها قدامك . ثمّ يقول :

« الفاسق . الفاجر . لقد أضلّ رأس المسكينة . تلك البنت ـ رغم جمالها الصارغ ـ ساذجة » .

لوّح بيده ثمّ نظر إلى علبة التبغ فلم يستطع مقاومة رغبته . امتدت يده تنفضها لتسحب منها لفافة .

« تسمح ؟ » .

رفعت قداحتك لتشعل له لفافة التبغ .

« كلّ البنات الجميلات ساذجات » .

امتص نفسا طويلا ثمّ أردف :

« الساذجات هنّ البنات الجميلات » ....

أدركت لحينك أسباب حقد عبد الله على حسن وسندس عبد الحفيظ ترفرف عصفورة بيضاء . إنّها الصبابة .

« ... لقد سحرها . نعم لقد سحرها ، ولذلك هي عمياء لا ترى الحقائق التي كثيرا ما أحاول كشفها إليها . كم حاولت أن أفتّح عينيها ولكنّها كانت ترفض أن تستمع الى نصحي . ناديت ذلك الوغد ونبهّته إلى خطورة أفعاله فلم يأبه لكلامي . وها هيّ النتائج » .

« أيّ نتائج يا عبد الله ؟ حسن لم يقتل لم يقتل مطلقا ولن يقتل . ولاّ أتصوّر أنّه قادر على أن يقتل إنسانا . اتق الله يا رجل » .

« أنا رجل يصلي الخمس يا زين . أنا رجل يخاف الله يا زين . أنا رجل ينهي عن الفحشاء والمنكر يا زين . ما فائدتي في اتهامه لو لم يكن ذلك حقيقة ؟ » .

« هذا جليّ » .

« سامحك الله يا زين . المهمّ . الرجل .... » .

« سامحك الله أنت . ولد مثل حسن تتهمه بالخبث . أقول لك يا عبد الله إنني من زمن بعيد أعمل بهذه الادارة ولم أر أخلص منه لعمله ولا أنبل منه خلقا ولا أنزه منه ولا أصفأ سريرة ولا أكرم نفسا ... » .

« معنى هذا أنّه لو طلب منك مثلا ابنتك الطالبة حاليا بالجامعة للزّواج فانك لا تمانع . آه . انطق . إنطق » .

« أقول وأعيد : إنك إنسان مريض . ورغم ذلك أكون سعيدا لو تفضل بذلك . رغم فارق المستوى الاجتماعي والعلمي . لن أتردّد لحظة واحدة في اعلان موافقتي » .

« عجيب أمرك ؟ » .

« عجيب حقّا »

الزين السلمي من أقدم موظفي تلك الادارة . وهو فخور بذلك . وفخور بأنه من أقدم من عمل فيها من العرب رفقة الفرنسيين . مَدَنِي أصيل وشهادة ميلاده ، الصفراء التي يحتفظ بها فخورا تثبت ذلك . تزوّج بنتا من بنات الأسر الكبيرة المتعلّقة بأطراف العائلة المالكة . أنجب من هذا المرأة بنات وبنين كانوا خير ذريّة وشرّ ذريّة . منهم الطبيب والمهندس والأستاذ والمحامي والتاجر والعاطل والشريف والمجرم والفاجر البغي والفاسق المحتال . تتحوّل نفسيّته في اليوم الواحد بحساب ذكرهم . ولكنه دائم الإعجاب بهم جميعا معللا ذلك بأنّ المجتمعات خليط وشتات تتفاعل فيها كلّ القيم فليس كلّ أفراد المجتمع بملائكة ولا هم بشياطين . وعائلته مجتمع صغير بكل تناقضاته . بكلّ جوانبه السلبيّة والايجابية . بكلّ أحاسيسه ومشاعره . تنمحي بسهولة كلّ أحداثه الطيبة وترسخ في الأذهان كلّ أحداثه الخبيثة . ألم تسافر ابنته الى بريطانيا للدراسة مكثتِ هناك سنوات لاقتلاع أكبر شهادة علمية بعد الاجازة . ولّما عادت كانت تحمل معها هذه الشهادة وتصطحب طفلا أزرق العينين . حول هذا الطفل كثرت الروايات . تقول البنت : إنّه ثمرة زواج فاشل . ويقول الناس : إن البنت سمراء والطفل أشقر أزرق العينين فلن يكون إلاّ ثمرة زنا . قيل : إنها تتعاطى المخدرات كما أنها مهربة لها . وقد حوكمت من أجل ذلك بل لقد سجنت من أجل ذلك في بلاد الغربة ثمّ طردت منها شرّ طردة . قيل : إنها سكيرة عربيدة تقيم في بيتها السهرات الخاصة فنبذتها العائلة . والحقيقة يا عبد الله ! قد لا تعرفها وقد تكون هذه مزاعم . البنت تحاول فرض وجهة نظرها وغرس هذا الولد في عائلة ترفضه . هكذا قلت يا عبد الله ـ وقلت أيضا : أنّ المجتمع يرفضه فالتجأت البنت مكرهة إلى الهجرة من جديد . قلت أيضا : إنّ مشاكلها بدأت يوم أن رفض الأطفال الصغار التعامل مع هذا الطفل الأشقر . أزرق العينين . من قال لهم إنّه لقيط ؟ أنت لا تعرف وأنا لا أعرف . قد يكون الصغار رفضوا التعامل مع طفل بلا أب ؟ وقد يكون الكبار أوعزوا للصغار التجنب والابتعاد عن هذا الدخيل ؟ هؤلاء هم الأكابر يا سيّدي . وأنت يا عبد الله ؟ أنا ؟ نعم أنت . جئت نازحا ـ وترفض هذا النعت ـ الى هذه الربوع مثلي ومثل حسن . صاح في وجهك أحد الواردين على هذه المدينة : أنّ الجهل مصيبة وانّ لفظة نازح لها مدلولها الديمغرافي والاقتصادي ولا تكون بأية حال مرادفة للفظة مهاجر مثلك أو مثل حسن . وقد تنطبق على عبد الله الذي تسكّع سنوات . فالها بمرارة . سنوات الضّياع . سنوات الهوان تلك مرّت دقائقها كالقرون عرفت فيها الذلّ هكذا قلت يا عبد الله . وتمكنت آخر الأمر من اقتلاع وظيفة تتماشى ومستواك التعليمي الهزيل . وكان لهذه الوظيفة هيبتها وأصداؤها في أرجاء القرية وفقدت هذه الهيبة بمرور الأيام وارتفاع المستوى التعليمي العام . فما انفكت المدارس تقذف أسرابا . وما انفكت الكليات تقذف أسرابا تكتسح الوظائف بسرعة مذهلة حتى تسكّع حاملو الشهادات العليا في الشوارع مثلهم مثل المرفوتين الفاشلين في السنوات الأولى من التعليم الثانوي مثلما تسكّع عبد الله بعد طرده من السنة الأولى ثانوي . وتزوّجت بفتاة من قريتك المعلقة بناصية جبل نائي وأنجبت منها أطفالا بلغ عددهم التسعة تأويك وإياهم شقّة صغيرة كلّ مساحتها خمسة وعشرون مترا مربعا مقسّمة الى حجرتين أو الى جحرين كما يقول عبد الله . مطبخ صغير ومرحاض ضيق جدا لا تتجاوز مساحته المتر المربع اكتريتها وأنت أعزب تراود الومسات . وإزاء غلوّ الأكرية وارتفاع أسعارها المفاجيء وإزاء مشاكل النقل العمومي لم يعد لك من أمل للخروج منها رغم الضيق . ورغم أنّ الوعاء قد عجز عن استيعاب كل افراد العائلة وما يضاف اليهم من الوافدين عليكم من القرية . في البدء كانت الأمور مرتبة . الأطفال منظمون . الزوجة انسجمت بسهولة مع المحيط رغم بقاء تفكيرها الريفي نقطة سوداء . هكذا تعتقد . وكان الطّفل الخامس بداية التحول . بداية تدهور الأوضاع . بداية المشاكل . . مشكل الفضاء . بداية انخرام النظام . بداية تكييف الموجودات وإخضاعها قهرا بالحاجيات . لم يبق لك من مظاهر الرّفاهة إلا تلك البدلة التي تحرص على تجديدها كلما ألحت الحاجة . ثم تلك

الجريدة التي تواظب على شرائها كل صباح من عند بائع لصق حذو بائع الفطائر المحاذي لكنيسة بروتسطانية . نكهة الفطائر منعشة . رائحة الزيت المقلي تقلقك . اختلاف الأذواق ! عبد الله تنعشه رائحة الزيت المقلي وأنت تقلقك هذه الرائحة . قال لك إنني لا استصيغ قراءة الجريدة إلّا اذا كانت من عند بائع الجرائد المحاذي لبائع الفطائر الذي غالبا ما يتناول عنده فطيرة يسدّ بها رمقه . فطور الصباح يتماشى وامكانياتك المادية المتواضعة . من هنالك تتجه قبله الى عملك بعد قطع مسافة طويلة . تمر بعمارات ضخمة بالبطحاء الواسعة هي مسرح ومرتع كبير لمجموعات كبيرة من الأطفال لاعبي الكرة . ثم تصل نهج سعيد باشا وتقف في بطحاء شعبان داي . هنالك اسكافي أصيل قريتك . تبادله أخبار القرية ثمّ تواصل طريقك نحو بطحاء الشعبة . ساحة جميلة يشعر فيها الانسان بالانعتاق من كابوس الأزقة الضيقة التي مر بها بالمدينة . الحديقة مزهرة . نافورة الماء تبعث خيوطا تغور في الأرض . تقف هنيهة متأملا حركة المارة ثمّ تنساق الى حجرة مكتبك في يدك الجريدة فتتداولها الأيدي وتشعر آنذاك أنك نبراس هذه الادارة ورسول المعرفة فيها . أي لولاك ما عرف أحدهم شيئا عن أحوال هذا العالم المتقلب . ما يهمك من أمره ؟ لكن اهتمام عبد الله بقضاياه قد فاق كل تصور . عبد الله ! هذه الشخصية الطريفة ! ما الذي دفعك لاستجلاء كوامنها ؟ قد يكون الفضول ! اقتفيت سيرته الذاتية وأنت تبحث عن خيوط الجريمة حتى تصورت ذات مرة ان عبد الله هوّ المجرم ذاته . ونسيت ذلك الجماد . لو ينطق كالجماد ! هكذا قلت يا عبد الله . صدقت يا عبد الله . يطلق التحية من بعيد كأنع يخشى العدوى . يتجنبك كأنك الوباء ! اظهرت له الجفاء لكن بسمته ظلت عالقة بشفتيه . لم ينتزعها من شفتيه حتى في حالات غضبه . أردت مرة إحراجه فقلنا له إنني أعرف عنك أشياء لا أرغب أن يعرفها عنك الزملاء . ابتسم اليك وقال لك بهدوء : وأنا لا يهمني أن أعرف عنك شيئا .

في بحثك - كما جاء في بحث عبد الله - أن الولد بكر والديه . والده عامل بسيط بمصلحة المياه . أنجبه على كبر . ولّما مات نشأ في رعاية أمّه التي ترمّلت وهي شابة دون الثلاثين . خلّف لها خمسة أطفال هوّ كبيرهم . تزوجت احدى أخواته من رجل متواضع الامكانيات وبقيت أمّه مع بنت تمارس مهنة النسيج بحذق رفقة أخيه الصغير الذي يدرس مجتهدا بالمعهد الثانوي الذي أحدث بالقرية . أما البنت الثالثة فما زالت تلميذة بالمعهد الثانوي بالمدينة المجاورة للقرية . بدأ دراسته موفقا ثم فتر حماسه بمرور الزمن ونجاحه كلاعب كرة قدم . رغم انكماشه وانطوائه على ذاته انظم الى فريق القرية لإرضاء وإشباع دوافع هوايته . فريق صغير ينتمي الى احدى مجموعات القسم الرابع . هذا الفريق الصغير وفّق في سباق «الكوب» فتمكن من ازاحة كلّ منافسيه . لتفرضه القرعة الى اللعب مع أكبر فريق في القسم الوطني وأكثرهم شعبيّة . أثناء اللعب لاحظ الجمهور كما لاحظ كلّ من لهعينان ويشاهد المقابلة أنّ اللاعب رقم ..... هذا الولد الأسمر الطويل النحيل قادر وحده على هزم هذا الفريق العتيد لو أمكنه ادخار ما لديه من جهد والتصرف فيه بذكاء . وفي اعتقاد الجميع أنها طفرة حماس كثيرا ما تحدث عند لاعبي هذه الفرق الصغيرة ما تنفكّ أن تخمد بمرور اللّحظات واشتداد اللهاث . ولكن اللحظات تمر والدقائق تمرّ والولد يعطي من جهده سخيا دون عياء أو كلل . وفجأة انفلت وحيدا يدفع الكرة قدامه بقدميه . تجاوز سريعا كلّ عناصر الدفاع لينفرد بالحارس ويسجل الهدف . وفي انتظار هدف التعادل يختلي مرة ثانية بالحارس ويصيب شباكه مرّة أخرى . الدّهشة تطغى على كلّ المتفرجين . الوجوم يلجم الأفواه الهازجة على المدارج . عناصر الفريق القوي العتيد يتحركون على الملعب المعشوشب بثقل كأن في أقدامهم الرصاص . للمحافظة على النتيجة المكتسبة التجأ عناصر الفريق الصغير الى الدفاع . موقف حتمي . وجاءت اصابة الهدف من قلب هجوم الفريق العتيد رديئة . هكذا نعتها أكبر المعلقين الصحفيين الرياضيين . ثم تلاها هدف التعادل ويكون التفوق في آخر الشّوط الأول . نتيجة منطقية لمقابلة تجمع بين طرفين غير متكافئين . يتواصل اللعب في الشوط الثاني برتابة مملّة من الفريق الكبير وحذر وخوف من نتيجة ثقيلة جدّا من الفريق الصغير . قبلت هذا المنطق كلّ الأطراف إلا ذاك الولد الأسمر الطويل . افتك الكرة . دفعها قدامه . أشار الى أحد رفاقه أن يتقدّم . يتابع الكرة التي دفعها قدامه . وكان هدف التعادل . هدف لم ينتظره أحد حتى أشدّ المتعصبين لهذا الفريق الصغير . يضع حسن الكرة في المركز . يدفعها الخصم يفتكها حسن من جديد

وينساق بها مباشرة نحو المرمى . يراوغ عناصر الدفاع ويقذف من بعيد في الشباك . وكان هدف الانتصار . وأي انتصار ؟ هذه نتف من جريدة قديمة التجأت اليها وأنت تقتفي أثره حتى تكوّن فكرة على شخصيّة هذا المجرم الخطير .
إثر تلك المقابلة التي خضت كلّ وسائل الاعلام وكلّ الوسط الرّياضي بثت أولى أحاديثه وتصريحاته الاذاعية والتلفزية المحتشمة . في تلك الليلة قال : إنه لم يستطع أن ينام ، اذ بدأت عروض كلّ الفرق الكبيرة تتهاطل . وقالت أمّه : لا . يجب أن يواصل دراسته . قدام مغرياتهم المادية انطاعت وانتقل من القرية الى المدينة لينظمّ الى فريقها والتحق بالمعهد الثانوي ليواصل دراسته . ولعب وكان بطلا بلا منازع سرعان ما لفت انتباه المشرفين على حظوظ الفريق الوطني فجلب إليه . وكان أهزوجة الجماهير . تشاء المصادفات الكريهة أن يحصل له عطب بسيط . أهمل هذا العطب فكانت مضاعفاته خطرة أجبرته على الانسحاب المؤقت ثمّ العجز التّام عن اللعب . عند ذلك لم يجد بدّا من الالتجاء الى الطبيب المختصّ . بعد الفحص والتحليل تبيّن أنّ العطب خطير جدّا قد يتلف الساق إن لم يعالج بسرعة . وبعد سلسلة من العمليات ـ انقطع إثرها عن الدراسة ـ عاد إلى القرية فارغ اليدين يجرّ ساقا تتطلب العديد من حصص التمسيد . وكان قد أهمل من طرف الفريق الذي ينتمي إليه ولم يتجاوز سنّ العشرين . نعم أهمل بعد أن أنفق كلّ مدخراته من لعبة كرة القدم . أعدم ذكره كأنه لم يكن ذاك اللاعب الذي وشحت صوره صدر الصحافة اليومية والأسبوعية وكلّ النشريات والدوريات التي اتخذت من الرياضة مسلكا لرواجها . ولما دخل الادارة بعد امتحان حاز سريعا احترام الجميع . مجدّ لا يعرف الكلل ولا الهزيمة . دقيق في عمله . مواضب لا يتمارض . حسن السلوك والمعاملة . يحترم رؤساءه كما يحترمونه . كل هذه الخصال رشحته للارتقاء ، فهو لا ينتظر إلا انقضاء مدة الأقدمية المطلوبة حتى يتسلق السّلم باطمئنان وثبات . لمّا جاء هذه المدينة قدمت معه أمّه . اكترت له شقّة محترمة في عمارة قديمة . هذه الشقّة لم تتوفّر لعبد الله وأطفاله . وعرف العجوز . هذه العجوز اشترت له سيارة عجزت الادارة التي تنتمي اليها عن شرائها ـ لضرورة العمل ـ . ثم اقرضته مالا لدفع تسبقة شراء مسكن شيء لم يحصل لك ولا لعبد الله . ثم قتلها للتخلص منها ومن ديونها . أبغض شيء للانسان أن يصبح عبدا . وقد أصبح حسن عبدا للعجوز . هكذا قالت جارته ؛ في البدء لم تكن له أهميّة لكنّ صمته ووجومه قد شداني إليه . ربّما الفضول ؟ ما خرجت الى الشّارع إلاّ طاردتني وشوشات الغزل وكلمات الاطراء . ولّما عرضت عليه جسدي ذات ليلة قائظة قالها بكلّ برودة :

« الا تشعرين بالبرد ؟ » .

قلت له ثائرة وجلة :

« البرد في أعماقك » .

هكذا ردّني خائبة . أدركت بعد ذلك أنّه إنسان شاذ . شاذ . شاذ . يعشق العجائز .

ابتسمت ثمّ ابتلعت ريقها وهي تمسح دموعها قائلة :

« كان الوقوف على الشرفة هوايتي . أتابع حركة المارة وحركة المرور . يخرج الى الشارع لقضاء حاجة فأنتفض أنا مذعورة ولا أعرف لذلك سببا . ولما يتجه صوب سيارته الأنيقة ـ إن كان ينوي الابتعاد تتبعه تلك العجوز الحمقاء ـ كنت أشتعل غضبا . هذا الولد الأسمر ماله ومال هذه العجوز الشقراء ؟ كنت أسأل نفسي هل أحبّه ؟ كانت أمنيتي أن يوصلني مرة الى المعهد بسيارته فيوقفها في الساحة الواسعة . ثم أنزل أنا بردائي الطويل أجرّه كما تجرّ العروسة رداءها تلتهمني النظرات الحاسدة فأمدّ له رأسي داخل السيّارة ليطبع قبلة على خدّي ثم ، أشير إليه بيدي وآمره بصوت مسموع أن يعود إليّ حوالي الساعة ؟ . . . . . وأضحك أنا فتغار الأخريات من سعادتي . أقول لهنّ خطيبي . حسن . حسن اللاّعب الدولي المشهور . لكنّ الرياح تهبّ جاهلة إرادة السفن . كان الحجر . كان الحجر . لا أعرف ما الذي رغّبه في تلك العجوزوكيف أمكنها أن تجلبه اليها . أعيناها الزرقاوان ؟ أم بشرتها البيضاء ؟ كنا نقول في القديم إن طلبتنا بأوربا هم وحدهم جلابو العجائز الشقراوات . فهو يسخّر لها سيارته وكثيرا ما يصطحبها معه في

الأماسي الجميلة إلى جولات بعيدة قد تكون في الحدائق العمومية أو على الشواطىء أو في الطرقات البعيدة أو في . . . .

لمّا كانت تحادثك وقف رجل كهل يلتهم بنظراته الوقحة جسد البنت وهي تتأرجح داخل الشقّة . أشارت إليك قائلة :

« الا ترى ذلك الرجل ؟ » .

« أراه » .

« إنه صائم » .

« تقبّل الله صومه » .

قالت لك :

« تعلّمت أنّ الصوم بضاعة قديمة وفتاة مثلي معاصرة أداة انتاج أو معدّة لكي تكون عنصرا من عناصر الإنتاج الاقتصادي لا يمكنها في عصر النور أن تعيش بعقل أستاذ التربية الدينية وخرافاته المجترّة . لذلك أزور المخازن العامة لألتهم مع بعض الصديقات لمجة وأشرب قارورة كوكاكولا «شراب منعش يساعدك على الهضم » لافتة اشهار على الجدار المقابل قرب شرفة ذاك الرجل الصائم » .

قالت لك :

« ذاك الرجل يكاد يلتهمني كلّما وقفت في الشرفة أبحلق في لافتة الإشهار التي قرأتها الملايين وقد تكون المليارات من المرات . لمّا أنهي دراستي سأعمل عون إشهار على الطريقة الأمريكيّة . عمل ممتع يجنبني الملل والسآمة أليس كذلك ؟! » .

تساءلت أنت :

« تشهرين ماذا ؟ ثمّ ما دخل هذا في تحقيقاتي أنا ؟ ثمّ إنّ الأمريكان لهم كوكاكولا ، ونحن ما عندنا أو ما يمكننا إشهاره ؟ » .

كنت تسمعها تقول لك : « لبن الناقة . لبن الناقة يا مغفّل » .

سكتت لحظة لتتابع حديثها :

« بعد أيام قليلة ينتهي رمضان وتفتح المدارس أبوابها مع انتهاء عطلة الصيف أيضا ، وتكون آخر سنة ثانوية لي . لم أكن في يوم من الأيام من التلميذات المتفوقات كنت دائما تلميذة لا تتجاوز المتوسط في أفضل حالاتها . طموحاتي هيّ الأخرى محدودة . لن أكون طبيبة ولن أكون طيارة ولن أكون مهندسة ولن أكون خريجة معهد الدراسات التجارية والاقتصادية . لمّا رأيته يحمل لفافة في يده تساءلت عن الشعبة التعليمية التي درس بها . هوّ مغرم بالكتب والمجلات . لذلك لن يكون إلا قد درس بشعبة الآداب . كان على وجهه عناء الصائمين وعناء المجرمين أيضا . وأنا أكره الصائمين وأكره المجرمين أكره الإجرام ومشتقاته وأكره رمضان في صومه لكنني أحبّ سهراته وأحنّ اليها . رمضان شهر السّهر والجولات اللّيلية ومشاكسات الشبّان المتلهفين واللّمسات الطائشة على النهود الصغيرة الكاعبة والمداعبات اللّذيذة الناعمة والدّغدغات العذبة بلا عنف والكلمات المعسولة كالزلابية . كنت أحاول تدوير وسطي وابراز مؤخرتي . سلاح أمّك وجدّتك يا أنت . ولكن السروال يجبرني أن أكون نحيفة معتدلة كالجرادة . هكذا تقول أمّي والجيل الذي سبقها . وتقول اختي : إنني بدأت أمتلىء . أختي شديدة الشبه بي . في كل تقاطيعها - كأنكما توأمان - هذا ما لاحظه أغلب الناس من معارفنا . ولابدّ أنك تشعرين بضغط شديد في وسطك من جراء السروال الذي لم يعد يلصقك بسهولة خاصة أنك عجزاء . ألم تلاحظي في المرآة نتوء بطنك الخفيف - وان كان خفيفا - فقد هزّني الذعر » .

الذي شدّك إلى هذه البنت صراحتها . جرأتها . صدقها . ضعفها . حساسيتها . هيّ تعرف أنك شرطيّ مكلف بالبحث في قضيّة قتل ، ورغم ذلك لم تتحرّج من التعري قدامك ثمّ قالت لك :

« لمّا رفضت الدعوة ألحت عليّ صديقتي أن أحضر الحفل الراقص . ولما رقصت معه تحت الضّوء الأحمر ووهجه الشديد . وأثناء غيبوبتي . . . ولمّا أفقت . . . . أنت العذراء الملهوفة المتلهفة الى جسد دافىء . . . بكيت . الأجساد كثيرة لكن . في حفلات أعياد الميلاد التي تقيمها الصويحبات المعوزات . لا يتيسر لك الاّ اللّمسات على المواقع الحساسة والقبلات الشاردة . ولمّا تعودين مرهقة تنتشرين على الفراش حالمة لا أكثر من الحلم ونداء الغريزة الفظيع . أذكر تجربتي اليتيمة بالخوف مرّة والغبطة مرّة أخرى . قد يكون وصوله في بعض الليالي متأخرا فأبقى أنا على الشرفة في انتظاره . ما ابتغي منه وقد ردني ذات ليلة خائبة ؟! كنت تؤكدين ما خاب من سعي . لن تتركيه يفلت من يديك ولو على حساب الشّرف . قد تكون الفضيحة تهزّ الحي كلّه . هكذا كنت تقولين ؟ أمّي تقول : إنّ التي تمنح لابدّ لها من أن تأخذ . وأبي يقول دائما : إنّ سلاح البنت عفّتها . تتساءلين ما معنى العفّة ؟ أن تصون البنت جسدها ؟ وللجسد طلباته . وللجسد إحساسه ؟ لمّا رأيته ذات يوم يصعد الدّرجات متعبا يحمل في يده سلّة خضر . كان يلهث . . كالكلب . تساءلت يومها : يومها : أين الكرامة ؟ في ذلك اليوم حلفت بأغلظ الأيمان أن لا أهادنه حتى يركع عند قدميّ . ولكنه صلف . ليس من أولئك الذين يركعون عند أقدام الإناث » .

قالت مرتجفة :

« لمّا وقفت قدامه يلفني خجلي أنا التي وصفت بالجرأة كنت كالمذنبة . خرجت من عنده وركضت في الشارع ووجهي محتقن . ركضت وركض الناس من حولي أدفعهم قدامي يشدّهم فضولهم اليّ . وارتميت في حضن أختي . سكنت عندها . لم أقل شيئا . لم تقل لي شيئا . أجهشت باكية . بكيت . بكيت . ثم اتجهت للحنفية لأغتسل . تجربة مرّة ، تجربة فاشلة . في غدك لعنت البنت في سرّك وجهرك وأقلعت عن مكالمتها . تلك البشمة المنحطّة صديقة كانت لك رمت بك في فم الذئب . لطمك على وجهك آمرا :

« اخلعي ثيابك » .

تجردت طائعة من ثيابك . قال لك :

« ارتعي في البيت عارية » .

ورتعت في البيت عارية وأنت تتساءلين :

« أهذه ألوان من الحبّ أم ألوان من الممارسات الشاذة ؟ » .

هكذا كنت تتساءلين . لطمك ثانية على وجهك مزمجرا :

« سكوتا يا شرّ المومسات » .

سكتّ .

« أأنت أمة ؟ » .

تناولت ما أمكنك اختطافه من ثيابك وخرجت لتلبسي بعضها على درجات السلّم والبعض الآخر في الشارع . أهناك فضيحة أكبر من فضيحتك هذه يا أمّ الفضائح ؟ إن كنت أنا قد جربتها فهو يرفضها ويتجنبها . وتبقى الأصابع تشير إليك . لمّا رآني أحد الشبان ساكني هذا الحيّ أدخّن ببهو أحد المقاهي شاع في أرجاء الحيّ أنني أدخن . فأشارت إليّ الأصابع . وكلّما مررت بجماعة من شبّان الحيّ صاحوا جميعا :

« افسحوا الطريق لصاحبة الجلالة التكارليّة » .

عفت هذه الكلمة وكرهت نفسي والزقاق وأهل الحيّ وكلّ من تقع عليه عيني سائرا فقلّ خروجي من البيت وقد بلغ مني اليأس مبلغا شديدا . كأنني المرأة الوحيدة التي دخّنت . مع العلم أنّ جلّ السّيدات الكبيرات في المجتمع يدخن » .

سألتها مرغما :

« والرجل ؟ » .

« أيّ رجل ؟ » .

« الرجل الواقف في الشرفة المقابلة لشرفتك الذي يلتهم جسدك بنهم » .

« آه . ذاك الرجل ؟ هو الذي أمرني بأن أتعرّى » .

« هل له صلة بالمتهم ؟ » .

« لا أعلم ؟ » .

« إذن ما دوره في حادث العجوز ؟ » .

« لا أعلم . » .

« إذن ؟ » .

« كلّ ما في الأمر أنني أبحث عمن أبثّه همومي وجئت أنت صدفة . أشياء لابدّ أن أتخلّص منها . أصحاب المسيح على حقّ لما صنعوا آباء يودعون عندهم أسرارهم » .

مسحت دموعها وكانت محمّرة أرنبتي الأنف ، محمّرة العينين . ثمّ قالت دومنيك . ودومنيك هذه ! كهلة قد تجاوزت الخمسين :

« أنا لا أعرف الرجل » .

أشرت إلى الجلاد أن يضرب . تعرف أنّ هؤلاء البقايا من الأجانب سريعا ما يسعى اليهم الخوف والفزع فقالت واجفة :

« لا تضرب . لا تضرب . عرفته في ليلة عيد رأس السنة المسيحية عند مدام زفرلي . استلطفته واستلطفني إثر تناول زجاجة خمر . ثمّ بتّ عنده تلك اللّيلة . توثقت صلتي به فكنت أنا الّتي تتصل به كلّما دفعتني الضرورة إلى ذلك وكلّما سنحت الفرصة . ما رأيت منه شيئا مشينا . كان دائما لطيفا مهذبا . كنت أنا التي تزوره إذ كنت لا أرغب أن يزورني في بيتي وابنتي في عمره . أو أكبر منه سنّا » .

حول علاقته بالهالكة تقول سندس عبد الحفيظ :

« سمعت عن هذه العجوز وعلاقته بها . لكنّني أعتقد أنّ الخيال في المرويات أهمّ من الواقع » .

وتقول عروسيّة :

« سألته عن علاقته بها فأجابني باسما هل تعرفين العجوز ؟ هل إنعدمت النساء في هذا البلد ، هل أقفزت الدّنيا من الشابات أم أنا مجنون ؟ . . . » .

وتقول حياة جازمة :

« الغريب أنّه غارق في حبّها حتّى أذنيه . يذوب عشقا في العجائز » .

ويقول عبد الله :

« لا أستغرب تصرفات حمقى من جانبه . الرّجل الشذوذ بعينه » .

ويقول الزين :

« لا أعتقد ذلك . حسن ولد عاقل اتسمت تصرفاته بالاحتشام والجدية وليس من المستهترين ولا المجرمين » .

وتقول دومنيك :

« علاقته بها لا تتجاوز علاقة الأم بابنها . وإنما هيّ التي دفعتني إليه . لو كان بينهما أي لون من ألوان العلاقات المستراية ما تركتني أحلّ محلّها . ثمّ إن حسن ليس من المتواكلين . هو طيب بحقّ والله أعلم » .

الملفّ ضخم . ترى لماذا سجلت كلّ أقوالهم ؟ هل لضرورة التحقيق أم فضولك هوّ الدافع ؟ خليط من كل هذا . تشعر بالدوران في رأسك . كرهت هذه القضية . لو كان يودّك التخلص منها ؟

تردّ دفتي الملفّ الأزرق المبرقع ببقع بيضاء على بعضهما . تنمحي الوجوه التي كانت ترمقك وأنت تتناول جمازتك من المشجب وتخرج من حجرة المكتب .

مناحة

يا جراحي ! يا شجوني يا نواحي ! يا بكائي
يا فجاج الهول في ليل الحياة المتنائي
يا رفيق الألم المضنيّ بمسودّ البلاء
أيها الخابط في الظلمة في أرض الشقاء
ها أنا فوق الأماني مستخفّ بالرجاء

(منور صمادح)

هذه المناحة ؟ عرفتك باسلا .
عرفتك حازما وعرفتك متكبرا .
عرفتك فوق كلّ النوائب . فوق
كلّ الأحزان والخطوب . وهذا هوّ
سرّ بقائك . لا تبك يا أنت . فالأيام
وحدها تضمدّ الجراح . وكم
على جسدك من آثار جراح .



المذكرة عدد 3

يموت الداهية حتف دهائه

هذا الولد النحيف الخجول ؟

تقدّم محتشما من السيد المهاب صاحب الخطوة والحظوة والجاه بعد أن قال خطابه الهام جدّا الذي اهتزّت له القاعة بالهتاف والتصفيق المرات العديدة وقال له خجولا : إنني شديد الإعجاب بك . قال له صاحب الخطوة والحظوة والجاه : شكرا . ولمّا تفرّق الجماعة طلب منه أن يقول فيه كلمة خير عند المسؤولين المحليين لهذا التنظيم السياسي . وهو متطوّع للعمل السياسي وبامكانه مساعدتهم في أمور شتى قد تسهل عملهم الاجتماعي ومهمّتهم النبيلة . وسيكون له شاكرا ومعترفا بالجميل . لم ير المسؤول الكبير ما يمنعه من أن يقول كلمة خير في هذا الشاب المتطوّع للعمل السياسي ـ وما أقلّ الشباب الراغب مثله في العمل السياسي في هذه الأيام ـ خاصة وإنه حصل البحث في موضوع ادماج الشباب في اطار الهيئة السياسية وادخال دماء جديدة في شرايينها حتى تبقى دائما جديدة متجدّدة مسايرة لكلّ العصور والتيّارات . ربّت على كتفه وابتسم له مزهوا ثمّ أشار لرئيس خليّة الهيئة السياسيّة فقدم نحوه مسرعا كالكلب الأمين . وقف قدامه في استعداد الجنديّ المطيع المنتظر أوامر رئيسه للتنفيذ العاجل . مسح المسؤول الكبير على رأس الولد وقال : إنّ هذا الشاب مستقبل الهيئة السياسيّة ومستقبل الدّولة أيضا . في هذه اللحظة تطاول الشاب الخجول وركبه الغرور والزهو . وقد يكون رئيس خليّة الهيئة السياسيّة قد فهم خطأ ، وقد يكون فهم صحّا ما رمى به إليه المسؤول الكبير صاحب الخطوة والحظوة والجاه . المهمّ أنّ الشاب الخجول قد عيّن مسؤولا في حركة الشّباب التابعة لخليّة الهيئة السياسيّة بالقرية .

لما التحق بالجامعة أسس خليّة الطلبة التابعة للهيئة السياسية . ثمّ قدّم نفسه مسؤولا عن الهيئة المركزية للهيئة السياسية . بهذه الصفة طالب ادماجه في اللجنة المسيّرة لاتحاد الطلبة . ولمّا كان المؤتمر كان أحد المرشحين لعضوية

الهيئة المسيّرة للاتحاد . وهنا أدرك أنّ باب الطموحات السياسية مفتوح والطريق سهلة عكس ما كان يتصوّر ما دام هنالك من يدّعي الثّورة والثوريّة . وجلّ الطلبة تصيبهم هذه النعرة . ولّما كان مؤتمر الهيئة السياسية قدّم نفسه لعضويتها كمرشح عن الطلبة . هناك من اتهمه بالانتهازي الوصولي وهناك من اتّهمه بتحريف الآراء واستجداء الأصوات وتزوير الانتخابات . لهؤلاء جميعا ابتسم لهم بسمة هادئة وقال لهم بارك الله فيكم جميعا .

لّما أحرز الاجازة في التاريخ كانت السبل قد وضحت قدامه . وكان واضحا في اختيار مسلكه فدعي للاضطلاع بمهمة داخل ادارة الهيئة السياسية . وهنا كان الطرف المعتدل في كلّ النزاعات . ونظرا لمرونته وكفاءته أسندت له أول وظائفه الهامة فدعي لمساعدة مدير الهيئة السياسية . ولما جدّت خلافات مذهبية بين مدير الهيئة السياسية واللجنة التنفيذية وأزيح هذا المدير دعي لخلافته بأمر من أمينها العام ورئيسها . وهنا كان يمثل وجه الاعتدال .

طموحاته بدأت مشروعة بعد ذلك فبدأت ملامح تفكيره السياسي تطفو وتتجلى مع مرور الأيام . وهنا أيضا بدأت خصوماته . كان دائما يبرز الضحيّة فوصفه أحد أعدائه بهيكل الدّهاء بينما وصفه آخرون بالمفكّر تارة وبالعقل الكبير تارة أخرى . والواقع أنّه كان مرنا في كلّ تصرفاته ممّا جلب له كلّ احترام وتقدير حتى أبغض أعدائه .

لّما عيّن وزيراً حافظ على منصبه كمدير للهيئة السياسية .

عيبه الوحيد اعتداده بنفسه حتى أصبح لا يرى الصواب إلا في ما ارتآه . وفي حالات عديدة كان يتنازل عن فكرته وينسبها لغيره حتى تسير مسارها وحتى لا ترتطم بحاجز المعارضة .

وتفكيره لا يخلو من انحراف . ولّما آمن بالنخبوية ولّما آمن بعامل الجهل يخدم مصالح الهيئة السياسية في زمن عمّت فيه المعرفة انحرف تفكيره . فهو لا يرى مستقبل الهيئة السياسية إلّا معتمدة على رؤساء خلايا يعصّب رؤوسهم الجهل . أي اعتمدا على أميي الحرف والكلمة . وهنا يختلف اختلافا جذريًا مع رئيس الهيئة السياسيّة الذي آمن بالمعرفة .

هوّ لا يخشى رئيس الهيئة السياسيّة لكنّ رئيس الهيئة السياسيّة بدأ يخشاه . ولكنّه بحاجة الى سلاح لارهاب اعدائه ولذلك تشبّث برئيس الهيئة السياسيّة . فباسم رئيس الهيئة السياسية تكون تصرفاته مشروعة .

لّما جدّت الأحداث العمالية الدامية سرّح في المدينة عناصر الشغب من أفراد المليشيا فأشارت اليه الأصابع بالاتهام . هنا نظر الى يديه النظيفتين فكانتا ملطختين بالدماء .

قال له أحدهم : قد تكون دماء يوسف .

قال له آخر : وقد تكون دماء ولد عائشة .

وقال له آخرون : مثلما كانت دماء يوسف أو دماء ولد عائشة فلما لا تكون دماء خميس جمعية والابرياء مثلهم من أحمد فيهم الحياة رصاص الغدر .

فصل الرضا من كتاب النقلة

في دوامة الحيرة والتوتر تنفى الحقائق . حائر أنت حائر . لم تكن جبانا ولا خائفا . إيمانك بإلاهك قويّ فأسلمت أمرك إليه . لكنّ خيبتك كبيرة كانت في الناس . ما أنصفك أحد منهم . تحاول أن تنام . أرقك أكبر من أتعابك . بدأت تسترجع قوّتك وقد مرّ زمن لم يطلبك فيه المفتش مصطفى إبراهيم . لا تعرف بالتحديد كم مرّ عليك من الزمن . قد يكون يوما أو يومين وقد تكون ثلاثة أيام . اذ استوت عندم السّاعات بل استوت عندك اللّحظات بالثواني بالدقائق بالسّاعات بالأيام وربما بالأسابيع والأشهر والسنوات ؟ ما هوّ يومك هذا ؟ أنت لا تعرف . قد يكون يوم خميس . نعم قد يكون يوم خميس . في البدء كنت تؤرخ للزّمن بمسافات عذابك ولما طال عذابك أفلت منك الزّمن . ولّما خفّ عذابك بدأت تؤرّخ للزمن بفترات الضجيج والسكينة . ففي بداية كلّ فترة سكينة كانت نهاية كلّ حصّة

عمل . لقد اهملك المفتش مصطفى ابراهيم حتى تساءلت أنسيك أم أطلق سراحك أم افتقدك كالجرذ في العتمة ؟ حصل أن يفتقدك الزّمن ذاته في الماضي لما تردم نفسك مدّة يومين أو ثلاثة أيام في شقّتك . لكنّ اللمجة تتلقاها بانتظام . مرّة في اليوم . ما يحزّ في نفسك أن تتهم بالجريمة زورا . قد يكون المفتش مصطفى محقّا في اتهامه . لو كنت مكانه من أين كنت تبدأ ؟ طبعا من باب شقّة الهالكة . وشقّتك هيّ أوّل ما يصدم الخارج من شقّتها . ثمّ إنك أعزب ولك علاقة بها ثمّ إنّ المرأة انتهت قتيلة . ترى من قتلها ؟ يا للفظاعة ؟ يا للمصير ؟ تحسّ برأسك يدور . يدور . يدور . الأرض تهتزّ الأرض ترتج . إنه الزلزال . انهيار العمارة . تندفع نحو فراشك بلا وعي . تهدأ حركة الأرض . تهدأ أنت ، فقال المفتش مصطفى ابراهيم إنك دخلت البيت قلت كان ذلك يوم أن كانت مريضة وطلبت مني أن اشتري لها دواء طرقت الباب انفتح لك الباب بحثت عن الفاتح فكان خيطا ممتدا إلى اللانهاية . ناديتها برفق فجاءك صوتها واهنا . كانت طريحة الفراش . أشارت عليك بالجلوس فاعتذرت . وأنت تلتهم البيت وأثاثه القديم . النفيس . التحف والمعلقات قديمة أيضا لكنّها ذات قيمة عالية . ليست لك فكرة عن كيفية عيشها ولا يهمّك كثيرا أن تعرف شيئا عن طريقة حياتها . لم تكن تثير اهتمامك مثلها مثل تلك العجائز اللآتي رفضن مغادرة البلاد ورفض الاندماج في المجتمع الغربي . بل كنت تحتقرهن وربما تساءلت المرات العديدة ما بقاؤهن ؟ فقالت لك العجوز : أن تحاول الاندماج من جديد في وسط غير وسطنا ونحن شيوخ فهذا مستحيل . ولدت هنا . وهنا أموت . معهم نتّحد في الجنس ولكننا نختلف في الطّباع . زرت أوربا وعرفت ذلك . عرفت كيف يهمل الشيوخ كالبهائم . أفضّل أن أموت هنا بدل من أن أقبر في مأوى العجزّ . كفاني أن أغترب مرّة واحدة . دفعت بابنائي في زمن تصوّرنا فيها اننا سنكون هدفا للانتقام والتنكيل والقمع . ولكن شيئا من ذلك لم يحصل . بقيت تكنّ لك احتراما . في ليلة رأس السنة استدعتك للسهر معهم . في تلك الليلة عرفت زمرة من اصدقائها . جوليات وزوجها شيخ يتاجر في الأحذية . دونيس وزوجها وابنها يديرون وكالة للمضاربات العقارية . تيريز وابنتها العاملة باحدى وكالات الأسفار . ودومنيك زوجة رجل مهاجر أو نافر لها ابنة متزوجة وتعمل في احدى وكالات التأمين . تفرجتم ليلتها عن نقل مباشر لحفل موسيقي وترفيهي من التلفزة الفرنسية . وكانت العجوز سعيدة جدّا وقد شاهدت إبنها ضمن المدعوين الى هذا الحفل فأصرّت على فضّ زجاجتي شانبانيا . في تلك الليلة تناولت الشانبانيا وتناولت الخمر لأول مرة في حياتك . ضحكوا جميعا . وضحكت أنت فاهتزّ مدرّب التربية البدنية مذعورا وقال : إنّ قطرة واحدة من الكحول تهدّ كامل البناء لمدّة قد يصعب بعدها التدارك . في الصباح كانت دومينيك عارية مرهقة في فراشك . لمّا قابلت روزلي ابتسمت لك راضية . رأسك يدور . يدور . يدور . تعوّدت دومنيك بعد ذلك أن تزورك بانتظام فكانت تقضي معك كامل مساء يوم السبت أو كلما ابتغت هيّ منك ذلك . لمّا زارتك أمّك قدمت لها صديقتك العجوز فقالت لك : ان العجائز أخوات الشياطين ثمّ سألتك مهمومة :

« أمن أجل قذارة الدنيا قتلت يا حسن ؟ ما عرفتك سفاكا للدماء ولا قاسي القلب . أنت الذي يؤلمه أن يرى جرحا بسيطا على جسم حيوان فضلا عن قتل انسان ! أنت الذي يأبى ـ دون بقية الصغار ـ أن يصطاد عصفورا ويعذّبه . أنا لا أصدّق » .

في البستان . تحت شجرة التين . تلك الشجرة العظيمة الهرمة ردمت فخّا . جاء بلبل جميل . رآى الدودة تتلوى مشدودة بسلك من عرف سمار . بجّح بذيله مرات عديدة ثمّ انقضّ عليها بشراهة . انتفض عليه الفخ . ركضت اليه . حاولت خلاصه . خفت أن تؤلمه أصابعك . انفلت من بين أصابعك . حلّق في الفضاء هاربا . كانت المرة الوحيدة التي حاولت فيها صيد عصفور .

قالت لك يائسة :

» لو طلبتها منّي يا حسن لصوّرتها لك قطعا نقدية من لحمي » .

لابدّ أن تكون قد بكت ولابدّ أن تكون قد أزاحت عصابتها . ولابدّ أن تكون قد مزّقت شعرها . ولابدّ أن تكون قد جحظت عيناها . ما عساك ان تقول لها ؟ وهل تصدّق ؟ ترى ما أخّرها ؟ طلبتها ولكنها لم تحضر .

زارك رجل وادّعى أنه محامي . طلب منك الحقيقة . في البدء حاولت إقناعه بأنك لم تكن القاتل . سألك لماذا تتهم أنت إذن دون غيرك ؟ قلت له : ألق هذا السؤال على المفتش مصطفى إبراهيم وهو أدرى بالاجابة . ثم زارك ثانية وثالثة . وفي كلّ زيارة يلحّ عليك أن تصدقه القول حتى يلتمس لك أقصى ظروف التخفيف وحتى يمكنه أن يرشدك دون ان تقع في أخطاء قضائية فادحة قد تؤدي بك الى المقصلة أو حبل المشنقة . فهو ما ينفكّ يذكرك أن جريمتك مقرونة بالاضمار وعاقبتها قطع الرّقبة . إلحاحه في معرفة الحقيقة ادخل الريبة في نفسك فطلبت منه أن يكشف لك عن بطاقته المهنية . امتنع . هل هو محام حقّا ؟

قبل أن تخرج من مكتبك اختلت بك سندس وطلبت منك نفس الطلب وأن تسرّ لها الحقيقة ؟ ثمّ سألتك لماذا قتلتها ؟

مصطفى إبراهيم قال لك : إنك أصبحت مشهورا جدّا . ثمّ نفض قدامك مجموعة من الصّحف المحليّة والعالمية . كانت تحت نظراتك الشاحبة جريدة المساء . وقد كتبت على صفحتها الأولى بخطّ غليظ أحمر « من أجل دريهمات قليلة زهقت روح عجوز بريئة » وكتبت جريدة الاستقلال « هؤلاء الوحوش يجـ . . . . . أمّا جريدة المساء الفرنسية فقد كتبت « جريمة أخرى عنصرية تقترف في بلد مسلـ . . . » كلّ ما وقع عليه بصرك من عناوين بارزة . تعرف مثل هذه الكتابات مادمت قد طالعت الكثير منها في صحيفتي المساء العربية والفرنسية . لم تقرأ مقال صحيفة المساء ولكنّك تعرف ما قد يكون كتبه صاحبه . لابدّ أن يكون قد تحدّث عن الدّوافع الإجتماعية الدافعة الى القتل ثمّ انساق في تحليله الاجتماعي لأسباب الجريمة من خلال ملابسات القضيّة واستنتج منها أنّ طموح شباب العالم الثالث المائع الى محاكاة شباب العالم المصنّع هيّ الدوافع الحقيقيّة للجريمة . ثمّ يلوم كعادته في مثل هذه القضايا دور السنما على عرضها بعض أفلام الجنس والعنف التي لا تمتّ لواقعنا العربي الإسلامي بصلة إضافة الى أنّها خالية من أيّ مدلول فنّي أو حضاري . ولا يمكننا أن نجني منها الاّ مساوىء العالم المصنّع ذاك العالم الذي يعيش تخمة النموّ . مجموعة كليشيات تحشو المقال ثمّ يسرد وقائع القضيّة كأنّه شاهد عيان . لذلك لا تستبعد أنّه قال : إنّ هذا الشاب يحاكي كلّ ما تقتضيه حياة شاب يعيش في احدى مدن العالم المصنّع . فهو يسكن شقّة فسيحة بمفرده بينما العديد من العائلات ذات الحجم الكبير والعدد الوفير تفتقر إلى نصف مساحة هذه الشقّة . ويدفع فيها أجرة كراء حوالي ثلثي راتبه الشهري . هذه الشقّة مؤثّثة على النمط الغربي مع اختلاف طبعا في المستوى . والواقع ؟ أنّ أمّك قد ساهمت بقسط كبير في كراء هذه الشقّة وتأثيثها أيضا . ألم تشتر لك الثلاجة والسرير والمنضدة والخزانة وكلّ لوازم المطبخ ؟ دفعت ذلك من منحة الموت العائدة إليك بعد موت والدك . ولمّا كان ترسيمك في وظيفتك جاءتك منحة تدارك وتغطية لارتقائك في السلم لمدة عام . إضافة الى منحة الانتاج لسنة كاملة أمكنك أن تشتري قاعة استقبال وجزءا من المكتبة . وكان يملك سيارة . والسيارة حتى يومنا هذا وفي مجتمعنا هذا ما تزال معدودة من الكماليات . وكثيرا ما يرتاد المطاعم الفخمة . تنكر هذا ويمكنك أن تقول له أنك سفيه . لأنك نسيت المطاعم الفخمة بعد انسحابك من الوسط الرياضي . كل هذا من أين ؟ المجرم معشش في وكر عجوز من مخلفات المستعمرين . ولها مدّخرات ورصيد ضخم بالبنك . حاول بادىء الأمر ابتزاز أموالها بطرق مختلفة ولما عجز التجأ الى الانتقام وأيّ انتقام ؟ القتل . وكيف كانت ظروف الجريمة ؟ جاء في تقرير الشرطة . شرطتنا الحازمة أن الهالكة تقطن وحيدة . وكان الجاني يسكن في الشقّة المجاورة لشقّتها . جاءها كعادته ـ وكان يتخذ منها خليلة للنيل من ثروتها مع العلم أن المرأة قد تجاوزت السبعين بينما المجرم ما يزال في بداية عقده الثالث . ـ طرق الباب . فتحت له العجوز الباب . رمت نفسها في حضنه . جرها إلى الفراش فانساقت له المسكينة مطواعة . أخرج القاتل قضيبا حديديا من جيبه وضربها على رأسها ضربتين قاسيتين فأسجاها على الفراش قتيلة ثمّ عاث في البيت مطمئنا باحثا عمّا يمكنه اختلاسه من ثمين المتاع . هذه ملابسات القضية من خلال استنتاجات الشرطة . ولنا عودة لاعطائكم المزيد من الايضاحات . اسطوانة معادة . قد تكون الهالكة قتيلة حقّا ؟ أتكون حقّا أنت قاتلها ؟ أنت لا تذكر ذلك . وصلك الخبر كما وصل إلى أيّ ساكن آخر من سكان العمارة . على باب العمارة تجلّت معالم الشيخوخة والإهمال . على بابها وقف حارس مقيم في شقّة مظلمة وراء بابها الكبير . بدأ اللّغط

والاحتجاج يوم عودة أمّك إلى القرية . استنكر الأجوار وجودك أعزب . صيغة الاستنكار تتجاوز في واقعها حالتك المدنية . ترى ما يهمهم من أمرك ؟ وقد تكون قد سلّطت على واقعك الاقتصادي ؟ الكثير من العائلات ينحشرون بأطفالهم الذين يتجاوزن غالبا السبعة لدى العائلة الواحدة بينما ترتع أنت الواحد في شقة تعددت حجراتها . ذات يوم خرجت لبعضهن الثائرات عن وجودك بينهن أعزب خجلا . وقد حاولن ابلاغ صوتهن المحتجّ اليك . وكن مجتمعات في بهو الطابق الأول وقلت فيهن خطبتك المشهورة . أطبق الوجوم عليهن . ولمّا سكت أنت نظرن إليك نظرات حائرة انفجرن اثرها ضاحكات . احمرّ وجهك وأنت تدخل في أوقات منتظمة وتخرج في أوقات منتظمة . قلّ أن تصادف أحدا وقل أن يصادفك أحد على مدارج السلم حتّى ظنّ بعضهم أنّك هجرت الشقة . قبلتك سكنت العجوز . طليانية الأصل . فرنسية الجنسية افريقية المولد والمنشأ في عينيها الزرقاوين بقايا ملاحة لا يمكن للزّمن طمسها في وجهها المستطيل مذبب الذقن . بدأت بتحيتها فكانت تبادلك التحية باحتراز . ذات يوم عطلة صادفتها تحمل سلة خضر وهي تصعد درجات السلم لاهثة متعبة . فرضت عليها مساعدتك رحمة بكبرها وشفقة . اذعنت لارادتك . قالت لك مرّة : إنها كانت تخاف العرب . لقد صوروا لها العرب أغوالا . هكذا قالت لك . وقالت لك أيضا : إنك مهذّب وأنت غير أولائك الذين تخافهم . ثمّ سألتك إن كانت لك صلة بالجالية الاوروبية ؟ أي هل كانت أمك مثلا خادمة لدى احدى هذه العائلات ؟ قلت لها : إنك من أولائك العرب وكلّ العرب سواء وليست لك صلة بالجالية الاوروبية وكان الخطأ في الحكم والتفكير . مرّة أخرى كلّفتك بخلاص تعريفة الكهرباء والغاز . ولمّا أرجعت لها باقي الصرف مع الوصل هزّها العجب . سألتك أهنالك آخرون من فصيلتك لهم ثقتك ؟ بدأت تشكّ في مداركها العقلية ثم أدركت أنها انسانة مغلقة لا غير . ثمّ تعودت أن تحادثك من حين لآخر في شؤون الحياة وهي لاهثة في أعلى السلم أو منهمكة تضع المفتاح في ثقب القفل . تأسف كثيرا لانقراض الأيام الحلوة فتلعن الـزمن الكلب ، زمن الكلاب ، وتلعن الكبر ، كبر البهائم . وتلعن الوحدة المرّة القاسية . لها ابناء هاجروا الى الغرب بل هيّ التي دفعت بهم الى الهجرة وانقطعت صلتها بهم بل انقطعت حتى الأخبار بعضهم إلاّ واحد منهم تراه بين الحين والآخر بمحطات التلفزيون الفرنسي عندما يقع نقلا مباشرا أو مسجلا لبعض المنوعات التي يساهم في اعدادها وتقديمها . قالت : إنّ ابنتها المشتغلة بالسنما وهي النجمة الساطعة دعتها مرّة لزيارتها . رفضت الدعوة . لمّا توفي زوجها لم يحضر أحدهم جنازته رغم انها أعلمتهم جميعا بتلغرافات الى آخر ما وصلها من عناوينهم . روبيرطو كان حدادا يدير مصنعا صغيرا . لما مات ترك لها ثروة كبيرة ومصنعا كبيرا أغلقت أبوابه إثر خلاف بين عملته ومسيريه . ثمّ وضعته للبيع بعد حصولها على تفويض من كلّ أبنائها الذين اتصل بهم المحامي . كانت تقديراتها لقيمته تعود الى سنوات الحرب العالمية الثانية عندما كان روبيرطو يحاول أن يجلب اهتمامها الى واقعه المهني . وحين كان الفرنك الواحد خيرًا من ألف في حاضره . لمّا تقهقرت قيمة الفرنك تقهقرت وراءها كلّ القيم .

الصوت سائلا قريبا منك :

ـ المفتش مصطفى ابراهيم هنا ؟

ارتعشت فرائصك . هو صوت ذاك الرجل الذي اصطحبك الى هذا الجحيم . لمّا أطلّ عليك برأسه جثته مطيعا كالشاة الوديعة . دخلت معه الحجرة . كئيبة مظلمة . في زاوية منعزلة شرطي ببدلته الرسمية . قميص من الترقال الرمادي وسروال مثله . عاري الرأس أسود الشعر يجلس وراء مكتب خشبيّ . من مدة قصيرة بدأت الادارة تبدل ثوبها . لقد انقرضت المعلقات الصفر والأثاث العتيق نخر الألواح . على المكتب قطعة بلور تغطي كامل سطح المكتب . وحوله أوراق مختلفة الألوان مرصوفة على الرفوف الخشبية كأنها قاعة أرشيف . قبلتك وقد تصدّر المكتب رجل الظاهر أنه أحول . يبعث نظراته ثقيلة مرعبة يدخن ساكتا . أنت تكره التبغ ورائحة التبغ والمدخنين له . أشار إليك بالجلوس . انسحب الرجل الذي اصطحبك . جلست . ناولك لفافة تبغ ثم سألك فجأة :

« مدام زفرلي ؟ أتعرفها ؟ » .

« نعم أعرفها » .

« لقد ماتت » .
« تغمّدها الله برحمته الواسعة » .
« لندخل مباشرة في صلب الموضوع . الألسنة الطويلة تروّج احاديث حول علاقتك بها . هناك مزاعم . نعم هناك مزاعم . قد يكون فيها نصيب من الصحة . وقد تكون كلّها افتراءات باطلة » .
« أما باطلة فهو الصواب » .
« صبرك . أتعرف فحوى هذه الأحاديث ؟ أنا أطلب منك أن تحدّد علاقتك بها » .
« علاقتي بها . علاقتي بها تتجاوز أو تجاوزت حدود علاقة طبيعية . في البدء كانت علاقة حسن الجوار . ثم انتهت الى تبادل الزيارات . ثم الى تبادل العواطف . هذه المرأة رغم اختلاف الجنس والدين لم تعد بالنسبة لي تلك المرأة الطليانية المهجورة المنعزلة قد تكون أمّا . وقد تكون أشياء أخرى ؟ » .
تبادل الرّجل نظرات مع جليسه الكاتب على آلة راقنة فاكتشفت أنّه يسجل كلّ أقوالك . ثم قال لك الرجل :
« إذن ، علاقتك بها تتجاوز حدود حسن الجوار والمعرفة المسطحة الى علاقة تعاطف وتوادد و . . . .
« تماما » .
« أتستطيع أن تحدّد هذه العلاقة ؟ » .
« كما أشارت آنفا هيّ خليط من شتّى العواطف النبيلة » .
« مثلا » .
« مثلا . مثلا . مثلا . لا أعرف مثلا » .
« يشاع انك خليلها » .
« أنا خليلها ؟ » .
« خليلها نعم » .
« ما معنى خليل أو خليلة ؟ » .
« أنا أسألك . وأنت تجيب . ثمّ خليل معناه خليل . معناه رجل يحبّ امرأة أخرى غير زوجته » .
« أيّ لون من ألوان الحبّ ؟ » .
« كفاك فلسفة . الحبّ معناه رجل يضاجع امرأة » .
« خطأ في الفهم والمفهوم . أتعرف مدام زفرلي ؟ أقصد هل سبق لك أن رأيتها مرّة قبل موتها ؟ » .
« رأيتها جثّة » .
سكت الرّجل وانهمكت ترسم دوائر بإصبعك على بلور المنضدة وبسمة عريضة على شفتيك . سمعت مثل هذا الكلام من فتاة . حياة !! جارتك السّمراء . ضحكت وهي تصفعك بعشيق العجائز . مدام زفرلي قد تكبر أمّك . قطعا تكبرها . وقد تكبر جدّتك . جدّتك انتظرت ذاك اليوم الذي رأتك فيه رجلا عاملا كبقيّة العاملين لا البطالين . والبطالون كثرة . والكثرة المتفرّقة في القلّة المتعاضدة قلّة . وجاء اليوم الذي رأتك فيه عاملا ثمّ ماتت فجأة .
« كنت تقول أنّ علاقتك بها تتجاوز الحدود الطبيعية لعلاقة حسن الجوار » .
« وهو كذلك » .
« ما هوّ هذا التجاوز ؟ » .
« سيدي . العلاقات الانسانيّة الصادقة ، العلاقات النزيهة النظيفة لا ترتجى منها منافع مادية وتنكر في أغلب الأحيان الجنس والدين والزمان » .
« أوافقك تماما » .
« فعلاقتي بمدام زفرلي بعيدة عن كلّ ما يدور حولي أو حولها من مزاعم ومن أقاويل . أعاملها بالحسنى فتعاملني بالحسنى . هذا كلّ ما عندي أن أقوله لك » .

« الخلاصة أنك على صلة بالهالكة مدام زفرلي وعلاقتك بها علاقة توادد وتجاوب » .
« وهو كذلك » .
« انتهى » .
أشار إلى الراقن فمدّ لك الورقة . نظر فيها لحظة ثمّ سلّمها إليك آمرا :
« امض هنا . إمض » .
قلت : إنك لا تمضي على شيء لم تقرأه . بدأت تقرأ الورقة فحتك الرّجل الأحول :
« وقع .. وقع » .
« صبرك » .
« أليست لك ثقة في الشّرطة ؟ »
« أنا لم أقل هذا » .
« إذن » .
قرأت تلك الورقة المستطيلة جدًا والمكتوبة من أعلاها الى أسفلها كأنّ هنالك أزمة ورق قائمة . القراءة متعبة جدّا . التعابير ركيكة جدّا . الرجل ينظر إليك ثم يحتك بنظراته الحولاء . الحقد في نظراته الحولاء . الحقد في حركاته . نسيت أنك تقرأ ما كنت صرّحت به . حتّك الرجل فنظرت إلى السطر الأخير ثمّ تناولت القلم ووقّعت أسفل الورقة بينما الرّجل يفتكّها منك . طلب منك وأنت تخرج من القاعة ان لا تغادر المدينة هذه الأيام حتى يستوفي تحقيقاته . لما خرجت تنشقت الهواء الساخن الرطب . أحسست به نقيا اعتقدت أن المشكل قد انتهى كما انتهت مدام زفرلي . انتهت وحيدة وكانت تخاف من وحدتها . وها أنت محدود التّصرفات . لم يسبق لك أن غادرت المدينة ولا أحسست فيها يوما أنك تختنق ولكنّ رغبتك في الخروج منها أضحت لا تقاوم . تكاد تختنق في هذه المدينة . خرجت تتنشّق الهواء . في طريق الميناء اندفعت . الطريق مبسوطة تقودك الى البحر . على الشاطىء وقفت . يمرّ بائع متجوّل يدفع عربته . عربة مثل أيّ عربة لبائع متجوّل مملوءة ببضاعة : خضرا مثلا ، أو غلالا مثلا ، أو فواكه مثلا . لنفترض أن هذه البضاعة بطيخ أو دلاع . ولنفترض أنّ هذا البائع قد لاحظ السائحة المنعزلة في ذاك المكان النائي من الشاطىء الفسيح . انبطحت تعرض جسدها للشمس وقد تجرّدت من حصّارتها وسروالها ولنفترض أن البائع المتجول وقف متأملا خلق الإله فثارت غرائزه . نزل ركضا اليها . ارتمى عليها فجأة . انتفضت مذعورة . لصقها البائع المتجول مصمما على اغتصابها . اذعنت المرأة لارادته بعد مقاومة . استسلمت له . ركض نحوهما المصطافون . قام الولد مسرعا منكسا رأسه . تطوّع أحد المصطافين بتأديبه . ولنفترض أن لهذه المرأة بعلها الذي قدم ركضا . تناول البائع من عنقه وانهال عليه صكّا وركلا حتى أغمي على البائع المتجوّل . لا أحد قد حاول افتكاكه من يد الصعلوك الأشقر . لنفترض انك الوحيد الذي تقدّم منه . تناولت الرجل من كتفيه وكبّلت حركة يديه . انتفض ليغيثك بلطمة قاسية على وجهك . [illegible]يت الطمة ولكنك منعته من أن يواصل ضربك . حاولت اقناعه بأنه في مجتمع منظم له قوانينه الزاجرة وله أيضا [illegible]اليده المتحفظة وله مركباته وعقده الجنسية وله خصاله ومزاياه الانسانية وعفته ونظافته الجسدية والروحيّة ومعتقداته الدينية . كان الأولى بهذه المرأة أن لا تعرض بضاعتها بهذه الطريقة المفضوحة لأن الرجل مهما كان عاقلا ومهما كان منضبطا فانه لا يرى في المرأة من أول وهلة إلاّ أنثى صالحة للمضاجعة . مهما كانت قيمة هذه المرأة فانها أنثى قبل كل شيء . كان الأحرى بهذا الرجل ان يصاحب البائع المتجول الى مركز الشرطة بدلا من ان يقتص منه لنفسه . لا تعتقد ان الرجل قد فهم منك الكثير رغم أنك تكلمه بلغة فرنسية . ركب رأسه وقد تصور انه بطل لا يقهر . تقدم نحوك وسدّد لك لكمة قاسية في وجهك فطار صوابك وتلفتك العروسية في حضنها . ابتسمت لك . ابتسمت لها . تناولتها من ذراعها وسرت وإياها ضاحكين . العروسية ؟ فتاة متواضعة لا أكثر . قليلة الحركة . قليلة الكلام قليلة الزيارة الى مكتبك أيضا . في البدء كانت بينكما نفرة . كانت تزور سندس من حين لآخر فتنكمش قدام ثورتها . تنكمش قدام انفجار جسدها وهيجانه . لما تعطلت سيارتك ذات مرة وكنت تقطع المسافة بين الادارة

والمحطة صادفتك على الطريق وحيدة . حييتها فحيتك . حاذيتها ومشيت . سألتك عن أحوالك . سألتها عن أحوالها فكانت مثل أحوالك على ما يرام . ابتسمت لك . ابتسمت لها . اكتشفت لأول مرة أن الفتاة ضاحكة خير منها صامتة . على المحطة وقفت . وعلى المحطة وقفت حذوك ساكتين على المحطة . كانت متقدمة قليلا . وكنت مستندا الى المظلّة الصفراء والبيضاء . فتاة نحيلة لكنها أنيقة الملبس . كل شيء محكّم نظيف . هذه الأناقة ؟! التفتت اليك . ابتسمت لك كأنها تطلبَ منك ان تتقدم حذوها . حاذيتها . كأنها تحاول ان تقول لك : إن نظراتك تخزها على ظهرها . عيبها ؟! عيبها أنها عبلية الردفين . كانت تمشي قدامك وكنت تمشي خلفها تحمل قفّة . وقفت عند بائع القرع الأحمر . ألحت عليك أن تطبخ كسكسي ثم تناولت بصلا تأملته ثم رمت به على كدس البصل غاضبة :

« البصل النتن بنصف دينار الكيلو الواحد ! » .

وقفت أنت وراءها وقد بدأت ساقك تكلّ . نظرت في وجهها فالتقت نظراتك بنظراتها . ابتسمت لك ثم امتدت يدها الى كدس الطماطم . بمائتي مليم ؟! هذا الغلاء الفاحش لم نتعوده في الخضر . في سنة مضت حدثت ازمة بطاطا . التجأت الحكومة الى توريد البطاطا . ماذا حصل بعد ذلك ؟ وضعت البطاطا في السوق بمائة مليم . هذا غلط . هذا ما أخبرت به أجهزة الاعلام الرسمية . نعم وضعت البطاطا في السوق بمائة مليم . وأي سوق ؟! أي سوق . وزعت البطاطا بمائة مليم على الفلاحين أولئك الاقطاعيون فاشتراها المستهلك بأربعمائة مليم . السبب بسيط . ان نسبة كبيرة من رجال البلاد السياسيين من فئة الفلاحين ورثة المعمرين . لنلاحظ ما حصل في سنة 1971 حتى نعرف كيف تطورت الأمور ؟ القفة ما تزال فارغة في يدك والدريهمات قليلة في جيبك ولابد لك من أن تأكل وعروسية تدور في السوق وتدور أنت تتبعها مطيعا . نظرت اليك نظرت اليها . ابتسمت لك ابتسمت لها . العيب فيها ؟ العيب فيها أنها ضيقة الجبين . حدثتك سندس عن مأساتها . عن خوفها من ان تبقى عانسا . خطبت مرات ولم توفق الى الرجل المنشود . تناولت بعض الخضر لتمدها للبائع . تناول البائع من يدها الخضر لوزنها . نظرت اليك باسمة . نظرت اليها باسما . أومأت اليك أن تدفع الثمن . تجولت معها عبر ممرات سوق الخضر . اشترت لك بعض الفواكه . نظرت اليك باسمة نظرت اليها باسما . العيب فيها ؟! . العيب فيها أنها نحيلة جدا وأنت تكره المرأة النحيلة جدا .القفة ثقيلة في يدك . بدأت تحس بالتعب . انقرض ما بجيبك من دراهم . ابتسمت لك . ابتسمت لها . أسدلت هدبيها على عينيها الكبيرتين وهي تتفحص رطل فراولو في سلة صغيرة من البلاستيك . الرطل بدينار . ماذا لو اشتريت هذه السلة ؟ ابتسمت لك زاجرة . ابتسمت لها ويدك تا[illegible] سكت عويل جيبك . لو كانت لك دراهم لاشتريت هذه السلة . قالت لك : إن اردت فراولو فاشربه باردا او العقه ثلجا . ابتسمت لك . ابتسمت لها . شعرها الناعم يغطي جبينها الضيق . أشارت اليك سائلة : إن بقيت بجيبك دراهم . أشرت اليها : أنها نفذت . التفت اليك باسمة التفت اليها باسما . نظرت إليك كأنها لائمة . كأنها تطلب منك أن تتقدم إلى جانبها . الصمت ثقيل على المحطّة . كأنها تقول لك : إنّ نظراتك تخزها على ظهرها . المحطة امتلأت بالواقفين . هذه الجفوة ؟ الحافلة لم تظهر . نظرت في وجهها . التقت نظراتك بنظراتها . ابتسمت لك ابتسمت لها . لم يسبق لك أن تزودت من السّوق بمثل تلك الطريقة ولا بمثل تلك الجودة . شعرها الابنوسي يغطّي جبينها الضيق وعيناها الكبيرتان في وجهها الشاحب المستطيل . هذه المزايا ؟ لم يسبق لك أن اكتشفتها . الحافلة تطلّ . نظرت في وجهها . التقت نظراتك بنظراتها . ابتسمت لك . ابتسمت لها . وصلت الحافلة . أرست الحافلة . ركبت بعسر وركبت بعسر وراءها . الحشو . الحشو . الحشو . ميزة هذا العصر . الحشو . الحشو . الحشو . التصقت بها مرغما . الدفء يسري في جسدك . واجهتك ثمّ رفعت لك نظراتها معتذرة . طمأنتها . تدحرجت الحافلة فتدحرجت معها فلم تجد مكانا تشد فيه وبجنبك السقوط إلاّ نهدها . غمرته بكفّك . تشممت عطر رأسها رفعت اليك نظراتها لائمة . بعثت بنظراتك إليها معتذرة . مدّت الى المراقب بطاقة اشتراكها . دفعت ثمن تذكرتك . نزلت . شيعتك بنظراتها وأنت تشير اليها مودّعا . الطريق طويل وأنت وحدك تائه في أزقة المدينة . الأصدقاء قلة وقلّة نادرة . التهمة الموجهة اليك أنك وحشيّ سريع النفور . غير اجتماعي انعزالي . أي إنك بدويّ يرزح تحت وزر وحدته . في البدء كانت وصية

أمّك الرقيب . فهي ما تنفك تذكرك بأن الخلطة بلطة واقتنعت أخيرا بأن اتقاء الناس خير عمل يقوم به الانسان حتى يتجنب شرهم . ولما يفرض عليك أحدهم نفسه كرفيق لجولة أو جلسة كنت تتحمله ثقيلاً وتلفظه مرتاحا . قرأت في كتاب « أن الكتاب خير صديق » . آمنت بهذا واتخذت منه صديقا . عرفت مدى أهمية الكتاب . لكنك لم تعد ترى المجتمع إلاّ من خلال دفّتيه . تشتري الكتب . تقرأها . تحاور كتابها . تحاور شخوصها . تتعاطف معهم تعارضهم . تخاصمهم . تنكر أفكارهم . تتقبل أفكارهم . كان لا يهمك من الكتاب الا الجانب الأخلاقي . الجانب الانساني . الجانب الوجداني . ثم بدأت تهتم بالجانب الفكري . كنت تسجلّ ما يهزك من أفكار في كنّش صغير . وكنت تنقل حتى بعض الرسوم في ذاك الكنّش . دفعت جسدك بين الأجساد المتلاطمة . مشيت في الأزقة الخلفية . فجأة وقفت وجها لوجه معها . كانت تغادر عمارة قرأت على بابها لافتة لطبيب امراض نسائية . ابتسمت لك . لم تشأ إحراجها . دعتك الى صحبتها ثانية . مشيت معها الى المحطة . كنت خجولا . خجولا لماذا ؟ صامت كنت وصامتة كانت طول مسافة الطريق وأنت تفكر أنّها زوجتك تعود معها الى البيت بعد عمل النهار . كان بودك أن تطول المسافة . وكان بودك أن تحدثها في شؤون الحياة في شؤون العائلة . قالوا : إنك لم تزل صبيا . لا تفكر في مواضيع حياتية لا تهم الا الكبار . فقلت : أحدثها عن الوحدة المرة . أحدّثها عن الفراغ يملأ حياتك ويملأ البيت . لكن المسافة قصيرة فلم تشعر أنها تمدّ لك يدها مودّعة . مددت لها يدك مودّعا . قرأت في نظراتها الخيبة . لم تكن تنتظر منك أن تكون جمادا . كانت تقودك كالحيوان الأبكم . مالهم يتدخلون في حياتك الخاصة ؟ لن تكون الأول ولا الأخير الذي يتزوج امرأة أكبر منه سنّا . لقد كانت تنتظر منك أكثر . في طريق عودتك التقيت بسائق شاحنة نقل بضائع تربط القرية بالمدينة . حدّثك عن القرية وخمول أهلها . لعن العاطلين . لعن الجمود المهيمن . بصق على الكلاب أجلسك في مقهى ثم دخل داركم . فضح أختك التي تقضي ليلة الأحد بعد ان تغادر المبيت عند شاب متوظف من القرية . احمرّ وجهك . ألجمك الصمت . أختك من أمهر الناسجات يخطبها فلان ابن فلان . الرجل بلا عمل ويأمل كثيرا ان يعشش عندها وبذلك يضمن رزقه . ثم ان اختك هي الراغبة في هذه الزيجة . ما ألجأها ؟ أختك المتزوجة في خلاف دائم مع زوجها . التجأت الى داركم غاضبة لما أنفق زوجها كامل مرتبه الشهري ذات ليلة في مدينة مجاورة للقرية في الخمر صحبة القحاب . قال لك : إن الخمر هي الوسيلة الوحيدة للهو في القرية . قلت له : وفي المدينة أيضا . هذه الحانات المنتشرة عبر شوارع المدينة بكثافة مخجلة ؟ دفعت ثمن القهوتين . ودّعته . رجعت الى شقّتك مهزوما . فتحت الشرفة . رأيتها في قميص شفاف . لما أحست بك فوقها دخلت غرفتها مسرعة . أنت تعرف أنها ستبقى تراقب حركاتك من وراء ألواح الشباك . لتدخل أنت الى العتمة . لتترك لها هذا الفضاء . هذه الشرفة . كيف يعقل ان تكون نحيلة وطريّة في آن واحد . العروسية لغز . والطرقات خفيفة على الباب . تمتد يدك لتفتحه متسائلا :

« من ؟ » .

لا تجيب . تفتح الباب فينحشر جسد الى الداخل .

« دومنيك ؟ أنت ؟ » .

« جئتك في أمر هام ؟ » .

« هات » .

« استنطقني البوليس . اعترفت بعلاقتي بك . تحت الضغط اعترفت . قلت كل الحقيقة » .

« وما الغريب في ذلك ؟ » .

« أخشى المحاكمة . أخشى الفضيحة ؟ » .

« هذا لن يحدث » ,

نفخت مرتاحة . استلقت على السرير . برزت بثور على ساقيها أفقدتك الرغبة فيها . سألتها قلقا :

« ألا من جديد في حكاية روزلي ؟ » .

« لا علم لي » .
« مسكينة » .
« مسكينة . طبعا ليست لك صلة بالجريمة ! » .
« أتشكين في حقّ أنت ؟ » .
« لا والله » .
دفعت بوركها نحوك . خلّلت أصابعك في شعرها الأشقر . غبت في زرقة عينيها لا في زرقة ساقيها . غريق لم تنجدك أهدابهـا الطويلة . في تلك الليلة . في تلك الليلة ؟ خرجت معها حتى باب العمارة . رأيت المارة في اضطرابهم . رأيتهم يتراكضون . ابتسمت لك ثم سألتك :
« ما قولك في سيارة يا حسن ؟ » .
« نعمة أراها ولا أحلم بها . انا إنسان معوز » .
« أيمكننا التعاون » ؟
« بقدر المستطاع » .
« شرط بسيط وتكون لك سيارتك . أو سيارتنا معا » .
« أنا لا أريد أن أحلم » .
« وأنا لا أمزح » .
« وإذن ما هي هذه الشروط أو هذا الشرط ؟ » .
« أن تقضي لي حاجتي وتوصلني الى حيث أطلب منك » .
« مبدئيا أنا قد أغلقت باب الطمع . ثم إنني أقضي حاجتك طوعـا دون مقابـل وأنت تعرفين هذا ثم انني أشتغل .... » .
« لا أقول عكس هذا . وأنا لك شاكرة . المشكل أننا قدام مشكل التنقل لابدّ أن نجد حلا بديلا لمشكل النقل العمومي . وفي انتظار حل المشكل الجماعي يمكننا حلّه فرديا . فأنا لا أطالبك بأكثر من امكانياتك . أنت تعرف أن تنقلاتي محدودة جدّا وغالبا ما تكون بعد أوقات العمل » .
« باقتناعك هذا لا أجد منفذا للهروب . اتفقنا » .
فاجأتك وهي تمدّ لك أوراقا لاتمام اجراءات شراء السيارة مع منحها حقّ الامتياز على البطاقة الرمادية . أحبّتك كابنها وأحببتها كأمّك فلماذا تتهم أنت دون غيرك بقتلها ؟ ألأنّك أقرب الناس إليها ؟ مالك تبكي ؟ الالتهاب في محجريك . لم يسبق لك أن شاهدت قنابل اللاكريموجين إلاّ من خلال مشاهد مصوّرة على شـاشة التلفـزيون أو السنياء . في ذلك المساء اشتدّ سعالك . أشياء كنت تسمع عنها في أجهزة الاعلام وفي أماكن أعدّت للضرب والقهر في ربوع القمع والجبروت . ركبت السيّارة . ركبت دومنيك حذوك لتوصلها إلى ساحة « فليمنغ » . على مستـوى شارع محمد عليّ رأيت جمهرة . مجموعة من العمّال . في ذاك الصباح دعت النقابة الأساسية إلى الاضراب . أشياء لا تهمّك . البوليس يحاول تبديد المجموعات . رائحة اللّكريموجين تؤذي عينيك . امتدت يدك ترفع زجاج الشبّاك . في شارع فرنسا مجموعات من فرق النظام العام منتشرة على كامل مسافة الطريق حتى منفذ نهج عنابة . الوحدات البوليسية تسدّ المنفذ . سيّارة مصفّحة راسيّة في الظلمة . أين المصابيح الكهربائية ؟ أطفئت قهرا أم طفئت عفوا ؟ بدأ الخوف يتسرّب اليك فدست على المعجال لمّا قام خطيبا في احدى ساحات المدينة . قال : إنّ نظاما بوليسيّا يدعّم في هذه الرقعة من الكون . نظرت اليك دومينيك مستفسرة فقلت لها :
« الا تشاهدين شريط الأنباء المصوّرة ؟ » .
« نادرا . فأنا لا أشاهد إلاّ الأفلام والمنوعات وأشاهد كلّ برامج البثّ الايطالي .... هذه البرامج لا تهمني احداثها ولا تهتم بأحداث هذه البلاد » .

لمّا وصلت منهوكة زفرت هامسة :

« الآن تأكّدت ظنوني . السافلة تقول : إنّها عرضت عليك جسدها فرفضته . أمثلك يرفض جسدا دافئا ؟ أين الحقيقة ؟ » .

« قد تكون ظنونك حقيقة . وقد تكون الحقيقة وهما . ولا وجود لأيّ حقيقة » .

« ربّما ؟ » .

« لا تتصوّري كم أنا خجل : أنا إنسان منحطّ . تدحرجت إلى مرتبة الحيوان ولم استطع تماسكا » .

« هكذا عدت الى أصلك . أترك ظنونك السيئة . إنك قمت بواجبك كفحل . أنا مغتبطة جدا . »

« انه الضمير . وعودة الوعي . لا تنظري إليّ لأنّه لا يمكنني أن أنظر اليك » .

« العقلية متخلفة يا حسن . لقد اجتاحني هذا الشعور يوم رقدت في فراش خالتي صحبة زوجها . ويوم عرف خطيبي أنني امرأة ولم يقلب الكون تجرّدت من كلّ احترازاتي » .

« ورضي بالوضع ؟ » .

« وهو كذلك » .

« نعس الرجل هوّ » .

« صعب أنت يا حسن . لن تغيّرك الأيام » .

« قد أعيش عصرا غير عصري » .

« هذه حقيقة . أقول لمّا كان جدّك الاعرابي يودّع زوجته في الخلاء أكانت تسلم دائما من السطو ؟ » .

« . . . . »

« أنا أجيبك . لا وجدّك كان متحررا عقليا وجنسيا ولذلك كان الجدّ أفضل من الحفيد » .

« أنا أرفض العطاء » .

« ما أعطيتك شيئا . ما منحتك شيئا » .

« أعوذ بالله من ثورة النساء »

دفعتها الى الفراش ثانية مقهقها . تسقط أنت من الفراش فيرتطم رأسك بالجليز والظلام يغزو المكان . الأرض قاسية . يشتدّ لهاثك من أثر السقطة . لا أحد يراقبك . لا أحد يلاحظ هلعك . لا أحد يلاحظ ارتفاع صدرك وانخفاضه رغم أنّ الباب ينفتح وكلّما فتح الباب إلاّ أصابك الهلع .

المنعطف

الحبيب الدائم ربحي

كان : هذا الفعل الناقص الذي يعكس حركة الاقلاع والثورة . فالفعل يكون كاملا أو لا يكون . . صويحباتي كن أبكارا قبل أن تنال الأيام من بكاراتهن (نمّلا فارسيا) لولا الزمن الذي خان بتدويراتهن وأذبل الورد من على الوجنات والصدور . آه كان يا ما كان . . . .

لو تعلمون كيف كنتُ أسدد السهم فلا يخطىء الرمية - بل كيف كان جدي راميًا تدين له الرقاب . لكنني الآن غدوتُ الخلية المهددة بالسهام والجرو الذي يجوب شوارع المدن ، متوقعاً قذفًا بقارورة أو (طائرة) أو ركلة قدم يقيس حذاء جديدا . . . .

سادتي ، قررت هذا الصباح أن ألجم الكذب الذي يتثال عبر فعل النقصان (كان) . رغم أنه كان يحاصرني في كل مكان . تلاميذي لا يعرفون تركيب جملة مفيدة الا به . ناظر المؤسسة لا يستطيع أن يتكلم في شؤون الأجيال الا من خلال هذه الكلمة . حتّى زوجتي الجميلة - طبعا كانت جميلة - لاحظوا أنني بدوري قد خنتُ وعدي ونطقت بالمحظور . قلت حتى زوجتي لا تكف عن مقارنة حاضرها بماضيها . ولو عرفتُ ماضيها ما ضحك علي والداها . حقا إننا نعيش كالكلاب الضالة ، مرة جاء شخص - يسكن في الناحية الأخرى من الحي - معربدا سكران . اقتحم البيت . كسر أواني المطبخ . أهان أخي الاكبر الذي كان يقضي فترة نقاهة عندي . . ولا أدري هل توقف الأمر عند هذا الحد . . . فمنذ ذلك اليوم وزوجتي تنظر إلي بعين لائمة كأنها تقول : لو كان المرحوم لا يزال على قيد الحياة . . أي أبوها . .

لا أخفيكم أن البندقية كانت بجانبي والسكين ولكنني تبلدت . لا ، والحق يقال ، فوجئت بشخص يقتحم علي خلوتي . ثم ذهبت بي الظنون - سيما ونحن كرماء - فمن يدري فربما كان الرجل يريد حاجة فنقضيها له . . . .

اعذروني الآن أن أجرب الاستغناء عن الفعل الناقص ، وأستعيض عنه باسم يعضّ ، ولن أميز في صياغاتي مؤنثًا ولا مذكرا ولا . . . ولا . . . فالكل يدل على الكل . بل الكل يعض ويركل الكل . يا حفيظ ! . (خذوا حذركم فاني أطلق (الكلاب) ! (كلب) أنط كالسنجاب على الجحشة وأطارد الشويهات . (كلب) أبي يناديني من بعيد : آآآآ رسل . قطيع الغنم الظامىء ليورد .

أحيانا لم (كلب) لي ما يسترُ عورتي . آه لو علمت زوجتي ما (كلب) عليه حالي لرفضت يدي . . . .

الآن أنا أبو عيال . لي شعرٌ أبيض طويل . وأذنان وذيل . لا عفوا . لسان طويل وزوجتي تجر لي الذيل . سيفي لا يخرج من غمده إلّا في المناسبات الكبرى . الفاهم يفهم . زوجتي تعرف أنني لا أملك في البندقية طلقة واحدة - وانتم تدركون أية طلقة أقصد . هي بدورها بارت حديقتها ولكن جارنا يتابع أردافها بنهم . سأعرف كيف أرد له

الصاع صاعين . سأتقاضى الثمن من زوجته الشابة ! قلت إن زوجتي كثر فيها التشكي والحنين الى الماضي ولكنها لازالت لم تخرف والا لماذا عربد شخص من الجانب المحاذي للبحر في المدينة وتخطى دورا وأكواخًا ليدخل علينا ويفعل ما يفعل مع حرمي المصون ؟! . . آن ماذا قلت ؟ إنني غير متأكد تماماً لأنني عندما استيقظت وجدت النّار أكلت اليابس والأخضر . وأنفي متنفخة كالاجاصة .

منذ مدة بعد الحادث وزوجتي تُبعد لي فراشي لأنام في غرفة وتنام هي في غرفة أخرى . وفي الماضي لا تسألوني . فالليل (كلب) حلبة للمبارزة لا تفتر من غروب الشمس الى طلوع الفجر . . . .

- 2 -

(دَرْبَكَ) : هذه الكلمة كنتُ (ها أنا أعود لفعل الكينونة لضرورة لازبة) قلتُ : وجدتها ذات يوم مرسومة على سور لمبنى عال يمثل في الذاكرة (الباستيل) كما صوره معلمنا على السبورة لم تكفه السبورة فأتم على الحائط . ثم قال بنبرة حزينة : يا أعزائي الباستيل كان مخيفا . أخفى عقولا وأدمغة ناضلت من أجل أن يُوزَّع الخبز بالمجان . وتحدث كثيرا عن أمور لا نعرفها نحن ابناء البادية . . لكنه أردف أن الباستيل تهدم ذات عام - نُسف من الداخل والخارج - استبشر الأطفال لكنني بكيت وأنا أتذكر والدي الذي قبض عليه ذات ليلة لأنه قال لرجل لا يعرفه استدرجه للحديث : (. . . . .) أخشى أن أردد كلامه فأتورط يا سادتي في دخول (باستيلات) تمتد بيني وبين زوجتي التي جثم الثلج على (باروكتها) .

لست أدري إن كنتُ قد أخبرتكم بأنني لم أستطع أن أسأل يومئذ المعلم عن معنى تلك الكلمة المرسومة على السور العالي - لأنه قد نهرني بطرف عينه ملمحا لي بأن القسم غير آمن . فكثير من ابناء الأعيان جاؤوا ليستدرجوا السذج مثلي . . . لكن (دَرْبَكَ) التي إن كانت فعلاً ماضيا . أو على الأصح ان كانت على صيغة فعل ماض . فانها اليوم وبعد أن نال الزمن من زوجتي وعشيقاتي غدت بصيغة الأمر . . لا أدري من سكّن آخرها . . وهنا المشكلة . فهي كانت متحركة وسُكّنت . . . كانت فعلاً وتحولت جاداً . . .

ذات يوم - اليوم طبعا على أساس أنكم لن تقرؤوا هذا الكلام حتى يغدو فعلا ناقصا - أصغيت الى حوافر الخيل الراكضة في حلبة الليل مع زوجتي قبل أن يمتد (كان) بيننا أخدودا سكّن نبضنا . فكان (دَرْبَكْ) ذلك الصوت الذي سكّنوه يا خلاني ، تناسل الايقاع من الايقاع فكانت كلمة (دربك) لفظًا أمينا في محاكاة حركة أرجل الفرس وهي تسبح في الميدان . بقي أن أشير الى ملاحظة بسيطة - وهذا يتطلب منكم إلماما بالنوتة الموسيقية - فتكرار السكون يحدث حركة وهكذا وكما يحدث في صور السينما فـ : دربكْ + دربكْ + دربكْ . . . + ن = دربكَ ؟! . وقطرة فقطرة يجري النهر كما يقولون ، أو لا يقولون .

- 3 -

زوجتي العزيزة تعاتبني قائلة : لم تعد رجلا . حقا هل الرجل من يدخل الآخرون الى عقر داره ويركبون - نعم يركبون - زوجته وبناته ؟ هل الرجل من يتعرض الضيوف عنده لهجوم خارجي ؟ والجيران ؟ طز على الجيران الذين لا يكفون عن فتل الشوارب وفرك الإليات ودغدغة النهود ! . .

أنا الآن أحاول اقناعها بانني (كلب) محبوبا من طرف بنات الحي . وأعدد لها قائمة من أسماء كاذبة . . . . لكن هل تصدق الكلام وهي تنام منفردة ؟ عل تصدق الكلام والسكير قد يعربد ثانية ويعود اليها ليغتصبها . وهذه المرة قد لا أنجو بأستي منه . يا حفيظ احفظ !

اليوم (قررتُ أن استعرض أسلحتي) سأصنع عالما أمارس فيه بطولتي . يكفيني أن أكون فارسا على الورق . أعشق وأحب ، أتزوج وأطلق . افتض بكارة بنت الجيران فوق ميدان الورق ، أضع الحلول لكل المشاكل . وأحل الصراع المستعر بجرة قلم أسود . أتريدون الدليل ؟ ها أنا أدمر الباستيل . لا حدائق من اليوم . لا حرية من اليوم . لا مضاجعة من اليوم حتى يمسح العار . تفو . .

أعرف أن الجرائد لا تريد نشر هذا الكلام الزندقي . أعرف ان دور النشر تشكك في مواهبي انا الذي ولدتُ في بلدة (جرّار) ونططت على الجحشة كالسنجاب . دخلت المدينة متأخرا .كذبتُ مثلكم على فتاة . فتوهمتْ فيَّ مصلاً وتزوجتني . ربما أنتم لم تكذبوا على زوجاتكم . فالكذب ليس من شيم الرجل الذي على خلق قويم . ولكن . . لماذا تريدون مني ان أكون صادقًا وهي بدورها قالت لي كلاما لستُ مستعدًا لاهتك ـ بذكره ـ عِرْض (حرمي المصون) ؟ تلك قصة قد تشغلكم وتشوش عليكم ما بدأته من كلام حول . . حول ماذا ؟

إيه . . قلتُ : تعلمت الابجدية من كتاب لكاتب مسلول مثلكم . وصف البادية بالجمال . وحكى عن العصافير التي تطير مغردة ، وعن الفلاح الذي يشق الأرض شقا فيخرج منها (فاكهة وأبًا) . لكنني لم أر ، وأنا أشاهد والدي يحرث الأرض والحيوانات تئن من لدغ السوط والطيور تصرخ من الجوع ، سوى (الخراء) معذرة . فأنا بدوي وأعرف أكثر منكم أن الأرض قد بخلت بـ (أبًا) بعد أن جف النهر . والمعصرات لم تعد تمنح الناس ماء ثجاجًا ـ وأنتم تعرفون لماذا . لأن (. . . .) أخاف أن تستدرجوني فأواري وراء سور كتبتُ عليه كلمة (دربك) والتي قلت لكم إنها محاكاة لايقاع ركض الفرس .

الفرس يخطو ويخطو ويخطو : دربكْ دَرْبَكْ دربكْ . . . .

في الحافلة الواصلة بين مدينة الجديدة والدار البيضاء التقينا . . كانت ـ وهنا سأستعمل (كان) كما استعملها ذلك الكاتب الكلب بل كما هو معروف في مذكراتكم وتلاواتكم وخرائكم . . كان فعل ماض ناقص ناقص ناقص . قلت لكم . أو بالاحرى أردت أن أقول لكم كانت تكبرني ـ والحق يقال ـ بدزينة من السنين . الآن سترون أنني كذاب والكذب ليس من شيمة العرب . لا فهي رغم ذلك لازال فيها شيء يجعل الرجل (يتشقلب) كما يحلو له . ولكن مالنا وهذه الفوضى . أتريدون الدخول في شؤوني الخاصة . ذلك شأني . ألستُ حرا في اختيار زوجة تحلو لي . . . عين الحسود فيها عود . . تفو . . . المرأة في الحافلة تخرج بيضتين مسلوقتين ـ نعم بيضتان مسلوقتان ـ ألا تعرفون ما معنى البيض المسلوق . تفو . . . فانتم تعطون لكل شيء تأويلات قبيحة . ها أنا أنظر الى البيضتين : واحدة كبيرة وأخرى صغيرة . ناولتني المرأة واحدة فاعتذرت العاقل من لا يقع في مثل هذه المواقف . لكنني وبطريقة بليدة أخذتها منها ، ففي نفس اللحظة التي اعتذرتُ لها بعْمي كانت يدي تمتد للبيضة . أن تكون البيضة الكبيرة أو الصغيرة مسألة لا تهمكم . ضحكت المرأة ثم بدأت تقشر بيضتها . . . لحد الساعة لازلنا نبحث عن مفتاح للحديث مع بعضنا ليس معي ومعكم . بل بيني وبين المرأة الجالسة بجانبي . كتفي تلامس كتفها كلما تعرجت الحافلة . أحيانا أتمنى ان تتعرج الطريق حتى نسقط على بعضنا . مرة تمنيت أن تصطدم الحافلة بشجرة فيموت كل الركاب وأبقى أنا والمرأة فأحملها الى أهلي وأتزوجها ونبدأ حياة من الصفر . ولكن من يضمن النجاة لنا . أو على الأقل لي أنا إنْ . . . . ؟ الحافلة الآن تسير ـ لم ولن تصطدم بشجرة . البيضة استقرت في المعدة . الحرارة في المرأة الاجنبية زائدة . اسأل مجربا ولا تسأل طبيبا .

هل الديك يبيض عندكم ؟ قلت لها بفرنسية رديئة . لا أخفيكم فقد سويت العبارة في صمتي كثيرا وأطلقتها فظلت دوما ركيكة .

لم تجب بل استغرقت في ضحكة طويلة . تمنيتُ لو لم أقل لها هذه العبارة . ولو لم تسمعها . . . . تفو . . . . .

سمعت من خلال ضحكتها الافراس تركض : دربك دربك دربك . والفرسان الذين هم أقراني يمرون فوقها ـ أقصد فوق الافراس وليس فوق المرأة ـ لكن السجن اختطف الجميع .

انتظرتُ وقتًا لأربط الاتصال مع المرأة . صاحبة البيض . صاحبة الضحكة . أو لأصوّب الطلقة الى مرماها . . . .

ـ سائحة ؟

ـ لا ، بل في عمل . . . .

ـ تسكنين بالمغرب ؟

ـ لا أنا كندية مكلفة بمهمة .
ـ وأية مهمة ؟
وانقطع الخيط .
إذن أنا فاشل من أول لقاء . طبعا فأنا تجاوزت حدود السؤال . فكيف سمحت لنفسي بأن استفزها . كان بالامكان انتهاج خطة أخرى ـ بل مائة خطة ، لأطلع على أسرارها . وأعرف شيئا عن التقارير التي تعدها لصالح كندا أو اميركا أو . . . حول هذا (. . .) الذي يتردى في (. . . .) .
أصدقكم أنه لولا مبادرتها بالحديث مرة أخرى وكأنها علمت بتفاهتي لما التقينا ونمنا معا في غرفة واحدة قبل ان نبدأ في النوم في غرفتين منفردتين .
ـ ما نوع التربة الموجودة في المغرب ؟ قالت .
يا الله ! أهي تسأل عن التربة ؟ وأبي في السجن نزعوا أرضه وسجلوها في عداد أملاك الغائبين .
ـ هناك الرمل ثم الرمل ثم الرمل . . . . .
وأنتم قد لا تعلمون ان الجملة خرجت من فمي ركيكة كالتربة الرملية .
لماذا ـ الكلبة ـ تسألني عن أرض بلادي ؟ هل تريد ان تبلغ حكومة بلادها من خلال تقاريرها لتستولي على بلادي ؟ سؤال تافه . ربما . فمعذرة لأنني لم أتلق من العلم إلا نزرا قليلا . . وإذا أصررتم على اتهامي بالأمية . فلماذا سألتني عن التربة في بلادي ؟ اعرف انكم بدوركم لا تعرفون اكثر مني . . إذن سطوب . خطر على بالي خاطر وهو انه عندما تأتي أميريكا الى أرضنا مستعمرة يجب أن نقف كرجل واحد . وأنتم تعرفون لماذا ، طبعا لترك الوطن اليها والبحث عن موطن نغزوه ونعمره . هذا الموطن من اللازم ان يكون ضعيفا . أهله خانعون يفضل أن يكون في افريقيا . والا فقصتنا ستحكيها الاجيال للاجيال .
ـ لماذا الأرض عندكم قاحلة والأنهار تجري ؟ قالت بعد لحظة صمت .
ـ يا سيدتي الأرض . الأرض قاحلة . وتوسلت الى كل ما تعلمت من مفردات فرنسية ، لأن المطر لم يسقط منذ مدة ولأن الناس يقتلعون الاشجار . ولأن الله غا . . . وتشجعت لأصرفها عن الموضوع .
ـ كيف الجو الآن في كندا ؟
ـ بارد جدًا جدًا . كانت فرنسيتها ـ رغم أنها كندية ـ جميلة ومهذبة . وتخيلتُ كيف تكون انجليزيتها . بل ذهب بي خيالي بعيدا فتصورت كيف تكون (. . . .)
ـ المغرب بدوره جميل ألم تزوري جبال الأطلس وجبال الريف و . . . .
ـ أجل زرت هذه المناطق . ولكنها ليست ككندا .
الكلبة ـ قلت في نفسي ـ لو وزنت بلادها ذهبا لما ساوت قريتي في بلدة (جرار) . . . . فكرت أن أصرخ في وجه السائق أن يوقف الحافلة وينزلها لتبقى في خلاء الله عرضة للنهب والسلب و . . . . أكملوا من عندكم . . . . .
ـ وكيف الطبيعة هناك ؟ سألتها ساخرا .
ـ الأشجار ملونة . هل شاهدت اشجارا ملونة . زرقاء وحمراء وصفراء و . . . .
ـ لا هل هذا كله في كندا ؟
ـ أجل ، بل هناك أمكنة تتجول فيها الأسد والنمور في خيلاء وتقيم تآلفا بينها وبين الناس .
ـ كيف ؟
ـ حيوانات من فصيلة مفترسة لا تهاجم الناس .
ـ نحن عندنا هذا النوع لكنه في الحديقة تحيطه أسيجة من حديد . . .
وطافت في ذاكرتي صورة (دربك) على جدار السور العالي . وسمعت وقع سنابك الخيل : دربكْ دربكْ دربكْ .
ـ عندنا طيور جميلة وذكية تقلد سلوك الحيوان قالت :

- نحن ايضا عندنا هذه الببغاوات .
- لا إنها ليست ببغاوات . فهي لا تقلد الأصوات ولكنها تفهم الكلام
تستطيع ان تأمرها فتأتيك بورقة وقلم من الحجرة المجاورة .
وسرح خيالي وراء هذه الحساسين الصغيرة . رأيتها تأتين بقلم وورقة فأسجل وقع الخيل المنطلقة : دربكْ دربكْ دربكْ .
ثم سألت (ناني) الكندية .
- هل تباع هذه الطيور عندكم ؟
تجهمتْ فأجابت بأسى :
- لا تقل هكذا فالطيور في كندا كأبنائنا نربيها ونتبادلها مع بعضنا كأغلى مرغوب في الحياة .
عرفت أن حوافر الخيل كانت تثير النقع في خيالي . فضاعت مني لباقتي . وعندما سجلت المرأة هدفا في شباكي كان علي ان أعكر الماء :
- ونحن أمة نشوي العصافير ونأكل لحمها يا سيدتي .
نظرت إلي وكأنها تريد ان تكتشف الذيل الذي أخفيه تحتي او الانياب الأكولة للحم النيء . لكنها وجدتني أشبه في بعض الوجوه فصيلة الانسان لا أخفيكم فقد كنت مستعيرا ربطة عنق من أحد اصدقائي لأنني كنت على موعد مع فتاة ألتقيتها صدفة في حديقة الحيوان ذات يوم .... ثم ان الأمر لا يهمكم . تفو ..
تداركت الموقف وأكدت لـ (ناني) ان سلوكنا تجاه العصافير يعود الى الجفاف والغلاء . والكبت . والقمع .. و (....) .
توقفت الحافلة تبادلنا العناوين - أنا وناني طبعا - وبعد رسائل معدودة جاءت المرأة الكندية لتتزوجني . تحولت زوجتي على سنة الله ورسوله الى ان جاء ذلك السكير فكدر علي جو الحياة الزوجية .
زوجتي (ناني) لا تكف عن ارسال التقارير الى كندا (هي تقول كندا !) لا أستطيع أن أقول (بتشفير) ما في التقارير سوى التخمين بأنها تند بلادي غضبتُ ذات يوم عندما أهانتني . وطعنت في مواهبي . طلبت منها ان تناولني رزمة من الأوراق لأشرع في كتابة رواية طويلة . ضحكت من الأشداق .
- رواية ؟ ومتى كنت قادرا على تسطير قصة قصيرة ؟
أمرت العصفور الصغير - الذي جلبته زوجتي معها من بلادها - فكان يأتيني في كل دقيقة بورقة .
أخذت الصفحة الأولى - ناني ترقبني ساخرة - لكنني كنت مصمما . وشرعت أكتب : «ركب الفارس الحزين فرسه (جملة مشجعة جدا قالت ناني) تجاوز المنعطف . همز الفرس فسار راكضا دربك دربك ... دربك ....
انتهت الصفحة الاولى فقلبتُ الثانية دربك دربك .... دربك ثم الثالثة دربك دربك دربك .... فالرابعة فالعشرون فالمائة فالألف الأوراق كلها ملأتها دربك دربك دربك ، وجاءت الصفحة الأخيرة فكتبتُ « وأخيرا وصل الفارس الحزين » .
حملتُ الرواية الى دار النشر فكلفتني سنوات من السجن . عدت بعدها لأجد (ناني) ماتت (أو سافرت لا أدري) والعصفور شوته بنت الجيران . والسكير يسكن في ركن بيتي .
أليس صحيحا أن (كان) فعل ماض ناقص . كلب مخلوع الانياب . وكلمة كلب لا تعض . إذا لا تأخذوا حذركم . تفو ....

الذئب

ميليساف سافيتش

ترجمة: ساسي حمام

تساقطت الثلوج بغزارة غير عادية لم يسبق لها مثيل . فاطردت من قريتنا جميع الضيوف والمسافرين وجلبت زائرين آخرين غير مرغوب فيهم : إنها الذئاب .

كرات الثلج تتساقط ثقيلة كثيفة يوما بعد يوم ، كأن السماء اتصلت بالأرض ، ارتفع الثلج الى النوافذ وغمر الأودية وغطى العلامات والاسوار واختفت المسارب التي تقود الى البئر أو الى الاسطبل . لا نكاد نملأ الماء أو نقدم العلف للمواشي حتى تمسح الثلوج آثار اقدامنا ، كل أثر للانسان يضيع تحت بياض الثلج .

ظهرت قطعان الذئاب منذ الليلة الثلجية الاولى ، كانت ليلة مقمرة ، عندما هدأت العاصفة قليلا برزت وهجمت على الزرائب فحملت عددا كبيرا من الخرفان وتركت وراءها عددا اكبر من الأسواق . اعادت الكرة في الليلة الموالية فوقفت الكلاب على عتبات البيوت مذعورة تهز وتكشط الابواب بمخالبها بعنف حتى نفتح لها الأبواب ، لو جازف احدها وتصدى للذئاب فإنه سيمزق في لمح البصر .

وقفت القرية كالرجل الواحد لتحمي نفسها من هذا الخطب الذي ألم بها ، حفرنا الحفر ، ونصبنا الفخاخ وسممنا بعض الخرفان وربطنا الكلاب ، ودعمنا الاسوار ، ولكننا اخفقنا في صدها ، حتى الصيادين لم يكونوا احسن حظا ببنادقهم المحشوة حصى ورصاصا ، لعدم مهارتهم او لانهم ناموا عندما كانوا يترصدونها . أو لأنهم كانوا يترقبون في أماكن لا تمر منها الذئاب .

باختصار عندما قتلت الذئاب مجموعة كبيرة من الخرفان تختلف حجما وكبرا وحملتِ بعضها وتركت البعض الآخر قوى عزمنا فقتلنا اربعة من بين تلك التي أصابها العياء . القواد المنعزلون في مأمن على الهضاب المكسوة بالثلج المحيطة بالقرية بقيت تعوي طول الليل بدونانقطاع فترتعد اجسامنا حتى عندما نكون نياما .

عندما اشتد بها الجوع هاجت وأصبحت تفترس أهل القرية . هجمت في احدى الليالي على طحان القرية ومزقته اربا ، لم تبق منه غير بعض قطرات من الدم الجامد وقبعته المصنوعة من الفرو وحذائه وبعض القطع من ملابسه . هجمت كذلك على شاب آخر في الغابة ولكنه فر منها وصعد فوق شجرة . بقي معلقا يوما كاملا وهو يصيح ويستغيث ولكن احدا لم يسمعه .

كانت الذئاب تدور حول الشجرة ، وتحاول تسلق جذعها ،وتعض قشرتها ، وعندما شعر أنه سيغمى عليه وأن النوم سيتغلب عليه ، فيموت من شدة البرد ويبقى معلقا بين الاغصان أو يسقط فتتلقفه الذئاب الهائجة وتعمل فيه انيابها نزع ثيابه ورماها على الأرض فارتمت عليها الذئاب وتشممتها قليلا ثم مزقتها عندئذ نزل الشاب من فوق الشجرة وهرب الى القرية أين بقي خمسة عشر يوما شبه ميت تحت رعاية احسن الممرضات .

هجمت كذلك على اشخاص آخرين ولكن الحظ اسعفهم ونجوا منها بالصعود فوق الأشجار أو باشعال النار أو بدفع نوابت الافراش التي اصبحوا يحتفظون بها قريبا منهم مثلما يحتفظون بالسكاكين .

عندما اقترب الشتاء من نهايته وبدأت الثلوج في الذوبان وتهيأت الذئاب للانسحاب الى الجبال لتلد وتربي صغارها . وبينما كانت تودعنا اذ خطفت من قرب العين اجمل فتيات القرية ، الابنة الوحيدة لاحد الملاكين الاغنياء ، انه يملك احسن المراعي وأحسن البساتين والمروج التي خصبها الطمى ، انها اكبر مأساة عرفتها القرية .

لم يجد الأب المنكوب قرب العين غير قلة فارغة وآثار ذئب ضخم ضائعة في الجبل المكلل بالثلج ، لم يجد أية قطرة دم .

تأثرت القرية لهذه المصيبة وخاصة اهل الفقيدة وأقاربها ، وحزن كل شبان القرية بمن فيهم الشبان الذين رفضتهم ومست هذه المصيبة كذلك قلوب الفتيات الحاسدات .

نظمت دورية للبحث عن المسكينة أو عن شيء منها ، عظم أو خصلة من شعرها ، لكن الذئاب قد اختفت كأنها سحرت وهبت ريح جنوبية أذابت الجليد ومحت الآثار وملأت رائحة اعشاب الربيع أنوف الكلاب فعجزت عن تمييز رائحة الذئاب وبقيت تدور في حلقة مفرغة .

فقدنا الأمل في العثور على شيء من بقايا اجمل فتيات القرية التي بقي ذكرها عالقا باذهان السكان وخاصة اهلها .

أقام لها ابوها الحزين نصبا في مدخل المقبرة وزرع على جانبيه ثلاث اشجار من الصنوبر .

في الشتاء الموالي ترقبنا الذئاب اكثر تنظيما واكثر عدة ، دعمنا اسوار الزرائب وجلبنا كلابا اكبر واشترينا بثمن ثورين بندقية جديدة ومع ذلك فقد قتلت الذئاب عددا لا يستهان به من الماشية في غفلة منا ، ولكن الخسائر كانت أقل فداحة .

بعد مشاورات قررنا ترقبها في الشتاء الثالث احسن تنظيما واكثر عدة حتى نتخلص مرة واحدة من هذه الذئاب أو نجعلها تبتعد عن قريتنا .

بعد ان نزلت الثلوج الاولى ، حمل الينا حارس الغابات خبرا ادهشنا جميعا ، لم نستطع تصديقه ، لقد حاصرته الذئاب وأوشكت على تمزيقه رغم بندقيته ذات الطلقتين لو لا مرور جماعة يحتفلون بعرس . فافزعتها أصوات المدعوين ودقات الطبول فتركته وذهبت ، لقد ادعى حارس الغابات انه رأى أجمل فتيات القرية حية ترزق بجانب ذئب كبير وأكد انها تشبه انثى الذئب وكانت محاطة بذئاب صغيرة لقد كان متأكدا انه قد عرفها رغم انها كانت تمشي على أربع لأنها قد حافظت على شكلها الانساني السابق .

قال : « انها دائما جميلة ، أجمل الفتيات وأن رؤوس الذئاب الصغيرة تذكر برؤوس الانسان .

قلنا « ان الخوف جعله يهذي » .

بعد ذلك تبين ان حارس الغابات لم يخلق هذه الحكاية ، ولم يرها في حلم ، كل شيء يدل ان بين الذئاب يختفي ذكاء ويد انسان :

وجدنا ابواب الزرائب مفتوحة والفخاخ فارغة وردمت الحفر وفي الصباح وجدنا الخرفان المسمومة على عتبات المنازل وبجانبها كلابنا ميتة .

اعتقدنا انه يوجد بيننا شخص لا يريد قتل الذئاب ولكننا لاحظنا حول الزرائب آثار اقدام نصفها كانت آثار انسان ، عندئذ صدقنا حارس الغابات وعندما قتلنا ذئبا صغيرا تحققنا من كلامه جيدا : لاحظنا ان وجهه يشبه وجه انسان باستثناء أنيابه ورجليه الأمامية تشبه ايدينا لذلك اقترح أحدهم ان لا يرمى في حفرة ولكن يدفن في المقبرة أو في قبر أجمل فتياتنا الفارغ .

ثار كل سكان القرية وذهبوا الى أبيها واعلموه انه أصبح جدا لذئبة صغيرة ، دافع المسكين عن نفسه بكل ما أوتي من قوة حزينا وسعيدا في نفس الوقت لأنه تحقق ان ابنته الوحيدة حية ترزق ، أصبح يأمل في انتزاعها من عصابة الذئاب ووعد كل من يخلصها ويحملها اليه حية مكافأة كبيرة .

تعودت الذئاب على أساليبنا ولم تعد تخاف شيئا : الضرب على الصنوج والدق على الطبول ، والمفرقعات ، والصياح ، حتى النار لم تعد تخيفها : تقترب من ألسنة اللهب بهدوء كأنها تريد ان تدفىء قلوبها المثلجة ، بنادقنا تخيفها أكثر من سكاكيننا ، تسلحت بالمعرفة الانسانية التي جلبها لها الجمال فاحبطت كل حيلنا : انها اكبر مصيبة عرفناها .

خرجنا عديد المرات في دوريات ، نرجع اثرها نرتعد منهوكي القوى فننام راجين من الله ان يبعد عنا هذه المصيبة وفي الليل يرعبنا عواؤها الذي يشبه الأغاني التي ننشدها في أفراحنا وأعراسنا واحتفالاتنا .

خطرت ببال رجل فقير كان قد أحب الفتاة الجميلة ولكنها رفضته بسبب فقره دون شك ، فكرة موفقة وقال : « سأتنكر في زي ذئب » .

لم نتحمس ولم نفرح كثيرا لاننا كنا شبه مقتنعين بان هذه المصيبة لن تنجلي عن القرية بسهولة .

لبس الشاب جلد ذئب كبير وتسلح بسكين حاد وذهب الى الجبل . بعد مدة وجدنا عددا من الذئاب المذبوحة في المسارب وحول الزرائب وتحت الأشجار فعرفنا ان الشاب مازال على قيد الحياة وان خطته قد نجحت . وذات صباح ظهر بطلنا في القرية مع الفتاة الذئبة التي اختطفت . ما ان وصل حتى سجن المسكينة في اسطبل وطلب من حلاق القرية ان يحلق شعره الذي طال .

كل القرية احتفلت بالانتصار على الذئاب المفترسة : شبانا وشيوخا . نساء ورجالا ، اطلقنا العيارات النارية ورددنا الاغنيات واحدثنا جلبة وضوضاء وشربنا كثيرا .

حمل الشاب الشجاع على الأكتاف وقدم له كل واحد هدية حسب امكانياته : هذا نقودا وهذا زربية وذاك منديلا ، وذاك فخذا مدفنا ، والآخر خبزا وملحا ، وقدم له أبو الفتاة اثمن هدية : حصانا ابيض وسرجا مطرزا بالفضة . كان الشيخ سعيدا وحزينا في نفس الوقت لان مصير ابنته العزيزة يقلقه . كان محقا في ذلك لاننا ما ان لعبت الخمرة برؤوسنا حتى تسلحنا بالعصي والحجارة وتوجهنا نحو الاسطبل لقتل الخائنة : خليلة الذئب .

تصدى لنا الشاب الشجاع ووقف امامنا قائلا : « قفوا مكانكم .... سآخذ زوجتي » . اعتقدنا أنه يمزح لأنه مخمور وتقدمنا نحو الفتاة التي داست كل القيم وانكرت بني جنسها فحرك رأسه بعنف وزمجر مظهرا انيابه فلاحظنا أنها حقا انياب ذئب ، وفتح باب الاسطبل واخرج الفتاة وفر معها الى الجبل .

وقفنا مشدوهين ، وبقيت اعيننا عالقة لمدة طويلة بآثار الانسان الذئب التي تضيع في الثلج .

الزمن الجميل

سلوى بكر

أقاوم النوم ، وأقاوم الصحو أيضا ، لا أريد ان استمر في الحالة الأولى ، ولكن ما الذي يشجع على العودة مرة اخرى لهذا الجنون ، وتلك الغرابة المحيطة بي ، والتي علي ابتلاعها . . كل يوم . . كل يوم ، لمجرد أني لست نائمة ؟ ، ثم أن هذا الصباح ، هو صباح أول أيام العيد الصغير ، وهذا معناه ، أني لن اذهب الى عملي في ميدان التحرير ، وسأستريح لمدة ثلاثة أيام من مصائب المواصلات، ورائحة أنفاس «الكمساري» المشبعة ببخار البصل والفول ، ولن أرى مبنى «الانتكخانة» الوسخ ، وخازوق المدينة المسمى بالبرج ، واعلان «شويبس» ، وأشياء اخرى ، كثيرة ومجنونة . كدت أصفق بيدي واهتف : « يالها من لذة . . . . . ما أجمل العيد » ، لكن همس أمي المختلط بصراخ ابناء اختي ، الصغار ، كان أسرع من حركتي وأنا أحاول التقلب وفرد ساقيّ الى أبعد حدودهما .

قالت بصوتها المقهور المستجير دوما :

- سليم عندنا وغرضه يشوفك .
- آه . . . سليم !!

قلت دون شعور بوقع صوتي ، واغمضت عيني المفتوحتين قليلا ، وأنا اتلمس غيبوبة ، تساعدني على ألا أفيق .

- 2 -

في السكة للحلم ، لاحقتني ، رائحة الشاي بالحبيب ، مختلطة ، بألوان زهور البازلاء الشفيفة ، «البمبي» بلون كعبيّ جدتي ام حسن ، والبنفسجي ، البنفسجي ، ثم الاحمر الشفقي ، ونوار اللارنج الابيض ، الذي كنت أظنه زمان ، عصافير مسحورة ، ستنتفض وتطير عندما يأتي الربيع وسليم على الدراجة ، أجلس أمامه وأرن جرسها المكور الكبير ، نمر أمام بوابة قصر «البرنس» ، ومن خلال فتحات حديدها المضفور يبهرني مهرجان اللون ، في الحديقة الممتدة ، بعد ان نعبر على بحور البرسيم الخضراء ، وحبات الندى مازالت تتأرجح على أوراقها ، أستدير ، أمسكه من ذقنه الخشنة ، وانظر للمدى واقول له :

- سليم - هات لي وردة حمراء من عند البرنس .
- لما نرجع
- وحياتك يا سليم
- لأ . . . مستعجلين ، و «البوستة » لازم نلحقها قبل ما تقفل .

أصر ... أصرخ .... افتعل البكاء ، حتى تتطاير دموعي ، وتسقط على كفيه الممسكتين بالمقود ، ويبرز شريط هلامي لزج من فتحتي أنفي . وأنا أضرب بقدمي على سيور الدراجة الرفيعة ، فيزفر بغيظ ، وهو يمسح أنفي بطرف جلبابه ، ويقسم ، بانه لن يأخذني معه في أي مشوار بعد الآن ، مهما توسلت إليه ، بينما يتوقف وينزل وينزلني معه ، ويدلف الى البوابة والكلاب المخيفة المربوطة في الأشجار العالية ، تنبح عليه ، وينادي على عم حسين البواب ، وعندما يراه ، يبتسم له ويقول له :

ـ وحياتك يا عم حسين .... صحبة ورد حلوة لنوسة .

ـ 3 ـ

تململت ، وحركت يدي ، متحسسة رقبتي ، أصطدم الخاتم ذو الكرة الزجاجية التي تعكس الوان الطيف ، والمثبت بخنصري ، بتميمة سلسلة صدري الفضية ، فتصاعد صوت سحري قديم من قاع الذاكرة ، واختلط برنين ملاعق الشاي ، اللاهثة في الاقداح الصينية ، الذي تناهى الى اذني ، من الردهة حيث كانت أمي تجلس مع سليم ، ثم علا ايقاع مشترك ، ملأ رأسي وروحي كلها ، تجسدت تهويماته في الرنين المرح ، لجلاجل حصان ابن العمدة النحاسية البراقة ، وخلاخيل «نافلة» الفضية ، المزينة لعرقوبيها وزنديها ، والقرط ذو الخرزة الزرقاء المتدلي من أنفها .

وفجأة جاءتني صورة «نافلة» كاملة .... «نافلة» غريمتي .... «نافلة» التي عذبتني ، عذاب الروح الاول ، «نافلة» التي كنت اغار منها تلك الغيرة ، التي كانت تجعل صدري يعلو ويهبط وانفاسي تتلاحق وتختنق ، وأرغب في الموت فعلا ، «نافلة» الضفائر الحريرية السوداء ، والشعر المفروق من الوسط ، والمزين بقلائد الخرز الزاهية ، وقماطها الاحمر الدامي يطوق الخصر .

ـ سليم .... طالع للسوق وحدك ؟

ـ لأ ... تعالي نروح «لنافلة» ، النعجة ولدت ، ونسأل عن الكبش بالمرة .

جدك ناوي يفدي في العيد .. تعالي ....

يقول ، وأنا أقول : « نسميه سعيد ، نسمي الكبش سعيد .... ويكون لونه أسود .. ورأسه أبيض » .

ونذهب اليها ، حيث تخرج لنا من الخيمة ، والغنمات تثغو حولها ، بينما الشاي يغلي ، على وقدة الخشب ، وهي تصبه ، وترنو الى سليم ، بنظرات ترتعش لها اهدابه ، ويتحرك فكه معها ، وتلتمع حبات عرق خفيفة تستقر بملتقى عقفة حاجبيه ، بينما قلبي يدق في خوف غريب ، وعندما تمد يدها له بكأس الشاي ، يتملكني شعور خفي ، بأن انتزعه منها وأقدمه له ، أو آخذه واجري بعيدا ..... بعيدا عن «نافلة» ، ولما تجلس امامه ، تطحن الشعير بين حجري «الرحاية» الثقيلين ، وتهمس مبتسمة ، كاشفة عن اسنانها الوضاءة قائلة « كيفك يـا سليم » ، اقترب منه .... وافرد له ذراعي واقبله في كتفه ، وأقول :

ـ شيلني يا سليم .

وفي الدار ، بعد ان نعود ، تسألني امي عن حال «نافلة » ... فأجيبها في حنق .

ـ « نافلة » دمها ثقيل .

ـ 4 ـ

الأغاني سخيفة ، وتفتعل البهجة ، لماذا لا يذيعون طيلة اليوم ، « مصر التي في خاطري » ، أو « أمانة عليك أمانة يا مسافر بورسعيد » ، و «راديو بلدنا يذيع اخبار » ، لماذا يطاردوننا ويتعقبوننا حتى ونحن في الأسرة ،

ويحاصروننا بتلك السخافات المسماة أغنيات ؟ ، كنت أهمس لنفسي بذلك ، وأحاول النهوض ضاربة اللحاف بقدمي ، بينما اتمطى في تلذذ ، ولكن هذه الأنوار الكثيرة ، تهاجمني هي ايضا ، تتلألأ في رأسي الثقيل، وعيني المغلقتين .. رائعة ، مبهرة ، الوان حبات «براغيث الست» السكرية ، ورائحة عطرها الثقيل النفاذ ، واعلام المملكة باللون الاخضر والنجوم البيضاء الثلاثة ، يحتضنها الهلال ، تتناثر في فوضى على الحبال المعلقة بالحواري والازقة .

ثريد أمي في «الانجر» المجلي لتوه عند مبيض النحاس ، تكلله قطع اللحم المسلوق ... لحم سعيد المذبوح ، سعيد الذي أحببته حبا كثيرا ، كان ينظر الي كلما قبلته بحزن ..... بكيته بحرقة ، عندما طالعته صريعا يفور دمه على الارض ، دمه الذي غمست فيه كفي مرارا ورسمتها على الحوائط الطينية لغرفة الذبيح ، بينما تتشهد أمي ، ويتشهد خالي .... وأقول وراءهما بعد ذلك مع أخوتي كلهم .. لا حول ولا قوة الا بالله ، و .... ألف ألف صلاة على النبيء ، وسليم معه نصف الريال الفضي المحلى بصورة مليكنا المفدى ، حتى يشتري «الجاز» للقناديل ولفة الشمع للمقام ، وامي تمسح انفي جيدا بالمنديل قبل الذهاب وتقول :

- أوعى البنت يا سليم .... إياك تأكل حاجة وسخة ، وإياك «السوبيا» والنبي .

وندور سويا في الزحام .... حارات وأزقة .. ورجال ونسوان وعيال ، في ملابس جديدة ملونة ، وزمامير وطراطير ، وترمس وحمص ، وبليلة سخنة وأقماع سكر وجلاب ، وقبل ان نصل الى المقام ، حيث الحصير على الأرض والعمة الحريرية الخضراء ، تعلو التابوت الضخم ، المح بائع السوبيا ، وأباريقه الزجاجية الزرقاء ، مصطفة على حافة العربة ، تبرز من خلالها الاطراف الطويلة المعقوفة ، فأدب على الأرض بقدمي ، وأشد سليم من طرف جلبابه البفي ، واقترب منه حتى ألامسه واصرخ :

- سوبيا يا سليم .... أشرب سوبيا يا سليم ....

- لأ .. أمك وصيتها لأ ... ممنوع .

أهدده بأن أجلس على الأرض ، حتى يتسخ فستاني الجديد ، ، ويتلوث بالتراب ، انتحب ، بصدق .... وأشد الشريط الاحمر المعقود في شعري بغيظ ، وأتحسس يده في رجاء ، فيذعن ويحن قلبه ويقول :

- طيب .... بعدما نزور المقام ... ونقرأ الفاتحة .

- لأ .... الأول يا سليم .. عطشانة موت .. وحياة نوسة عندك يا سليم .

وبينما ترطب حلقي ، قطرات السوبيا المثلجة ، التي ارتشفها من العنق الزجاجي للابريق ... انظر إليه في امتنان قائلة :

- أنا أحبك يا سليم ....

- 5 -

أولاد اختي الثلاثة ، اشتركوا في اللعبة الوسخة ، التي بدأها الشارع بضجيجه ، وأعلنوا الحرب على الهدوء ، صياح وبمب وزمامير ، والمسدسات ايضا موجودة ، بكافة انواعها .... مائية ، ومثيرة للدخان ، وأمي سعيدة جدا ، بهذا الهجوم الهكسوسي ، وتعبر عن فرحها بهذا القطيع الطفولي في عبارات من نوع « أسكت يا مضروب ، أوعى تضيع فلوسك كلها على المراجيح ، أشرب اللبن الأول ، وانزل الشارع » . قمت للاغتسال ، وأمام المجلمجلي أغمضت عيني قليلا لا تفادى حرقة فقاعات الصابون ، وبينما كنت أزيل الماء عن وجهي ، دق قلبي ، ترى ، كيف صار شكل سليم الآن ؟ ، منذ أكثر من عشرين عاما ، لم أره ... آخر مرة كانت ليلة زفافه لنافلة .... أول فجيعة للقلب أيام الزمن الجميل ، كنتب يومها في السابعة ، وهو ..... لا أدري عمره على وجه

التحديد ، كان كبيرا . . . وجميلا جدا في عيني ، بل كان أجمل من أمي نفسها ، اغلى من روحي « هارون » ، بكل فروه الأصفر الجميل ، وشواربه اللطيفة . يومها غسلتني أمي وعندما أخذت تجفف جسمي ، وتلبسني الملابس النظيفة ، وتغني « قلعتك حرز . . . ولبستك اثنين ، ستنا فاطمة ، لبست الحسن والحسين ، حرز للنهار يا نوسة ، وحرز لليل » . قبلتها وسألتها :

- انت عاملة لي فستان جديد ليه ؟

- فرح سليم الليلة .

قالت ، مما جعلني انظر في عينيها بدهشة واهتف :

- أنا حتجوز سليم النهارده ؟

ضحكت امي ، ضحكة صافية مجلجلة ، رنت في انحاء الحمام ، وأخذت تقبلني في سعادة ، وأبي يطل برأسه من باب الحمام الموارب متسائلا في دهشة عن سبب الضحك وعلو الصوت ، وقالت :

- يا رب اعيش واشوفك يا نوستي عروسة ، سليم ناوي يزف «نافلة» الليلة .

أما المساء ، فكان في «المولبحة» حيث الارض الفضاء الواسعة بطرف البلدة ، جمعت كل البيوت ، وكل الناس ، ورحت انا مع امي وأبي وجدي وأخوالي ، واصطف العرب صفين ، ورقصوا بالخناجر ، وغنوا ، ورقصت «نافلة» ، هزت رأسها مطوحة ضفائرها ، وحركت مؤخرتها . . كانت رائعة في ضوء القمر ، وكان في حلقي سد هائل من الآلام ، وغنى الرجال اغنيات سريعة لم أفهمها ، وجلجلت زغاريد نساء الفلاحين ، مع دقات البدو ، وسال دم خراف كثيرة ، ذكرتني بسعيد - تحت أقدام العروسين المخضبة بالحناء ، وكنت انظر الى ذلك الاحتفال الغريب ، تتقاسمني مشاعر الخوف والفرح ، وأحس ان سليما تغير ، وضاع مني ، سرقته «نافلة» الغادرة وكانت تتعالى الايقاعات فابتهج ، وأحاول تحريك قدمي ومؤخرتي كما يفعل الجميع ، وتفعل «نافلة» وحاولت الاقتراب من سليم ، لأريه نفسي وانا ارقص ، فكان يضحك ، ويمسح بيده على شعري وهو مستمر في الرقص ، وأمي تبتسم من بعيد أيضا .

ويمر الكروان منشدا في السماء الصافية . . . لك . . . لك . . . لك . . . . لك ، فيتهلل الجميع ويكبرون ، اما أنا فتمنيت أن يأخذني الكروان بعيدا معه ، ولا يعرف سليم طريقي ، ويتعذب ويبكي ، ويبحث في كل مكان عن نوسة حبيبة قلبه ، ونور عينيه .

وعند عودتنا للبيت ، بكيت ، واحتضنت هارون ، ورحت أشكو له سليما ولكن اللعين انشغل عني بمطاردة فراشة ، حومت حول المصباح ، وقفز خارجا وتركني وحيدة لأنعس وتدور في رأسي الصور ، «نافلة» بثوبها المطرز بالخيوط الحريرية الملونة ، ودم الخراف الحار وهو يرسم أشجارا حمراء موحشة بين اتربة «المولبحة » ، وأيادي الرجال والنساء والأولاد المخضبة به ، وهي تنطبع على الجدران الطينية ، وأمي تدس في يد «نافلة» القرط الذهبي ، الذي ابتاعته كهدية لها ، وكانت آخر صورة رأيتها في الحقيقة ، قبل ان اغيب في النوم ، الجناحان الذهبيان المفتوحان حتى النهاية ، والخرزة الزرقاء في صدر الطائر ، وهي تكبر وتتضخم حتى ملأت كل عيني ، وعندما كبرت أكثر وذهبت الى المدرسة ، رأيت الصورة نفسها مرسومة في كتاب التاريخ ، وعرفت انه حوريس . . . . المخلص الحبيب حوريس .

- سليم . . !؟

قلتها ، طويلا . متسائلة . . . تحمل الفرح والدهشة ، كادت ان تسقط من يده كأس الشاي ، فسارع بوضعه على الصينية ، واحتواني بين ذراعيه ، وراح يربت على ظهري ، شعرت بالدفء القديم في رائحة الأرض المبللة

بحبات المطر ونحن نجري تحتها في الشتاء ، عائدين الى البلد ، مثلما شعرت برائحة «حنون» البيض وهو خارج من الفرن ، وطقطقة أكواز الذرة المشوية في الليل .

- سليم .... كدت تنسانا !؟

قلت .... بعد هدوء العاصفة . دموع على خد امي ، وارتعاش في أطراف سليم ، وحمرة خجل شعرت بها تلفح صفحة وجهي .

- كبرت يا نوسة .... سبحان الله !!!!

تصعبت أمي وهي تمسح دموعها .... وقالت :

- الزمن !!

حكى ، وحكت امي ، وأنا اتفرس وجهه ، ووجهها . « سليم روح قلبي ونور عيني » . هكذا كنت أقول له وأناديه ، الآن صار وجها بجلد متراخ على العظم ، وشيبا يتلألأ بأضواء الفضة .... تـذكرت الف ليلة وليلة «الشيب نذير الموت » ، واكتشفت ان امي صارت عجوزا أيضا ، تحسست وجهي بيدي ، رغما عني ، وهو يحكي وأمي ترد ، بكلام سمعت بعضه ، ولم أسمع البعض الآخر ، تناول الذين عاشوا ، والذين ماتوا ، كما تناول اولاده الخمسة ، الصبيان والبنات ، وحكى عن الكبير الذي ذهب الى البلاد العربية ، وعـاد بالجوز واللوز ، وقمر الدين ، وأصبح يمتلك متجرا وسيارة ، والصغير ، الذي يرتدي السراويل الزرقاء الضيقة ، المحبوكة على جسده ، وينفش شعره كالعبيد ، ولاحظت ان سليم - يرتدي في معصمه ساعة كبيرة ، ويرتدي جلبابا حريريا أبيض ، ولكني لم المح في عينيه أبدا بريق السعادة القديم ، كانت عيناه باهتتين بلا طعم ، ردت نظراته بذلك على أمي عندما قالت :

- الحياة صارت بلا طعم يا سليم .... والناس لم تعد ناس .... أتذكر يا سليم عندما كنا في شم النسيج ، نلون مائة وخمسين بيضة كاملة ونتبارى جميعا في أكلها .... لم يكن للاشياء ثمن وقتها . تنهد وأشعل سيجارة ، سعل بعدها قليلا وامن على كلام امي قائلا :

- الناس جاعت في الزمن الملعون هذا .... وأولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال ، تصوري .... عيال سعدون الحاوي ، صار عندهم الآن عمارات ؟.. ناس تقول مخدرات ، وناس تقول الشقق المفروشة ، وشغل الحرام .... والله أعلم .

أنا أيضا أشعر بان الدنيا بلا طعم ..... حياتي ، وحياة الناس كلها ، اقرأ ذلك ، وانا أطل على وجهي في المرآة كل صباح ، وأراه على وجوه الناس في الشوارع ، وعلى محطات «المترو» و «الاتوبيس » ، ويقـوله زمـلائي في العمل ، بالزفرات والتصعبات والآهات .... ومنذ زمن لم اسمع ضحكة حقيقية ، ضحكها احد من القلب ، ورغم ان اليوم عيد ، وأمي صنعت الكعك ، وغطت المائدة بغطاء جديد ، وابتاعت زهورا وحلوى ، لا أشعر ان احدا قد فرح هذا الصباح ، طلقات البمب لم يعد لها هذا الدوي الطفولي في اذني ، الشوارع قذرة ، والوجوه يعلوها الاصفرار ، والخضرة صارت شيئا نادرا ، والمواصلات جحيم دائم ، والناس لم يعودوا يحب بعضهم بعضا ...

هكذا قلت لسليم عندما سألني لماذا لم أتزوج حتى الآن ، وأمي تضحك ببرارة وتذكرني بحبي لسليم ، ونوادري معه ، ولأنها خافت من غضبي بسبب سؤاله ، راحت تغير اتجاه الكلام وذكرتنا عندما ذهب سليم الى الحرب ، وكنت انا اصنع بنادق من الخشب ومشابك الغسيل مع البنات والأولاد في حارتنا ، ونستخدم نوى البلح كبارود ، نحارب به الانجليز والفرنسيين واليهود ، ونهتف بأعلى ما تمتلك حناجرنا الصغيرة من أصوات : عاشت بورسعيد المجيدة .

وتذكرت انا مع ذكرياتها اشياء اخرى كثيرة ... ايام حبي لسليم ، وحبي لعادل ابن الجيران ، الذي كان يصر على تقبيل ركبتي المجروحة ، عندما اقع ونحن نجري ، ويقول لي : « طابت خلاص » ، وأصدق انا رغم لونها الدامي ، ونيران الألم المتصاعدة منها .

وحكى سليم أيضا عن همومه : حفيده لا يعرف من هو الزعيم سعد ، ولم يسمع عن دنشواي ، وقال ان السبب هو الكفر ، فهو يتعلم في مدارس كفرة ، وسب اليهود العرايا الذين يتجولون في البلد براحتهم ، وقال ان بخلهم جعلهم يسيرون هكذا لأجل توفير متري قماش ، ولما سألته عن «نافلة» بكى . وبكت أمي أيضا بسبب اخي الذي هاجر الى كندا ، والذي تخشى ان تموت دون ان تراه ، ودمعت عيناي من الهم الذي يثقل صدري ، وقلت في نفسي الجميع يبكي بداخله ، ولكنه ينتظر اشارة البدء من الآخرين ليطلق دموعه ، وتذكرت كيف بكى الناس في جنازة عبد الحليم وأم كلثوم ، وكادوا ان يخطفوا نعش رشدي اباضة ، رغم ان نصفهم لم يقدر له الذهاب الى السينما طوال حياته . تنهدنا جميعا .... وقال هو :

ـ سرقنا الوقت .

نهض من مكانه ، تشبثت به امي حتى يظل معنا للغذاء ـ ولكنه كان مشغولا ـ هكذا قال ، وكنا مشغولين ايضا ، ولكنا كنا نجامله .... اجل نجامله ، رغم حبنا له الذي يعرفه ، مثلما يعرف انه لا يرغب في ان يثقل علينا بطعامه ...

ابتسم بطيبة .... ومر بيده على خدي ، وقالت أمي :

ـ عيدها يا سليم .... الدنيا تلاهي صحيح ... لكن العشرة لها حق وعدنا بأن يعود ليرينا احفاده الحلوين .... لكنه لم يهد لكنه لم يعد أبدا .



دليل الفراشة

عبد الرؤوف بوفتح

الفراشة نائمة عند باب الذهول ،
لها الحلمُ مُنهمرٌ في إناء المسرّات ..
في قدحٍ كوثريّ ..
لها ملكٌ : تاجه الأغنيات ..
لَها عسَسٌ ونُجومْ .
الفراشة يا صاحبي
تعرفُ الآن أعشاش كلّ الحرائق ..
أعشاب كلّ الحدائق
في قلبها الآن رائحة المَوْت ..
بوْصلة النّار ....
هل بعد هذا تشكُّ ...
بأنّي القَتيلُ ؟
واني شربتُ المسافة
ثمّ اختفيْت
وإنّي أفكّ رُموز الحريقِ ...
وأنتَ الذي :
قد لجأت إليه أخيرًا
فغطّى عظامي بأجنحة الدّفء ..
ثمّ دَعاني ....

إلَى « حانة السّفراء »
هناكَ : رَأى ضَحكتي كيف سالتْ دَمًا
(والخطى شجنا ، والشّوارع مشنقه ،
والوجوه التي في يدي سرّها : غرْبة ،
والمقاهي جدارٌ .. تصادم فيه جدارٌ ..
خلْف كلّ جدارٍ تَمتْ مُومِسٌ ، أوْ صَديقٌ
يُحرّكُ سُكَر هذي الخيانة ....)
- إنّي بكيتُ :
كمَنْ ضَيّعَتْهُ الحقيقَةُ في وَضْحِ الوَجْدِ ..

- إنّي بكيتُ :
لأنّ الرّصاصة فِي كبدي ،
والذينَ رَمَوْني ..
هُمُ الأصْدِقاء ..
هناكَ ، وفي حانة «السّفراء»
عرفْتُ بأنّكَ كنْتَ المَلاذَ
وكنْتَ النّبيذَ ...
بأنّك مُتّهَمٌ بامْرأة ...
(جَسَدٌ ... لَا تُحبّ لظَاهُ ...)

وأنّكَ ترْغَبُ في مَوْقعٍ
قد يغيّرُ مجْراكَ حيثُ تَرَى ....
عَسْكَر الطّير منهمكا في نسيج
قميصك ... والأغْنياتْ ....
- مَوْقعٌ :
قَدْ تُغيّرُ فيه سلاحك ...
حتى الكَلَامْ ....
هكذا صاحبي ..
لا تجيءُ إليه الزّوابعُ ..
لكنّه يَحْتمي ..
بالعيونِ التي ...
في شذَاهَا : ينَامْ ..
للحقيقة يا صَاحبي
إنّني لا أريدُ ضياعَكَ ..
خَلْفَ قَطِيعٍ تُلَمْلِمُ دهشته امْرأة ..
لا أريد التورّط فيك وفي زمني
أيّها الصّديقُ ...
فالفراش لا تَنْحَني .. للحريقْ .. !

رؤى في حانـة مرميّـة

ماهر حمصي الجاسم

- 1 -

قيل، المُدَامُ بَعْثَرَ الأشلاء
وَارْتدى القلاع مَلْجأً
وَهَابَ بالطيورِ أنْ تبقى أسيرةً
وَأنْ لا تَدْمَعَ !؟..

**

- 2 -

وقيلَ إنَّ الحانةَ المرميّةَ
على الدروب
تَعْتَلي البروجَ في الظلامِ
تَمسَخُ الزهورَ
ثمّ تَرْتمي مع الشروقِ مُتْعَبَهْ ؟..

- 3 -

وَقيلَ إنَّ الزائر الوحيدَ
يَسْتَافُ الأنينَ
يَمتطي الخيالَ ... يَرْتَفعْ
وحينما يصحو ....
يلملمُ الخيالُ زادَه
وَيَبْتدي الرحيلَ
صوبَ حبه الدفينِ

**

- 4 -

وقيلَ إنّه انْتقى الحروفَ ...
أنْشَدَ ....
« علامَ يهطلُ المطرْ ؟..
علامَ تختفي النجومُ في النهارْ ؟...
علام أرسمُ المروجَ والشجرْ ؟...
علام امْتِدادُ السيلِ والبحارْ ؟! »
وعندما اِجْتثه صدى النحيبِ
أفرغ الكؤوسَ
ثمّ حاولَ النهوضَ
فَضَمَّه العُقَابُ
وَاخْتَفى مُوشّحًا بالنارِ
والمدى !...

هذه ليلاي وهذا جنوني كله

الحبيب الهمامي

لام ـ ياء ـ لام ـ ياء ـ الف ـ حاء ـ واو ـ الف ـ تاء (آخر ما قال العاشق) ماذا قال ؟

أتناثر بين شذاها
وبين متاهات اعء
أتحول من شرقها الاموي
الى غربها الهاشمي
وإني القريشي
ضيعت دربي الى خيمتي
واحتواني الجنون
أدق دمي في خطاها
لأنسى دروبي
(أقول لحاتم،اذبح هبائي لضيفك في آخر الليل
يا متنبي لك الآن صبري مملكة ، اشتعل من رمادك
ذا الملك عادك ، يا ابن أبي ......)

احفر نبضي على نبض خيمتها
وأداهم احلامها بعروقي
أقدم سري سوارا لاسرارها
وأدوخ على ظلّ أنفاسها
(يا جواسيس موتواقليلا، لأولدمن رحم ذهبي ويبتدىءالماء . .)
أطير باجنحة من رياح
وأقسم أن قريشا سترجمني شاعرا ....

رأقسم ان تبنى هاشم سيريقون ذاكرتي
وأهل أمية لن يغفروا فَرحي
لم أجيء في عروق أبي لهب
لم أجيء خيمة عقرتها رياح الجفاف
فها قد تجمّع فيَّ
الصباح / المساء / النجوم / الغيوم / الشمس / الاشارات
والكلمات / الغموض / الوضوح / الشموخ / الرسوخ / الفضاء
الضياء الذي لا يسمى / الذي سيسمى / الذي سممته العصور
ولكن تسامى / الملوك / الصعاليك والشعراء .
أتيت
وليلاي نائمة
معها كتب وملائكة
انها تتنبأ قال المؤرخ
ترسم أشكالها في الفضاء الذي لا يُرى
وتؤرخ طالع من سيؤاخي النبيء الجديد
وليلى
تقاسم أعضاءها نبرةُ الخلق
تكتب أسرارها في عباءة من سيجيء
وتعلنه حين تأنس لي
وتحيط غرائزها بدمي وتقوض ليلك يا ليلُ
ليلى تعرّي القبائل حين تحب

وتصرخ :
أخلع جلدي على من أحب
يا ناقة الله هذي ثمود على حالها
ما الذي يطلع الآن من خيمة الشعراء
أشم انتحار الكلام
فأين ينامون حين تموت قرائحهم ؟
صدىء الشعر
أم صدِئـوا ؟)

أنت ليلى
أنت القصيدة والشعراء
وطفلك جئت على خجل
أتلعثم

(2)

ماذا أرى في القبيلة
أشباح موتى
قناديل لا تتراءى لضوء فصيح
خياما مضرجة بدم عاشق
ونســاء
بأي جنون قُتِلن
واسئلة تتجمهر
تخلق أرضا بلا أخر
قيس حطّ خطاه
وأعلن ليلى
وليلى البلاد إذا أشرقت
تتداخل في اللون ، والشكل
تكتشف العمق
قيس بريء من الموت
جاء ليقرأ أحلامه فيك
لا تقتليه
وقولي له : أيها القيس
ظلك موتك

في هذه الأرض
والأرض ضيقة كعيون الجواسيس
نارك موقدة فيك
تحترق الآن منك

كأنك متهم بالحضور
الى زمن كافر
لا الخيام ستؤويك
لا جسدي ينبغي ان يسويك حيا
ولا الكلمات
ويا أيها القيس
مات المحبون شوقا الى موتهم
وانتهى الضوء
وانتحر الماء في الماء
وارتفع الشنق في الخلق
وانساب موت على لغة الاغنيات
ويا أيها القيس
لا أحد لك فيك
ولا أحد لك في
وليلى تسير إليها
وتنسى على ظلها قيسها
هكذا اخبرتني الطيور الابابيل
قلت لعل العشيرة في البئر
والنائمون على الحجر الأسود الآن نمل
لعل السواد امتداد البياض
وليلى توحد بين القبائل
ليلى تفرق بين القبائل
ليلى
ترعرع فيها السؤال
تناسل فيها البهاء
كتبت على ظلها
(أنت ساحرة
والعصافير سميتها أبجدية صوتك

أنت عصور تخبىء في رئتيها البشائر
أنت الوضوح المعقد

أنت الغموض المفتح
تاجك ذاكرة الخلق

انت ابتداء الفضاء
وانت نهايته

وأقول : لعينيك حلم القبائل
وجهك نور على النور

سورة : ويل لهذا الظلام من الضوء
صدرك تفاح

أدم مندثر في البهاء ويقضم تفاحه
ويموت شهيدا)

خطاك دليلي الى خيمة الماء
لا أحد فيك يفهم غيمي . . . .

تساقط عرش على العرش
يا ملكا جاء

قبل الأوان وبعد
ويا ملكا عاش في نعشه

يا جواسيس
يا أيها الطفل يرضع رمحا

ويا امرأة تتعرى لجرح لقيط
ويا أمة يصطفيها الخراب

الى أين أمضي ؟

وليلى أراها
ولست أراها

وكل القبائل تعرفها
والفراشات تحفظ اسماءها

في الخيام روائحها
في الفضاء فضاءاتها

وليلى الرموز
وليلى بهاء العصور

تدل على الضوء
ومن أجلها الغزو كان

ومن أجلها الأرض مفتوحة
ولها الكلمات تمدّ مناقيرها

وعليها خلعت القصيدة
لا حول حولي سواها .

قدس ..

عزالدين ميهوبي

وتنأى ..
تقمطُ طفلًا صغيراً
تحملق في كل وجهٍ عبوسٍ ..
تُرتّل مليون آيه ..

تصلي ..

تناجي الإله ..

وتكتبُ في وجنتيهَا الحكايه ..

***

أنا امرأةٌ من رخامْ ..

ومازلت عذراء
عمري قرونٌ
ولم أبلغ الحلمَ بعدُ ..

وقد مرّ مليون عامْ ..

تزوجت ألفَ نبيٍّ

وأنجبت ألفَ جنينٍ

يُسَمَّى السّلامْ ..

ومازلتُ عذراء

دونَ فِطامْ ..

***

أسافرُ في جَسَدِ الأنبياء جميعاً ..

أسافرُ في كلّ عامْ ..

إلى ملكوت السّماء

فاصبح أرملةً

من رُخامْ ..

قنديـــل ..

عزالدين ميهوبي

لا تحترقْ ..
فالشمعُ رحلتُهُ الطويلةُ
تنتهي عند الشفقْ ..
لا تحترقْ ..
فالشمس تكبرُ مرّتين
متى يهاجر نحوها عُنُقُ الزّمان
وحين يعلن عن تمزّقه
الغَسَقْ ...
لا تحترقْ ..
لا تحترقْ ..

فالطّيْرُ يَنْسُجُ من جناحيه
القواربَ
والموانىءَ
والألَقْ ..
لا تحترقْ ..
فالشمس تكبر مرتين
ولا تموت سوى عيونِكَ
والقصيدة ..
لَحْظَةً بين الولادةِ
والورقْ ..

أنت

إلى تيو دوراكيس

نجاة العدواني

نَجْمَةٌ تَجْمَعُ الأساطيرَ
سَرَقَتْ وَجْهَكِ
مني
قَلَمٌ دامٍ
خطَّ على رَمْلِ
الذّاكرة :
الرّبيعُ على جذعكَ
غصْنٌ . . .

من كلّ حَرْفٍ
يطلُّ إصْبَعٌ ،
يشير إلى أقزام
هذا العالم
صباحٌ ارتقى مرتجفًا ،
شفتيَ
معطفي البَرْدُ
وجهيَ الحلم
قاربيَ الضَّبابُ :
مَنْ يرشقُ
نهاريَ
بباقة فَرَح ؟

ليَ الوطن
لَكم الحدود

مَنْ جاء
بإبريق البربريّة
يسقي زنبقةَ
الجُرْحِ
بأملاح الصحراء ؟

فَرَسٌ دَاسَتْ غيمةً
وغابَتْ . .

أوتارٌ تحرّك
النسائم
ساقاه سنبلتان
ترقصان في بيدر
الرّماد . .

تحترق المسافةُ . .
زوربا يطلق جناحَيْه
في رياحِ
قَرْطاج
قدماه زهرتان
تدقّان الصّدورَ
المُقفَلَة . .

يرفع صَوْتَهُ
الأعناقَ
على سُلّم
الطّبقات ،

ينهار السُّلَّمُ
بَيْنَ ارتعاشةِ الوَتَرِ
وانطلاقة الكلمة
طَارَتْ الزَّقْزَقَاتُ
تنتفُ ريشَ
الـــرُّوح . . . .

ينتفض البَحْرُ
بجلبابه الرّماديّ
دَاكًا منصّة
الحياة . . .

تَضْحَكُ الكهوفُ
في قرطاج ،

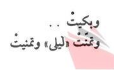
تَعَانَقَ العَبْدُ
والأَسَدُ
دَاخِلَ دائرة مُلَوّنة
وَأنا وَأَنْتَ
طفلان انتشيا
لَعِبًــا
في خَيْمَةٍ
مِن أنغام
تيودوراكيس !

الشجـــرة...!

عبداللطيف أطيمش

كنّا أطفالاً عشّاقًا . . .
نضحك للدنيا
نجري في صبح الغاباتْ
نلعبُ : « أغمضْ عينيك تمنَّ (1) . . . »
فكل العالم أمنيّات

وبكيتْ . .
وتمنّتْ «ليلى» وتمنيتْ



* * *

كانت تغمضُ عينيها . . .
تلصق خديها . . .
في جذع الشجرة
كنتُ حزينًا . . .
الصقتُ على نفس الموضع وجهي

* * *

ومضى بكلينا العمر
رحلت « ليلى »
كبرتْ في الدنيا الأشياء
كبرت دنيا الأشجار . .
الأغصانْ
ودنيا الأوراق
كبر الأطفال العشاقْ
كبرت تلك الشجرة
إلا صورة وجهي المطبوعة في جذع الشجرة

---

1) لعبة شعبية يلعبها الأطفال في العراق ، يطارد احدهم الآخر ، ويغمض عينيه ، طالبا منه أن يتمنى أعزّ أمنية يحلم بتحقيقها . وتصدق الأحلام . . !

زرقــاء البــر والبحــر

كانت الزرقاء ترى الأشياء ... من مسيرة عامين ...

عاشور فني

زرقاء هذا البرّ
إن الجوّ لكْ
ما كنت أنوي أن أثير فراشةً في الأفق
أو أن أرفع الصلوات عن عينيك
أو أنوي التوقف ها هنا كالبرق
لولا أنْ رأيت سواحلك
ورأيت هذا البحر ...
عذرًا إن قطعت تأملكْ ...

« ... جئنا المدينةَ بانشراحات العصافير الصغيرة
والفصولْ ..
لم تكتمل خطواتنا
شبح المدينة أطفأ الأنوار
أغلق بَابها قبلَ الوصولْ .. »

ما كنت أنوي أن أثير فراشة في الأفقِ
عذرا إن قطعت تأملكْ
بسحابتي البيضاء
عذرًا إن ملأت الأرضَ صيفًا قادماً ... وحرارةً
ووعدتها بالغيم والأمطار
عذرا إن نثرت دمي على الأشجار
حتى لايناجيْها الذبول ....

« ... ماذا أقول لمنْ تشق الباب ـ سيّدةً ـ
لمن وصلوا .... وتفتح قلبها ..
ماذا أقولْ !!!
لو أنّ هذا البحر بحرُ القلب
لو أن السماء ملاءة للحبّ
لو أن الأثير يحسّ جمرة نبضتي الأخرى .. ويحتمل الحريقْ
لزعمت أني عاشقٌ كالبرق
يأتي مفعمًا بالدّفء
يسكب وجهه ألقًا على وجه العشيقْ ...
ورحلت مثل البرقِ ..... »

أعش أغنيات البرّ
أحلم أن تفيض الأرض بالأنهار
أجمعها على شفتيك .. أكتبُ أجمل الأشعار .
أعشق مهمات البحرِ ..
أحلم أن يظلّ البحر للابحارِ ..
أبدأ من مدى عينيك يومًا .. أعمق الأسفار .
أمضي غارقًا .. وأقولُ :

يا زرقاء عذراً .. إن تركت خطاي تبحث عن خُطاك تلهفًا
في زحمةِ الآثارِ ..
عذرًا إن تركتُ يدي تلوّح زرقةً
وتلمُّ هذا الشاطىء المكسور حول البحر. .واستسلمت للتيار..
هذا ما استطعت من الرحيلِ
وما حملتُ من المتاع
وما ملكتُ من السّفينة
كل أسفاري القديمة .. زودتني بالرمادِ ..
أمهلتني لحظةً ... لأشدّ بوصلتي
وآخذ من مدن عينيك زادي ..
ثم أكمِلُ رحلتي في ما تبقّى
مِنْ بِلَادِ ..

اللعبة والشراع الحضاري

خميس زغداني

قبل الشروع في دراسة المسرحية والوقوف عند فنياتها ، نشير الى ظهور مسرحية تحمل العنوان نفسه للكاتب البحريني خلف أحمد خلف سبق أن نشرتها مجلة (كتابات) البحرينية ، عدد 15 ، 1979 ثم صدرت في سلسلة القصة والمسرحية ، وزارة الثقافة والاعلام - بغداد 1982 - واشتراكهما ، لعبة أحمد بودشيشة ، ولعبة خلف أحمد خلف ، في موضوعهما ، الذي يرتبط بطريقة أو أخرى بالسياسة ، مع اختلاف الطريقة التي عرضها بها هذين الموضوعين ، وطريقة معالجة الأحداث وتقديم الشخوص ، فمسرحية خلف أحمد خلف تطرح قضية التمثيل او التقمص لصورة شخصية ما بحيث ينسى معها المثل صورته هو ويندمج أو هكذا يعتقد ، في دوره الجديد ويراه قد غدا دوره الحق ، ويصور من خلالها شواذ هذه التصرفات ، باسطا سلوك الحاكم والمتمثل في أنور السادات من خلال زيارته للقدس على أنه سلوك تمثيلي ، شاذ ، سمته الغباء والسذاجة ، في حين نجد أحمد بودشيشة يطرح قضية الثورة الجزائرية في صراعها مع هؤلاء الشواذ الاقطاعيين وكيف ان الثورة التي طالت عملائها في أثناء انطلاقتها الأولى تمضي قدما لتلاحقهم وتؤمم ممتلكاتهم التي لم يخدموها وأعطتها للذي يسهر عليها .

كما تشترك المسرحيتان في أن النهاية تكون في فشل صاحب (اللعبة) بالموت او بالاستسلام أمام الأمر الواقع . شيء آخر يمكننا الاشارة إليه يتمثل في قضية العناوين والتي يختارها لتحمل معناها في ذاتها ، إضافة الى وجود شبيه لمثل هذه العناوين في المسرح العالمي ، كمسرحية السر التي أشرنا إليها في دراسة سابقة ، ونشير إلى أن للكاتب المسرحي هنري برنشتاين أيضا مسرحية تحمل العنوان نفسه ، وتشترك المسرحيتان في الموضوع أيضا ، بحيث تجمع الى العبقرية الخديعة ، ولا أدري هل هذه محض صدفة أم أن الكاتب أحمد بودشيشة اطلع عليها ووجد في واقعنا المعيش لفتات أكثر صدقا وأبلغ تعبيرا .

مسرحية اللعبة

تبدأ المسرحية من الجزائر وتحط رحالها في فرنسا ، وتنقسم عبر ثلاث محطات تاريخية ، لتتقرر نهاية أحداثها من الجزائر أيضا .

- مرحلة اندلاع الثورة 1954 - 1962 .
- مرحلة الاغتراب 1962 - 1973 وهي الفترة التي تمتد تلقائيا منها مرحلة التأميمات ، والثورة الزراعية . وهي المرحلة الثالثة التي تتوقف بها المسرحية ،

أما الأحداث فتجري في فرنسا وتبقى الجزائر تمدها بخيوط الاتصال والتطور .
- مبروك رجل شيخ (توفيت) زوجته إبان الثورة الجزائرية المسلحة وتركت له ابنة وحيدة مسليته في حياته ، رحل بعدها الى فرنسا وعاهد نفسه على عدم الزواج ثانية حتى لا تُعامل ابنته كربيبة ، وفي فرنسا يتمكن من تيسير حالته وأن يعيش وابنته حياة سعيدة لا يعكر صفوها الا الذكريات المرة الماضية ، وصورة زوجته التي لم تفارق مخيلته .
يغرق نفسه في الشرب والجنس وتنحل أخلاقه وينعكس ذلك سلبا على ابنته (قمير) ، التي لا تفرق من حياتها الا العنجهية والدلال وتفتح عينها على مظاهر (الباريسية لتعرف فيها نفسها)

المهدي المنتظر

هكذا يعيش (مبروك) وابنته (قمير) حياة ملؤها البذخ والترف والتحضر إلى درجة لا تحتمل ، مع كونها غدت في عرفيهما عاديّة جدا .
وتشاء الصدف أن يتعرف مبروك في احدى مقاهي باريس على (المهدي) الصديق الذي تعرف إليه ذات مرة في مرسيليا ... وليتحسر (المهدي) كثيرا عندما يعرف مأساة مبروك وما آلت إليه حاله بعد فراق زوجته ... لقد قتلها مزارع لأنها زودت الجنود الفرنسيين بأخبار (الفلاقة) التي زودها بها بعد أن أوهمته بأنها تريد أن تخدم قضية الشعب الجزائري العادلة ... ولم يجد حلا بعد أن تفطن لذلك - إلا استدراجها وقتلها ثم حرقها والالتحاق برفاق النضال في الجبل ... وخوفا من أن تطالها يد المجاهدين ... أخذ مبروك ابنته وفرا إلى فرنسا حيث استقرا .
وعندما أراد المهدي أن يخفف عنه تعاسة الذكرى ليخبره بأنه هو أيضا أرمل ... وأن زوجته فارقت الحياة ولم تترك له ولدا يسليه ... وعلى الرغم من هذا فالحزن لم يعرف طريقا نحو قلبه ...
وفي اثناء الحديث (تظهر (قمير) قادمة ... وعندما يعلم المهدي أنها ابنة (مبروك) تبدأ خيوط أحلامه تنسج بساطا تتوسطه كزوجة تزين حواشيها ممتلكات والدها وميراثه الذي سيقدمه هدية لها بمناسبة زفافها .

مـوريس وقمـير

ويبدأ المهدي في نسج هذا البساط سواء بتمثيله دور الرجل المحب ... الذي يؤمر فيطيع ... المتأدب ... وهي الحركات التي تجد صداها ، ولو من زاوية خفية - لدى قمير التي تألف هذا الجو ، وتحت قناعة أنه صديق والدها ، تدعوه إلى وليمة فاخرة أقامتها على شرفه في المنزل . وفي هذه الأثناء يأتي موريس الشاب الفرنسي وتقدم قمير له المهدي على أساس صداقته وأخوته لوالدها ، وتتحادث معه على انفراد ، ثم يأخذها في سيارته للنزهة ، الأمر الذي لم يطمئن له المهدي في حين نجد الأب مرتاحا لأنه علمها ألا تكون لقمة سائغة ... وقد لا تستغرب موقف الأب الذي يبذل جهد الأنبياء ليطمئن المهدي على قمير ... وارتياحه (لأخلاق) موريس ... ولا غرابة ان وجدنا ثائرة المهدي تثور ، وخبر قمير لموريس يصدع أذنه .

(قمـير) وموريس والمهدي

ويبذل المهدي جهده لاقناع الأب مبروك في فسخ خطوبة قمير وموريس واستعداده لأن يقدم له ولها ما يطلبانه منه ... وأن حبه لقمير هو وحده الذي جعله يتقدم لطلبه هذا ، في مثل سنه هذه (شيخ) حرصا على ان يورثها

ممتلكاته وثرواته التي تركتها في الجزائر ، ويقتنع الأب (ظاهريا) بهذه الفكرة ما دام (المال) هو أساس العملية ، ويتمكن من اقناع ابنته وخطيبها بمحاولته اسعادهما . . . خاصة وأن المهدي يستعد لطي ثياب الرحيل الى الآخرة . وبعدها تؤول ثروته لها مثلما تعود قمير ثانية زوجة لموريس وينعم الجميع في سعادة أبدية .

(العطرة) والمهدي ومبروك

وتتم الموافقة ويتمكن الأب من جذب كل الخيوط لفائدته . . . حتى خيط (العطرة) (أخت) المهدي ويقنعها بالزواج منه . . . رغم أن المهدي أخبره بجنونها . . . وهي اللعبة التي اتفق عليها الاثنان (المهدي والعطرة) حتى يوهما الجميع ويسيطرا على ثرواتهم وينجحا في ذلك لكن هذا النجاح لم يستطع أن يبلغ الخطوط المرسومة . . . وموريس يترصد كل الحركات والسكنات التي تصدر عن (العطرة) . . . واذا كانت تصرفاتها لا تحاسب عليها بحكم صفة الجنون فإن الأوراق تحمل عكس ما يدور على منصة العرض ، وعندما يعلم الأب (مبروك) بأنها زوجة المهدي وليست كما ادعى المهدي أخته . . . يصر على اتمام (صفقة) زواجه منها . . . والمضي قدما في خطته . . . لأنه يعلم ان لا جدوى من وضع حد لهذا القرار . . . خاصة اذا علمنا انه يريد ان يشفي غله منها . . . ثم ينهي حياتها والمهدي . . . ثم يستولي في غياب الوريث الشرعي على أموالها ويكون بذلك أصاب عصافير عدة بحجر واحد .

القــــرار

ليلة أن خلا مبروك بالعطرة كانت حدا فاصلا بين مرحلتين ، وقد أعطى (تعليماته) بحبس المهدي ثم وضع حد نهائي له . وفي اثناء كشف خيوط اللعبة التي حاكها المهدي رفقة العطرة والصراع الذي احتد بين مبروك و (زوجته) العطرة حول ذلك . . . يقبل موريس وقمير ، وقد اطلق سراح المهدي ، وعندما يسألها الأب عن سر ذلك يخبرانه أن لا جدوى من قتله . . . وأن الافضل أن يذهب كلٌ الى غايته . . . وقرار الثورة الزراعية واعطاء الأرض لمن يخدمها . . . قد شرع في تنفيذه في الجزائر . عندها فقط يعلم الجميع أنها فعلا لعبة .

النبـــوءة

ربما صدق حدس قمير وهي تعلم أن والدها ينوي الزواج فعلا . . . ومن العطرة . . . وأن ذوقه نزل به للدرك الأسفل درك السفالة . . . والرذالة .

وتغدو لفظتها : (إنها الصدقة) نبوءتها . . . التي تجد تفسيرا في نهاية المسرحية . . . عندما يصدمهم خبر اعطاء الارض لمن يخدمها . . . واعادة تأميم الأرض . . . (إذن لقد حل البلاء) بالمهدي ومبروك ، في حين نوّر عقل (قمير) المخدر . . . لتعي أنه (قد تحول غناهم الى فقر) و (أن الثورة هي التي أممت كل شيء يملكانه) هكذا تأتي نهاية (الغولين اللذين كانا يريدان أن يأكلا بعضهما بعضا) .

دراسة وتحليل

تقوم مسرحية (اللعبة) على مجموعة حوادث نستطيع ان نجملها في الخيوط التالية :

- علاقة (مبروك) وزوجته بالجيش الفرنسي من ناحية وبجيش التحرير الوطني من جهة ثانية .

ـ علاقة (مبروك) بابنته (قمير) التي لم تعد كونها علاقة أبوة إلى علاقة خطط .
ـ علاقة قمير بموريس من جهة وعلاقة والدها بموريس من جهة اخرى .
ـ علاقة مبروك بالمهدي . . . ثم علاقة هذا الأخير (بقمير) .
ـ والصراع المتولد بين موريس والمهدي بسبب قمير . . .
ـ علاقة المهدي بالعطرة ، ثم علاقة هذه الأخيرة فيما بعد بمبروك .
ـ علاقة عائلتي المهدي بعائلة مبروك بما فيها موريس .

هذه مجمل الخيوط التي تقودنا الى دراسة الحدث المسرحي في اللعبة كل الخيوط تتشابك الى درجة يصعب وضع كل خيط في إطاره . . . لكن هذه الصعوبة تتلاشى عندما نجد ان هذه التيارات تصب في مجرى واحد هو التخطيط (كل من زاويته) لعملية تعود بالربح السريع وبأقصر طريق وأسهل وسيلة عليه ، لنجد ان الصراع في حقيقة الأمر بين قوتين متكافئتين نسبيا .

مبروك شيخ ثري مثلما المهدي . كل منهما له سند مدبر ومساعد ومنفذ . مبروك له ابنته (قمير) المهدي له (العطرة) زوجته . . .

ومثلما نجد قمير مستعدة لأن تنام في أحضان أي كان مقابل (المال) فإننا نجدها مستعدة لأن تمثل أدوارا تسهل عليها عملية الربح المجاني . وهذا ما حدا بها أن تنام بمباركة زوجها المهدي بين أيدي عشيق شاب طمعا في ثروته .

نجد في الاطار نفسه الفتاة (قمير) التي تهب نفسها لشيخ بمباركة والدها وخطيبها طمعا في الاستحواذ على ثرواته ، اما الشاب موريس فحيادي ينفذ ما يؤمر به . . . لا يهمه من أمر الدنيا سوى متعتها . . . ليست له مواقف تجاه الناس .

تطرح مسرحية اللعبة قضية ضعف الشخصية وانحلالها كمحور أساسي . . . وإلى هذا نجد قضايا تصب في هذا المجرى ترتبط بحب المادة والانقياد لبريقها . . . وأن الثورة الزراعية وما تبعها من تأميمات إنما جاءت لتقضي على هذا الصراع على المادة وتعيد كرامة الانسان الجزائري . . . بأن عملت على تأميم الأرض وإعادة اعطائها لمن يخدمها ويرعاها .

(موريس) في حقيقة الأمر هو هذا الفيروس الذي نجده فجأة ومن دون سابق انذار داخل شريان الأسرة الجزائرية ، بما يمثله من رؤية هامشية للأحداث . . . همّه الوحيد أن يشارك في عملية جني الفائدة . . . وهو على بساطته (ماديا) استطاع أن يرشح لأن يكون الوريث الوحيد لميراث الأب مبروك بحكم زواجه من ابنته الوحيدة . . . حتى أننا نجده في النهاية يفوز بها .

في حين نجد (مبروك) يسير في الطريق الذي رسمه من البداية لقد صاهر الفرنسيين إبان الفترة الاستعمارية وها هو ذا يصاهرهم بعد استقلال الجزائر . . . الفارق الوحيد يتمثل في المكان الذي لم يعد أرض الجزائر .

أما المهدي والعطرة فيمثلان قاعدة الانطلاق نحو عالم الرذيلة لتحقيق الكسب المادي . . .

اللعبة والصراع الحضاري

لعل أحمد بودشيشة ينطلق في هذه المسرحية من منظور أخلاقي وربط ذلك بالواقع الجزائري الاجتماعي والصراع الحضاري خارج حدودها ، وأن الحضارة سلبت من الانسان كرامته ورمت به بعيدا الى عالم الرذيلة . . . وأن بذخ الحياة المعاصرة أفسدت الكثير من القيم العربية الأصيلة . . . وأن المادة قادرة على تحويل الانسان إلى سلعة تباع لمن يدفع أكثر (أنموذج قمير) بين (موريس) و (المهدي) . . . تلك هي الحضارة التي غيرت الكثير من مفاهيم الانسان الجزائري . . .

قمير تجلس إلى والدها في المقهى ويقدم لها أصدقاءه يصافحونها ويبادلونها نظرات الاعجاب والتملق . . . ويظهرون لها عواطفهم وحبهم ، ولا غرابة بعد ذلك أن وجدنا (قمير) تدعو صديق والدها (المهدي) لبيتها وتقدم له ولوالدها خمرة معتقة . . . عند ذلك نعي أن تقبيلها من طرف (المهدي) . . . أو أن تطبع هي على جبينه قبلة أمر عادي جدا . . . وقد تعود موريس أن يأخذها على مرأى من والدها إلى نزهاته الأبدية . . . تحت ستار ، أنها مخطوبته ، وقد ألفنا هذا الجو على امتداد المسرحية .

إن الانسلاخ عن جلدة الأصالة ولحم القيم المتأصلة فينا والذوبان في خضم جيل لا يمت لمعتقداتنا وواقعنا بصلة ولو من بعيد هو ابن الصراع الحضاري والذي وجد في ضعف الشخصية لدى مبروك طريقا سهلا . . . ولا غرابة ان وجدنا ابنته صورة لوالدها . . . وتغدو كل الأمور عادية ويسقط الحجاب الاخلاقي بين الوالد وابنته ولدى تأمل هذا الحوار ساعة مغادرة (قمير) البيت للخروج في جولة مع خطيبها موريس ، وهو الأمر الذي لم يطمئن له (المهدي) .

موريس : (لقمير) إني منتظركِ في السيارة .

(فيما هو يخرج)

مقير : حتى أنا أستأذنك يا ولدي . . . وكذلك يا أيها السيد المهدي .

مبروك : (لابنته التي تهيأت للخروج) ، تفضلي بإمكانك الذهاب . . . لكن لا تتأخري . . .

قمير : (بابتسامة جذابة للمهدي) اعتذر يا ضيفي الكريم ، أنا مضطرة لمغادرة المنزل .

المهدي : (شبه متعلق بها . إذ بدا عليه تكدر واكتئاب) إلى أين ؟ . . (مستدركا أوه . . . العفو ، كنت أود لو بقيت معنا ، فأنا لم أشبع منك . . .

قمير : أنا آسفة . . . (فيما تعلق حقيبة يدها ذات الحزام الطويل على كتفها) لقد كنت مرتبطة معه بموعد ، ولعلمك إنني اعتذرت له عن نفس الموعد أكثر من مرة . . . فخجلت هذه المرة أن أكسر خاطره .

المهدي : حتى أنا آسف أشد الأسف يا عزيزتي . . . غير أني أصرح لك بلا مبالغة . . . بأن هذا البيت لن يصبح له طعم إذا أنت غادرته .

قمير : (تدنو منه حتى تلتصق به فيما يكون هو قد فقد تماما زمام نفسه إذ تطبع على خده قبلة حارة) لا تقلق . . . أنت ستقيم عندنا هذه الأيام ص 124 ـ 125 .

وتصبح عبارة المهدي (البيت لن يصبح له طعم إذا أنت غادرته) ملخصا للمسرحية تغنينا الشروحات المملة . . .

فالمهدي لا يهمه في هذا البناء الا (قمير) وهي الدودة التي يريد أن (يستعملها في السنارة ويقذف بها الى النهر) ويتحصل على درره والتي في حقيقتها ثروة والدها .

الغريب في الأمر أن هذه (الدودة) مزدوجة الفائدة وكلا الطرفين يريد استعمالها ، وبالطريقة نفسها وللغاية ذاتها .

فبالقدر الذي تستعمل فيه كوسيلة اغراء . . . نجدها وسيلة لجلب الفائدة الأب يطمع في أن يكسب بوساطتها ثروات المهدي مقابل تزويجها اياه والمهدي يطمع في أن يتزوجها لتكون وسيلة كسب ثروات والدها والأغرب من هذا أن الأب والمهدي ـ كما سبق وأشرت ـ كلاهما هرم ينتظره الموت بفارغ الصبر .

لكن هل تنتهي هذه المهمة بسرعة وتكلل بنجاح ؟؟ لا أظن ذلك ، خاصة اذا علمنا كما سبق وأشرت ـ أن القوتين متكافئتان وهو الذي جعل المسرحية تأخذ بعدا صراعيا قويا .

الشخوص المسرحية

لا أدري لماذا جعل أحمد بودشيشة (موريس) يقبل بأن تجعل (زوجته) كدودة لتصطاد المال ، وهو الذي يرفض ذلك على امتداد المسرحية . . . حتى أننا نجده يتذمر لقبوله (المؤامرة) (انه موقف فظيع . . . عروستي الجميلة العذراء تختطف من بين يدي ليستمتع بها رجل عجوز خرف) . . . (يا ليتني ما قبلت . ليتني ما قبلت . . . إنني لم أشعر بفداحة الجرم إلا الساعة . . .) . . . إنه ثمن غال جدا جدا ، لو كنت أعرف أنه فادح لما وافقت . . .) . . . (آه إني أرى صورتها بين ناظري ، إنه يقبلها . . . يضمها إليه) ص 144 .

فعلا (إنه غال جدًا) (لو كان يعرف) موريس ذلك . . . لكنه قبل . . . وهو الذي يدري أنها ستعود إليه (لكن بعد أن تلتطخ بأدران هذا الشيطان) ص 144 .

وحتى وأن ساق لنا الكاتب مجموعة الأسباب التي حملت (موريس) على قبوله زواج (خطيبته) مع (المهدي) فإنها تبقى غير كفيلة بقبوله هذه المساومة . . . حتى إننا نجد (قمير) رغم ما تكنه لوالدها من حب ولا أقول (احترام) - إلا أنها تؤنب أو فيها تشبه ذلك خطيبها موريس :

- لماذا وافقن يا حبيبي ؟ لماذا ؟ كان حريا بك أن ترفضه وبإصرار ص 138 .

ولدى تأمل هذه الجمل التي في حقيقتها نابعة من لحظة صدق والرجوع إلى الذات . . .

ومثلما تجد (قمير نفسها بين مطرقة المادة وسندان موريس . . . تفضل المادة تحت إلحاح والدها نجد أيضا في الاطار نفسه (موريس) الذي يقبل أمر صهره وهو الذي لم يتعود أن يرد له طلبا .

لقد نجح الكاتب في شخوص مسرحياته . . . حيث يتمتع الجميع بشخصية ضعيفة منحلة . . . مستعدة أن تهدر كرامتها وشرفها مقابل (الوصول الى ما ترغب فيه بأقصر مدة وأقل كلفة) .

وقد حاول الكاتب أن يعطي بعض السمات لتقوية أدوار شخوصه ، واعطائها بعدا مؤثرا من خلال مسالك أفعالها وإن كان ألبس (المرأة) من خلال هذه المسرحية هيبة وأعطاها دورا أكثر فعالية من الذي منحه للرجال . . .

(فالعطرة) لها من قوة الشخصية ما جعلها تمشي دوما الى الأمام وتحرص على كلمتها ، حتى أنه عندما وافقت على الزواج من مبروك ورغم محاولات (زوجها المهدي) لمنعها عن المضي في قرارها ، إلا أنها ترى (أنه لا يمكن أن تتراجع إلى الوراء . . . وأنهم ذوو مبادىء) ص 192 وهي التي تنجح في اقناع زوجها برأيها وتحمله على الموافقة ، في حين نجد المهدي تتحول به أفكاره تحوّلا غريبا (ص 190) .

وعلى امتداد أدوار (العطرة) نجدها تردد (لن أتراجع في مواقفي أبدا) وأنه لي مواقفي الثابتة إزاء الناس والأشياء) . . . لا بأس أن أكون مجنونة أما أن أكون بلا موقف ثابتة . . . فهذا ما لا أحتمله أبدا . . .) وإنها لم تفعل سوى ما رأته حقيقا أن يعمل) .

يرسم أحمد بودشيشة أدوار شخوصه بدقة كبيرة ويحرص على أن يعطيها حرية خلق مواقفها . والتعبير بحرية بحيث لا نحس معها بافتعال أحداث أو سيطرة واضحة على شخوصه إلى درجة أن يجعلها تلبس أفكاره . . . هناك خطوط مرسومة لكن هناك حرية في سير الأحداث ، ولهذا لا نجد تصرفات تحملنا على لمس سلوك متناقض ، وأقصد التناقض بين ما هو واقع وبين ما يجب أن يكون .

فموريس الشاب الذي جعله صهره يقدس المادة لم ينس لحظة واحدة أن زوجته أثمن من (هذه المادة) حيث نجده على امتداد المسرحية يصرح بنبوءة أو حدس ثاقب أن المهدي لم يتزوج (قمير) إلا لشيء واحد ، هو الاستيلاء على أموالها) وأنها لعبة قذرة من لعبتهم ، وأن الاستحواذ على أموال المهدي بهذه الطريقة حلم جميل . . . حلم يتحقق بكل يسر . . . لكن الرجوع الى الوراء صعب) وفعلا الرجوع الى الوراء صعب .

من الناحية الفنية نجد شخوص المسرحية أدت دورها باتقان وقد قدمها الكاتب بطريقة مركبة ، ذكية ، من داخل الأحداث وصورها من خلال المواقف ... الشيء الذي يحمل القارىء على إعادة تقديم الشخصية وتصورها في ذهنه ... وتتبع حركاتها بدقة ... وبالتالي حمله على المشاركة في أحداث المسرحية لا كمتفرج بل كمنصر هام . هذا التعقيد الفني هو الذي أعطى الشخصية عمقها الانساني المنشود ... فالضعف والانحلال الاخلاقي لشخوصه استطاع الكاتب أن يخلق له مبررات نفسية واجتماعية ويبعث له ظروفه ... وإطاره ، فبذخ وانحلال مبروك وقمير إنما في حقيقته نتاج الصدفة التي تعرضنا لها عندما قتلت زوجة (مبروك) أم (قمير) وفرارهما بالتالي من الجزائر خوف ملاحقة الثورة لهما ... ثم الجو الارستقراطي الذي عاشا فيه والبيئة المغايرة تماما لما وجدا فيها فترة عيشهما في الجزائر ... جعلاهما يتفسخان وينحلان ... أمام إغراءات المادة وبريق الحضارة الغربية الزائفة وهي الصورة التي نجد فيها المهدي والعطرة وتعودهما حياة اللذة العابرة والسعي وراء المال وبذل كرامتها من أجل الوصول إليه .

هذه هي البيئة الغربية المادية التي تذوب فيها كل القيم والتقاليد والأصول العربية الاسلامية التي تقدس كرامة الانسان ...

حتى إننا نجد (موريس) الشاب الفرنسي يقدم زوجته فريسة الشيخ هرم مقابل الاستحواذ على ثروته ليسعد بها ... ولا بأس أن يعيد زوجته بعد ذلك .

وأحمد بودشيشة يطرح قضية الحضارة على أنه وسيلة لتدمير الشخصية وأن الصراع الذي نجده هو صراع حضاري الغلبة فيه للمادة .

وعلى العموم فشخصيات (اللعبة) تعد أنموذجا للانسان الشرقي الذي تستهويه المادة فيخر ساجدا راكعا ... تلك هي الحياة الغربية التي ينعدم فيها الواعز الاخلاقي . ويذوي الضمير الى غياهب النسيان ... وتسقط القيم أبدا ...

اللغـــة

وقد حرص الكاتب كما عودنا - إلى أن تكون فصيحة سليمة لا تكلف فيها ... كما حرص على الربط بين اللغة وبين الشخصية من جهة وبينها وبين الموقف من جهة أخرى .

فالموقف الرومانسي الحالم اختار له اللغة الشاعرية العذبة ... التي تطلق أعظم الآهات والصرخات ...

وفي حين اختار للمواقف الجادة اللغة المركزة الكثيفة ... الايحائية التي تحمل بعدا فكريا ، ونظرا بعيدا ... والتي تحمل تجربة ودراية بالأمور .

كما حرص على أن تكون ملائمة جدا للأدوار ، فالانتهازية لها لغتها وأطرها ... ولما كانت (اللعبة) مبنية على الخديعة والمكر واستغلال المواقف ، فإننا نجد الكاتب شحنها بقوة إيحائية ... بحيث أعطاها تفسيرات مطاطية مشعة ... كما لم يفلت الكاتب من إطار اللغة التي تحمل حكمة سواء على لسان موريس أو قمير أو العطرة ، حتى يجعلنا ندرك سرّ اللعبة .

وعلى العموم فمسرحية اللعبة تهدف إلى فضح شريحة اجتماعية ممن تبسم لها الحظ في غفلة من الزمن فلم تحسن استغلاله .

ولما كان الحظ لا يطرق الباب مرتين ... فقد انكشفت اللعبة .

مؤلفات أحمد بو دشيشة

- آدم يهبط إلى المدينة . مجموعة قصصية (11 قصة) الجزائر ، 1984 .
- الصعود إلى السفينة . 5 مسرحيات . الجزائر ـ 1984 .
- اللعبة والمغص ـ مسرحيتان ـ آمال ـ الجزائر ، 1985 .
- وفاة الحي الميت ـ مسرحيتان ـ الجزائر ، 1985 .

وله قيد الطبع :

- المخفر ـ مسرحية .
- شفرة حلاقة وكبريت ـ مجموعة قصصية
- ثلاثية .



مهاترة في فكر
لوحات قصصية لكاتبها عبد الرحمان أيوب

خالد التومي

هذه المجموعة يضمها كتاب من الحجم المتوسط ، مؤلف من اثنين ومائة صفحة ، تصدير التعاضدية العمالية للطباعة والنشر بصفاقس ، بأواسط سنة 1984 . ورغم ما تسرب الى هذه الاضخامة في الأخطاء المطبعية ، فلم يؤثر ذلك كثيرا على السياق العام للوحات . هذا بالاضافة الى كونها محلاة باربع رسوم زيتية ، رسم ظهر بالصفحة 40 وآخر بالصفحة 47 وغيره بالصفحة 40 والأخير على الغلاف الخارجي . أما اسم الرسام فهو غير بارز عليها ولعلها رسم الكاتب نفسه . إذا شئنا الغوص في مضامين هذه اللوحات أمكن القول إنها عبارة عن جولة في أعماق النفس ، والذكريات ، والتاريخ ، او ان شئت قلت سيرة ذاتية ذهنية ، نفسية ، حاول صاحبها ان يرسم لنا فيها صورا أسلوبية مبتكرة ـ وإن كانت تذكرنا ببعض اساليب كتاب الرواية الكبار « شتاينبك » و « دوستويفسكي »

ـ مجموعة من المنولوجات الداخلية ، أو حديث المرء لنفسه كما نقول في العربية . غير أن الذي يلفت الانتباه ان هناك خطا دراميا تصاعديا واحدا يشد هذه اللوحات ، بهذه المشاهد ، والصور ، والخواطر ، والملاحظات ، ويؤلف منها حسب زعمي أثرا أدبيا ذا نسق واحد يمكن تسميته « رواية » .

إن العشرين صفحة الأولى تعرض أبرع ما رسم الكاتب في هذه الرواية ، خاصة وقد تناول خلالها جانب طفولته البائسة المطحمة بمطارق الفقر ، ، والممزقة ببراثن الثقافة العارية التي يجسدها في أجلى صورة ذلك (المعلم) بين قوسين الملتحي ، الذي يمثل الاستعمار في اوحش مظاهره . وقد ربط المؤلف هذه المذكرات بغربته عن الوطن ، وذلك عند قيامه برحلة (لا ندري للدراسة أم للسياحة) إلى فرنسا ، وتجواله في مختلف مدنها ، وشوارعها ، وأزقتها ، ومن ذلك خاصة « الحي اللاتيني » أو ان شئت الدقة قلت « الحي العربي » الذي ما أمكن لأي عربي زائر او مقيم الا وزاره مرة في اليوم على الأقل . وبالطبع فكاتبنا كانت له أويقات لطيفة ظريفة في هذا الشارع يذكرها بخير لا محالة ، نجدها موزعة في الكثير من لوحاته ، ومنها خاصة اللوحة ص 54 التي تجسد اختلاط الحلم بالواقع ، إذ الواقع في حقيقة أمره سوى تركيب او تأليف بين ما هو نفسي ، ذهني وما هو مادي محسوس . بالمناسبة نقول إن الكاتب ليس في هذه اللوحة وحدها يفعل ذلك بل وفي اغلب لوحاته أيضا قد استطاع بحذق الفنان المجرب ، المتمكن ، وببراعة القاص الأصيل أن يوفق بين جانبي الواقع ، ويزاوج بين مستوييه الذهني والمادي ، وقد بلغ في ذلك شأوا لا يبلغه الا المتمكن من الصنعة الروائية والقصصية . فحتى الصحو لديه أو اليقظة تغدو حلما من نوع آخر ربما يختلف في نكهته ، وطعمه عن حلم النوم . وهل هنالك يقظة وهل هناك حقيقة نستطيع ان تدعم بها وجودها ، الا باللجوء الى الكوجيتو الديكارتي بشيء من الحذر والحيطة ، ذلك أن هذا البرهان قد يغدو خادعا وخاصة في مجال

ومناخ كذاك الذي يعيشه الكاتب ، ويريد التعبير عنه بدقة وأمانة الأحاسيس والأفكار والعواطف ، إذ ما الفائدة من نقلها إذا لجأنا الى أسلوب المنطق والهندسة ، إذ يعد ذلك احتيالا على العواطف ومغالطة للصور الذهنية المتدفقة ، المتداعية في وحدة نفسية وليس منطقية .

غير أن الذي شدني أكثر الى هذا « الكناش » لغة التجاوز التي نفصحة عن رغبة الكاتب عبد الرحمان أيوب الملحاحة في تحطيم الأطر القديمة للغة العربية ، وتفجيرها ، وتفكيكها . إن عملية تحطيم اللغة تمثل نشاط العقل الواعي في أكثف ايماضاته الابداعية ، فعملية الكتابة التي تبدو لكاتبها لا واعية في حقيقة امرها قمة وعي العقل بنفسه ، وبنشاطه عندما يتخلص ويتخلى عن روتينه اليومي . فحتى العواطف ، والأهواء ، والمشاعر ، والتصورات ، والاندفاعات لا تصبح واضحة لنا إلا إذا سكبناها في قالب لغوي مساوق لها ، ويقاس نجاح الكاتب بمدى المواءمة بين الصورة في جهة والكلمة التي تؤديها والنجاح التام يكمن في ذلك التطابق بين الكلمة - الصورة - أو الصورة الكلمة ، وهذا في زعمنا ما نجح فيه الكاتب عبد الرحمان أيوب أيما نجاح .

وكلنا ثقة بأنه قادر على ادراك النور وليس « رحيلا في الظلام » كما عنون الفصل الأخير في روايته ما دام قادرا على النهوض بهذه المعاناة العذبة المعذبة ، وتوصل الى صياغتها في عطاء فني جميل . نتمنى ان نقرأ له عطاء جديدا تفوح به هذه المعاناة التي لا يعقل ان تتبدد في غيار الوظيف والروتين الاداري .



السّيرة وأخبار الأيمة لابي زكرياء يحيى بن أبي بكر

تحقيق الدكتور عبد الرحمن أيوب — نشر الدار التونسية للنشر

د. محمد أبو الاجفان

إن في تراثنا الحضاري ذخائر نفيسة لم تحظ بعناية كافية ، ولم تتجه إليها جهود الباحثين والمحققين لنفض الغبار عنها ، وإخراجها لرواد ثقافتنا .

ومن هذه الذخائر ما يلقي كاشف الأضواء على جوانب من تاريخنا ، وما يبرز ملامح من النشاط الفكري لأعلام من أهل مغربنا العربي الكبير .

وأحيانا يكون للاختلاف المذهبي دور في إغفال بعض التصانيف وإهمالها ، بينما يقر الاسلام حرية الرأي ويفتح مجال الاجتهاد ويتيح الخلاف ، وكل ذلك في إطار المبادىء الاسلامية والأحكام الشرعية التي لا تخالف نصوص الوحي ولا تناقض أصول الدين .

على أن الهمة العلمية تدفع من حين لآخر ببعض الدارسين والمحققين إلى شق درب المصاعب لابراز أثر هام من مصادرنا التاريخية المجهولة لدى عامة الناس ، والتي يحتاجها الباحثون لاستمداد المعلومات والإفادات منها تطويرا للمعرفة وإكمالا للصورة الحضارية في فترات من ماضينا ، وتقدما بالبحث الى المستوى المنشود .

وهذا الكتاب الذي نعرض وصفه في هذا المقال من تأليف شيخ إباضي عاش في القرن الخامس ، واهتم بترجمته بعض الأجانب ثم انصبت عليه عناية باحث تونسي طبق في تحقيقه أحسن منهج ، وهو الدكتور عبد الرحمن أيوب .

* عنوان الكتاب : « السيرة وأخبار الأيمة »

ومؤلفه هو الشيخ الفقيه أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر السدراتي الوارجلاني ، من تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471) درس عليه في وادي أريغ .

وقد أشارت المصادر الاباضية إلى قيمته العلمية وما نسب إليه من أقوال دون إفاضة في سرد سيرته الذاتية ، على عادة هذه المصادر في إغفال الاسهاب في الترجمة الذاتية لأعلام هذا المذهب كما لم تحدد سنة ميلاده ، ولا سنة وفاته التي كانت بعد سنة 471 لأنه عاش بعد شيخه المذكور وروى عنه الكثير من الأحاديث التي أودعها كتابه الذي نتحدث عنه .

وقد قال في مقدمة هذا الكتاب معرفا بالدافع إلى تأليفه : (... إنه لما رأينا ما انطمس من الآثار ، وما اندرس من الأخبار ، انبعثت أفكارنا إلى تأليف أخبار من سلف من مشائخ أهل الدعوة وصلحائها ، وتذكر مناقبهم ، وحسن سيرهم ، وجميل مذهبهم ونشر فضائلهم ، فكتبنا من ذلك ما تيسرت كتابته ، ورجونا منفعته ، من بعدما خشينا على العوام أن يتخذوه وراءهم ظهريا ويجعلوه نسيا منسيا ...)

(كتاب السيرة : ص : 39 ـ 40)

وقد تحدث المحقق الدكتور عبد الرحمن أيوب عن أهمية هذا الكتاب فقال :

(يعتبر كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، حسب معارفنا الحالية ، أقدم ما ألف في تاريخ الاباضية ودخولها أرض المغرب من قبل أحد شيوخها المغاربة ، وهو يشتمل على حديث مسهب حول الرستميين وتأسيسهم لدولتهم في تاهرت وسقوطها ، وعلى صراع الاباضية مع الفاطميين في القرن الثالث للهجرة ، ويعتبر هذا الكتاب المرجع الأول الذي أخذت عنه المصادر الاباضية اللاحقة لتاريخ مشائخ الاباضية في المغرب ، وكيف بدأ تعلمهم وانتقالهم بين المغرب والمشرق ، والدور الذي قامت به حملة العلم الخمسة في نشر التعاليم الاباضية ما بين جبل نفوسة وتاهرت ، كما يشتمل الافتراقات الخمسة التي حدثت بين الاباضية خلال ثلاثة قرون وأسبابها ، والمسائل الفقهية التي تحاورت حولها المشائخ وحددتها .) (ص : 15)

وقد وزع المؤلف كتابه على جزءين دون أن يعطي عنوانا لكل جزء ، وجعل تحت كل جزء فصولا ، لكل فصل عنوان خاص . ولئن بلغت فصول الجزء الأول خمسة وثلاثين ، فإنها لم تتجاوز في الجزء الثاني أربع عشرة فصلا .

وقد أورد ضمن فصول الجزءين أخبار كثير من أعلام الاباضية وسيرهم ونشاطهم العلمي ، مع ذكر بعض الأحداث التي لها أثر في حياتهم ، وذرك لبعض المناظرات .

وقد ذكر المحقق في المقدمة المناسبة التي أتاحت له اكتشاف هذا الأثر من تراثنا المغمور ، حيث كان هذا الكتاب بين مجموعة من المخطوطات والوثائق المتعلقة بالبلاد التونسية اطلع عليها المحقق عند اقامته بباريس سنة 1976 . وهي من مخلفات أحد الفرنسيين المولعين بالبحث والتاريخ والآثار هو السيد جان أوغشت بسترو المولود بالجزائر سنة 1856 والذي كان له دور في النشاط الاستعماري بالجزائر وتونس التي استقر بها بعد احتلالها وتولى بعض الوظائف بها مثل عضوية لجنة رسم الحدود التونسية ـ الليبية سنة 1910 وأمانة المال للمجلة التونسية في نفس السنة وعضوية لجنة الدراسات العربية ، والترجمة في المحاكم التونسية سنة 1911 . وكانت وفاته بتونس سنة 1937 .

ولقد نال هذا الكتاب عناية الباحثين الأجانب فوقعت ترجمته الى الفرنسية ثلاث مرات .

ترجمة ماسكري سنة 1878 ونشره بالجزائر ، ولكنه اقتصر على الجزء الأول منه .

وترجمه جان أوغشت بسترو سابق الذكر

واشترك في ترجمته لوتورنو وإدريس للمجلة الافريقية سنة 1960 ـ 1961 .

وقد استفاد المحقق الدكتور أيوب من عمل هؤلاء ، دون أن تثنيه نصوصهم المترجمة عن البحث الجاد عن نسخ من الأصل العربي ولم يثمر البحث عن نسخة في جربة وهي إحدى قلاع الاباضية ، كما لم تثمر جهوده في الحصول على مصورة من نسخة المكتبة الجامعية بالجزائر ، وباءت جهوده في الحصول على مصورة من نسخة مكتبة المتحف البولوني بكراكوف بالنتيجة نفسها .

ثم عثر على نسخة جيدة بدار الكتب المصرية بخط إباضي من جبل نفوسة يدعى ابراهيم بن سليمان الشماخي متوفى في مطلع القرن العشرين ، تحمل رقم 9030 ح .

وقد وصفها المحقق كما وصف نسخة بوسترو المذكورة وقارن بينها واعتمدهما في إبراز نص سليم محقق ، حسن التوزيع ، مرقم الفقرات ، ثري بالتعاليق المشتملة على تعريف بالاعلام والأماكن مستقيا ذلك من المصادر الاباضية وغير الاباضية .

وجعل المحقق نص الكتاب مذيلا بكشوف هامة تفيد القارىء وترشده الى موطن بغيته من الكتاب ، وهي تشمل ما يلي :

- التواريخ الواردة في الكتاب دالة على أهم الأحداث التي استعرضها المؤلف
- المسائل الفقهية التي تناولها الشيوخ .
- الأمثال المتناثرة في الكتاب

- الآيات القرآنية
- الأحاديث النبوية
- الأعلام الذين بلغ عددهم 337 علما .
- الأماكن التي بلغت 127 موضعا
- القبائل ، وهي تعد 53 قبيلة .
- الفرق : تصل الى 18 فرقة .

وتتصدر هذه الكشوف قائمة المصادر والمراجع ، والترتيب فيها أبجدي حسب أسماء مؤلفيها .

أصدرت هذه الطبعة الأولى من هذا الكتاب الدار التونسية للنشر خلال سنتنا الجارية (1405 - 1985) في 446 ص من الحجم العادي (مقدمة المحقق تنتهي في ص 23 - نص المؤلف ينتهي في ص 385 - البقية للفهارس)

وبذلت جهدا في الاصلاح وتجنب الأخطاء ، حتى أن القارىء إذا جد في البحث عن أخطاء مطبعية لا يظفر إلا بـ (يرجع البعض) وصوابها (يرجح البعض) وذلك في ص 15 - و (يتتفخ منخاراه)

وصوابها (ينتفخ منخراه) وذلك في ص 319 .

والخلاصة أن « كتاب السيرة وأخبار الأيمة » لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني من أهم الوثائق في تاريخ الاباضية يعرف بمنهجهم الفكري والعقدي وببعض فروعهم الفقهية وبالكثير من رجالهم ، ويصف الحياة العلمية عندهم في بعض الفترات وطرق التلقي عن شيوخهم وعلومهم التي كانوا يتداولونها . . . . وقد اكتسب أهميته من قيمة مؤلفه ، وإيغاله في القدم مما جعل مترجمي طبقات الاباضية يعتمدونه .

وإن الجهد الذي بذله محققه الدكتور عبد الرحمن أيوب يمثل حلقة هامة في خدمة هذه الوثيقة التاريخية توجت خطوات المترجمين الذين سعوا لابراز محتوى الكتاب لذوي اللسان الفرنسي في نطاق اهتمامهم بتاريخ حضارة المغرب العربي .

وإذ نبارك هذا الجهد وننوه بالمنهج العلمي في التحقيق وبالدقة الملحوظة والسعي لشحن الهوامش بالمفيد مع الاستعانة بالكتب والوثائق ذات الصلة المتينة بموضوع الكتاب ، فإننا نلاحظ ما تركه عزوف المحقق عن تخريج الأحاديث الواردة في نص الكتاب من ثغرة تجعل القارىء مشتاقا الى ما يعرفه بمستواها من الصحة .

وإن المكتبة التاريخية لتنتظر من الدكتور عبد الرحمن أيوب مزيد البذل والجهد لتحقيق مخطوطات أخرى من النوادر النفيسة والذخائر القيمة .

منزلة مجلة "الفكر" بين المجلات

علي السعداوي

إن مقارنة مجلة « الفكر » بزميلات لها ، سبقتها أو زامنتها ، تبدو أمرا مفيدا من شأنه أن يبرز ميزات هذه المجلة وخصائصها الكبرى ، ويكشف لنا عن بعض صلات القرابة أو مظاهر التباعد بين « الفكر » وغيرها من هذه المجلات .

وسنقتصر في هذه المقارنة ، على ثلاث مجلات ، سبقت الأولى منها « الفكر » ، في الصدور ، بينما عاصرتها المجلتان الأخريان بعض المعاصرة . وهذه المجلات هي مجلة الندوة ، ومجلة التجديد ومجلة اللغات .[1]

وقبل التعريف الوجيز بهذه المجلات والاشارة إلى ما يقربها من « الفكر » أو يبعدها ، لا بد من التذكير بنشأة مجلة الفكر ومنهاجها ورسالتها .

1 ـ مجلة « الفكر »

يبدو أن مشروع إصدار « الفكر » انبثق من محض مبادرة شخصية قام بها الأستاذ محمد مزالي . وكانت صادرة عن حوافز عدة . وقد وردت الإشارة إلى هذه الحوافز في المقابلة التي أجراها مندوب جريدة « العمل » التونسية[2]

فقد عمد الأستاذ مزالي إلى تأسيس مجلته انطلاقا من تجربة شخصية في ميدان الصحافة والأدب ومن إدراكه لجملة من المعطيات الموضوعية التي تهم الحياة القومية في تونس على اختلاف نواحيها السياسية والاجتماعية والثقافية .

تألم لاحتجاب مجلتين تونسيتين جليلتي القيمة إحداهما مجلة « العالم الأدبي » التي عمرت بجيل من الأدباء وأصحاب القلم بضع سنوات بعد الحرب العالمية الأولى ، والأخرى مجلة المباحث التي رأس تحريرها الأستاذ محمود المسعدي والتي « فتحت للنخبة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية على صعيد الأدب لا السياسة باب وعي التاريخ ووعي أنفسهم »[3]

وحاول أخيرا أن ينقذ مجلة « الندوة » ويحول بينها وبين التوقف ولكن الظروف شاءت أن تحتجب هذه المجلة التي « شهدت تطور تونس في السنوات الواقعة بين 1952 و 1957 والتي كانت تتجه اتجاها عربيا شاملا وتمثل الفكر الزيتوني »[4]

مثلما تذمر من إقبال التونسيين المفرط على اقتناء المجلات المشرقية كالرسالة والثقافة والكاتب المصري والكتاب والهلال . وحز في نفسه ما رأى عليه الأجيال الصاعدة من تذبذب وضعف الإيمان بالشخصية التونسية ، من جراء السموم التي كان ينفثها في نفوسها تعليم الحماية الفرنسية .

فتظافر عنده ، على هذا النحو ، الوازع الفكري والوازع الوطني ، وجعلاه يقدم على إصدار مجلته مستعينا بفئة قليلة من الأساتذة التفت حوله وآزرته كل منهم حسب جهده وإمكانياته ، نذكر منهم علي البلهوان والبشير بن سلامة والبشير المجدوب ومحسن بن حميدة ومحمد الطالبي .

فبرز بذلك أول عدد من « الفكر » في أكتوبر 1955 أي قبيل حلول الاستقلال .

○ منهاج المجلة ورسالتها

اختطت « الفكر » ، ومن ورائها مديرها وأسرتها ، منهاجا واضحا طالما وقع التعريف به والإصداع ، وشد ما حرصت المجلة على اتباعه والتزامه . كما اتخذت لنفسها رسالة كثيرا ما عرض الأستاذ محمد مزالي أصولها وبين آفاقها .

فهي مجلة ثقافية قبل كل شيء ، شعارها الاجتهاد والعقل في غير ابتعاد عن الواقع ، والعمل في غير كلل ، وغايتها أن تكون مرآة صادقة تنعكس عليها مجهودات الأمة التونسية في معركتها الكبرى من أجل السيادة والحرية والكرامة .

فهي من هذه الناحية تعد مجلة مناضلة وتعتبر شهادة على نهضة البلاد في مختلف وجوهها رائدها السعي في تبيين ملامح الشخصية الأدبية القومية وتعزيز مقومات الثقافة الوطنية والمساهمة في إثراء التراث الفكري في الوطن الأصغر والوطن الأكبر. فهي بذلك تمثل حسب عبارة المستعرب لو لُون (R.P.Le long) (الشخصانية التونسية Le personnalisme tunisien ، هذا إلى كونها مغربية لحما ودما ، لحمة وسدى[5]) وإنسانية النزعة .

و « الفكر » ، كما يعرفها مديرها ، ليست مجلة شخص بعينه أو جماعة ضيقة بعينها ، وإنما هي ملتقى أسرة الأدباء والمفكرين عامة ومنبر للآراء الصادقة والأفكار النيرة ، ومجال لكل المحاولات الأدبية الأصيلة القيمة . من مبادئها التمسك بحرية التعبير والتفكير والذود عن حرمة المفكر وإيثار العظمة على السعادة فيما تسعى من أجله .

لهذا كان موقفها واضحا من انتاج الشباب ، إذ قد فتحت الباب عريضا في وجوه الأدباء الشبان والتزمت بهذا المبدإ منذ نشأتها .

كما كان اتجاهها صريحا فيما تنشره من نصوص أدبية ذلك أن معيار تقييم الأثر الأدبي عند أسرة « الفكر » هو قيمة هذا الأثر الأدبية الذاتية .[6]

2 ـ مجلة النـدوة

إن المتصفح لبعض أعداد مجلة « الندوة » ، سواء في سلسلتها القديمة أو الجديدة ، يلفت انتباهه الطابع الثقافي الأدبي الذي يتسم به محتوى المجلة وتنوع الأغراض والأبواب . هذا إلى شهرة المساهمين في تحرير أركانها ، سواء أكانوا تونسيين أم مشارقة مثل مصطفى الفيلالي (بحوث فنية وأدبية) والشاذلي القليبي (بحوث أدبيـة) ومحمد المرزوقي (قصة) ومحمد الطالبي (تاريخ) ومنور صمادح (شعر)[7]

ومحمد البهلي النيال (ثقافة) ومحمد مزالي (بحوث في الأدب والسياسة) ومحمد العروسي المطوي (شعر حر) ومصطفى الحبيب بحري (شعر) وعبد الله شريط من الجزائر ومحمد فاضل الجمالي من العراق .

ومثل هذه الخاصيات نجدها في مجلة الفكر . ولا عجب في هذا إذ نجد مجلة « الندوة » تسطر في افتتاحيتها نفس الخط الذي سارت عليه « الفكر » فيما بعد فقد جاء في « كلمتها » ما يلي : « ونحن في هذه المجلة مؤمنون بالفكر فيما له من خصب وتواضع . . . ولا نرى من شرف إلا في أعمال النظر في مشاكلنا القومية البشرية ، ولا نرى للفكر من خطر في ربوعنا الشمالية إلا إذا حملنا هذا الاجتهاد الذي قال عنه ابن خلدون إن تعطله قد قطع حبل الإسناد في حضارتنا العربية » . فالندوة تعنى بكل ما يتصل بالفكر ويتعلق بالثقافة وكل ما له علاقة بالواقع التونسي وقضاياه .

وتشبه مجلة « الندوة » مجلة « الفكر » في كثرة الأبواب التي حفلت بها أعدادها ، من دراسات أدبية وشعرية ومقالات في التفكير الاسلامي والتاريخ والثقافة والفن والسياسة والاقتصاد والتربية واللغة والمسرح .

على أن علاقة « الندوة » « بالفكر » لا تقف عند هذا المظهر الخارجي بل تتعداه إلى الصلات التي جمعت صاحبيهما أي السيد محمد مزالي والسيد محمد النيفر . ذلك أن مدير « الفكر » قد عمل بين أسرة « الندوة » وكتب مقالات عديدة في هذه المجلة مثل مقال « مسؤولية الكاتب » الذي نشره بعدد فيفري 1954 من ص 23 إلى ص 29 ومقال من وحي عيد الشغل الذي نشره في عدد ماي 1954 من ص 3 إلى ص 5 . هذا علاوة على ما نلاحظه في افتتاحيتي المجلتين من تجانس في النغمة وتجاوب في اللهجة .

2 ـ مجلة التجديد[3]

صدر العدد الأول من هذه المجلة في فيفري 1961 وقد جاء في افتتاحيته شرح لشعارها وبيان لخطتها .

فشعارها حسبما ورد في كلمتها : « الجهاد في سبيل مجتمع أعدل وحياة أفضل ، والجهاد في سبيل بعث الفكر والثقافة في تونس خاصة والمغرب العربي عامة ، والعمل على تطويرهما ، والجهاد في سبيل الديمقراطية الخلاقة وحرية الفكر . أما هدفها فهو الجهاد في سبيل ازدهار الاقتصاد التونسي والشؤون الاجتماعية بالبلاد ، وهو أيضا الجهاد في سبيل تكوين جماعة من المفكرين الأصيلين المتجردين لخدمة البلاد وخدمة مصلحة الشعب .

والمجلة تعتبر نفسها مستقلة من حيث التفكير ومن حيث اتجاهها في بحث مختلف القضايا والمشاكل وتؤمن بأن بين الفكر وقاعدة الحياة الاقتصادية والاجتماعية تفاعلا جدليا مستمرا » .

فإذا تجاوزنا هذا البيان لبرنامج المجلة ، إلى محتوى الأعداد القليلة نسبيا منها ، وجدنا أن هنالك مواضيع كثيرة قيمة قد أثيرت في شتى المجالات ، لا غلبة لأحد منها على آخر ، ولكن بينها خيطا رفيعا يكسبها ميسما خاصا يتمثل في هذه النزعة الاجتماعية الاقتصادية الطاغية ، والتي يكفي أن نلحظ آثارها في عناوين الأشعار المنشورة ، ذات الدلالة ، نذكر منها « شبابة ورفش للشاعر بلقاسم بن عمار الشابي أو « الجوع من الإيكان » للشاعر جعفر ماجد ، أو في أنواع المترجمات التي تتناول أغلبها قضايا اقتصادية .

ومن هذه المواضيع ما يتصل بالتاريخ (مقالان للأستاذ عمار المحجوبي) وبالسياسة والقضايا النقابية (مقالان للأستاذ المنجي الشملي عن الطاهر الحداد) ومقال للأستاذ صالح القرمادي عن الاشتراكية والأخلاق) وبالتربية (ثماني مقالات للأستاذ محمد السويسي) وبالاقتصاد (أربع مقالات) وبالعلوم الصحيحة (بحوث الأستاذ البشير التركي في إمكانيات الطاقة الذرية في تونس .

ومنها أيضا ما يصطبغ بالصبغة الأدبية المحضة مثل دراسات الأستاذ مصطفى الفارسي عن عوائق المسرح ومستقبله ، والأستاذ حمادي بن حليمة عن المؤثرات الأجنبية في المسرح العربي .

غير أن « التجديد » لم تعمر طويلا وسرعان ما احتجبت على نقيض « الفكر » التي صدرت وما تزال تصدر بانتظام ومن هنا يتضح أن منهاج التجديد ، وكما يتضح من بيانها الأول واضح صريح عليه مسحة من الثورية ويمتاز بالشمول فيما يهدف اليه من الغايات ويتبناه من الشعارات وهو ، على هذا ، لا يناقض منهاج الفكر في الجوهر وإنما قد يمتاز عنه في بلورة المقاصد بلورة أكثر جلاء وأعنف لهجة .

3 ـ مجلة اللغات

هي مجلة شهرية لغوية أدبية ثقافية جامعة كانت تصدر عن مركز اللغات الحية ، صاحب امتيازها ومديرها المسؤول ، أحمد بلخوجة صدرت لأول مرة في شهر سبتمبر 1961 .

وقد أعلن مديرها عن مبدئها وأهدافها قائلا : « قد جعلنا مبدأ مجلة ، « اللغات » وصل القديم بالحديث وربط الشرق بالغرب فإن وضعنا وموقعنا يقتضيان منا أن نأخذ بما للعرب والأوربيين جميعا من طرق للنهضة والرقي .

وقد تضمنت أعدادها رصيدا قيما من الدراسات والبحوث لا سيما في موضوع اللغة ، إذ المجلة قائمة أساسا على البحوث اللغوية .

والملاحظ أن جل الناشرين فيها هم من الذين كثرت مساهماتهم في تحرير مادة « الفكر »

ففي باب اللغة نجد أسماء عثمان الكعاك والطاهر الخميري ومحمد الفاضل بن عاشور ومحمد فريد غازي وابراهيم السامرائي . وفي قسم الشعر العمودي نجد أسماء الهادي نعمان وجعفر ماجد وعبد المجيد بن جدو ونورالدين صمود وابن الواحة عبد الرحمان عمار . أما في قسم القصة والدراسات المسرحية فهنالك أسماء مصطفى الفارسي والطاهر وطار وناجية ثامر وحسن الزمرلي . وفي ركن الترجمات يبرز اسم عزالدين المدني .

وهنالك سمة أخرى تتصف بها « اللغات » وهي كثرة المقالات التي يكتبها أدباء ومفكرون عرب شرقيون في ميادين متنوعة وخاصة منها اللغة والأدب . مما يكسبها طابعا أوسع ويجعلها شهادة على الحركة الأدبية والثقافية في تونس وخارجها .

هذا فضلا عن وجهها الآخر المتمثل في قسمها المحرر باللغات الأجنبية : الفرنسية والانقليزية والألمانية ، وعن قصر عمرها واضطراب صدورها وعن الشكل الخارجي المتميز الذي تأتي عليه .

وعلى هذا النحو ، فهي تقف إلى حد بعيد على الطرف الآخر من المقابلة مع « الفكر » إذ لها خصائص غير خصائص الفكر من حيث الاتجاه والمحتوى .

● الهوامش :

(1) فيما يتعلق بمنزلة « الفكر » بين مجلات أخرى ، انظر العدد الرابع من مجلة الفكر ، السنة الثانية ، جانفي 1957 ، ركن ندوة القراء وفيه يرد مدير المجلة على حسن عباس .

(2) نشرت تفاصيل هذه المقابلة على صفحات « الفكر » عدد ديسمبر 1969 وقد أجراها الأديب عزالدين المدني .

(3) كتاب من « وحي الفكر » - المقدمة ص 7 - ص 8 بقلم الأستاذ البشير بن سلامة

(4) الرواية والأقصوصة في تونس (بالفرنسية) لمحمد فريد غازي تونس 1970 ص 55

(5) افتتاحية الفكر عدد جانفي 1957 .

(6) تيسر لي أن أتابع مسيرة « الفكر » طيلة خمسة عشر عاما أي من سنة 1955 إلى 1970 في دراسة جامعية قمت بها بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار بتونس ما تزال مرقونة . وحاولت أن أضع ثبتا شاملا للمواضيع التي عولجت فيها والكتاب الذين شاركوا في تحرير مقالاتها المتنوعة ، في هذه الفترة .

(8) مجلة ثقافية شهرية مديرها المسؤول الأستاذ المنجي الشملي وأصحاب الامتياز من هيئة تحريرها هم : توفيق بكار ، البشير التركي ، عبد المجيد ذويب والشاذلي الفيتوري وصالح القرمادي ومحمد اللعواني وعبد القادر المهيري . . . ودامت سنتين من الصدور إذ احتجبت في 11 مارس 1962 .

قراءة في " مهاترة في فكر "

فتحي لوافي

ترامت « فيه » لحظات أدركها الزمن المنفلت من حميميته المستحيلة ، وتناوبت « عليه » موجودات التمزق الوجودي المبعثرة أوصالها بين ما كان وما يمكن أن يكون ، بين تاريخ مهمل منسي ونفس قلقة تهفو إلى الأفدح : إلى البوح المضاد !

في يوم لم يعد يذكره ـ ولعله بدأ معه لحظة تساوت عنده بداية « القراءة » بلا نهائية « الكتابة » ـ تعمقت فيه رغبة الظهور والتضفي في متاهات التدفق والعطاء اللامباح !

لكن الكتابة وحدها هي التي ظلت بالنسبة له مكابدة كريهة في مجتمع تحول فيه البوح إلى فرجة ممنوعة على الذات ـ الأنا المتهمة في خصوصيتها المهدورة ، وفي نوعية الظروف ـ الأزمات التي أوجدتها بالعسف والإيذاء . .

وإليها ـ ربما ـ إلى تلك التي كانت ـ في يوم ما ـ عزيزته ، تلك التي بها أزهرت ـ أو تشوكت ـ شكوكه الحميمة ، ومن خلالها حافظ ـ أو أضاع ـ رغبته العارمة في التدثر بضوضاء الموجودات المنداحة زهوا وعربدة . . ربما اليها وحدها قرر ـ في لحظة صفاء مبهر ـ أن تكون له معها ـ هو الذي أكره نفسه على البوح المُرْتَدّ ـ مهاترة في فكر من منحها فرصة أن لا تكون . . . كالأخريات !

هي « الأنا » إذن ! والحديث معها ـ عنها لا بد أن يصبح يوما عادة كريهة . . . لكنها جديرة ـ عنده أيضا ـ بالمحبة ، بالتعاطف ، وبالرثاء ـ الإشفاق أحيانا !

هي « الأنا » التي كان يود لو استطاع أن يحدثها ـ لتحدثه ـ عن أشياء كثيرة أخرى غير ذاتها . . ولكنه كان يفهم جيدا ما معنى أن يعتذر لها ـ هو يزعم ذلك ـ مقهقها ! من هناك . . من بلاد ليست بلاده ، ومن يوم إلى آخر ، ومن محطة إلى أخرى . . تسلل منه حنين صباه إلى مهد الإنبثاق الأول حيث قرر أن يهفو ويتذكر . . . تذكر ذلك الفرنسي الأشقر ، معلمه الملتحي « صاحب السيارة التي تهتز كثيرا » المولع بترديد بناءات المتحضرين جدا في زمن السطو المبرمج . .

ومن أين لصبي يتيم ثمن « ريشة قلواز » وقد عجزت أمه الأرملة الفقيرة عن إحضارها له ؟! لكن اللحية المفترض أيضا أنها شقراء زعقت : « أمك كاذبة ماكرة كسولة » زاعمة ولعابها « الأبيض » يتناثر على وجه الصبي ، انها كغيرها من التونسيات « تدخر المال في جرة تدفنها في حائط من حيطان المنزل » ، وأنها ـ كغيرها أيضا ـ تحب الثرثرة والهذيان والتكاسل . . . ! ودافع الصبي عن أمه ، فناله العقاب المألوف : نقرات حادة موجعة على أنامله وسيل إضافي من البذاءات المعتادة . .

قالت له أمه حين رجع إليها باكيا شاكيا مذعورا : « سوف تصبح يوما رجلا لا كالرجال تشتري الأقلام الذهبية وتكتب بها علما يبهر البشر وتصبح صاحب مال يكفيك أرغد العيش » .

وفي المساء قالت أيضا لأطفالها الجياع : « لم يبق لي مال لشراء بعض الخضر . ولهذا سوف يكون عشاؤنا في هذه الليلة خبز شعير وزيت زيتون » ، وتلك كانت « وليمتهم » المعتادة » منذ انتقل والدهم ـ زوجها ـ إلى جوار ربه . وكان لا بد للأخ الكبير أن يبحث ، وهو في سن مبكرة ـ عن عمل ما !

الصبي تعلم في مدرسة فرنكو ـ عربية كان لأبناء « الأكابر » فيها المحظوظية المطلقة ، فكيف لهذا الصبي الحافي القدمين ، التارك « قبقابه » أمام قاعة الدرس ، أن يحس كأنه « عصفور على وشك التحليق بين الأغصان الزاهرة » وهو في حضرة صاحب اللحية ، معلمه الفرنسي الأشقر ؟! « الفقر » كان هاجسه الأول ، وبه التهب ، ومن خلاله أدركه الإلهام المبكر ، وبفضله اختار أن لا يتنكر مطلقا إلى حميميته : « فقير ولو أملك مالا ، فقير ولو حفظت علما ، فقير ولو اكتسيت لباسا جديدا أنيقا » !

هو الفقر ، أو الإحساس به . . أول من علمه « ان البشر آفة البشر ، وأنهم لا يجدون متنفسا لنقصهم إلا في نقص الآخرين . . » ، وعلّمه أيضا أن يحلم ـ رُبّما ـ باللاممكن : « أن أخلق الرعود والبروق والزلازل ، أن أصنع . . الطاعون ، أن أنشر العمى والصمم والبكم ، أن أبعث بالشلل في الأرجل والأيدي . . » ، ثم ينظر في أولئك الذين ساهموا في « صنعه » يخرون أمامه « أذلّاء . . فقراء . . لا هوادة ولا مغفرة ، فأسحقكم سحقا وتصيرون عصفا مأكولا » !

هو الفقر إذن ! أَلْهَبَهُ وألهمه . . لكن الإحساس المفرط به سيصبح أيضا فضحا للسر وفتحا لمغاليق العفونة الكامنة في الوجود ـ النفس ـ الذات : « هذه الأحاديث إنفلات من قيود . . » ، وما « الإنفلات » هنا ـ عنده ـ سوى إحساس بالإنهاك المتعمد الواعي إلى حدّ الإنتهاك !

الفقر ـ كان وقد يكون ـ كالإحساس بالإثم ، كالتيه في صحراء النفس ـ الذات ، كالإبصار في الموت البطيء ، كالتوغل في المطلق ـ اللانهائي ـ اللامحدود ، كالتدثر بالخواء المفجع في فراغات الكون . .

هو الفقر إذن ! وقد ظل كامنا في صباه كمون الشيء في التشيء ، كمون الدال في المدلول . . لأنه ـ ربما ـ الأوضح والأفدح : الأوضح يوم اختلس منه وداعة الإحساس بالبراءة والأمان والفرح الأليف . والأفدح يوم اضطره إلى اختيار الأسوأ ، إلى التظاهر باللاممكن : « ما ضر أبي لو زغردت النساء وشرب الرجال النبيد ودقت الطبول . . فلن يسمعها فضلا عن أنه لن يستفيق أبد الدهر » ، وهل تراه أراد يوما أن يجرب الإحساس بالموت قبل الأحبة أو بعدهم . . .؟!

في سن مبكرة بدأ يحاور « الأنا » ، تلك التي قادته ـ فيما بعد ـ إلى التشاجر مع صفاء السماء » ! كما قادته الى التأرجح بين الفكر والتفكير : الفكر ـ المشكلة والتفكير ـ القلق : « ظننت أنني سأقهر الفكر وسأتمرد على التفكير . وبالرغم مني فهو باق ملازم لي ملازمة التفكير للفكر : القلق . » ، وقد أولد فيه هذا التأرجح صداعا حادا مزمنا نسميه عادة : إثبات ، بل الإصرار على إثبات الذات .

وكثيرا ما تساءل ـ منذ بدأ خصومته المتواصلة مع بديهيات هذا الكون ـ عن الواجد والموجود ، عن الممكن والمستحيل ، عن الفائت والآتي ، عن الكل والجزء ، عن الأصل والفرع ، عن الإمتلاء والفراغ . . .

ومن خلال هذا التساؤل ـ بل التساؤلات ـ أينعت فيه رغبة جامحة في إنهاك الذات وانتهاك موانع الأضداد : « عندما كنت أجوب شوارع المدينة العتيقة ، وأسرح النظر في ميدان الأجيال البائدة . . عندما تركت الحاضر وقد احتضن الشاهق والخفي والمربّع والمستدير والمستطيل ، واعتنقت جهاد الأجيال وثمرة أحلامه . . عندها فارقني العقل الثابت وتاه في مجالات الغيب . . . » ، ثم اختلط الحلم ـ عنده ـ بالإحتلام ، والخيال بالتخيل ، والإنهاك بالإنتهاك . . حتى بلغ به البوح المضاد منتهاه : « إذا كان الموت أنثى ، فأنا أشتهي مضاجعتها » !

في بعض نصوصه ـ أحاديثه تحولت اللغة الى تناثرات حروفية تعمد قولبة بعض اشتقاقاتها ، وإن حافظ على البنى الجدلية التي انبثقت منها ، واستباح سكونية البياضات ولغمها بفواصل ونقط وإيحاءات قابلة للتبرير أو للتأويل المشحون باحتمالات الرفض والتجاوز . . . وأحيانا تصل به انسياباته ـ أو تداعياته ـ اللغوية إلى حد النزق الحروفي المثقل ـ غالبا ـ بالايذاء المتعمد : « أما غضبكم فأنا به على علم . . وسوف لن يصل بكم إلى القذف بهذه الأوراق في وجهي عندما ألمس أكتفكم الوطيئة . . الوطيئة . . (. . .) بلى ! هذا الغثيان لكم ، غشوتة منكم . . فيكم ، لكم . . تقيأته لكم . . جهرت به لنفسي باديء ذي بدء ، هذا الغثيان هو حقيقتكم . . (. . .) هذه الأحاديث في جلها خرقت ظلام النفس . . أحبك أيتها الصراحة القاسية . »

○ ملاحظة :

* بدأت هذه « الأحاديث » يوم 1972/11/25 وانتهت يوم 1974/6/13 . أما « رجل في الظلام » فهو مؤرخ في 1979/11/28 باربد ، وقد أعددت له قراءة مستقلة .



مختارات من الأدب التونسي المعاصر

محيي الدين خريف

كانت هذه المختارات أمنية طالما حلم الأدباء والشعراء في تونس بتجسيدها طوال سنين عديدة وذلك لأن المختارات التي صدرت قبل ذلك لم تجسد كل ما ظهر من ابداعات في الساحات الثقافية التونسية . اما لعدم تبلور التجارب بحصول ابانها أو باغفال بعض النماذج والصور التي برزت من بداية هذا القرن الى ستيناته وبداية سبعيناته . وفي نطاق التوجيهات الثقافية التي تحرص وزارة الشؤون الثقافية على تجسيدها صدرت « مختارات من الأدب التونسي المعاصر » عن الدار التونسية للنشر ووزارة الثقافة لتعرف بالأدب التونسي في موطنه اولا ثم في مشرق المعمورة ومغربها ثانيا .

وقد سعت وزارة الشؤون الثقافية الى أن تكون هذه المختارات شاملة لجميع الانماط الأدبية التي تمارس في تونس . كالشعر والمسرح . والمقالة ، والقصة ، وتعميما للفائدة مهد لكل من هذه الانماط بمقدمة تعريفية تتبلور فيها أهم الاتجاهات ومحاور هذا النمط أو ذاك . وقد قدم لهذه المختارات وزير الثقافة الأستاذ البشير بن سلامة وقد اوكلت مهمة انتقاء هذه النماذج وتقديمها لثلة من أساتذة الأدب والنقد المعروفين على الساحة الأدبية . أما لصلتهم بهذه الأعمال الأدبية واهتمامهم بها . او لمواظبتهم على تدريسها ودراستها . والدافع لهذه المختارات هو الشعور بالحاجة الملحة الى ابراز مثل هذه الكتب التي تجمع في حيز واحد العدد الوافر من نماذج الأدب التونسي وان كان بعيدا عن أن يمثل كل تيارات الأدب ، وتعطى قائمة مستوفاة لكل الأدباء التونسيين .

وتجدر الاشارة الى أن وزارة الثقافة قد انفردت بتقديم هذا النوع من المختارات اذ لم يسبق قبل ذلك ان قدمت نماذج مختارة من الابداع المسرحي ، أو أدب المقالة ، او القصة . وجل ما قدم في هذا النطاق كان خاصا بالمختارات الشعرية فقط التي من اشهرها مختارات زين العابدين السنوسي . ومختارات محمد الصالح الجابري ، وقد جاءت هذه المختارات في جزئين :

I جزء خاص بالمقالة والشعر .

II وجزء خاص بالقصة والمسرح

اشترك في انتقاء النماذج بالنسبة للجزء الأول الأستاذان الدكتور عبد السلام المسدي . والدكتور محمد الصالح الجابري .

وقد اختص الأستاذ المسدي بانتقاء المقالات . وقدم لذلك بتعريف لفن المختارات سواء في الآداب الأجنبية او الآداب العربية وبين ان هذه الظاهرة بالعرب الصق والسبب أن عنوان مفاخرتهم بياني كما تحدث عن المقال باسهاب وعن شرعية ادماجه ضمن مقولة الأجناس الأدبية وبين الأهمية التي اكتساها هذا القالب من الكتابة ضمن الأدب

التونسي المعاصر . فقد كان المطية الملائمة لنقل ما يختلج في النفوس وما يعتمل في الأذهان ثم ما يحتد صراعه في تجاذب بين هذه وتلك فاضحى المقال نمطا من الكتابة قائما بذاته . وضربا من الأسلوب متميزا بنوعه فحمل خطابه كل الرؤى التي فيها النظر وفيها النقد وفيها الحماسة

وقد كان المنطلق لهذا الاختيار بداية القرن الحالي . اما المادة فقد كانت منوعة فيها ـ النقد الاجتماعي ـ والنقد الأدبي ـ والحديث عن مشاكل اللغة . والثقافة ومن كتاب هذا الباب الطاهر الحداد ـ وزين العابدين السنوسي ـ عثمان الكعاك ـ علي البلهوان ـ عبد الواحد ابراهم ـ عبد العزيز بن الحسن ـ البشير بن سلامة ـ محجوب بن ميلاد ـ محمد الفاضل بن عاشور ـ هشام بوقمرة ـ الشاذلي بويحي ـ عبد الوهاب بوحديبة ـ الحبيب الجنحاني ـ هشام جعيط ـ أحمد خالد ـ وفرحات الدشراوي ـ ومنجي الشملي ـ ومحمد العربي عبد الرزاق ـ الشاذلي الفيتوري ـ والشاذلي القليبي ـ ومحمد مزالي ـ ومحمود المسعدي ـ ومحمد العروسي المطوي ـ والبشير المجدوب ـ وعبد الله الوصيف ـ وتبقى الاختيارات دائما ذاتية ذوقية رغم كل محاولة للتجرد ، وانا لنتساءل أين الحليوي والبشروش ـ ومحمد الصالح المهيدي ، من كتاب اوائل هذا القرن اما عن كتاب جيل الستينات والسبعينات فهناك اقلام اثبتت وجودها ، ولكنها بقيت وراء الظل مثل محمد مصمولي . ومحمد المرزوقي وان كان مخضرما ولعله ضاع بين انماط الاختيارات لمشاركته في كل الأنواع الأدبية كما غاب محمود طرشونة ومحمد فنطر وأحمد القديدي وعلى اللواتي وكلهم لهم من المشاركة والحضور ما يبوئهم من جملة المختار لهم

أما القسم الثاني من الجزء الأول فقد خصص للشعر وأشرف على انتقائه الدكتور صالح الجابري . وان كان وضع عليه غلطا بأن المشرف هو جعفر ماجد . ومحمد الصالح الجابري كما هو معروف من الدارسين والمتذوقين للشعر . وقد كان . قبل ذلك أصدر مختارات من هذا النوع أما فيما قام به اليوم من انتقادات لنماذج من الشعر التونسي فهو كما قال لم يقصد بها الحصر والتعداد . والاحصاء الدقيق لجميع الشعراء الذين اسهموا بالقليل او بالكثير في هذه التجربة بقدر ما حاول استيعاب أهم الشعراء الذين ثابروا على الكتابة من هذا الجيل او ذاك . وكان لمحاولاتهم تأثيرا واضح في الحركة الشعرية بتونس .

أما القطع المختارة ففي رأي أنه وقع بعض التسرع في اختيارها لأن هناك من الشعراء من لهم من الشعر ما هو أجود من هذا وما هو أكثر صدقا في تألقهم كشعراء مبدعين ، أما الشعراء الذين اختارهم الجابري فهم محمد الشاذلي خزندار ـ وسعيد أبو بكر ـ والشاذلي عطاء الله ـ الطاهر القصار ـ الطاهر الحداد ـ الصادق مازيغ ـ مصطفى خريف ـ أبو القاسم الشابي ـ أحمد المختار الوزير ـ أحمد اللغماني ـ الميداني بن صالح ـ منور صمادح ـ مصطفى الحبيب البحري ـ محيي الدين خريف ـ نورالدين صمود ـ جعفر ماجد ـ رياض المرزوقي ـ المنصف الوهايبي ـ محمد الغزي ـ الطاهر الهمامي ـ نورالدين عزيزة ـ محمد أحمد القابسي ـ الصادق شرف ـ يوسف رزوقه ـ الحبيب الهمامي ـ

وكان بودنا أن لا يقع اغفال محمد العوني ـ والمنصف المزغني وسوف عبيد ـ ومحمد بن صالح ـ ومحمد عمار شعابنية ـ لأن لهم ابداعات تذكر وقد مثلوا الشعر التونسي الجديد في أكثر من مناسبة ونجحوا في فرض أنفسهم كشعراء .

أما الجزء الثاني من هذه المختارات فهو ينقسم الى قسمين :

I قسم القصة و II قسم المسرح

وقد أشرف على قسم القصة وقدم له الأستاذ توفيق بكار الذي قسم عمله الى محاور كنا نود لو وقع مثلها في قسم الشعر . أما عناوين المحاور فهي لا تخلو من دقة الحس وشفافية الذوق فهو لم يعتن بالتأريخ قدر اعتنائه بالتشويق والتذويق وفي ذلك يقول الأستاذ توفيق بكار .

« ولقد توخينا في اختيار هذه النصوص . أن تكون ممثلة بقدر الامكان لمختلف التيارات الفنية والمواقف الفكرية وصنفناها حسب عدد من الأغراض الأصلية دون تقيد وثيق بترتيبها الزمني لتداخل تواريخها ومع مراعاة ما تبديه عبر

الائتلاف والاختلاف من وجوه التكامل بينها حتى كأنها فصول من قصة واحدة موضوعها تونس فيا بين عهدين : قبل الاستقلال وبعده وشكلها ، فانين من خيال كتابها . وهل تونس على خصوصياتها الذاتية الا وجه من وجوه العروبة بل هي آخر الأمر الا صورة من صور الانسان » ولعله من المفيد ان نذكر عناوين المحاور التي أدرج تحتها توفيق بكار مختاراته من القصص التونسية وهي :

1) هو الحب ، وهو بداية بيت ابن الفارض الذي هو :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل . وتحته ادرج التجارب الذاتية والعاطفية ، من القصص التونسي .

2) وللحرية الحمراء باب وهو بداية بيت شوقي المشهور

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضجرة يدق

وتحته ادرج القصص التي تحدثت عن مراحل الكفاح الوطني

3) فالسعد نادى بنا من باب سعدون « الباجي المسعودي وتحته ادرج القصص التي تحدثت عن الحياة بتونس ومشاكل الهجرة

4) من البطون الجائعات « أبو العتاهية »

وتحته ادرج القصص التي تحدثت عن مشاكل الجوع والرغيف

5) من ضاعت قبلته فليسر ولا يطلب شرقا ولا غربا ، المسعدي وفيها تحدث عن القصص الذهني

5) واننا نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك » . وتحت هذا المحور أدرج بكار القصص ذات الطابع الرمزي

(6) وظلم ذوى القربى ـ . . طرفة . .

وفي هذا المحور أدرج القصص ذات الطابع الواقعي

أما القصاصون الذين وقع الاختيار من انتاجهم فهم :

علي الدوعاجي ـ محمود المسعدي ـ البشير خريف ـ الطيب التريكي ـ رشاد الحمزاوي ـ فرج الشاذلي ـ العروسي المطوي ـ المختار بن جنات ـ البشير بن سلامة ـ عبد القادر بن الشيخ ـ محمد الهادي بن صالح ـ عبد القادر بن الحاج نصر ـ صالح القرمادي ـ محمود التونسي ـ عروسية النالوتي ـ عبد الواحد ابراهم ـ حسن نصر ـ الطاهر قيقة ـ سمير العيادي ـ عزالدين المدني ـ مصطفى الفارسي ـ محمد صالح الجابري ـ أحمد ممو : ـ وقد غاب محمود بلعيد وهو من القصاصين المثابرين أما القسم الثاني من الكتاب الثاني فهو قسم المسرح وقد اشرف على انتقائه الدكتور جعفر ماجد . وبما أن مشكلة النص المسرحي في تونس مشكلة قائمة الذات . وما زالت الى الآن لم تخرج من عنق الزجاجة . فان المختارات جاءت متفاوتة في القيمة الفنية ومتباعدة في الفترة الزمانية . ولا يمنع أن هناك من اثبتوا حضورهم في ميدان المسرح . واعطوا نصوصا يمكن أن تكون النموذج لأوليات الكتابة المسرحية بتونس ومن هؤلاء الذين اختارهم جعفر ماجد : الحبيب بولعراس ـ محمد الحبيب الحامي ـ أحمد خير الدين ـ زين العابدين السنوسي ـ مصطفى الفارسي ـ التيجاني زليله ـ البشير القهواجي ـ عزالدين المدني ـ محمود المسعدي ـ

وفي النهاية لا يسعنا الا أن نبارك هذه المبادرة التي قال عنها صاحب الفكرة الأولى لتجميعها الأستاذ البشير بن سلامة .

« ان المطلع على هذه النماذج من « الأدب التونسي المعاصر » سوف تكون له صورة متكاملة لاتجاهاته اشكالا ومضامين . وهي الغاية التي نصبوا اليها في إصدار هذه المختارات » .

انطلاقة موفقة للدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية

انطلقت يوم 26 نوفمبر 1985 والى غاية 28 منه بتونس وفي ظل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدورة الخامسة لمؤتمر السادة الوزراء المسؤولين عن الثقافة في الوطن العربي والتي تستمر الى الثامن والعشرين من الشهر الجاري .

وافتتحت الدورة التي يشرف عليها سيادة الاستاذ محمد مزالي الوزير الاول بدولة المقر والذي يمثله الاستاذ البشير بن سلامة وزير الثقافة بكلمة الدكتور عبد المجيد مزيان وزير الثقافة والسياحة الجزائري ورئيس الدورة السابقة للمؤتمر ، والذي نوه في مستهل كلمته بما وفرته المنظمة من امكانيات مادية ومعنوية لهذا اللقاء العربي الكبير مؤكدا العزم العربي على المضي قدما لضمان امن ثقافي عربي وقال لقد مرت علينا منذ سنتين كثير من الاحداث المؤلمة التي اكدت تكالب الصهيونية وتحالفها على الوجود العربي . واضاف سيادته بان دورة الجزائر قد اتت بالكثير من الايجابيات خصوصا فيما يتعلق بوضوح الرؤية العربية عن الامن الثقافي وتعبئة الامكانيات العربية للنهوض بالثقافة العربية . ونوه سيادته بالالتفاف العربي في القضايا الثقافية مبرزا كثافة اللقاءات العربية في المجال الثقافي والتي تؤكد زخم الفعل الثقافي على المستوى العربي . ودعا سيادته الى ضرورة تشجيع الكتاب وضمان حقوقهم ومضاعفة التبادل بين الدول العربية وفتح العديد من المكتبات وضرورة تحييد الكتاب عن مفاعلات السوق واضطرابات الاقتصاد وتشجيع النشر والتوزيع والصناعات الثقافية وتخلص سيادته الى ابراز الدور اللغوي في المرحلة الراهنة داعيا الى جعل اللغة العربية لغة علم وتكنولوجيا وتعليم شامل ، منبها الى طفرة العاميات في المسرح التي هي ردة ادبية خطيرة سببها الفتور السياسي .

ووصف سيادته العمل الثقافي بالنضال وقال : ومن الامن الثقافي لاجيالنا الصاعدة ان نقدم للعالم صورا من عطائنا الحضاري حتى تمحي الصورة المشوهة التي رسمتها الصهيونية .

الدكتور صابر : الخطة الشاملة للثقافة العربية ظلت حلما غاليا للامة العربية

ثم تناول الكلمة الاستاذ الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة الذي تقدم بالشكر الى الجمهورية التونسية على الرعاية الممدودة والعون القريب محييا الاستاذ محمد مزالي الذي يرعى المؤتمر ويكرم العمل الثقافي كما تقدم سيادته بالشكر الى سيادة الدكتور عبد المجيد مزيان رئيس المؤتمر الرابع لما قدمه من حكمة وجهد وعطاء .

وتحدث السيد المدير العام للمنظمة عن هذه الدورة فوصفها بانها واسطة العقد في دورات مؤتمر وزراء الثقافة حيث حققت بدراساتها وتوصياتها وقراراتها انجازات ثقافية حقيقية . وتوجه سيادة المدير العام الى السادة المؤتمرين قائلا : انكم تتهيأون في مؤتمركم هذا لدراسة الخطة الشاملة للثقافة العربية وهو هدف ظل حلما غاليا للامة العربية قد استوى عملا قوميا صالحا امتلكت به الامة وثيقة فكرية ودليلا قوميا في مجالات الثقافة العربية . ووصف سيادته اقرار هذه الخطة خلال هذه الدورة بالعمل التاريخي تمهيدا لعرضها على المؤتمر العام السابع للمنظمة لاقرارها خطة قومية في اطار الخطط القومية للامة العربية .

ثم حدد سيادة المدير العام المؤشرات الاساسية لهذه الخطة من خلال عمل اللجنة القومية التي اشرفت على انجازها متقدما بالشكر الى رئيسها الاستاذ عبد العزيز حسين منوها بما قدمته دولة الكويت من عون كريم للجنة .

وتحدث سيادة المدير العام بعد ذلك عن وثائق هذه الدورة فقال انها تحمل صورة للموقف التنفيذي لقراراتكم وتوصياتكم في دورات مؤتمراتكم السابقة وهي ثمرة تعاون

بين اصحاب المعالي الوزراء وكبار معاونيهم وثمرة الجهود التي بذلها المفكرون والعلماء والخبراء العرب المتعاونون مع المنظمة .

وقال سيادته بالخصوص : « في الوثائق التي بين ايديكم موضوعات يتصل بعضها بقراراتكم السابقة ، وبعضها يقترح موضوعات جديدة في مجال اقامة المؤسسات الثقافية القومية الكبرى ، والدراسات المتصلة بصيانة التراث وتجليته ، وفي التشريعات الثقافية ، اضافة الى وثيقة الخطة الشاملة للثقافة العربية . وفي مداولاتكم حولها ومدارساتكم لها ، بالخبرة البصيرة ، والالتزام القومي ، والموضوعية العلمية ، ما يعين ، كالعهد بكم ، على الوصول الى القرارات الرشيدة . »

وختم سيادته كلمته منوها بما قدمته وتقدمه اللجنة الدائمة للثقافة العربية في الاعداد للمؤتمر شاكرا رئيسها الدكتور محمد يوسف نجم .

الاستاذ البشير بن سلامة : المؤتمر منعطف تاريخي :

واعرب الاستاذ البشير بن سلامة في مستهل كلمته عن اعتزاز تونس بان يلتقي على ارضها العربية المسلمة هذا الجمع الكريم والنخبة القيمة من المسؤولين على حظوظ الثقافة ووصف سيادته هذه الدورة بالخطورة المتاتية من ارساء دعائم خطة التنمية الثقافية الشاملة مبرزا دور الثقافة في تحقيق النقلة النوعية للامة العربية محددا ما تلقاه الثقافة في تونس من مكانة واهتمام موضحا الابعاد الفكرية والفلسفية للمنهج الثقافي في تونس العربية الاسلامية ، مشيرا الى ضرورة تثبيت المرتكزات الديمقراطية للعمل الثقافي وتمكين الخلاقين من فرص الابداع وايصال ثمرات الفكر الى كافة افراد المجتمع .

الجمهورية العراقية تراس المؤتمر :

وعقد المؤتمرون بعد الجلسة الافتتاحية جلسة عمل اولى اقتصرت على السادة رؤساء الوفود واعضائها ، وتم خلالها انتخاب رئيس وفد الجمهورية العراقية الى المؤتمر الاستاذ حامد علوان الجبري المستشار برئاسة الجمهورية رئيسا للمؤتمر بالاجماع .

وبعد ذلك وافق المؤتمرون على جدول الاعمال .

واضاف السيد بن سلامة كل التجارب القطرية تظل منقوصة ما لم تمتد الجسور الثقافية ويعمل الجمع في اطار رؤية ثقافية عربية شاملة مبرزا دور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دفع العمل العربي الثقافي المشترك في هذا المجال وقال ان هذه المجهودات مسجلة في بادرة كل عربي وهي تصب بروافدها في نهر الثقافة العربية الام ، منوها بدور مديرها العام الاستاذ الدكتور محي الدين صابر الذي قال عنه بانه لم يدخر جهدا لبلوغ هذه الامنيات العزيزة للامة العربية .

هذا وكان المؤتمر قد استمع الى رسالة هامة وجهها الاستاذ الشاذلي القليبي الامين العام لجامعة الدول العربية ، اكد فيها اهمية مؤتمرات وزراء الثقافة في دعم العمل العربي المشترك مبرزا الابعاد الحضارية التي تعلق على هذه المؤتمرات .

وخلال الجلسة المسائية (جلسة العمل الثانية) استمع المؤتمرون الى كلمات السادة رؤساء الوفود وممثلي المنظمات العربية والاسلامية والاقليمية والدولية . ومنها مكتب التربية العربي لدول الخليج والمنظمة الاسلامية للتربية والعلم والثقافة واتحاد الجامعات العربية ومنظمة الوحدة الافريقية والمنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة .

وتم بعد ذلك عرض الموقف التنفيذي لقرارات المؤتمر في دوراته السابقة وهي قرارات موجهة الى الدول العربية واخرى موجهة الى المنظمة كما بدأ المؤتمرون في استعراض الموضوعات الثقافية والمتعلقة بالموسوعة العربية ، المركز العربي للتعريب والترجمة والتاليف والنشر ، والمعهد العربي للترجمة والمنظمة والقمر الصناعي العربي ولجنة اليكسو لقضايا الاتصال في الوطن العربي ومجابهة الغزو الثقافي الصهيوني للثقافة العربية والمكتبة القومية المركزية والعلاقة مع المنظمات والهيئات الدولية العاملة في الميدان الثقافي .

وينتظر ان يشرع المؤتمر صباح يوم الاربعاء في جلسة عمله الثالثة في مناقشة الموضوع الرئيسي والمتعلق بالخطة الشاملة للثقافة العربية (الواقع والمستقبل) .

الدورة الثانية لأيام قرطاج المسرحية

تونس 7 - 16 نوفمبر 1985

هادي دانيال

منطلقات عامة

الخطاب المسرحي ، ككل خطاب إبداعي ، في رأيي ، يوحي بقبوله ، أو يسفر عنه بكيفية وأداة معينتين . يفتح أفقا ويحرك المخيلة . والخطاب الذي لا يقول شيئا خطاب معاق لن يتقدم معنا أو بنا في الطريق ولو اتكأ على عكاكيز الجاحظ وشارلي شابلن معا المسرح يعادل الواقع في تحوله ، المكان الذي عليه وفيه تمثل الواقع في إمكانية تحوله وانفتاحه لا في ثباته وركوده وتعفنه . وعندما يمثل النظام السياسي مع الممثلين على الركح ، ويتفرج النظام بين المتفرجين تكون الدمغجة السياسية جذر الدمغجة المسرحية !

الدراما ضرورية في المسرح ضرورة الشعر في القصيدة . فالديكور الأنيق ، والممثلات الجميلات بحركات الاغراء ، والنكات البذيئة ، والشعارات ، والأغاني ، والجناس ، والطباق ، والاشتقاقات اللغوية ، جميعها إذا ما غاب العنصر الدرامي تفتقد القدرة على الحركة حتى لو حاولت .

والنص المسرحي دم العرض ، إذا كان فاسدا ينهار وتصبح الخشبة تابوتا ، والمتفرج لا تنقصه جنازة جديدة .

والممثل على الركح قناع القول ، قناع الحركة ، قناع الحلم ، والا فهو (.....) ، والمسرح ليس (سيركا) . فالممثل الذي يشتم الجمهور ليس بطلا ، فالمتفرج لا يحتاج من يختبر مازوشيته المكتسبة بفضل المؤسسة العربية الاجتماعية والسياسية (والثقافية أيضا ؟) . الممثل الذي لا يقول شيئا ، لا يمثل شيئا .

أقصى أهداف المسرح : المتعة . أية متعة ؟ متعة المعرفة ؟ أم .. متعة أن يضحك المتفرج على نفسه ومنها ، أن يتسلى بالضحك على تهريج الممثلين ، والأخطر ان نضحك على قضايانا كما حاولت أن تجر جرنا مسرحية (يا ثروة في خيالي) . أن نسخر من الحرية «والد مقراطية ، وأن ننقلب على أقضيتنا ضحكا ، ممن ؟ ، عندما نسمع : (القدس عروس عروبتكم لا . عروستي أنا) . أية معرفة هذه ؟ . أليس من أهداف المسرح نقل المعرفة ؟ .

لو قرأتم كتاب « كفاحي » للسيد « هتلر » لما فاتكم أن تلاحظوا أنه كان يدعو دائما وسائل الاعلام والثقافة الى مداعبة غرائز الجمهور العاطفية والجنسية .. ليسهل قياده كالقطيع ، فهل ترون أننا شعوب صعب قيادها ؟

ظواهر سلبية

كان التهريج سيد العروض ، خاصة تلك القادمة من دول الخليج ، وكان تقليد دريد لحام هاجسا عند بعض الفرق الخليجية (فرقة الأمارات ، مثلا ..) ، أما بعضها الأخطر فقد حاول أن يلوي عنق التراث العربي لتحرير مقولات عرقية وشوفينية حاقدة ، ودعوات مغرضة الى القتل ، وبطريقة مباشرة تصطدم مع روح الفن الدرامي الإنسانية أساسا ، مما استفز الجمهور ولجنة التحكيم الذين نددوا علانية بهذه الظاهرة .

لقد كان النص المسرحي العربي غائبا ، مما دعا لجنة التحكيم لحجب جائزة أفضل نص . واستبدل النص المسرحي إما باقتباس عن نصوص مسرحية أجنبية (صانع الأحلام ، رحلة حنظلة ، حكاية بلا نهاية . .) ، أو تشكيل نص مسرحي اعتمادا على نصوص شعرية ومسرحية (خيوط من فضة . .) أو على حكايا واقعية (الأجواد) . . أو إخراج نصوص روائية ، والمحافظة على التقنية الروائية والاستفادة من التقنية السينمائية وتيار الوعي (أنا الحادثة ، مثلا . . حال الدنيا) ، أو مسرحية جزء من نص روائي (برج الحمام) ، أوخربشة نص كيفما اتفق (عكاز الطريق . . كرنفال ، مثلا) . . أو استنطاق التراث استنطاقا قسريا ، بعد حشره في حبكة (درامية ؟ . . .) .

إن النصوص الروائية ، وتلك المرتجلة أو المفبركة أجهضت طاقة الممثل في الدقائق الأولى من العرض (عكّاز في الطريق . . مثلا) . فقط النصوص التي كانت معدة إعدادا مسرحيا من قبل المخرجين ، دون أن تسقط من اعتبارها العنصر الدرامي اعطتنا تمثيلا رائعا (خيوط من فضة ، الأجوار ، صانع الأحلام . .) .

والمثال الأوضح أن نصا رديئا كالذي قدمته مجموعة من نجوم التمثيل في مصر (عبد الله غيث ، سميحة أيوب ، محمد الشويحي . . عزة بلبع . . الخ) ، قزّم النجوم أمام جمهور المتفرجين ، فرغم المقدمات والتمهيد اليومي والتكريس التلفزيوني والسينمائي المصري ، غادر الجمهور صالة العرض في الدقائق الأولى من العرض شاجبا الاخراج والتمثيل الرديئين وهو يردد عبارات التعاطف مع أضعف عروض فرق الهواة التي سبق وأن أداها ، مسرحية شعرية (لا شعرفيها . .) ، تنقل نظما بعض أحداث حكاية ابن زيدون مع ولادة (سميحة أيوب ؟) . كان عبد الله غيث يقف أمام سميحة أيوب وكلاهما يردد كلاما منظوما ، وكأنه يستظهر أشعار سليمان العيسى أمام طاولة المدرّس .

إن انهيار نجوم (الوزير العاشق) دث لسببين أساسيين ، أولاهما غياب النص المسرحي الابداعي ، النص الذي يفتح أمام الجسد فضاء الحركة ، بينما كان نص (جويدة) مقفلا باهتا كزنزانة قيّدت حركة نجوم حسبوا أن شهرتهم كافية لانقاذ هبوط النص دون أن يمثلوا بأجسادهم . . وهذا ثاني السببين .

ظواهر إيجابية

كان الجمهور المتفرج الظاهرة الايجابية الأولى في المهرجان ، فانحاز إلى الفن الدرامي وتجلياته الابداعية على الخشبة ضاربا عرض الحائط بالاعتبارات الأخرى السياسية والإقليمية ، والمجهودات الاعلامية المتنوعة لرفع بعض العروض الهابطة أصلا .

بهذه الروح المتعطشة للابداع الحقيقي تجاوب الجمهور بحماس مع المسرحيات الأربع الأساسية في هذه الأيام : خيوط من فضة ، صانع الأحلام ، كرنفال ، والأجوار . .

كما أن (لجنة التحكيم) على صعيد الهواة والمحترفين ، لم تواجه ضغوطا ، أو لم تخضع لضغوط ، فقد كان منحها للجائزة الكبرى ، وجائزة أفضل إخراج ، وجائزة أفضل ممثل/عادلا للغاية .

أما الظاهرة الايجابية الثالثة فقد تجلت في بروز توجه المسرح العربي ، حتى الرسمي منه لانتقاد الواقع العربي الظلامي ، مع التحفظ على سطحية هذا الانتقاد غالبا . ورابع الظواهر الايجابية ، في رأيي ، بروز طاقات تمثيلية رائعة (ندى حمصي ، رنده الأسمر ، زهيرة بن عمار ، . . سيراط ديدن ، عبد الرحمن أبو القاسم ، محمد أدار ، منير معاصري كميل سلامه ، حسين الأسمر ، مفيد أبو حمد ، كمال التواتي ، عيسى حراث . .) ، وبروز طاقات اخراجية ممتازة (جواد الأسدي ، ريمون جباره ، الحبيب شبيل ، علوله ، أسعد فضه . .)

الموضوع الفلسطيني . . كيف ؟

عندما كنا في مرحلة سابقة نتحدث عن الموضوع الفلسطيني كمقدس / يوثوبيا ، كنا نلحق الضرر به وبنا ، فقد رفعت الأنظمة هذا المقدّس جدارا خَلْفَهُ سرقت الأنظمة خبزنا ووأدت حريتنا وانتهكت كرامتنا وإنسانيتنا فصار حبيب

أطفالنا لذنا الذي (قبلنا به) كي لا نعيق استعدادات الأنظمة للحرب المنتظرة .. انتظار غورو ؟

وعندما قتبلت « إسرائيل » على هذا الجدار من المحيط الى الخليج ، انهار الجدار على أشلاء كرامتنا وإنسانيتنا ، فوطأنا مع الأنظمة الجدار غائبين (نحن) عن الوعي ، نهذي وكأن الموضوع الفلسطيني غاب بانهيار جدار رفعته الأنظمة .

إذن فلا تستغربوا أن أقول لكم : إن ملايين من الشباب العربي ، لا تعرف كيف أخرج الفلسطينيون من فلسطين ، بل ويتصورون أن بيروت تقع في فلسطين ، وقيل لي مرارا بسذاجة لماذا خرج ياسر عرفات من فلسطين ، أليس الأفضل له لو عاد اليها ؟ .

هنا يريد المتفرج أن يتعلم عن « الأجواد » الفلسطينيين ، ليتعلم منهم كما تعلم من « جلول » .. أو ذلك الجزائري الذي قدّم هيكله العظمي لمدرسة في قريته . فثمة آلاف (منا) قدموا حياتهم كاملة وما كانوا مرضى أو سكيرين بل أصحاء ومبدعين . وكما تعرفنا على الهيكل العظمي للانسان نريد أن نعرف على الأقل الهيكل العظمي للقضية الفلسطينية . وهذه مهمة المسرح العربي الذي لا يجد موضوعا جادا يعالجه . أما المسرح الفلسطيني فإنه بحماس ابداعي يخوض حرب المواقع للدفاع عن جسده وخشبة مسرحه الآن ..

إن أبرز معالجتين (عربيتين) للموضوع الفلسطيني ، إذا تجاوزنا الشعارات المرفوعة في هذه المسرحية الخليجية او تلك المغربية .. كانتا مسرحية (أنا الحادثة) و (برج الحمام) ، وكلاهما من تونس ، الأولى من انتاج المسرح الوطني والثاني من انتاج مسرح (فو) .

اعتمدت (أنا الحادثة) نصا مسرحيا للكاتب اسماعيل فهد اسماعيل ، واعتمدت (برج الحمام) مقطع (الكاسيت) من رواية للكاتب جبرا ابراهيم جبرا هي (البحث عن وليد مسعود) .

ورغم الكيفية المكرورة في معالجة الموضوع الفلسطيني في نص اسماعيل فهد اسماعيل ، وكون تقنيات النص الروائي المعتمد هنا على تقنيات سينمائية ، كونها تشكل اعاقة في تقديم النص على خشبة المسرح ، فقد كان الموضوع الفلسطيني مجرد ستار لطرح موضوع آخر هو القمع في الوطن العربي . وهكذا لو وضعنا (أنا الحادثة) في مواجهة (يا ثروة في خيالي) مثلا ، للاحظنا أن (أنا الحادثة) كانت نظيفة سياسيا . ولا بأس أن تكون فلسطين رافعا نضاليا ضد القمع بدل أن تستخدم لوأد هاجس الحرية والديمقراطية . كما أن الديكور في هذه المسرحية كان تعبيريا وملائما لطبيعة الموضوع المتناول .

لكن الأمر يختلف في برج الحمام الذي لا أدري كيف وجد مخرجه مكانا له بين برج البراجنه وبرج السدرية . كيف يمكن أن لا نرى في الموضوع الفلسطيني غير رجل هارب تاركا (نساءه) وابنه الذي أعمتهُ الحرب ؟ . وهذا الديكور الأنيق والممثلات اللواتي (أبدعن في ابراز صدورهن الناهدة .. والكلام الانشائي الذي وصلنا ـ ربما بسبب رداءة أجهزة الصوت ـ غير مفهوم غالبا . كل هذا ما علاقته بالموضوع الفلسطيني ؟ . نسأل المخرج قبل مؤلف الرواية :

منذ شكسبير ونحن نعرف ان النص المسرحي مرجعه التاريخ الحقيقي لشعب كتب ويكتب تاريخه بالدمع والدم واللهب ـ إن حاول مخرج ما معالجة مأساة هذا الشعب ـ ولا يمكن للروايات المختلفة المشكوك في دقتها ، أو المذكرات الشخصية لمثقف اعتبر وطنه وشعبه أثرا ضاع مع شريط (كاسيت) ، لا يمكن للروايات المريضة أو المذكرات المعنية هنا أن تكون مرجعا لنص مسرحي يعالج القضية الفسطينية .. أو أية قضية مصيرية لأي شعب من الشعوب او مجتمع من المجتمعات .

« خيوط من فضة .. »

رغم الزمان والمكان ، وأموال الخليج ، و « القضايا البديلة » .. افتكتْ المسرحية الفلسطينية « خيوط من فضة » ، إخراج : جواد الأسدي ، الجائزة الكبرى من مناصفة مع المسرحية اللبنانية « صانع الأحلام » ،

إخراج : ريمون جباره . لقد اصغت لجنة التحكيم ـ نؤكد هذا ثانية ـ الى ضميرها المهني ، ضمير المسرحي والمبدع فقط . وكان أعضاء اللجنة حكماء لا حكاما .

قبيل لحظات من بداية عرض (خيوط من فضة) على (خشبة) دار الثقافة ابن رشيق في تونس العاصمة . . كنت غير مطمئن الى النتيجة لأسباب عديدة ، منها أن الفرقة عانت من عقبة كبرى هي اضطرارها لتغيير رئيسي في الممثلين قبل بداية العرض بثلاثة أسابيع لأسباب تتعلق بأوضاع يعانيها كل فلسطيني في وطننا العربي . . ومنها أيضا سوء التجهيزات الصوتية خصوصا في مكان العرض ، إضافة الى أن حملات إعلامية مدججة كانت قائمة (حتى نهاية الأيام) لصالح عرض محلي وآخر خليجي لكن ما ان بدأ العرض حتى بدأت أتوتر . . لم أعد أفكر باحتمالات النجاح . . صرت أخشى تسرب ثغرة صغيرة .

قبل أن أشاهد العرض ، وأعرف مضمون العمل ، كتبت في مقالي الذي لعبت به رقابة « الإدارة » .
منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . الحروب ما زالت مستمرة لتأكيد هذه الحقيقة . فماذا يمثل الممثل على الركح ؟ .[1]

كان العرض الفلسطيني عرضا فنيا مفعما بالهاجس الإبداعي وكانت لغته المسرحية شعرية أيضا . ندى الحمصي التي قامت بدور (فضة) كانت تمثل على الركح القضية الفلسطينية / الشعب والأرض وكان نجم منظمة التحرير ؟ . فضة كانت المنظمة وكان نجم ياسر عرفات ؟ . فضة كانت الشعب والمنظمة وكان نجم الوطن الغائب خلف ليل الاحتلال ؟ .

(فضة) رمز مجازي ؟ ، لكنه مهما تعددت دلالاته لا يحيد عن خط الثورة الفلسطينية ، أما الأدوار الأخرى المقتبسة من مسرحيات شكسبير فكانت جميعها اشارات الى الأنظمة (ماكبث ، الملك لير . . .) جميعها تحاول احتواء فضة وجلها مدّعية هواها . فضة هي القضية الفلسطينية : وكل يدّعي وصلا بليلى ؟ . الوقوف عند هذا التفسير يعني الكثير .

الإشارة الى مآسي شكسبير ، إلى مسرحه الملحمي ومحاورته بمحاولة درويش الملحمية تثري النص ، فالاستعانة بما أخذ من « مديح الظل العالي » يدعم الدلالات ، كأن جواد الأسدي معد النص ومخرجه أراد أن يقترح علينا شكلا جديدا للمسرح الشعري عربي . لقد شكل لنا نصا وأخرجه . طرح سؤالا لتجاوز مهزلة (الوزير العاشق) كنمط سائد في المسرح الشعراي ، فكما أن الشعر ليس نظما فحسب ، فالمسرح الشعري ليس نظما لحوار أو مونولوج لا شعر فيه .

كان التمثيل بالجسد حاضرا بقوة ، فقد كان فضاء ندى الحمصي واسعا وبجسدها الصغير وحركاته الرشيقة اخترقت فضاء المسرح مشعة كنجم حي ساعدها حجمها الصغير وصوتها متعدد الطبقات بأن تكون الممثلة المناسبة للدور المناسب . جسد صغير الحجم كجسد الشعب الفلسطيني وثورته تهاجمه انظمة أجسادها ضخمة مترهلة ، لكنه بحركته المستمرة برفضه السكون وتمرده على الركود ، بعنفوانه وكبريائه يفلت دائما من الثيوب الشرهة ، من بين مخالب القبضة العربية الرسمية .

النظام العربي مثله على الركح ممثل قدير (عبد الرحمن أبو القاسم) عبر تماما عن حالة الأنظمة العربية السيكولوجية أثناء وقبيل هجماتها المتتابعة على منظمة التحرير ، موحى اليها من قبل سادتها الإمبرياليين والصهاينة وقد قام بدور هؤلاء السادة ممثلان قديران أيضا (حسين الأسمر ومفيد أبو حمد) .

كان عبد الرحمن وحسين ومفيد وندى يقومون بأداء أدوارهم أداء إبداعيا شدّ عقول ومشاعر المتفرجين الى الخشبة ، الى أن حدث نشاز ، (ممثّل) طارىء وضعيف الأداء والحركة كان الثغرة التي كنت أخشاها ، كأنه كان قسا يبارك فضة ويسمع اعترافاتها ، كأن فضه بوجوده كانت تودّع الخشبة . . كأن وجود هذا (الممثّل) يريد اغتيال نجم معنويا . وقد فاجأني أكثر أن (الممثل) تصور نفسه يقوم بدور على كل كان الدور صغيرا جدا ، واستطاعت ندى الحمصي بقوة حضورها أن تغسل آثاره .

إن أهم أثر تركته المسرحية عند المتلقي ، ليس تلك الدموع التي لم يستطع متفرج واحد تقريبا كبحها ، بل لم يشأ أحد مسحها بكفه أو منديله إلا بعد الخروج من القاعة . إن الأهم كان قوة الاقناع سياسيا وفنيا . فبعد العرض انقلبت الطاولة العامرة في أذهان الكثيرين ، وصار اسم فلسطين يتردد بين الأروقة السرية والعلنية ، كمزاحم يصعب اختلاق تهم سياسة له كالاختلاقات الرخيصة التي حاولوا زحلقة الفرقة اللبنانية بها !

جوائز العرب « الأخوية » لا نريدها لأنها تلسع وتعض ، الجوائز التي نفتكها بقوة الإبداع بها نعمر طريق النصر .

كلمة صغيرة تفيد . أثناء العرض أحضر وبحسن نية بعض الأخوة والأخوات أطفالا صغارا جدا ، فبكى الأطفال ، وهذا طبيعي . لكن بكاءهم شوش على العرض ، الأطفال في العيون والأفئدة ، لكن علينا أن نسعى دائما الى كبح عواطفنا العابرة عندما تشوش على أعمالنا الجادة ، فحمل الأطفال الى عروض كهذه يسيء الى الأطفال صحيا ونفسيا ويربك الممثلين ويشوش على تلقي المتفرج للعرض .

« صانع الأحلام . . »

عن جدارة تقاسمت مسرحية « صانع الأحلام » لريمون جباره اعدادا وإخراجا ، الجائزة الكبرى مع مسرحية (خيوط من فضه) الفلسطينية .

ورغم ابتعاد المسرحية عن الخطاب السياسي المباشر ، حاول البعض بعد عرضها بنجاح ، إثارة الشكوك حول الهوية السياسية للمخرج والممثلين ، وذلك فقط لازاحتها عن طريق الأبطال الجاهزين في مسابقة المحترفين . وقد ارتكبت نشرة « الجمهور » الصادرة عن إدارة الأيام عدّة أخطاء بحق المسرحية اللبنانية ، أوّلها اعتبار المسرحية مدرجة في مسابقة الهواة ، وثانيها نشر صورة للمسرحية السورية (حكاية بلا نهاية) الى جانب الموجز الذي يعرف بمسرحية (صانع الأحلام) . . الخ .

وللحقيقة فإن مدير أيام قرطاج المنصف السويسي ، سبق له أن امتدح « صانع الأحلام » في لقاء تلفزيوني قبيل افتتاح الأيام ، كونه شاهدها قبلا في مهرجان بغداد المسرحي الأول الذي تم فيه تجاوز المسرحية وتجاهلها من قبل لجنة التحكيم هناك .

نص المسرحية مقتبس عن نص مقتبس بدوره[2] ، إنه تشكيل نص باللهجة اللبنانية . ثمّة تقاطع بمحض الصدفة الإبداعية بين نصّ جباره ونص الأسدي ، جعل احتمالا كائنا صدور النصين عن ذات المرجع الواقعي . الألم المشترك . الدم المشترك . الحلم المشترك . مصير الشعبين الذي تتصرف به قوى خارجية .

وكما أن في فضه شيء من دون كيشوت ، ففي الحالم اللبناني شيء من فضه ، هاجس الحرية والخروج من القاووش / النفق الذي فرضته الأنظمة العربية التي ما أن رأت وجهها في المرايا حتى سقطت ؟ . دون كيشوت هنا رمز مجازي أيضا . فيشع دلالات مختلفة . فالقاووش هو الواقع اللبناني / العربي تتحكم بأهله قوى خارج إرادة الشعب / خارج أهل القاووش . في القاووش يفقد المساجين إنسانيتهم ، تسود بينهم أخلاق سفلية . القاووش جحيم وخارجه مشنقة تغلق النوافذ على أمل بحياة أخرى . إلى أن يؤتى بشاعر وتابعه ليزج به في القاووش سجينا . فيقوم الشاعر بوظيفته كمحرك للمخيلة ، ويفتح آفاقا صدئت أقفالها أمام أهل القاووش فيستعيدون الشعور بإنسانيتهم ، حتى العاصرة تحلم بأنها معشوقة وسيدة . ويتحرك أهل القاووش خلف الشاعر الذي يقودهم ضد القوى الخارجية الغاشمة للخروج من القاووش . كان الشاعر هو الطليعي الذي دفع دمه وحياته ثمنا لتحريك روح شعبه . أنا أتفق مع صانع الأحلام في أن (القاووش) اللبناني ينتظر صانع أحلام ، ولو كره الأيديولوجيون والسياسيون جدا .

لقد قدم جباره عملا ذا طابع غنائي ملحمي أيضا ، وكان الاخراج على حافة السقوط في الابتذال لكنه لم يسقط ، بل تابع صراطا فنيا مستقيا حتى الذروة الدرامية الرائعة . لقد كان العرض حافلا بالطاقات التمثيلية لكنها كانت غالبا مقيدة بخط أحمر يجب ان لا تجتازه فرندا الأسمر رغم حضورها القوي على خشبة المسرح كانت حركتها أحادية في أداء الجسد والحنجرة . منير معاصر ، رغم تعدد الدور الذي قام به (شاعر ، دون كيشوت . .) حافظ على شفافيته وكونه رمز الجمال الذي خفف من وقع بشاعة وابتذال شخصيات المسرحية الأخرى على مشاعر المتلقي ، لم يكن منقذ أهل القاووش ، وروزا فحسب ، كان منقذ العرض كاملا بمساعدة تابعه (كميل سلامة) . لا شك أن ريمون جباره ادار الممثلين باتقان ، ووضع ديكورا غاية في تعبيريته زادته قوة ألوان الأزياء ، وبالأداء الغنائي حمل ريمون جباره معه الى هذه الأيام ملامح واضحة لتراث مسرحي لبناني عريق ، وهذا كان مفتقدا في جميع العروض الأخرى .

(الأجـواد . .)

لا شك أن (الأجواد . .) كانت عملا جيّدا ، وهي النموذج الأوضح ، المستفيد من المسرح التعليمي بالمفهوم (البريشتي)[3] ، لكن النص كان منفلشا ، ويحتاج اختصارا وتكثيفا ، فكثيرة هي الحوارات والعبارات غير الموظفة مسرحيا ، كانت فقط تطيل العرض وتفتح للملل ثغرات كبيرة يتسرّب منها إلى المتفرجين .

لكن أهمية العرض فنيا في محاولته تقديم ملحمة واقعية معاصرة ، وفي تقديمه طاقات تمثيلية كالممثل (سيراط بومدين) الذي نال عن جدارة جائزة أفضل ممثل عن أدائه لدوري منور وجوال في (الأجواد) ، فمنذ مدّة طويلة لم نعرف ممثلا عربيا أو افريقيا بهذا المستوى .

كما يجدر بنا أن ننوّه بالأداء الغنائي للممثل محمد حيمور صاحب الصوت الجميل ، وكذلك بالممثل (محمد أدار) لأدائه المتقن لدور (الحبيب) في مشهد حديقة الحيوان .

(الكرنفـال . .)

إذا كان النص الروائي أعاق بعض الطاقات التمثيلية في عروض أخرى ، فإن عدم وجود نص درامي تحديدا ، غيب كثيرا إمكانيات الممثلين في مسرحية (كرنفال) التي فازت بجائزة أفضل إخراج .

ويبدو أن المخرج (الحبيب شبيل) لا يعتقد بأن العمل المسرحي تعبير جماعي ، بل هو تعبير فـردي وذاتي . والمخرج كفنان تشكيلي أصلا قدّم فعلا لوحات تشكيلية نابضة بحركات الممثلين وألوان أزيائهم وأقنعة وجوههم . النص فقط كان عكازا صغيرا كي لا يتعثر الشكل فينهار . لكن ماذا قال لنا الكرنفال ؟ . خلافا للمانشيتات السياسية المبعثرة هنا وهناك ؟. ماذا فعل بالطاقة التمثيلية الواعدة عند زهيرة بن عمار وكمال التواتي وزملائهما ؟ . هل العمل كان بحثا عن مسرح استعراضي ؟ . والممثلون هل سيخضعون نهائيا وباستمرار لسلطة المخرج الذي يحدّد شكل الجسد وتشكيلاته النهائية بفرشاة الفنان التشكيلي ؟ . وماذا يفعل الجسد بنفسه عندما يكون فضـاء التمثيل ضيقا بشكل خانق ؟ .[4]

(حكاية بلا نهاية . .)

نص هذه المسرحية معد أيضا . فالمخرج أسعد فضه اقتبسها عن نص من أمريكا اللاتينية .[5] العرض كان نظيفا على الصعيدين السياسي والفني . لكن أسعد فضه استغرقه موضوع القمع الذي تعالجه المسرحية فقمع بدوره طاقات الممثلين المعروفين باقتدارهم ومواهبهم الكبيرة مثل : مها الصالح . زنياتي قدسية . أيمن زيدان .

على كل إن هذا العرض بمثابة خطوة إلى الأمام في تجربة المخرج أسعد فضه . وذهبت الجائزة التي كان يستحقها الى عمل افريقي لم يكن رديئا على كل حال .

(رحلة حنظلة . .)

هذا العمل فاز بالجائزة الكبرى في مهرجان بغداد المسرحي الأول ، لكنّه لم ينل في الدورة الثانية لأيام قرطاج المسرحية أكثر من جائزة تقديرية لأحد الممثلين ؟ . رغم أن معدّ نص (رحلة حنظلة . .) هو أحد أعضاء لجنة التحكيم هنا . الأستاذ سعد الله ونّوس .[٥] .

لقد حشر العمل حشرا في مسابقة الاحتراف ، فشاهدنا كيف أن العمل رغم نظافته السياسية كان متواضع الإخراج والتمثيل . وقد دهشنا كيف نال في بغداد جائزة كبرى (متقدما ؟) على العرض اللبناني الذي قدّم في بغداد أيضا (صانع الأحلام) ؟!.

ختاما . .

ربما كنت قاسيا مع (إدارة المهرجان) ، ولكن أليس من الأفضل لنا جميعا أن نخلع عن ألسنتا وأقلامنا أقنعة النفاق ، ونمثل الإنسان فينا ؟ .

ثم من حق مهنة الصحافة علينا أن نقترب من قول الحقيقة قدر المستطاع ـ فأنا لست ناقدا مسرحيا إنما متفرج يتاح له أحيانا نقل انطباعاته عما يشاهد أو يقرأ أو يسمع ـ ومن واجبنا تجاه المهنة أن نحترمها بتعرية الممارسات السلطوية لمتفرج بين الجمهور أو ممثل على الركح .

لقد قمعنا كثيرا ، فهل وجب علينا الإبتسام فرحا بالإهانات التي تنهال علينا فقط لأننا نفكر بإنسانيتنا ونحلم بأننا نستطيع أن نحلم .

كفانا ترقيعا . . فلنَمثّل نعم . . لا أن نُمثَّل !.

● هوامش :

* قبل كتابة هذا المقال تفرجت عن خمسة عشر عرضا مسرحيا لأعمال عربية .

(1) خيوط من فضة كما تقول جذاذاتها [مسرحية ليست قابلة للتلخيص ، وذلك لأنها لا تقدم حكاية بالمعنى التقليدي ، ولا تتحرك حول محور واحد ، بل إن لكل شخصية شجونها وهمومها التي ما أن يتوهم المتفرج أنها شجون وهموم شخصية حتى تطل القضايا العامة لتجمع بينها وبين شجون الشخصيات الأخرى وهمومها . وهذه المسرحية تحاول أن تستمد مصداقيتها من العرض على الركح أولا ، ولا عجب فهي قائمة على فكرة التمثيل وصراع الممثلين فيما بينهم وانعكاس ذلك على القضايا التي يطرحونها . وقد شهد هذا القرن تجارب مسرحية كثيرة ومشهورة من هذا النوع ، ومع ذلك فإن هذه المسرحية تسعى الى أن تستمد خصوصيتها وتفردها من طبيعة المناخ النفسي والسياسي التاريخي الذي تعرضه ، وهو مناخ فلسطيني وعربي بالضرورة .] . « الجمهور »

(2) صانع الأحلام [اقتباس وإخراج ريمون جباره عن « رجل المانشا » للأمريكي واسرمان والأصل : دون كيشوت ، للأسباني سرفانتس . وتدور أحداث المسرحية في زمن الارهاب والقمع وقهر الحريات في سراديب وأقبية تحت الأرض مفصولة ومعزولة عن شمس الحرية والحياة الكريمة . وسمت مقبرة الأحياء هذه سجنا حيّزه المكاني هو كل مكان أو جزء من مكان في العالم غابت عنه مفاهيم احترام الإنسان للإنسان . وأما المحتوى الدرامي فيلخص حكاية رجل أودع السجن بتهمة تعاطي الشعر والتمثيل يرتقي بالمساجين من جبناء مقهورين ومكبوتين الى رفضيين ثائرين ، أنشودتهم « نحن الحلم المستحيل » [. « الجمهور » .

(3) الأجواد ، المسرح الجهوي بوهران (الجزائر) . تأليف وإخراج عبد القادر علوله . تتحدث المسرحية عبر حكايات منفصلة عن مواطنين إيجابيين من الواقع الجزائري قدّموا تضحيات في خدمة المجتمع الجديد ، ومن خلال ذلك تنتقد السلبيات التي يعاني منها المجتمع الجزائري الآن . ونذكر هنا أن اعتماد الحكايات على السرد باللهجة الجزائرية أثر سلبا على تلقيها من قبل الجمهور التونسي الذي يجد صعوبة في فهم اللهجة الجزائرية ، تفوق الصعوبة التي يلاقيها العربي المشرقي في فهم لهجات بلدان المغرب العربي . بل أجزم أن المشرقي يفهم اللهجة الجزائرية أكثر من فهم التونسي لها ! .

(4) كرنفال [للمسرح المثلث الذي اشترك في الدورة الماضية بمسرحية موال خارج المسابقة . . وكرنفال هل هو ذلك الكرنفال الذي نعرفه من الغرب حيث يتنكر الناس كي يتحرروا من قيود الشكليات ومتاعب الحياة الجدية ؟ . قد نكون استوحينا من ذلك الشكل . ولكن استعارة كلمة كرنفال هي في الواقع استعارة ظرفية . فالأهم هو أن ننطلق من هذه الكلمة ، من هذه الفكرة ومن هذه الأزياء لنرحل عبر أحلامنا الغابرة المكبوتة ـ يدعونا الكرنفال إذن الى رحلة عبر أنفسنا وذكرياتنا وما نحمله من رواسب هذا التاريخ وهذا العالم . لقد أحلنا الكلمة الى الأزياء كي تتكلم عوض الأشخاص ، وكما منحنا الكرنفال فرصة التنكر وراء أقنعتنا وأزيائنا فهو يدعونا آخر الأمر أن ننزع هذه القشور الشفافة وأن نقف عاريي الأجساد والانفس كي نراجع أجسامنا وأنفسنا ، وأن نقف أمام المرآة .] . « الجمهور » .

(5) حكاية بلا نهاية [حالة الإنسان بمختلف مراحلها : النشأة والطفولة والدراسة ثم العمل ، وما يتخللها من مكونات ومتناقضات . ومحاولة من هذا العمل الدرامي لإظهار انسحاقات هذا الإنسان وكيفيات تأقلمه مع الظروف لتطوير ذاته مع « ظروف » المجتمع . ومن هذه « الظروف » علاقة هذا الإنسان بالسلطة .] . « الجمهور » .

(6) رحلة حنظلة . نص اقتبسه سعد الله ونّوس عن بيترفايس . [مواطن عادي يعيش حياته دون أي اهتمام لأنه مشغول بعمله وبيته فقط . غير أن إحدى دوريات الشرطة تلقي عليه القبض بالشارع ذات يوم وتوجه له تهمة التآمر على السلطة والسلطان فيساق إلى السجن . وللخروج من السجن اضطر الى رشوة الحارس والمحامي ، وعندما يغادر السجن يجد أن رب عمله قد استغنى عنه . ويتنقل بين الطقوس والأطباء في رحلة كوميدية لاذعة اعتمد فيها المخرج تقنية « التضخيم الكاريكاتوري » .] . نشرة « الجمهور » .



ثلاثون قمرا في سماء "الفكر"

حميدة الصولي

لخص الأستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير مجلة الفكر (وزير الشؤون الثقافية) كل ما قيل في مجلة الفكر والمشرفين عليها بأنه « تذكير » بما قاموا به طوال ثلاثين سنة .. وذلك ضمن كلمة اختتام الاحتفالات بالذكرى الثلاثين لصدور مجلة الفكر المنتظمة بقصر المؤتمرات بالعاصمة التونسية أيام 7 ـ 8 ـ 9 ـ 10 أكتوبر 1985 . وكان مدير المجلة ومؤسسها الأستاذ محمد مزالي القى كلمة في حفل الافتتاح ضمنها وصفا مدعما بالشهود الحاضرين منهم والغائبين للظروف التي مرت بها هذه المجلة منذ تأسيسها حيث كان ذلك بضعة أشهر قبل استقلال تونس أيام كان أستاذا .. ورغم محدودية الامكانيات فان عزيمة فولاذية قد رافقت بعث هذه المجلة لم تعرف اليأس ولا التأثر بالصدمات أو حتى الوان الاحباطات التي اعترضت طريقها مستعرضا في حديثه مختلف المجلات التي ظهرت واختفت ومنها ما لم يعمر سنة ومنها ما بلغ الخمس سنوات مؤكدا على أن مجلة « العالم الأدبي » التي أصدرها زين العابدين السنوسي رغم انها لم تعمر الا سنة كانت (أهمها على الاطلاق)

وقد تضمن برنامج الاحتفالات مجموعة من الفعاليات اختلفت في محتواها لكنها متحدة في اهدافها ومن هذه الفعاليات الجلسات العلمية التي تناول فيها أساتذة مختصون أربعة محاور هي كما يلي :

- الشعر في مجلة الفكر قام بالبحث فيه الأستاذ الشاعر عبد العزيز قاسم .. وناقشه الشاعران الأستاذان رياض المرزوقي ومحسن بن حميدة
- الاتجاهات الفكرية في مجلة الفكر .. صاحب البحث الأستاذ أبو يعرب المرزوقي وناقش البحث الأستاذ فتحي التريكي
- القصة في مجلة الفكر للأستاذ الطاهر قيقة وناقشه الأستاذ نورالدين بن بلقاسم
- النقد في مجلة الفكر بقلم الأستاذ الحبيب الشاوش وناقشه الأديب الأستاذ أبو القاسم محمد كرو .

هذه المحاور الأربعة لئن دلت على أشياء فانها تدل خاصة على غنى هذه المجلة واتساع آفاقها .. وهو ما يؤكد على رحابة صدرها والتقاء كل الأنواع الأدبية على صفحاتها مما يجعل الاحتفاء بها أمرا في غاية الأهمية .. لقد كانت مناسبة التقت فيها أجيال الأدب والفكر في حوار وتذكر وتأمل في الخطى العملاقة التي قطعتها مجلة الفكر على درب العطاء والخلق والتقييم والمتابعة .. ولئن كان ذلك أبسط آيات العرفان فانه أيضا يؤشر الى ما يمكن أن ينتظر الأدباء والمفكرين من مسؤولية في مواجهة العناصر الحضارية الجديدة التي تفرزها يوما بعد يوم جحافل التقنية وألوان الوعي الحضاري المنعكسة عطاءاتها على مسيرة البشرية جمعاء فترفدها وتشد أزرها في مواجهة التحديات المتوالية والتهديدات المستمرة لحياة الانسان .. إنسان عصر الذرة وحرب النجوم والحروب الالكترونية بمختلف اصنافها ومسمياتها .

إلى جانب الجلسات العلمية تلك انتظمت عدة الوان أخرى من الاحتفاء بالمجلة حيث قدمت كلمات وصفية وتقييمية منوهة كلها بالجهود التي بذلت طوال هذه السنوات الثلاثين من عمرها .. كما قرئت عدة قصائد تمجد هذه

المسيرة ورجالها . وقد حضر هذه الاحتفالات عدد كبير من الأدباء والمفكرين من مختلف انحاء الوطن العربي وممن احتضنت مجلة الفكر كتاباتهم . . وتغنى جميعهم بخصال المجلة ومن يقف وراءها . . فكان ذلك الى جانب مشاركات زملائهم في تونس عرسا رائعا واحتفالا يليق بهذه المجلة . من ضمن هذه الحركية الثقافية أيضا أقيمت معارض للمجلة وللمؤلفات الأستاذ محمد مزالي . . علما بأن كلمات الافتتاح كانت على التوالي :

كلمة اللجنة الثقافية القومية للدكتور محمد الطالبي رئيس اللجنة .

كلمة الأستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير الفكر .

كلمة الدكتور محي الدين صابر المدير العام للالكسو

كلمة الدكتور ناصر الدين الأسد وزير التعليم العالي بالأردن نيابة عن المشاركين العرب .

كلمة الأستاذ محمد مزالي مدير المجلة (الوزير الأول ووزير الداخلية)

وقد تخلل كل ذلك قصائد للشعراء :

جعفر ماجد ـ محي الدين خريف ـ نورالدين صمود .

وصدر عدد خاص من المجلة يشتمل على نصوص كتبت لهذه المناسبة ومن ضمنها المداخلات التي تضمنتها الجلسات العلمية وغيرها . كما صدرت نشريات أخرى تتعلق بحياة المجلة ومؤسسها . . وكان قد انتظم مجلس أدبي مع الأستاذ محمد مزالي بمشاركة مجموعة من الأساتذة نذكر منهم :

جاك بيرك ـ عامر غديرة ـ أحمد خالد ـ أبو يعرب المرزوقي ـ عبد العزيز قاسم الخ . . وأدار هذا المجلس الدكتور محمد الطالبي رئيس اللجنة الثقافية القومية وذلك يوم الجمعة 4 أكتوبر 1985 بمركز الفن الحي لمدينة تونس

مجلة الفكر هي ذلك الملتقى الحميمي بين الأنواع الأدبية وتأتي الذكرى الثلاثون لانبعاثها لتكون مناسبة هامة لدراسة هذه المسيرة المباركة في الثقافة التونسية خاصة ولعل هذا يتركز خاصة على :

ـ دراسة الأجيال الأدبية التي عاصرت وظهر انتاجها على هذه المجلة وبالتالي يكون ذلك مرآة صادقة لما عليه المسيرة الأدبية والفكرية عموما من نسق متطور سلبا كان ذلك أو ايجابا ويتمثل ذلك في :

1 ـ دراسة الشعر التونسي بمختلف درجاته واشكاله ولا يمكن اللجوء الى عملية التصنيف الجماعي في الشعر خاصة لأن تصنيف مجموعة من الشعراء ووقعها في خانة ما تحت أية تسمية انما ذلك يبعث على الشعور بالمحو أو بالتبعية . . فالشاعر مهما ادعى الدارسون من تلاقيه مع غيره في جانب ما فانه في جوانبه الأخرى لا يمكن أن يكون الا مختلفا عن سواه . . . وهنا تتأكد دراسة النماذج الشعرية على أساس الفردية ولا على أساس الجماعة . وهذا طبعا يتطلب جهودا مضاعفة ولا يمكن أن يتوقف على جهد شخص واحد مهما كان هذا الشخص متفرغا وموضوعيا وذا قدرة خارقة . . وكان يمكن أن تكون الدراسة مقسمة الى ثلاثة أجزاء كل جزء منها يختص بمجموعة من الشعراء على أساس الأجيال أو المحاور الفنية وذلك بتصنيف خاص واولي فقط من المختصين .

2 ـ دراسة القصة في مجلة الفكر انطلاقا من جمع سابق وترتيب محدد تقوم به فئة من المختصين أيضا وفي القصة ربما تنفع مسألة الأجيال لأن الأمر سيقتصر على كيفية انبناء النسق التصاعدي للمسيرة القصصية . . ولأن تشكيل الحدث في القصة مرتبط أساسا بوعي اجتماعي وسبق ففي عادة يكون سائدا على امتداد الفترة الزمنية فإن دراسة الأطوار القصصية تكون سهلة جدا لدى المختصين . ومسألة نفي او تناسي أو محاولة دمج شخصية في غيرها في هذا المجال يعد أيضا من قبيل اللاموضوعية أيا كان السبب . . ففي كل عمل عناصر تميزه عن سواه . . واتباع المدارس الغربية في دراسة الأدب العربي يجلب كثيرا من الاهانة للنص العربي إذا روعي في هذه الدراسة معطياتها الخاصة بتكوينها اصلا على أساس النص الغربي الذي افرز تلك المقاييس النقدية .

ـ النقد في مجلة الفكر . . . وهذا الموضوع طبعا لا بد من دراسته دراسة دقيقة وواعية واستخراج الخصوصيات والاشارة الى التقليد الأعمى وكشف الجوانب المزيفة فيه ان وجدت . . فمناسبة كهذه تستدعي وتفرض وقفة تأمل

جادة وعميقة واعتبار المرحلة الماضية ككل حالة ويتم دراستها بوعي كامل حتى يكون البناء عليها صحيحا وسليما بالنسبة للمستقبل .

فالنقد الموضوعي إذن هو الغربال أو الميزان الحقيقي للعمل الأدبي . . وهو عمل فكري مرتكزاته الأولى الوعي وعمق المعرفة واتساع الثقافة وبعد النظر اضافة الى معرفة بالتاريخ والمدارس النقدية وأجدر ان يكون دارس النوع منتجا فيه لأنه اذ ذاك يكون أدرى بصعوبة الولادة ومراحل نمو الأثر الأدبي أو الفني . . وهذه مهمة يصعب أداؤها خارج اطار الاختصاص والممارسة الفعلية للنوع الأدبي حتى يكون الدارس عليما بدقائق أموره ومختلف خصوصياته .

ـ المقالة . . وفي هذا الباب تنزل عشرات المواضيع التي يتعين على الناظر فيها ان يكون بعيد النظر لتبين ما تنطوي عليه من المواقف وما تؤشر له من التجاوز وما تومىء أو تدل عليه من التغيير او الركود في الساحة الأدبية فالمقالة بالنظر الى ولادتها من الانفعالات عادة واتيانها تلقائيا وفي اللحظة التي تصبح بنتها هي اصلا نتيجة ربما لوعي كامل بالأحداث وتطوراتها . . وهي الى جانب ذلك تحمل تصورا كاملا أو تشير الى تصور كامل لقوانين الماضي أو الحاضر أو المستقبل في الميدان الذي كتبت فيه ويشترط في كاتبها أن يكون ملما بقواعد المقالة الى جانب تمرسه وتجربته الشخصية في الابداع او الدراسة . . هذا النوع من الأدب لا بد أيضا من دراسته بعمق ويكون أحد المحاور الذي يختص فيه فريق من الباحثين .

ـ المسرح في مجلة الفكر . . هذا الباب يمكن أن يوضع سؤال كبير حوله : لماذا تخلت المجلة او كادت عن هذا الجانب الهام في مسيرة الابداع المسرحي . . ولست هنا أضيف جديدا وانما أذكر فقط بأن المسرح هو الوجه الآخر للمجتمع اذ تنعكس عليه روح المجتمع بشكلها المأساوي او الفرح . . هذا اضافة الى ما تنطوي عليه الكتابة المسرحية من عناصر فنية لا يتيسر لكل كاتب تطبيقها والالتزام بها . واعتقد ان تطور المجتمع يقاس حاضرا كما كان في الماضي من خلال شغفه بالمسرح وبتطور هذا النوع من الكتابة التي تتحول الى حركات على الركح هي قمة ما بلغه ذلك المجتمع من نمو وتطور، وتأسيسا على ذلك فان العناية بالمسرح تصبح أمرا ضروريا ونشر النصوص المسرحية يعتبر مساهمة في الرفع من مستوى هذا القطاع كل ذلك بالاضافة الى افساح المجال أمام الامكانيات لتتفتق وتزهر على الركح دون تأويل غير مصيب أحيا لكثير من الأعمال الجيدة . ومعروف ان أي محاولة لكبت الابداع او توجيهه لغير مساره انما يلد عنها الزيف .

الترجمة : هذا باب مهم احتضنته المجلة ومن خلاله اطلع القاري على عديد الأنواع الأدبية في مختلف اللغات كان حريا بهذه المناسبة ان تتم دراسته وتبين مستوى هذه الترجمة ومدى قدرتها على التعبير عن روح النص الأصلي من خلال اللغة . . واعتقد ان مقارنة للأصل والترجمة من طرف مختصين يمكن ان تخرج بملاحظات تفيد المترجمين في المستقبل . . وتفتح المجال أمام الراغبين في الترجمة مع توفي الدقة في أعمالهم . . كذلك يمكن توجيه المترجمين الى عيون الأدب العالمي حتى يتم اختيار النصوص لترجمتها من أهم ما وجد .

أصداء الفكر ، ، هذا الركن الذي يعكس أغلب الأحداث الثقافية ويعطي فكرة عن عدد من المنشورات هنا وهناك يحتاج أيضا الى كلمة تقييمية ، ، إذ أن مجلة الفكر بما اكتسبته من قيمة معرفية وأدبية لا بد ان تكون أيضا مجالا وميدانا تظهر عليه مختلف الأنشطة الثقافية والأعمال الفكرية والابداعية في برقيات عاجلة ولكنها مفيدة . . وهذا ما يمكن التركيز عليه في دراسة هذا الميدان أو الركن .

● القراءات : لا بد للمجلة من ركن قار يسمى قراءات وهو موجود ونادرا ما يختفي واعتقادي ان كيفية القراءة تحتاج الى أساليب معينة يتم بواسطتها تقديم صورة صحيحة للعمل المقروء . . وهنا لا بد من الاشارة المركزة على كل التطورات الحاصلة فيها والتركيز على النقاط التي تدفعها الى الأفضل .

● حوارات : المجلة احتوت على العديد من الحوارات مع رجال اختصوا في ميادين علمية وفكرية واجتماعية . . واتجه في هذه المناسبة فحص هذا الجانب من محتوياتها واتخاذ بادرة بشأنه . . هل يمكن الاستمرار فيه او

التقليل منه مثلا . ؟ وهل ان قواعد الحوار قد طبقت أم لا . ؟ وإذا كانت هناك نواقص وجبت الاشارة اليها .
كل هذه الملاحظات أساسية وواجبة لأن الاحتفال بالحدث انما يعني تجديد الثقة فيه للانطلاق من جديد بروح تزداد حيوية ووعد متقد . . وتجنب المعوقات والمحبطات . . وغلق المنافذ التي قد يتسرب منها الوهن أو ريحه .

الجلسات العلمية

نظرات في الشعر التونسي من خلال مجلة الفكر 1955 - 1985

كانت الجلسات العلمية ثرية بمواضيعها وتدخلات المناقشين سواء الذين كتبوا تعليقات أو الذين تناولوا الكلمة لمناقشة الآراء المطروحة في الجلسة وفي هذا الاطار يمكننا تسجيل الجدية التي تحلى بها المتداخلون في مختلف الاهتمامات . . هذا مع الملاحظة ان نقصا بارزا قد ظهر في كل فرع من الفروع المقترحة . . ولا يمكن تلافيه بدون تخصيص فريق كامل لكل عنوان . . وهو ما نعتقد في نجاعته . . خاصة ومسيرة ثلاثين سنة ليست بالأمر الهين كي يتم تناولها من طرف فرد مهما كان صبره وطول نفسه وتجرده وموضوعيته .

لقد عالج الأستاذ عبد العزيز قاسم موضوع الشعر في مجلة الفكر بشيء من الحياء وقد اعترف منذ مطلع بحثه انه : « يبدو لنا من الضروري ان نقنع بالاحاطة بالمساحة الشعرية الممتدة أمامنا بدلا من الغوص الجزئي في الأعماق . . أي اننا نفضل الجولة الشاملة على الاستراحة الفاحصة وهذا الاختيار يدفع بنا الى الركون الى التقسيم الزمني بتناول حصاد كل عشرية على حده لابراز خصائصها وهمومها واهتماماتها . مقسما تلك الفترات كما يلي :

● الفترة الأولى : وتمتد من 1955 الى 1965 وتميزت حسب المحاضر « بكثافة الضغط التاريخي على الأحداث والأفكار والوجدان ذلك ان الفكر كانت أول زهرة ثقافية تفتقت ابان حصول تونس على استقلالها الداخلي ومن ثم شهدت المجلة وواكبت معارك حاسمة على العديد من الواجهات : معركة اتمام الاستقلال ومعارك اجلاء الجيش الأجنبي من الجنوب ومن الشمال ومعركة بسط السيادة كاملة على أرض الوطن باسترجاع الأراضي الفلاحية . »
ويواصل حديثه قائلا : كما شهدت المعارك الحاسمة في حرب تحرير الجزائر وقد التحم فيها الشعبان التونسي والجزائري في مواجهة « الاستعمار حتى النصر النهائي . كل هذه المعارك واكبها الشعراء التونسيون الذين تغنوا بالبطولات وسجلوا ملاحم الجهاد ورسموا علامات النصر في درب النضال الطويل » .

ويؤكد المحاضر ان مجلة الفكر : « تنشر الانتاج الشعري دون ميز ولا تتدخل فيما يتعلق بالاشكال والمضامين الا اننا نلاحظ انها من حيث الترتيب كانت تعطي الأولوية للقصائد ذات الطابع الوطني أو السياسي عموما » ملزما نفسه بتتبع ذلك الترتيب في اختيار نماذج العشرية الأولى ولم يقتصر الشعراء على احداث تونس والجزائر بل امتد احساسهم الى المستوى الانساني مثل فاجعة هيروشيما . والمحاضر اعتبر شعر هذه الفترة : » تعاليق منظومة على هامش النضال التحريري في حين تستمر الأغراض التقليدية من تأمل في الحياة وحب وغزل وكان من ابرز أصوات الشعر التأملي المرحوم أحمد المختار الوزير وقد توصل في خاتمة استعراضه للنماذج والأسماء التي سجلت حضورها في العشرية الأولى :

● أولا : إن الشعراء التونسيين كانوا مستمعين الى أصوات الظرف التاريخي الذي مر بالوطن فعبروا عن كل ما كان يختلج بصدر « الأمة » من آمال وآلام ومن احساس بالكون والقيم .

● ثانيا : ان هؤلاء الشعراء في معظمهم يحتلون مرحلة النضج الابداعي على الحدود الفاصلة بين ليل الاستعمار وفجر الحرية وقد واصلوا التجربة الشعرية الكلاسيكية والرومانسية التي أزدهرت في فترة ما بين الحربين الى قمة عطائها .

● ثالثا : انهم بممارستهم للشعر الحر قد فتحوا آفاق الحداثة والمعاصرة في وجه الشعراء الذين جاؤوا من بعدهم ونشأوا وشبوا تحت ظلال الفكر الوارفة .

ويؤكد الأستاذ عبد العزيز قاسم ان هؤلاء الشعراء قد استمروا في العطاء في المرحلة الثانية

أما عن حركة غير العمودي والحر فان المحاضر يرى انها ميزت « المرحلة الجديدة » تلك « التي اصبحت منبرا لأصوات شابة » . وقد جاءت هذه الحركة تمردا على القواعد الشعرية المعروفة التي تقوم فيها الموسيقى على موازين ايقاعية معروفة لا تتغير . » وعدد اسماء ونماذج منها تكشف عن البداية التي قامت بها هذه المجموعة . . وانتقل منها الى المرحلة الثالثة التي « من خلالها يتبين ان القاسم المشترك بالنسبة الى هذه المرحلة الشعرية هو الحزن والحلم . . لكن الشاعر لا ينفك يداهم وفي ارادته أكثر من بقية » .

لقد كان عرض الأستاذ عبد العزيز قاسم لمختلف النماذج الشعرية في مجلة الفكر قريبا جدا من الشمولية ورغم انه خصص مساحات لتجارب اعتبرها ربما أكثر وقعا وتمثيلا لكنه في الجملة كان موضوعيا ولم يعتمد طرق النفي التي يعتمدها آخرون وبذلك يكون تاريخيا في مستوى الأمانة .

• • •

في تناوله لموضوع : الاتجاهات الفكرية في مجلة الفكر نبه الأستاذ أبو يعرب المرزوقي الى « أنه ليس من السهل ان نحدد في هذا الخضم من الدراسات والقصائد والقصص والمسرحيات الاتجاهات الفكرية التي ينتظم بحسبها الانتاج الغزير الذي ضمته المجلة بين دفتيها . » وكان أشار في أول بحثه ان عدد صفحات المجلة قد نيف على الأربعين الفا . لكنه قال :

نسعى إذن . . في هذه الدراسة التمهيدية . . الى تحديد الاتجاهات الفكرية التي سادت المجلة خلال عقودها الثلاثة الأولى وبصورة أدق الى تحديد السبل الكفيلة باستخراج هذه الاتجاهات من التشاجن العارم الذي يطغى على الأعمال المنشورة في مجلتنا

1 ـ ففي مرحلة اولى سنحاول تصنيف اعداد المجلة تصنيفا يساعد على تعين المضمون الممثل لهذه الاتجاهات أحسن تمثيل

2 ـ وفي مرحلة ثانية سنربط هذه الأصناف بمحددات الاتجاهات الفكرية التي طغت على المجلة .

3 ـ أما المرحلة الثالثة فنخصصها لتحديد هذه الاتجاهات الفكرية وابراز أهم خصائصها .

4 ـ وننتهي في المرحلة الأخيرة الى تعريف المجلة وتحديد طبيعتها علنا بذلك ندرك سر هذه الظاهرة التي جعلت مجلة الفكر تتميز عن غيرها من مجلات بلادنا : طول نفس . . وصمودا . . وثراء مضمون . . وانفتاح فكر . » وقد حاول المحاضر الغوص في أعماق خلفيات المواضيع ليخرج بنتيجة تقول :

ليس كل ما ينشر ممثلا او على الأقل ليس هو ممثلا بنفس الدرجة (طبعا للمجلة) . وقد صنف اعداد المجلة الى صنفين اعداد خاصة أو ممتازة واعداد عادية . « والأولى تتصف بوحدة الموضوع في حين تكون الثانية أكثر تنوعا » لكن الأعداد الخاصة تبلغ نسبتها خمس مادة المجلة . واعتبر هذا الصنف أكثر دلالة على اتجاهات المجلة الفكرية من النوع الثاني لكونه من اعداد أصحابها ومن وحي هموم أسرتها . » .

واصلا من خلال تحليلاته ودراسته الى ان اتجاهات المجلة يمكن حصرها كالتالي :

الاتجاه الفكري الأساس : اتجاه الأستاذ مزالي

الاتجاه الفكري الهيكلي : اتجاه الأستاذ بن سلامة

الاتجاهات الفكرية التي لغير اعضاء الأسرة المضيقة وهذه الأخيرة « تبرز على شاكلتين أحداهما تمثل الأعداد الخاصة التي لم تنظمها المجلة . . وأعمال الضيوف . والأخرى تمثل الأعداد الخاصة التي نظمتها المجلة وما تبقى من الأعمال الواردة في الأعداد العادية . كما تعرض الى « مجالات فعل المجلة وعناصر التجديد فيها . . واصلا الى أن للمجلة فلسفة تربوية تهتم بتحديد شروط تكوين الانسان العربي بتونس تكوينا يحقق مقومات القوم التي هي الهوية العربية والثقافة الاسلامية والانفتاح الانساني »

« وللمجلة فلسفة اقتصادية تهتم بتحديد شروط تكوين الثروة استنادا الى أسباب الثروة في تونس اعني الأرض والانسان وسعيا الى تحرير الاقتصاد الوطني من التبعية :

- وللمجلة فلسفة علمية ومعرفية تهتم بتحديد شروط جعل العقل العربي عامة والتونسي خاصة قادرا على انتاج المعرفة وتجاوز مرحلة الاستهلاك للاسهام في مغامرة الخلق العلمي معرفة وتكنولوجيا »

وللمجلة أخيرا فلسفة سياسية تتمثل في تأليف وحدة الفلسفات الثلاث السابقة . . اعني الفلسفة الداعية الى تحقيق المجتمع الانساني المتعادل الذي يكون فيه الانسان سيدا لا مسودا . .

وقد اعلن أبو يعرب المرزوقي في خاتمة بحثه ما يلي خاصة :

« لقد نجحت الفكر في رسالتها الأولى إذ أن عقيدتها صارت عقيدة الاجماع في تونس » وانه قد « آن الأوان لكي تصبح المجلة ذات فروع مختصة يكون كل منها لسان حال لمؤسسة مختصة تكونها المجلة :

مؤسسة البحوث السياسية والعقائدية

مؤسسة البحوث الاجتماعية والنفسية

مؤسسة البحوث الفنية والجمالية

مؤسسة الابداع بجميع اصنافه

وبذلك تكون المجلة بمؤسساتها هذه أولى الجامعات الشعبية التي أدت الدور الطلائعي بحق قبل ان تحمل الاسم

• • •

وتناول الأستاذ الطاهر قيقة موضوع « القصة في مجلة الفكر » حيث قال عنه : الحديث عن القصة صعب متشعب لأننا كنا وما زلنا لم نتفق على مفهومها وعلى انماطها . . وما زلنا نطلق هذا المصطلح على الوان مختلفة من القص تتقاذفنا المفاهيم القديمة المقتبسة من التراث العربي المكتوب الفصيح والشفوي الشعبي على حد سواء والمفاهيم الحديثة المتداولة في الآداب العالمية التي تفرق بشيء من الدقة بين الحكاية والقصة nouvelle والرواية Roman . » ثم لاحظ بأن بحثه سيتناول القصة بمفهومها العام من خلال مجلة الفكر . وهو المفهوم « الذي لا يخلو من غموض أي فن القص - بانماطه القديمة كالحديث والحكاية والخبر والخرافة . . وانماطه الحديثة كالقصة والرواية . » وهو ينطلق من تجربته ككاتب قصصي قبل كل شيء اذ يحدثنا عن بعض كتاباته فيقول :

كتبت في سنتي 1955 و 1956 مجموعة من النصوص القصيرة كنت اعدها تعبيرا عن خواطر مستوحاة من الواقع والمحيط . » ومن بين الكتاب الذين كتبوا في الفترة 1955/1959 الذين اعتبرهم الباحث الجيل الأول يمكن ذكر الطيب التريكي ومحمد فرج الشاذلي . . ومحمود المسعدي رغم ان هذا الأخير قد سبق هذه الفترة بما نشره في مجلة المباحث .

ومن الدارسين لهذا الفن ذكر الباحث الأستاذين عثمان الكعاك ومحمد فريد غازي الذي نشر بحثا حول « القصة في مجلة المباحث » طوال السنوات الأربع من حياتها (افريل 1944 ـ أوت 1947) وكان الباحث قد ذكر في مستهل هذا الفصل ان القصة كانت « تحتل في المجلة مكانا متواضعا بجانب الشعر والدراسات »

ومن جيل الستينات ذكر الباحث البشير خريف والعروسي المطوي ورشاد الحمزاوي ومصطفى الفارسي وعبد المجيد عطية وعبد القادر بن الشيخ . الا ان « رائدهم واغزرهم انتاجا البشير خريف » معتبرا « مجلة الفكر تقوم بدور الناشر للانتاج القصصي الجديد » بنشرها رواية افلاس او حبك درباني للبشير خريف ورواية بودودة مات لرشاد الحمزاوي والمنعرج لمصطفى الفارسي وبرق الليل للبشير خريف .

وخصص جانبا من بحثه حول نادي القصة ومجلة قصص وجهوده بمساعدة ومؤازرة الدار التونسية للنشر التي اصدرت بعض المجموعات القصصية لاعضاء النادي ورغم صدور مجلة قصص لم يمنع اعضاء نادي القصة من التعاون مع مجلة الفكر .

إن « ميزة كتاب القصة في السبعينات وما قبلها بقليل هي انغماسهم في الحاضر ونظرهم الى الماضي من خلال الحاضر لاكتشاف رواسب الماضي في البيئة وفي نفوس الأفراد ومتابعة مفعولها السلبي أو الايجابي في تطوير الحاضر حتى يتطلع الى المستقبل وينزع اليه .. وذكر من القصاصين عزالدين المدني وسمير العيادي وحسن نصر ومحمود بلعيد ومحمود طرشونة وغيرهم .

وختم موضوعه قائلا :

« حاولت ان أقدم المراحل التي قطعتها الرواية والقصة في تونس واعرف بأهم الكتاب وأهم النصوص وذلك من وجهة نظري وعبر ما نشر في مجلة الفكر . وانا اعلم أني لم اتعرض لقصاص لم ينشروا نصوصا في المجلة وكان لهم اسهام في تطوير القصة في تونس واخصابها . وانا اعلم أيضا اني لم استوف حق أولئك الذين تعرضت الى انتاجهم في المجلة لأن ذلك يستدعي دراسات مستقلة ولأن الحديث عنهم بصورة اشمل يتجاوز حدود هذه المقالة . ولكني عبرت بصدق عما أحس به شخصيا في تحاوري مع ابداع ثلة من كتاب القصة عاشرت، كثيرا منهم وتربطني ببعضهم صداقات غالبت الزمان وطالعت انتاج جلهم بشغف عند صدوره وذلك طوال سنين عديدة . » متمنيا في النهاية ومتوسلا الله ان يساعده على تحقيق هدف التعريف بهذا الأدب في صورة اشمل .

• • •

أما آخر جلسة علمية فكانت للأستاذ الحبيب الشاوش الذي تناول الجانب النقدي وعنوان بحثه : « النقد في مجلة الفكر » حيث مهد للمحاضرة بعرض لأغراض النقد من خلال المجلة مستعرضا بعض الأسماء مثل محمد الحليوي الذي ركز على مقولاته في مفهومه للنقد الذي يعتبرانه « ركن من أركان الأدب ووظيفة لازمة لكل حركة أدبية . فلا مناص لكل انتاج أدبي من النقد الذي يقيم الأثر ويدل على مواقع القوة أو الضعف وينبه الى سمات الصدق أو الزيف .. ويشجع القرائح الناشئة ويكشف النقاب عن الأدعياء والمهرجين .. »

كما يعتبر محمود المسعدي وقف « موقف الناقد الحصيف المتبصر داحضا تهمة تأخر الأدب التونسي عن الأدب العربي في الأقطار الأخرى » ردا على سؤال وجهته له الآداب البيروتية » كما اعتبر الطاهر قيقة والدكتور الطاهر الخميري وعامر غديرة من النقاد الذين تحمل المجلة عينات من اعمالهم النقدية .. كما استعرض الوان النقد في الأعداد الخاصة من المجلة ولم يكن كتابها من التونسيين فحسب ولم تكن تناولات التونسيين تختص بالأدب التونسي اذ امتدت الى الأدب الجزائري والمغربي والشرق العربي .

وفي باب « أنواع النقد وخصائصه » يستعرض الباحث بعض المواقف لعدد من رجال الثقافة مثل : عبد العزيز قاسم وأحمد خالد ومحمد الطالبي والبشير بن سلامة وفي باب « مسك الختام » يتناول كتابات الأستاذ مزالي الذي اعتبر « أفكاره وخواطره ومواقفه النقدية البناءة وما تتسم به من تحر الحجة وسعة العارضة وعمق النظر وما يرنو اليه دوما من بعد المدى وعلو الأفق » تدخل في باب الفكر المتحرر للرجل » وهكذا يبقى محمد مزالي مفكرا متحررا بالدرجة

الأولى . . مؤمنا بأن للأدب دورا رئيسيا في حياة المجتمعات الانسانية رافضا القيود مهما تكن اشكالها ومهما تكن الأثواب التي تتشح بها »

ولو أردنا تتبع ما قيل مفصلا في هذه المناسبة لما كفى عدد كامل من هذه المجلة ذلك . . لذلك فقد تعرضنا فقط الى المداخلات الرئيسية في الجلسات العلمية بشيء من العرض فحسب . . وعلى من أراد التعمق والاطلاع الكامل ان يرجع الى الأعداد الثلاثة لأشهر أكتوبر نوفمبر وديسمبر 1985 من مجلة الفكر حيث جمعت فيها مختلف الفعاليات وجميع المداخلات .



على هامش ملتقى حول الذاكرة الجماعية والاعلامية وبنوك المعطيات

عزيز بن عزيزة

انعقد أيام 3 و 4 و 5 و 6 ديسمبر 1985 ملتقى نظمه مركز الدراسات والتوثيق للتنمية الثقافية التابع لوزارة الشؤون الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو : كان موضوعه : « الذاكرة الجماعية والاعلامية وبنوك المعطيات »

وقبل الخوض في أهم ما دار في هذا الاجتماع أود ان أشير الى ان هذا الملتقى هو حلقة من سلسلة اجتماعات ضمت العديد من الخبراء المغاربة والتي ابتدأت في نوفمبر 1981 لتتدارس امكانية انشاء نظام اعلام وتوثيق ثقافيين بالبلدان المغربية .

لقد تزايد الاهتمام أخيرا بالميدان الثقافي بالبحث عن سبل تطويره واستغلاله لما فيه من فائدة للمجتمع بأسره . تنطوي الثقافة ولو انها « آخر ما يبقى بعد ان نكون قد نسينا كل شيء » على جدلية أساسية تتمثل في الأخذ والعطاء الذي يمكن أن يوجد ويتزامن بين الفرد والفرد أو مجموعة ومجموعة أخرى وذلك بصورة أفقية أو بين المجتمع بكامله في عصر ما مع امتداد ذلك المجتمع في عصر آخر بصورة عمودية ، ولا أريد أن أتناول بالنقاش وجه البداهة في هذه الجدلية لما اكتسبته من شرعية تاريخية بقدر ما سأتناول تواصل العطاءات فيما بينها وهذا يجرنا فورا الى موضوع هذا الملتقى .

يشغل بال الساهرين على قطاع الثقافة في بلادنا جمع وحفظ هذه العطاءات مهما اختلفت أوعيتها ، ان هذه المهمة ليست هدفا في حد ذاتها بل هي حلقة من حلقات عمل دؤوب يمر عبر رصد هذا الانتاج المتنوع وجمعه والمحافظة عليه وتهيئته ليبقى رصيدا مغذيا لكل الينابيع الثقافية العميقة والمتأصلة جذورها . لئن تبدو للعيان عملية الحفظ في قطاع التوثيق ممكنة فان هذه العملية تبدو أعسر عندما نواجه مختلف الأوعية الأخرى مرورا بالتسجيلية الصوتية منها الى ان نتناول الذاكرة الجماعية التي تمثل ميدانا خصبا ومتشعبا ومتجزئا فكيف يمكن ان نستغل هذا القطاع ونجعله في متناول الباحث والعالم ، هنا تبدو العلاقة وطيدة وأكيدة بين الذاكرة الجماعية وبين أحدث التقنيات .

لقد تضمن هذا الملتقى العديد من المداخلات التي ساهم بها ضيوف أتوا من آفاق عديدة لعرض تجاربهم في ميدان الاعلامية وخدمة التكنولوجيا للثقافة ويمكن ان نقسم هذه المداخلات الى ثلاثة عناصر أساسية :

1) حول تحديد مفهوم الذاكرة الجماعية :

كانت قليلة المداخلات التي تناولت هذه الناحية واعتقد ان هذا الاغفال يبعد الملتقى عن الشعار الذي رفعه ـ ليتناول موضوعا أعم وأشمل وهو التراث . ومثلما أكد وزير الشؤون الثقافية « ان الذاكرة الجماعية لا تنحصر معالجتها في النظريات الفلسفية والانتروبولوجية بل تتجاوز هذا الاطار الفكري لأنها مرتبطة في الواقع بالمادة التي تتمثل بالأرصدة الثقافية »

فإن اهم مداخلة في هذا الاتجاه كانت للباحث عبد الواحد علوش الذي تناول مثالا طريفا ودقيقا وهو الذاكرة الجماعية لدى المهاجرين المغاربة بفرنسا وجاء على حدّ قوله :

« ان المهاجرين يطالبون بالانتماء رغم المسافات التي تفصلهم عن أصولهم ويتواجدون ولو جزئيا في ذاكرة جماعية رغم بعدهم عن الوطن . . . ان تنظيمهم الخصوصي وتصرفاتهم القارة لشيء جماعي تبرز من حين لآخر وتعلو فوق كل الأفراد الذين يكونوه »

ان هؤلاء المغاربة المهاجرين الذين يبحثون عن انتماء ويصمدون أحيانا بصفة لا شعورية أمام الحضارة الغربية التي ما فتئت تبهرهم بخلقها وقيمها ، يعيشون انفصاما في ذاكرتهم بين وفاء تراجعي أو الحنو نحو الماضي من جهة وبين التكيف وتبني القيم الغربية من جهة أخرى ـ ورغم كل محاولات الدفاع عن هذه الذاكرة الجماعية بالرجوع الى أرض الوطن مثلا فان « الذاكرة الجماعية لهؤلاء لا تتمثل في المحافظة على كل ما هو ماض بل تحطيم كل ما هو لا يتكيف مع الاطار الزمني الجديد . »

2) أهمية التراث :

اهتمت المداخلات بجملة من المواضيع التي لها علاقة بالتراث وقد ركزت على أهمية الوثائق التاريخية كالأرشيف أو الوثائق الموجودة بالخارج (مالطا ، ايطاليا ، اسبانيا ، هولندا ، انقلترا) وكيفية استعادة هذا التراث الى وطنه الأصلي . لقد عبّر العديد من المشاركين على تردي وضعية أرشيف الوزارة الأولى واندثار الوثائق منه نتيجة غياب الأعوان الاكفاء ونقص الاهتمام الثقافي لدى المسؤولين البيروقراطيين ، ودوما في هذا الاتجاه ساهم أحد المتدخلين بدراسة حول الفهرست لابن النديم الذي يعتبر من أول الموثقين العرب في التنظيم والتصنيف .

على أن أهمية التراث على اختلافه لا تمنعنا من ان نتناول التجارب الحديثة في المحافظة على التراث واستغلاله .

3) بنوك المعطيات والتجارب الرائدة :

تميز هذا الجانب من الملتقى بابراز تجارب بلدان مختلفة منها العربية ومنها الأجنبية كالاسبانية والفرنسية .

ان الطريف في هذه التجارب ما قامت به وزارة الثقافة الفرنسية من استخدام للحاسوب في السيطرة على التراث الثقافي وخاصة منها ما تحويه متاحفها من ثروات كاللوحات الزيتية ، وكذلك طريفة هي الأخرى مدينة Val Maubuée في شرق باريس التي بدأت تعيش عصر الاعلامية حيث بدأت هيكلة الحياة فيها وفي كل المستويات بواسطة الاعلامية (من رياضة ، ثقافة ، مكتبات ، مدارس ، وسائل نقل) ان الهدف الأساسي لمؤسسة ASPASIE هو تطوير الديموقراطية المحلية في هذه المدينة وتكييف حياة الناس على هذه التكنولوجيا الحديثة التي يمكن ان تسهل حياتهم وتوجد جسور الاتصال بين الأفراد بسهولة وبذلك تسهل عملية الخلق . أما تجربة اسبانيا (Pic) فرغم حداثتها (1980) تمكنت من ان تسيطر على قطاع هام من التراث الاسباني (الوثائقي ، الموسيقى ، المسرحي ، الرياضي) وتعمل وزارة الثقافة الاسبانية على مزيد تدعيم هذا الاتجاه بتكوين بنوك معطيات جديدة وبتنفيذ توصيات مؤتمر هلسنكي الذي يرمي الى تأسيس بنك أروبي للمعلومات .

. أما التجارب العربية وأهمها تجربة معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط . يعتبر هذا المركز رائدا في مجال وضع المصطلحات واستخدام الحاسوب في اللغة العربية ، لقد عبرت الأستاذة ليلى المسعودي على صعوبة توحيد المصطلحات بين الدول العربية حتى يمكن اعتمادها في الحاسوب . إذ أن الاستعمال المستمر للفظ هو الذي سيفرض شياعه وتداوله ، مثل لفظ معجمية أو قاموسية .

وفي تونس بدأ استغلال الاعلامية في الميدان الثقافي بتجارب لا زالت في بدايتها . مثل تجربة مركز التوثيق القومي وبرنامج تراث بين وزارة الثقافة والمركز القومي للاعلامية .

الخطوط الهامة والنقاش :

إن أهم ما نتج عن هذا الملتقى هو تكريس نقاش جدّي بين الحاضرين حول نقطتين :

1) أهمية بنوك المعطيات وخاصة في الميدان الثقافي : إذ من بين الأهداف السامية لاستخدام التكنولوجيا الحديثة هي تمكين الجماهير من معرفة واستغلال الثروة الثقافية مهما اختلفت أوعيتها من جهة ولكن تطوير الاعلام الثقافي القومي والعالمي وتسهيل تداوله وتبادله من جهة أخرى لقد اختلفت الآراء طيلة هذا الملتقى بين رأيين :

ـ رأي يتخوف من دخول عصر الاعلامية بدون حذر قد يؤدي بنا الى تبعية مفرطة لا نعي نتائجها الآن . ويتساءل دعاة هذا الرأي هل من الضروري ادخال الاعلامية ونحن لم نحذق العمل اليدوي بعد ؟

ـ الرأي الثاني هو الذي يعتبر ان الاعلامية عصر جديد سيتمد تأثيره ليشمل كل دول العالم ومع على العرب الا التهيؤ سواء كان ذلك على مستوى الدول أو القطاعات .

الا ان اعتماد الاعلامية في الميدان الثقافي تطرح العديد من التساؤلات أو قل هي الصعوبات العملية التي تواجه التجارب الرائدة .

* الطباعة وما تتطلبه من جهود لاخضاع الحرف العربي للتقنيات الحديثة بما في ذلك استخدامه في الحاسوب .
* صعوبة استغلال الوثائق التاريخية (ارشيف) بواسطة الحاسوب .
* الحيرة بين وسائل تقنية متطورة تظهر بين الحين والحين .
* عدم توحيد المصطلحات بين الدول العربية في تعريب المكنز
* عدم وجود مؤسسات اشراف على مثل هذه المشاريع في كل الدول العربية على نسق واحد .

2) النقطة الثانية وهي لا تقل أهمية عن الأولى وتتمثل في التعاون المغاربي الذي يسيطر على اهتمامات ذوى القرار والنفوذ في بلداننا .

ان تنسيق الأعمال بين دول المغرب العربي يعتبر من مقتضيات مصالحها الآنية والبعيدة . حيث لا يمكن ان نستقبل القرن الواحد والعشرين بهذا الانقسام وهذا التشرذم الذي فيه اضعاف للطاقات وهدرها وينبغي ان يوجد التخاطب بين هذه الدول وبعد ان نكون قد وحدنا لغتنا التوثيقية وذلك بالاعتماد على توصيات اتفق عليها دوليا ومع تكييفها للحالات الشاذة عندنا حتى نهيء أنفسنا لتجاوز التشتت . كما ننسق في اقتناء المعدات المسخرة لتطوير القطاعات التوثيقية والتي ستساعد على تركيز بنوك المعطيات سواء على مستوى القطر الواحد أو الأقطار المغربية مجتمعة ان الاختلاف في أبسط قواعد العمل بين بنوك مختلفة تكون عقبة أخرى في مجال التخاطب بين بلداننا والوقاية خير من العلاج .

لقد أكد الجميع وعيهم لما يترصد أوطاننا من نوايا ومحاولات المسخ الثقافي من الدول الأجنبية لذلك ينبغي التهيؤ للدفاع عن ذاتيتنا الثقافية سواء بالأسلوب التقليدي أو احداث التقنيات (الاعلامية) ومثلما قال المهدي المنجره :

« سيمثل القرن العشرين المرور من حضارة الانتاج الى حضارة المعرفة أين يقاس الرأسمال الحقيقي بالاعلام وبنوك المعطيات . . . وبقى لنا ان نحرر لا فقط حاضرنا ولكن أيضا مستقبلنا اذ أنّ آخرين هم بصدد دراسته وتخطيطه لنا »

لذلك ينبغي ان لا تولى الدول المغربية وجهها لهذا العصر الجديد . وان الاعلامية آتية لا ريب فيها وعلى كل منا أن يهيء قطاعه وميدانه ورصيده لهذه التقنيات الحديثة .

في المؤتمر العالمي الثامن للشعراء

الأرض.. كوكب للشعراء

ترجمة: حميدة الصولي

جميل جدا ان يلتقي شعراء العالم مرة في السنة . . وأجمل من ذلك أن تكون الاهتمامات منصبة على تحقيق السلام الحقيقي عالميا . . فالذين اشتركوا بالمؤتمر العالمي الثامن للشعراء جميعهم تقريبا يرفضون الارهاب واستعمال القوة في العلاقات الدولية أيا كانت الخلافات . . وقد لمست ذلك من مواساتهم لي شخصيا عندما بلغهم نبأ العدوان الصهيوني على الأرض التونسية محدثا اضرارا ومخلفا وضحايا ابرياء . . ولكن ارادة الشعراء تبقى حلما لا بد من النضال المتواصل لتحقيقه . . وهو ما دعت اليه وزيرة الثقافة اليونانية في خطابها الذي قرىء بالنيابة عنها في جلسة الافتتاح .

الجدية تبدو بارزة في اعمال المنظمة العالمية للشعراء وقد تدل على ذلك أشياء ثلاثة هي :

1) استمرار المؤتمر في الانعقاد رغم ما يلاقيه من صعوبات

2) استمرار توسعه وازدياد المشاركين فيه كل دورة ثم تحوله من الانعقاد مرة كل السنتين الى مرة كل سنة .

3) برامجه للترجمة والطباعة وقد أصدر بمناسبة الدورة الثامنة انتولوجيا بعنوان : « تالاتا » ضمت قصائد عدد من الشعراء الذين يشاركون في المؤتمرات ومنهم : أبا شيدز - احردان - البرتي - أوجانيودى انداد - جورج أستالوس - بتنزوس بالاسيوس - هنري بلاز - بورجس - كازيميرو دي بريتو - شارل كارير - شو - شانغ - فرلنقتي - غراس - قيلفيك - مورينا - باز - بيير رولار - سنغور - فريتاكوس - زهراد وغيرهم . وقد أصدرت « مهداة الى البحر » كما جاء في غلافها وقدم لها جيا نكارلو فيقورلي وتضمنت عددا من الصور للفنان جاك اين كوستو . أما عدد صفحاتها فهو 320 صفحة من الحجم المتوسط وضمت قصائد من اللغة الأصل وترجمات باللغة الفرنسية . بيبلوغرافيا لكل شاعر أشغال المؤتمر .

في جلسة اختتام أشغال المؤتمر العالمي الثامن للشعراء الذي انعقد من 28 سبتمبر الى 4 أكتوبر 1985 باليونان أعلن الكاتب العام السيد ميمو مورينا بان المؤتمر التاسع سينعقد السنة القادمة بفلورنسا بايطاليا وان المؤتمر العاشر سيلتئم في لشبونة العاصمة البرتغالية وبذلك يكون المؤتمر . . أمام البرمجة والتخطيط لهاتين الدورتين خاصة والتجارب السابقة لا بد أن تمكنه من فرصة التأمل لتجاوز الثغرات التي قد حدثت سواء في مستوى الادارة او البرمجة او التنفيذ أو مسألة توزيع الأدوار والمسؤوليات ولعل شجاعة الكاتب العام التي برزت من خلال وعوده وادارته لبعض الجلسات تبشر بكثير من الأمل على المدى القريب . . والمعتقد ان التقاء كل المشاركين حول هدف يتمركز في البحث عن سلام عالمي حقيقي في مواجهة حرب النجوم والذرة وغيرهما . . وهو ما يعتقده كل المشاركين تقريبا . . ينبىء بشعور بالخطر الذي يهدد كوكبنا .

رئيس المؤتمر الأستاذ ليوبولد سيدار سنغور الشاعر السنغالي الكبير صاحب الموقف الشجاع الذي اطلقه عندما أراد تسليم مقاليد رئاسة الجمهورية السنغالية الى حد أعضاءه اذ قال أريد ان أكتب أفكاري وأشعاري قبل أن أموت . .

وهو بذلك يكون قد ضرب أكبر مثل للايمان بالقضايا الفكرية وتجسيد الرؤى النظرية على أرض الواقع . فقد آمن بأن جذور الانسان واحدة وان التعليم لا بد ان تكون منطلقاته دراسة اللغات القديمة وقد بدأ التجربة في بلاده حيث

تدرس اللغات القديمة حاضرا وتتعايش الأديان وتتمتع بنصيب من الديمقراطية يبرز الخطى الحضارية التي قطعها الشعب السنغالي برئاسة ليوبولد سيدار سنغور . . لقد افتتح سنغور أشغال المؤتمر بخطاب حول مفهوم الثقافة في دول البحر الأبيض المتوسط ومدى تواصلها أو اتصالها بمختلف الثقافات العالمية الأخرى علما بأن محاضرة الرئيس سنغور كانت بعنوان :

شعر البحر الأبيض المتوسط كنتيجة لتلاقح الثقافات

وقد ذكر الرئيس سنغور بالجذور الأولى لكلمة شعر (Poesis) اليونانية واعتبرها شاهدا على أن هذه الكلمة جاءتنا من اليونان مشيرا الى أن الشعر اليوناني القديم تميز بطابع ديني . وأكد ان الانشاد الشعري ظهر ليغني الناس معا الأحداث المشتركة أو العائلية . وقد ورثت رومة عن اليونان خاصة الشعر والمسرح مع الحرص على ابقاء الميدان مفتوحا للديانات الشرقية من خلال الشعر . . وقد كان ذلك شديد التطابق مع جماليات عصر الامبراطورية الرومانية . وتطرق الى القرآن الذي اعتبره تجمعا شعريا في مستوى الايقاعات ذاكرا بأن الشعر العربي وحتى الاسلامي قد انطبعت ايقاعاته بتأخر النبر (القافية) أو بمحسنات وزخرفة . في حين ان الشعر العبري تميز بنغم بطيء كأنه الهمس وأخيرا فان شعر افريقيا السوداء وخاصة في السنغال حيث يغني للفرح والحزن بأصوات متعددة . . القاسم المشترك هو المرافقة الشعرية بآلة او عدة آلات موسيقية . ودعا في خاتمة بيانه الشعراء للنضال ضد توجه معاصر للشعر لا نحصل منه الا على الصورة مؤكدا على ان الملفوظ الشعري يجب أن يكون ممتعا للقلب والأذن .

وكان الكاتب العام السيد ميمو مورينا قد القى كلمة موجزة ابرز فيها بالخصوص أهمية الاتفاقية الممضاة في شهر فيفري 1985 بين دول البحر الأبيض المتوسط حيث الجانب الثقافي بشكل أحد اهدافها الرئيسية .
أما والي جزيرة كورفو الذي تلابيان وزيرة الثقافة والعلوم اليونانية الى شعراء القارات الخمس المجتمعين بكورفو مبرزة اعتزازها بأن ترى الشعر العالمي يكرم الشعر اليوناني إننا لانصبح شعراء وانما نولد شعراء كما تقول السيد وزيرة الثقافة اليونانية متمنية لعصرنا حيث نعيش اضطرابا في القيم وحيث جمال آلهة الشعر محتجب بالسباق نحو التسلح - ان يكون شعراء العالم بأسره في خدمة الانسانية حتى تسود المثل العليا للسلام العالمي وكي يستمر هذا السلام الى الأبد .

وفي بيانهم للمؤتمر فان الشعراء اليونانيين يؤكدون بأنه إذا كان للشعر ان يستمر فلانه لا يحتاج الى تأكيد . . واوضح السيد نيكيلوروس فريتاكوس فضائل الشعر اليوناني المعاصر الذي يمكن ان لا يكون معروفا كله خارج الحدود لكنه قادر على أن يقدم للمشاركين في المؤتمر انطولوجيا توضح بجلاء عمل الشعر اليوناني في أعوامه الأخيرة
وفي اطار الأعمال التحضيرية للمؤتمر فإنه تقرر تكوين ثلاث لجان عمل تهدف الى دراسة المحاور التالية :
أ : « الشعر وحضارة البحر الأبيض المتوسط » رئيس اللجنة ليوبولد سيدار سنغور - مقررها جيرار مورق .
ب : « الشاعر في المجتمع المعاصر متطلبات الحياة والعقد الاجتماعي » برئاسة ديازكازانوبيما ومقررها نعيم نوماز .
ج : الشاعر في مواجهة تصنيع الكتاب ووسائل الثقافة الجماهيرية برئاسة ماريو لوزي ومقررها ماريانو بينو .
وفيما يلي فكرة عن أهم فعاليات المؤتمر العالمي الثامن للشعراء المنعقد في الفترة من 28/9/ الى 1985/10/4

الفعاليـات	التاريخ
ـ جلسة حول هوائيات الترجمة وتركيز مديرين لها تكون مهمتهم اختيار المساعدين والمترجمين واعداد البرامج وهم ممثلو الهوائي لدى المنظمة العالمية للشعراء . وتعتبر هذه الهوائيات قنوات المنظمة المذكورة .	85/9/28
ـ إقامة حفل استقبال وعشاء على شرف المشاركين . ـ جلسة الافتتاح وتناول فيها الكلمة كل من : ميمـو مورينـو الكاتب العـام ـ ورئيس المؤتمر الشاعر ليوبولد سيدار سنغور . وكلمة وزيرة الثقافة والعلوم اليونانية وقرئت بالنيابة ـ كلمة الشعراء اليونانيين ـ ثم استعرض الشاعر ميمومورينا الكاتب العام محتويات انتولوجيا المؤتمر . ـ جلسة المساء وفيها تم تكوين اللجان وتعيين المقرر العام ـ حضور قراءات شعرية بالمسرح البلدي بكورفو مصحوبة بعزف على البيانو للعازفة الايرانية نوفين أفروز (تقطن بايطاليا) حضور حفل استقبال اقامته وزيرة الثقافة اليونانية بالنزل على شرف المشاركين .	85/9/29
أشغال اللجان صباحا ومساء بنزل الهلتون حيث مقر الاقامة ـ وحضور حفل راقص أحيته الفنانة الهندية جايا لا كشمي صحبة فرقة شعبية تؤدي أغان هندية تشخصها الراقصة المذكورة وتعزف الفرقة على آلات هندية شعبية ايقاعية ثم تنظيم قراءات شعرية من طرف المشاركين في المؤتمر بحديقة الشعب بكورفو .	85/9/30
ـ استعراض لتقارير اللجان الثلاث وتقرير المقرر العام ثم المناقشـات . . عزف عـلى البيانـو للعازفة اليونانية فينا بابا بيترو ـ تقديم انتولوجيا الشعر اليوناني . الصادرة بمناسبة انعقاد المؤتمر الثامن باليونان (باللغة الانكليزية) مصحوبة بقراءات شعرية قام بتنشيطها تيتوس باتريكيلوس	85/10/1
جلسة الاختتام وقدمت فيها بيان الشعراء الذي تر كز على النضـال من أجل السـلام والاخوة العالميين ومقاومة اشكال الحرب التي منها حرب النجوم ـ كلمة بلدية كورفو ـ كما تناول الكلمة بعض الشعراء الكبار مثل رافاييل البرتي . همبرتو دياز كازانوييفا ـ قيلفيك ـ اوستال سالتران ـ دافيد قاستوى ـ بيدروتامان ممثل اليونسكو ميمو مورينا الكاتب العام معلنا أن المؤتمر القـادم سينعقد بفلورنسا بايطاليا بدعوة من وزير الثقافة الايطالي .	85/10/2
ـ خطاب الاختتام والقاه رئيس المؤتمر الشاعر ليوبولد سنغور جولة استطلاعية في مدينة كورفو	85/10/3
الذهاب الى أثينا ـ جولة سياحية ـ الندوة الصحفية للرئيس ليوبولد سنغور ـ حفل استقبال من طرف السيد قسطنطين كبريازيس رئيس المكتب السياحي (الهليني)	85/10/4

المكتب الصحافي والادارة

يتركب المكتب الصحافي حسب اللغات الرسمية للمنظمة العالمية للشعراء من السادة :

جورج أسطالوس ـ اللغة الفرنسية
مارغارينا فيلسيانو ـ الانكليزية

أود برتانزوس بالاسيو ـ الاسبانية
أما المقرر العام للمؤتمر فهو السيد الفريدو دي ستيفانو
المسؤولة بالكتابة السيدة ايفلين دينوى

---

١) من برقية الأمم المتحدة الى المؤتمر بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيسها حيث جاء فيها ان تعلن الأرض كوكبا للشعراء .



تونس تحتفل باليوم العالمي للموسيقى

فتحي زغندة

احتفلت تونس على امتداد شهر أكتوبر 1985 باليوم العالمي للموسيقى الذي أقره المجلس الدولي للموسيقى التابع لمنظمة اليونسكو .

وقد وضع احتفال هذه السنة تحت شعار تشجيع موسيقى الشباب ، اعتبارا الى أن سنة 1985 قررت سنة دولية للشباب .

ونظمت بالمناسبة عدة تظاهرات فنية على المستويين الوطني والجهوي كان القصد منها بالخصوص تحسيس الرأي العام بالدور الذي يمكن أن تلعبه الموسيقى في التنمية الشاملة التي تشهدها البلاد .

فعلى الصعيد الوطني أصدرت وزارة الشؤون الثقافية البيان المصاحب لهذا ، وقد نشر في جل الصحف اليومية الناطقة بالعربية والفرنسية وأذيعت أهم فقراته في النشرات الاخبارية الاذاعية والتلفزية ، كما تعرض البرنامج التلفزي « شارع الثقافة » الى هذا الاحتفال في احدى حصصه .

أما على المستوى الجهوي فقد نظمت جل الهياكل الثقافية والجمعيات الموسيقية لهذه المناسبة تظاهرات فنية متنوعة امتدت على كامل شهر أكتوبر .

وتمثلت الأنشطة في :

1) اقامة الحفلات الموسيقية :

وعددها 19 بكل من الولايات المذكورة شاركت فيها فرق كورال الأطفال والمجموعات الوترية التابعة لدور الثقافة وبعض فرق الموسيقى الخفيفة .

2) تنظيم جولات لفرق الموسيقى النحاسية :

بكل من زغوان والفحص وصفاقس والقيروان وسوسة .

3) تنظيم ندوات وموائد مستديرة : بكل من زغوان :

حول الموسيقى التونسية اصالة وتفتح باشراف السيد محمد الزياني منشط الموسيقى .

وتونس : ندوة حول موسيقى الشباب بالنادي الثقافي أبو القاسم الشابي ، والكاف : مائدة مستديرة حول دور

الموسيقى في صقل وتهذيب الذوق باشراف نخبة من رجال التربية ، ومسامرة حول اصالتنا من خلال النغمات التونسية للأستاذ مصطفى النايلي مشفوعة باستخبارا على آلتي العود التونسي والرباب .

وبسيدي بوزيد : مائدة مستديرة باشراف المنشط الموسيقي الوردي العبدولي ، حول دور الموسيقى في تهذيب النفوس ، وبتوزر : الموسيقى العربية تاريخها وأدبها (من خلال كتاب الدكتور صالح المهدي) .

وصفاقس : ندوة نظمتها لجنة الثقافة والاعلام المنبثقة عن اللجنة الجهوية للتخطيط تناولت درس السبل الكفيلة بالنهوض بالقطاع الموسيقي .

وسوسة : آفاق موسيقى الشباب بولاية سوسة باشراف الأستاذ عزام العفريت مدير المعهد الجهوي للموسيقى بسوسة .

4) تعليق لافتات : بأهم شوارع المدن بالمناسبة .



النشاط الموسيقي أكتوبر ونوفمبر 1985

فتحي زغندة

انطلق الموسم الثقافي بنشاطات موسيقية متنوعة تشرف عليها الادارة الفرعية للموسيقى والفنون الشعبية بالتعاون مع اللجنة الثقافية القومية والمندوبيات الجهوية للشؤون الثقافية .

1) اليوم العالمي للموسيقى :

أصدرت وزارة الشؤون الثقافية بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي للموسيقى (غرة أكتوبر) بيانا جاء فيه بالخصوص ان احتفال هذه السنة وضع تحت شعار العناية بموسيقى الشباب اعتبارا الى ان عام 1985 جعل سنة دولية للشباب طبقا لما اقرته منظمة اليونسكو .

وتقوم المندوبيات الجهوية للشؤون الثقافية طيلة شهر أكتوبر بعدة انشطة الغاية منها تحسيس المواطنين والرأي العام بأهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه الموسيقى في دفع عجلة التقدم والرقي بالانسان .

2) المؤتمر الحادي والعشرون للمجلس الدولي للموسيقى :

احتضنت مدينة درسدن بجمهورية المانيا الديموقراطية المؤتمر الدولي الحادي والعشرين للمجلس الدولي للموسيقى التابع لمنظمة اليونسكو ، وقد انتظم المؤتمر من 24 سبتمبر 1985 الى 28 منه بحضور ممثلين عن أكثر من أربعين دولة عضوا .

ومثل تونس في هذا المؤتمر الأستاذان فتحي زغندة مدير الادارة الفرعية للموسيقى والفنون الشعبية ومحمد خماخم مدير المعهد الجهوي للموسيقى بصفاقس .

ومن أهم القضايا التي ناقشها المؤتمرون وضعية الموسيقى في عالم اليوم وذلك انطلاقا من بحث ميداني قام به المركز الدولي للاتصالات السمعية البصرية بفيانا .

3) المؤتمر الدولي للموسيقى المقامية :

وحضر الأستاذان فتحي زغندة ومحمد خماخم المؤتمر الدولي للموسيقى المقامية الذي نظمه المركز الثقافي باسطمبول من 28 سبتمبر الى 3 أكتوبر 1985 .

وقد ساهم فيه الوفد التونسي ببحثين تناول الأول دراسة للمقامات والايقاعات في الموسيقى الشعبية التونسية الحضرية والريفية (من إعداد الأستاذ زغندة) وتناول البحث الثاني السلم في الموسيقى التقليدية التونسية وهو من اعداد الدكتور محمد خماخم .

4) الفرقة القومية للموسيقى :
شاركت الفرقة القومية للموسيقى والفرقة القومية للفنون الشعبية في الأسبوع الثقافي التونسي المنظم بالجزائر الشقيقة من 28 سبتمبر إلى 3 أكتوبر 1985 .

5) أسبوع موسيقى الشباب :
تجرى الاستعدادات حثيثة لتنظيم أسبوع موسيقى الشباب من 23 نوفمبر 1985 الى 30 منه بالعاصمة وبداخل الجمهورية ، وذلك في نطاق الاحتفالات بالسنة الدولية للشباب .
وسيفسح المجال بهذه المناسبة لأبرز الفرق الشابة الهاوية والمحترفة بمختلف اتجاهاتها الموسيقية .

6) الفرقة العربية للشباب :
تحتضن تونس الدورة الأولى الفرقة العربية للشباب من 7 ديسمبر 1985 الى 14 منه ، بمشاركة موسيقيين من تونس ومن بعض الأقطار الشقيقة .
وستقدم هذه الفرقة معزوفات وموسيقى تراثية من البلدان العربية المشاركة .

7) الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف :
تستعد مدينة القيروان للاحتفال بمهرجان المولد النبوي الشريف الذي ينظم ايام 10 و 11 و 12 ربيع الأول 1416 الموافق لـ 23 و 24 و 25 نوفمبر 1985 ، بمشاركة فرق مدائحية من مختلف أنحاء الجمهورية .

8) المهرجان القومي للأغنية الشعبية :
ينظم هذا المهرجان خلال عطلة الخريف المدرسية ويلتقي فيه الفنانون الشعبيون من كافة أنحاء الجمهورية وهي فرصة لمواصلة جمع التراث الشعبي وتسجيله .

9) صدور نشرية :
أصدرت الادارة الفرعية للموسيقى والفنون الشعبية بوزارة الشؤون الثقافية نشرية المعزوفات التقليدية التونسية المعاصرة .
وتندرج هذه النشرية ضمن سلسلة النشريات المتعلقة بالتراث الموسيقي التونسي .

10) صدور كاسيت عن الفرقة القومية للموسيقى :
أصدرت شركة لاكاسيت شريطا يتضمن انتاجا للفرقة القومية للموسيقى لكل من ثامر عبد الجواد وصوفية صادق .
وبذلك يكون عدد الأشرطة التي أصدرتها الشركة عن الفرقة أربعة أشرطة واحد منها يتضمن نماذج من المالوف التونسي .

بيان وزارة الشؤون الثقافية بمناسبة اليوم العالمي للموسيقى

(أكتوبر 1985)

من السنن الحميدة التي دأبت عليها تونس احتفالها يوم غرة أكتوبر من كل سنة باليوم العالمي للموسيقى وذلك استجابة لما أقره المجلس الدولي للموسيقى والجامعة الدولية للشبيبة الموسيقية وهما منظمتان تابعتان لليونسكو .

واعتبارا الى أن سنة 1985 قررت سنة دولية للشباب ، فان احتفال الدول باليوم العالمي للموسيقى وضع هذا العام تحت شعار تشجيع موسيقى الشباب .

وقد أولى النظام البورقيبي منذ فجر الاستقلال عناية خاصة بالشباب باعتباره القلب النابض للأمة وآمالها وعليه يعول في بناء تونس الجديدة ، فحظي الشباب بتعليم الفنون عامة والموسيقى خاصة بالمجان وأدخل التعليم الموسيقى ضمن البرامج الدراسية من رياض الأطفال الى المعاهد الثانوية والترشيحية مرورا بالمدارس الابتدائية ، وتكونت نتيجة لذلك الجمعيات والفرق المدرسية التي يضم بعضها عازفين في مستوى قريب من الاحتراف ، وكثر عدد الشبان الممارسين للموسيقى فأصبحت فرق الشباب متواجدة في كل أنحاء الجمهورية بمدنها وقراها ومداشرها .

وان هذه الجهود املاها الايمان بأن الفنون تساهم في تكوين انسان الغد تكوينا متوازنا ، وفي صقل النفوس والسمو بالذوق وتوفير الترفيه السليم وبالتالي تساهم في زرع بذور المحبة والتآخي بين الناس وتساعد على دعم روح التعاون فتصبح اداة لتركيز الأمن والسلم بين الأفراد والجماعات والأمم .

وتدعمت عناية وزارة الشؤون الثقافية في السنوات الأخيرة بموسيقى الشباب من ذلك زيادة تأطير الفرق الموسيقية الشابة بتمكينها من المدربين والآلات بقدر ما هو متوفر ، ومدها بالبرامج الفنية وتنظيم المسابقات والمهرجانات قصد توجيهها فنيا وتشجيعها ماديا وأدبيا وانتقاء أحسنها لتمثيل بلادنا في الخارج .

واهتمت الوزارة بصفة خاصة بالجيل الجديد من الموسيقيين عازفين وملحنين ومطربين فتمكنهم من البروز بمناسبة المهرجانات المنظمة على مختلف فصول السنة ، أسبوع الموسيقى التونسية والمهرجانات الاقليمية للموسيقى والفنون الشعبية والمهرجانات الصيفية المتعددة وقد تألق عدد منهم عن طريق فرق الاذاعة والتلفزة التونسية والفرقة القومية للموسيقى وغيرها من الفرق الحكومية والخاصة التي تضم عددا هاما من موسيقيين أفرزتهم المعاهد التعليمية المختصة والنوادي الموسيقية التابعة لدور الثقافة والشباب والجمعيات الموسيقية وغيرها من التنظيمات التابعة للادارة والحزب .

ومن ناحية أخرى فقد تقرر أن تقوم الوزارة خلال سنة 1985 بتظاهرات موسيقية متميزة مساهمة في الاحتفال بالسنة الدولية للشباب . من ذلك تنظيم مهرجان خلال شهر نوفمبر القادم خاص بموسيقى الشباب ، واحتضان

تونس للدورة الاولى للفرقة العربية للشبيبة الموسيقية التي ستنظم من 7 ديسمبر الى 14 منه بالحمامات ، وستضم عددا من الموسيقيين الشباب من مختلف الأقطار العربية الشقيقة وستقدم هذه الفرقة عروضا بالعاصمة وببعض مدن الجمهورية وقد تقوم بجولة فنية بأروبا .

وان وزارة الشؤون الثقافية تنتهز فرصة احتفال الشعوب والدول باليوم العالمي للموسيقى لتؤكد عزمها على مواصلة العمل قصد الأخذ بيد المبدعين من مختلف الأجيال وتمكينهم من ظروف الخلق وهي تهيب بالموسيقيين الشبان بأن يضاعفوا من جهودهم في سبيل مساهمة أكثر جرأة واقداما لمواصلة العمل الذي شرعت فيه الأجيال السابقة من الموسيقيين التونسيين والمتمثل في نحت الشخصية التونسية واثراء الرصيد الفني العربي ، وأن ينهلوا من منابع العرفان على قواعد صحيحة ثابتة ، ويبتعدوا عن متاهات التفاخر والانانية المفرطة ويرفضوا الوقوع في فخ الكسب السهل الذي يذيب الحماس ويقتل ملكة الخلق والابداع .

وكل عام والموسيقيون التونسيون بخير .



المنظمة العالمية للملكية الفكريّة (ويبو) جنيف

حلقة دراسية عن حق المؤلف والحقوق المشابهة نظمتها الويبو بالتعاون مع حكومة جمهورية مصر العربيّة

الطاهر بن سلامة

الموضوع :

تقرير حول الحلقة الدراسية عن حقوق المؤلف والحقوق المشابهة التي نظمتها المنظمة العالمية للملكية الفكرية بالتعاون مع حكومة جمهورية مصر العربية .

المصاحيب :

1) بحث مقدم من السيد الطاهر بن سلامة القاه على المشاركين في الحلقة الدراسية بالقاهرة .

2) كلمة السيد بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية بجمهورية مصر العربية

سيدي ،

بدعوة من حكومة جمهورية مصر العربية وبالتعاون مع وزارتي الخارجية والثقافة ، عقدت المنظمة العالمية للملكية الفكرية حلقة دراسية افريقية على مستوى عال عن المؤلف والحقوق المشابهة في القاهرة في الفترة من 7 الى 10 أكتوبر 1985 والغرض من عقد الحلقة الدراسية هو مناقشة جوانب معينة من حق المؤلف والحقوق المشابهة وتبادل الآراء بشأنها ، في اطار تطور البلدان النامية بصفة عامة وافريقيا بصفة خاصة وتناولت موضوعات الحلقة دور الملكية الفكرية في تأكيد الشخصية القومية والعلاقات الدولية في مجال حق المؤلف والحقوق المشابهة والابداع الفكري كحائز على التنمية والنهوض الثقافي والآثار الاقتصادية المترتبة على حماية حق المؤلف والحقوق المجاورة ، والقرصنة على التسجيلات الصوتية ، السمعية والمرئية ، وبرامج الاذاعة والتلفزيون والمادة المطبوعة ، وحق المؤلف كتعبير عن فلسفة وسياسة التنمية واشترك في الحلقة الدراسية ستة وثلاثون متخصصا من سبعة عشر دولة : تونس - انجولا - بنين - الكامرون - تشاد - مصر - اثيوبيا - غانا - غينيا - ساحل العاج - كينيا - مالاوي - المغرب - السنغال - الصومال - السودان - توجد بالاضافة الى ثلاثة من الضيوف وجهت المنظمة العاليمة للملكية الفكرية لهم الدهوة للتحدث أمام الحلقة وهم من اليونان ونيجيريا والولايات المتحدة الأمريكية .

وافتتح الحلقة الدراسية سعادة الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية بجمهورية مصر العربية . وفي حفل الافتتاح القى أيضا كل من الدكتور سمير سرحان وكيل وزارة الثقافة كلمة (نيابة عن الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة) والدكتور ارباد بوكش مدير عام المنظمة العالمية للملكية الفكرية وحضر عدد من البعثات الدبلوماسية المعتمدة بالقاهرة ......)

انتخاب الـرئيس :

وافق المشتركون بالاجماع على انتخاب السيد عزالدين اسماعيل رئيس أكاديمية الفنون المصرية رئيسا للحلقة .

مناقشة الموضوعات :

قدم المحاضرون المدعوون والمسؤولون في المنظمة العالمية للملكية الفكرية وبعض المشتركين عدة أبحاث عن الموضوعات التي اندرجت على جدول الأعمال ، وكان موضوع البحث الذي تقدمت به كممثل تونس هو الآتي : حقوق التأليف في تونس وبعد مناقشة حية اشترك فيها معظم المشتركين توصلت الحلقة الى النتائج التالية :

المشتركون في الحلقة

1) يعربون عن امتنانهم العميق لحكومة مصر لاستضافة الحلقة الدراسية وللحفاوة الكريمة التي قوبلوا بها .

2) يعربون عن تقديرهم الكبير للمنظمة العالمية للملكية الفكرية لتنظيمها هذه الدراسة والبيانات المفيدة التي أدلى بها ممثلوها وضيوفها وهو ما أسفر عن تبادل حي ومثمر للآراء .

3) أحيطوا علما بوضع حماية حق المؤلف في البلدان كما عرض أثناء مناقشات الحلقة الدراسية

4) اتفقوا على الحاجة الى وجود وثائق تشريعية فعالة لحماية الحقوق المرتبطة بحق المؤلف والحقوق المشابهة ، على أن تأخذ هذه الوثائق في الحسبان النتائج المترتبة على ادخال أنواع جديدة من التكنولوجيا وان تحمى صور تعبير الفنون الشعبية .

5) لاحظوا أيضا انه ، حتى في بعض البلدان التي لديها قوانين تتعلق بحق المؤلف لا تتواجد البنية الأساسية الضرورية لضمان تنفيذ هذه القوانين .

6) أكدوا الحاجة الى دعم اقتصاديات نشر الكتب والموسيقى عن طريق المناهضة الفعالة للقرصنة على المصنفات الأدبية والفنية ، والنهوض بالتاليف القومي للمقررات على مستوى المدارس والجامعات ، وتشجيع صناعات التسجيل القومية عن طريق اتخاذ وسائل فعالة ضد القرصنة على التسجيلات الصوتية والتسجيلات السمعية والمرئية .

7) سجلوا بصفة خاصة اثر القرارات التي أقرتها المنظمة العالمية للملكية الفكرية في الاجتماعات الدولية التي عقدت عن القرصنة عام 1981 و 1983 والوعي الذي خلفته تلك القرارات في عدد من البلدان والذي اسفر عنه في الوقت الحالي وبصفة خاصة ، اتخاذ اجراءات قانونية لمنع القرصنة أو القضاء عليها .

وقد صادق المشتركون على القرار الصادر عن مؤتمر المنظمة في 2 أكتوبر 1985

8) كما لاحظوا انه يجب بحث مفهوم حق المؤلف بمعناه الواسع بما في ذلك جانب انتاج المادة الثقافية ، بغية تأكيد دور الابداع الفكري لصالح المجتمع بوجه عام

9) استخلص المشتركون في معرض بحث المشكلات التي تقابل المؤلفين والمؤدين ومنتجي التسجيلات الصوتية والاذاعيين ، في مواجهة التطورات التكنولوجية المتزايدة ، والحاجة الى حماية الكيانات القومية والثقافية والمحافظة عليها .

إنـه يجب :

أ ـ سن القوانين القومية المناسبة المتعلقة بحق المؤلف والحقوق المشابهة في البلدان التي لا توجد بها تلك القوانين ، وان تكون ملائمة على الصعيدين الاقليمي والدولي ، وكذلك تعديل وتحديد تلك التشريعات في حالة عدم كفايتها وصلاحيتها لعصرها .

ب ـ اعطاء الاهتمام الواجب في هذه التشريعات للنص على اجراءات مكافحة القرصنة مثل اشتمالها على وسائل مدنية لعلاج التعديات وفرض عقوبات رادعة عليها ، بهدف حماية المؤلفين واصحاب الحقوق الآخرين ، وكذلك امكانية فرض ضريبة على الشرائط وشرائط الفيديو الخام .

هذا بجانب القيام بنشر الوعي بين القضاة ، ورجال الشرطة ، وسلطات الجمارك والايرادات لتوضيح الى أي حد يمكن ان تقضي القرصنة التجارية على الجهود التي تبذل من أجل النهوض بالثقافات القومية وحمايتها وكيف ان هذه القرصنة تشكل مساسا خطيرا بالاقتصاد والعمالة في البلدان المتضررة منها .

ج ـ دراسة عقد اتفاقية أو معاهدة اقليمية لحماية الشخصية الثقافية الافريقية في مجال حماية الفنون الشعبية .
د ـ انشاء أجهزة ادارية فعالة ذات تكلفة مناسبة بالتعاون مع المنظمة العالمية للملكية الفكرية حيث لا توجد هذه الأجهزة لضمان التطبيق الصحيح للقوانين القومية والالتزامات الدولية لضمان حق المؤلف والحقوق المشابهة .
هـ الانضمام المبكر ، حيث لم يتم ذلك لاتفاقية برن لحماية المصنفات الأدبية والفنية وكذلك للاتفاقيات الدولية المعقودة في مجال الحقوق المشابهة .

و ـ دراسة الاشتراك في اللجنة الدائمة للمنظمة العالمية للملكية الفكرية لتطوير التعاون بشأن حق المؤلف والحقوق المشابهة ، بغية استمرار مراجعة ومتابعة تحسين البرامج التي تهم البلدان النامية بصفة عامة والبلدان النامية في افريقيا بصفة خاصة .

10 ـ التوجه الى المنظمة العالمية للملكية الفكرية بطلب لتحديد حجم تعاونها ومساعدتها من أجل تشجيع نشاط الابداع الفني المحلي وذلك من خلال :

أ ـ تدريب الخبراء
ب ـ خلق أو تحسين المؤسسات الحكومية وغيرها من المؤسسات المسؤولة عن ادارة التشريع القومي وممارسة الحقوق المخولة بمقتضى هذا التشريع .
أخيرا اعرب المشتركون في الحلقة الدراسية عن أملهم في أن يؤدي تطبيق هذه النتائج الى قيام دور أكثر فعالية وشمولا لحق المؤلف في التنمية باعتباره حافزا على النهوض بالابداع القومي

حقوق التأليف في تونس

الطاهر بن سلامة

ولد حق المؤلف في تونس مع بداية الحماية الفرنسية ، وقد جاء قانون 15 يونيو / حزيران 1889 ليكون منبعا اوليا للملكية الأدبية والفنية .
ثم جاء قانون جديد هو القانون رقم 66 ـ 12 الصادر في 14 فبراير / شباط 1966 والمتصل بالملكية الأدبية والفنية .
ويشمل القانون 40 مادة تحدد ماهيته :
1) المصنفات التي تتمتع بحماية حق المؤلف .
2) الأشخاص الذين يتمتعون بحماية حق المؤلف .
3) الحقوق المقررة للمؤلفين .

وتنص المادة 31 من القانون المذكور على ان مهمة تنظيم الحقوق وكذلك الدفاع عن المصالح المعنوية والمادية للمؤلفين والملحنين سوف توكل بمقتضى المرسوم رقم 28 ـ 283 الصادر في 9 سبتمبر / ايلول 1968 الى هيئة المؤلفين والملحنين يطلق عليها اسم « جمعية المؤلفين والملحنين في تونس » (سوداكت) . وتعد الجمعية هي الوحيدة التي يسمح لها بالعمل في أراضيالجمهورية التونسية .

وليس للجمعية أهداف ربحية . وهي تتمتع بالشخصية المعنوية وبالاستقلال المالي . كما انها خاضعة لاشراف الادارة المختصة بالشؤون الثقافية .

وتمارس هذه الهيئة دور الوسيط الوحيد بين المؤلفين وأصحاب حق الاستعمال أو جمعياتهم من أجل اصدار التصاريح وتحصيل الجباية .

هذا وتتولى السوداكت ، في مواجهة أصحاب حق الاستعمال ، تمثيل اعضائها وكذلك الجمعيات الأجنبية للمؤلفين أو أعضائها ، بمقتضى تفويض أو اتفاق للمعاملة بالمثل . (ومثال على ذلك عقد المعاملة بالمثل القائم بين السوداكت والساسيم) .

المصنفات التي تتمتع بحماية حق المؤلف

تنص المادة الأولى من القانون 66 ـ 12 الصادر في 14 فبراير / شباط 1966 ، الخاص بالملكية الأدبية والفنية ، على ان حق المؤلف يجب قيمة وأسلوب أو شكل التعبير والجهة الموجه اليها هذا الأخير . ويكفى بالتالي أن يحمل المصنف بصمات شخصية مؤلفة .

وبمقتضى مادته رقم 31 فان هذا القانون ينطبق على كافة المصنفات التي لم تكن ، لدى تاريخ سريانه ، قد آلت للملك العام .

ان قائمة المصنفات (الواردة في المادة الأولى) التي يشملها حق المؤلف لم توضع على سبيل الحصر . وهي تضم فئات المصنفات المذكورة عادة لدى تحديد مادة حق المؤلف ، أي الكتب والكتيبات وغيرها من المواد الأدبية والعلمية أو الفنية المكتوبة ، المحاضرات ، المصنفات المعدة للمسرح أو الاذاعة (المسموعة أو المرئية) ، القطع الموسيقية ، المصنفات من أعمال رسم اللوحات الزيتية ، والرسم ، والطباعة الحجرية ، والنقش ، والنحت ، وكذلك المصنفات من أعمال العمارة الرسم والتصميمات والنماذج واعمال التشييد) ، الخرائط ، المصنفات السينمائية والمصورة ، التراجم واعمال اعادة التوزيع او الاقتباس ، علاوة على بعض الفئات الأخرى من المصنفات المرتبطة بالطابع التقليدي التونسي مثل أعمال السجاد والمصنفات المستوحاة من الفولكلور القومي .

وسوف نكتفي بتحليل الفئة الأخيرة من المصنفات .

مصنفات الفولكلور القومي

يمثل الفولكلور عامة الجزء الغالب من التراث الثقافي القومي في البلاد النامية . غير ان سلامة الفولكلور الذي يعتبر في هذه البلاد أحد العناصر الرئيسية للهوية الثقافية وتقليدا حيا وعمليا ، قد تعرضت لمخاطر شديدة من جراء استغلاله عن غير وجه حق على المستوى الدولي ، بدون أدنى مراعاة للمصالح الثقافية أو الاقتصادية للجماعات التي انبثقت عنها هذه الابتكارات الفولكلورية . ولذا وضحت ضرورة البحث عن حلول قانونية خاصة ، على الصعيدين القومي والدولي على حد سواء ، من أجل حماية الفولكلور .

وقد كانت تونس أولى البلاد التي وافقت على نتائج اجتماع برازافيل في عام 1963 واقامت حماية للفولكلور والمصنفات المستوحاة منه .

ونلاحظ ان المادة الأولى لقانون 1966 ، والتي اوردت مختلف المصنفات التي تتمتع بحماية حق المؤلف ، قد ذكرت في الفقرة13 ، المصنفات المستوحاة من الفولكلور .

وفي هذا الصدد فاننا لا نفهم لماذا لم يذكر المشرع التونسي بالأحرى ، المصنفات الفولكلورية ، بصفتها هذه .

فالواقع ان الفولكلور التونسي ذاته هو موضوع الحماية وليس المصنفات المستوحاة منه . ولا شك ان الأخيرة تتمتع هي ايضا بالحماية ، التي لا تنسحب عليها الا حينها تكون مشتملة على عنصر مبتكر ، مثلها في ذلك مثل أي مصنف مشتق . وتندرج هذه المصنفات في اطار الحماية المنصوص عليها في الفقرة 12 من المادة الأولى من قانون 1966 ، أي انها تعتبر بمثابة اعادة توزيع أو اقتباس لمصنف أصلي .

ويتفق هذ التفسير على اية حال ونصوص المادة 6 التي تحكم بشكل تفصيلي حماية الفولكلور وتنص على ما يلي :

ـ يعد الفولكلور جزءا من التراث القومي . . . ويعنى المصنف المستوحى من الفولكلور أي مصنف تستخدم في اعداده عناصر مأخوذة عن التراث الثقافي التقليدي للجمهورية التونسية . فالمادة 6 تعتبر إذن الفولكلور جزءا من التراث القومي ، ويعنى ذلك أنه لا يجوز ان يكون عرضه لأي امتلاك فردي .

وتتصل الفقرة 3 من المادة 6 بالمصنفات المستوحاة من الفولكلور .

ـ ان التحويل الكلي او الجزئي لحق المؤلف على مصنف مستوحى من الفولكلور ، أو الترخيص الاستئثاري الخاص بمثل هذا المصنف ، لا يكون صالحا الا بعد الحصول على موافقة الادارة المختصة بالشؤون الثقافية . وحيث ان الفولكلور قد آل بصفة عامة الى الملك العام ، فانه يجوز من ناحية المبدأ لمؤلف المصنف المستوحى من الفولكلور أن يعد المصنف ولكنه لا يسعه تحويل حق المؤلف الخاص بهذا المصنف بدون تصريح من الادارة المختصة بالشؤون الثقافية .

وربما يرجع ذلك الى عدم امكان تحديد الفولكلور ذاته الذي هو مصدر هذا المصنف ، لأغراض الاستغلال المدر للربح ، بدون موافقة الادارة المذكورة .

وعلى الصعيد الدولي ، وتحت اشراف المنظمة العالمية للملكية الفكرية واليونسكو ، يتم حاليا العمل على وضع نموذج لقانون يضمن حماية الفولكلور .

الأشخاص الذين يتمتعون بحماية حق المؤلف

ينبغي من حيث المبدأ أن يكون المؤلف هو صاحب حق المؤلف على مصنف ما .

وتقول المادة 3 من القانون 66 ـ 12 الصادر في 14 فبراير / شباط 1966 :

ان مؤلف مصنف ما هو الشخص الذي يكشف عن المصنف باسمه ، ما لم ينص على خلاف ذلك .

والمؤلف من حيث المبدأ شخصية طبيعية ، نظرا لأن الشخصية المعنوية ، من منطلق كونها كيانا حسب القانون وليس كائنا طبيعيا ، لا يمكنها انتاج اعمال فكرية .

وهكذا ففي تونس ، نجد انه ، بمقتضى الفقرة 2 من المادة 3 ، في حالة ما اذا كان المصنف من انتاج وكلاء لشخصية معنوية . . . تم في اطار ممارسة مهامهم فان حق المؤلف يؤول لهؤلاء الوكلاء ، ما لم ينص على خلاف ذلك .

ويتعلق الأمر هنا بمصنفات من انتاج موظفين .

هذا ولا يحوي القانون التونسي نصا صريحا بشأن المصنفات بالاجارة . .

وفي مجال المصنفات السينمائية في تونس ، فان حق المؤلف يؤول لمنتج المصنف وذلك بمقتضى المادة 212 . ومنتج المصنف السينمائي هو تلك الشخصية الطبيعية أو المعنوية التي أخذت على عاتقها مبادرة الانتاج ومسؤولية استغلال المصنف .

كذلك في حالة المصنفات الجماعية ، يجوز الحق المؤلف على هذه المصنفات ان يؤول الى شخصية معنوية .
وفي حالة ما إذا كان المؤلف ملزما بنشر مصنفه باسمه وفقا للمادة 7 ، يكون المطلوب هو ما يلي :
« ينبغي ، ما لم ينص على غير ذلك ان يوضع اسم المؤلف بالشكل والطريقة التي تتفق والعرف السليم على كل نسخة صادرة من المصنف وفي كل مرة يوضع فيها المصنف في متناول الجمهور » .
يوجد اذن التزام بنشر المصنف باسم مؤلفه . وربما يحدث ان ينشر مؤلف مصنفه تحت اسم مستعار غير انه يتعين اختيار هذا الأخير بحيث لا يتسبب في الاساءة الى أطراف ثالثة ، حيث انه يجوز ان يشعر هؤلاء بالاستياء لاستخدام اسمهم كاسم مستعار . ويتعلق الأمر هنا بحالة خاصة بحماية الاسم .
وفيما يتصل بالمصنفات المغفولة الاسم ، إذا رغب المؤلف في عدم الاعلان عن نفسه ، والبقاء في الخفاء ، لا يمكن لأحد ان يجبره على الخروج منه ، وفي هذه الحالة يتولى طرف ثالث ممارسة حقوقه بصفته مفوضا عن المؤلف .

الحقوق المستحقة للمؤلفين

ان القانون التونسي يعترف بأنه يحق للمؤلف بعض الامتيازات المعنوية والمادية .

1) الحقوق المعنوية للمؤلف

طبقا للمادة السابعة لقانون 1966 ، نجد انه لا يجب ادخال أي تعديل على المصنفات ودون ان تكون هناك موافقة كتابية من مؤلفه :
لا أحد يستطيع ان يوصلها الى الجمهور في أي شكل من الأشكال أو في ظروف قد تلحق الضرر بالمؤلف .
ونلاحظ ان القانون التونسي لا يوجد به أي تلميح الى حق للمماش ، أو الى حق التعديل .
ويتأكد هذا الموقف من أن كل بلد نام يبحث بطريقة منطقية كيفية اثراء تراثه الثقافي . والسماح بمثل هذه الامتيازات سيؤدي الى هدف ، قد يكون مضادا للهدف الأساسي لهذه البلدان ، الا وهو تشجيع الابداع الفني .

2) الحقوق المادية للمؤلف

ان التشريع التونسي يقر ثلاثة أنواع من الحقوق المادية : حق الانتاج ، حق التمثيل او الأداء العلني ، وحق المتابعة .

أ) حق الانتاج

الانتاج هو التثبيت المادي للمصنف بكل الوسائل التي تسمح بتوصيله للجمهور بطريقة غير مباشرة .
وكمبدأ ، فان مؤلف المصنف يجب ان يمتلك الحق المطلق للسماح أو لمنع انتاج مصنفه .
ان بعض الاستثناءات لحق الانتاج قد أخذت في الاعتبار من أجل أهداف عديدة . ذلك ان استنساخ بعض المصنفات الحرة يكون بلا مقابل ، وعلى العكس من ذلك لا يكون البعض الآخر بنفس الحال .

1) الاستنساخات الحرة والمجانية :

الاستنساخات ذات الاستعمال الخاص . كمبدأ ، إذا كان الاستنساخ مخصص للجمهور ، يجب ان تؤخذ موافقة المؤلف ويكون الاستنساخ في هذه الحالة موضع مكافأة . وهذه الحالة هي الأكثر تداولا . ولكن قد يحدث ـ بصفة استثنائية ـ ان يكون هذا الاستنساخ مخصص للاستعمال الخاص . وفي هذه الحالة ، لا يجب ان تؤخذ موافقة المؤلف .

وتقضي المادة 8 بأنه :
« عندما يكون الاستنساخ متاح شرعا للجمهور ، لا يحق للمؤلف ان يمنع ذلك » .

2) الاستنساخ والاقتباس المخصصان لاستعمال خاص وشخصي للغاية :

وكمبدأ ، فان الاستنساخ المخصص لهذا الغرض ليس من شأنه ان يتدخل في الحياة الاقتصادية للمصنف أو في استغلاله الطبيعي . غير ان التطور الحالي للاشكال الجديدة للاستنساخ او لنقل المصنف قد أدخل تعديلات على معطيات المشكلة ، وحقوق المؤلف تكاد تكون محكومة ـ الى حد ما ـ بهذا الحق التشريعي .

3) الاستنساخات الخاصة بالمصنفات المذاعة :

من حيث المبدأ ، عندما يصرح مؤلف المصنف بـاذاعته ، فـان ذلك لا يعنى انـه أعطى تصريحا بتسجيله أو باستنساخه .

غير أن المادتين العاشرة والخامسة عشر تنصان على بعض الاستثناءات لهذه القاعدة .

فالمادة العاشرة تبيح التسجيلات والاستنساخات الصوتية ، أو الصوتية والمرئية ، للمصنفات الأدبية والعلمية أو الفنية ، وذلك إذا كانت هذه الاستنساخات مخصصة للاستعمال في المدارس .

وهذا الاستثناء يوضح مدى اهتمام المشرع التونسي باتاحة امكانيات توصيل الثقافة . ويجدر بنا ان نلاحظ ان هذه التسجيلات والاستنساخات لا تستوجب أي تعويض مادي : ذلك انها حرة ومجانية .

أما المادة الخامسة عشر ، فهي تنص على وجود ترخيص عابر للتسجيل لصالح هيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية ، ويقض بالآتي : « تعتبر تشريعية كل من المصنفات التي تستنسخها هيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية بوسائلها الخاصة ومن أجل استعمالها في برامجها ، غير انه بعد مرور عام ، وفي حالة ما إذا كان العقد المبرم بين المؤلف وهيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية لا يعطى أي فائدة لهذه الهيئة ، مثل تحويل حق الاستغلال ، فان تلك الاستنساخات لا يمكن اذاعتها ، الا إذا حصلت هيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية من جديد على تصريح ، وذلك في حالة عدم وجود عقد يخول به المؤلف لهيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية حق استغلال انتاجه .

يجب المحافظة على الاستنساخات التي تمثل وثيقة ذات خاصية استثنائية ، وسوف تحفظ نسخة من التسجيلات ذات القيمة الثقافية في السجلات الرسمية المخصصة لذلك والتي تتبع ادارة الشؤون الثقافية .

وسوف توضع قائمة بالمصنفات طبقا لقرار صادر من وزارة الشؤون الثقافية .

وبالتالي فان المادة الخامسة عشر تصرح لهيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية استنساخ مصنفات دون الحصول على موافقة مؤلفيها ودون أي بدل مادي ، وذلك بوسائلها الخاصة ومن أجل استعمالها في برامجها .

وتنص المادة الخامسة عشر لقانون 1966 على تلك الاستنساخات المسماة« بالتسجيلات العابرة » . وكذلك ، فان اتفاقية برن (11 مكر 3) قد أوردتها .

غير ان هذه التسجيلات ليست تشريعية ، الا في الحالات التالية :
- ان تتم عن طريق أجهزة الاذاعة نفسها وبوسائلها الخاصة .
- ان تكون خاصة بمصنفات تم التصريح بها لهيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية .
- الا تستعمل لأغراض أخرى غير البرامج الاذاعية .

- ان صلاحية التسجيل العابر الذي تم انجازه تمتد لمدة عام ، إذا لم يتنازل المؤلف عن حق الاستغلال لهيئة الاذاعة والتلفزيون التونسية ، أو في حالة عدم وجود عقد مبرم بين المؤلف والهيئة .

وفي هذا الافتراض الأخير ، يجب ان تحصل الهيئة من جديد على تصريح لاذاعة التسجيلات المؤقتة التي انجزتها .
وهناك استثناء ثالث لحق الاستنساخ يتطابق مع الأمثلة والألفاظ المستعارة . ودراسة المادة التاسعة توضح لنا انه من الممكن للمؤلف ان يورد في مصنفه فقرات قد توجد في مصنف آخر . ولكن هناك أربعة شروط محددة في المادة التاسعة ، يجب ان يتحقق :

- ان يكون المصنف - الذي يؤخذ منه المثل - قد « وصل بوجه شرعي الى الجمهور » ، أي ان يكون المؤلف قد تم نشره فعلا .
- ان تكون الأمثلة والألفاظ المستعارة مطابقة للعادة الحسنة .
- ان يكون هناك هدف تعليمي أو اعلامي لتعليل استعمال هذه الأمثلة والألفاظ المستعارة .
- وأخيرا ، ان تكون هذه الأمثلة والألفاظ المستعارة مصاحبة بذكر المصدر واسم المؤلف .

وتضيف المادة التاسعة انه تعتبر أيضا شرعية « الأمثلة واستعارات الموضوعات من المنشورات الدورية في شكل مجلات صحفية » . وفي جميع الحالات ، فان « تلك الأمثلة والاستعارات يجب ان تكون مصحوبة بذكر المصدر واسم المؤلف ، إذا كان هذا الاسم واردا في المصدر » .

ب) حق التمثيل او الأداء العلني :

من حيث المبدأ ، لا يمكن للمصنف ان يؤدي علنا أو يمثل بدون الحصول على تصريح من المؤلف .
وبالرغم من ذلك ، عندما يصل المصنف بوجه شرعي الى الجمهور ، لا يمكن للمؤلف ان يمنع وسائل النقل الخاصة أو المجانية ، او تلك التي تتم بطريقة مجانية لأهداف تربوية او مدرسية .
وعندما لا يكون المؤلف ممثلا عن طريق جمعية المؤلفين والملحنين التونسية ، تعتبر كذلك مشروعة ، بمقتضى المادة السادسة عشر :

- نقل مصنفة عن طريق التمثيل أو الأداء .
- نقل مصنفة اذاعية أو اذا كان هذا المصنف مذاعا - نقله بالمكبرات الصوتية .

ولكن ، إذا كان المشرع التونسي - في هذه الحالة الأخيرة - يريد ان يحترم الفقرة الثانية من المادة الحادية عشر مكرر من اتفاقية برن ، فقد يكون قد تعدى اختصاصاته ، وذلك باستعمال الحق الاستئثاري للمؤلف في مجال النقل عن طريق التمثيل أو الأداء .
وقد كان من الممكن للمشرع ان يكتفي بأن يعطى لهيئة الاذاعة حرية التصرف ، التي تبدو مستحبة ، وذلك بأن يعلن لها ان نقل المصنف اذاعيا ، أو إذا كان المصنف مذاعا ، فان نقله بالمكبرات الصوتية ، إذا كان مذاعا ، يعتبر مشروعا . وباختصار ، ان يعطى ترخيصا شرعيا للاذاعة ، في حالة ما إذا كان المصنف ينتسب الى مؤلف معين .
وبالرغم من ذلك ، لا يمكن ان نغفل ان القانون التونسي ، عندما سن نظام ترخيصي تشريعي ، فقد جعل منه نظاما محددا : وفي هذه الحالة ، لا يمكن أن يكون هذا القانون ذا قيمة الا اذا كان المؤلف لا يمثل جمعية المؤلفين والملحنين التونسية .
وختاما ، يجب ان نعترف بأن التشريع التونسي ، كغيره من التشريعات ، حتى تلك التي تكون مؤيدة للابداع الفكري ، يضع حدودا للحقوق الاستئثارية للمؤلف بالنسبة للاستنساخ ، للتمثيل او الأداء العلني ، كما يلي :

- للأهداف الثقافية والتربوية المطلوبة .
- للطابع الخاص غير المربح لاستعمال المصنف .

ـ للصفة الخاصة لاستعماله : هيئة الاذاعة بصفة خاصة .
ويعتبر الحق الثالث المادي الذي يمنح للمؤلف طبقا لقانون 1966 ، هو حق التتبع .

جـ) حـق التتبـع :

إن الاشتراك في منتجات بيع أو اعادة بيع النسخ الأصلية لمصنفاتهم يعتبر حقا ثابتا لمؤلفي المصنفات الفكرية .
وتنص الفقرة الثالثة من المادة السابعة عشر للقانون التونسي على هذا الحق . ويطبق حق التتبع عندما تباع تلك المؤلفات ، سواء في « مزادات عامة » ، أو بواسطة « تاجر » أي في ظروف تكون معروفة ، وبالتالي ، منظمة .
وفي الفقرة الثالثة من المادة السابعة عشر ينص القانون على ان حق التتبع هو حق ثابت .
وهذا الحق لا يخص الا المؤلف طوال حياته . وخصائص هذا الحق لا توجد في الحقوق المادية الأخرى المستحقة للمؤلف .
ان نسبة حق التتبع تعتبر بمثابة خمسة في المائة من المنتج المخصص للبيع ، في صالح المؤلف وورثته .

3 ـ تحويل حق المؤلف

يوضح قانون 1966 ـ في الباب الثالث ـ القواعد العامة الخاصة بتحويل حق المؤلف ، وقد تناول أيضا في باب خاص (الباب الخامس) عقد النشر البياني ـ
ويجب ان تبلغ العروض مضمونة الوصول عن طريق البريد في أجل أقصاه يوم 20 جانفي 1986 ظرفين مختومين ويكتب بالظرف الخارجي المختوم اسم السيد مدير إدارة المصالح المشتركة مصلحة الاكساء ، وبيان المناقصة وتاريخ فتح المظاريف ، وهذا الظرف يجب أن يكون محتويا على :

أ) القواعد العامة المتصلة بتحويل حق المؤلف :

يعالج الفصل الثالث من قانون حق المؤلف بتحويل حق المؤلف ، ويشمل أربع مواد (المواد 17 إلى 20) .
ويتضمن الفصل قواعد لحماية المؤلفين يخشى ان تستغل اطرافها عن سوء نية متعمدة الجوانب التي اغفلتها أو أجه النقص القانونية التي تتضح فيها .

وتنص الفقرة الأولى من المادة 17 على أن التحويل الكلي للمصنفات اللاحقة لا يكون صالحا الا في حالة اقراره من جانب هيئة المؤلفين (السوداكت) .

هذا وتحوى الفقرة الثانية من المادة السابعة عشر تسوية ملائمة لمصير حق المؤلف الذي يؤول للدولة عن طريق التركة او في هذه الحالة فان حق المؤلف الذي اكتسبته الدولة هنا « يعتبر محولا / لهيئة المؤلفين / وتخصص عوائده لاغراض اجتماعية » .

وقد أتت المواد 18 ، 19 ، 20 بايضاحات مرضية للغاية وذات فائدة جمة في مجال بعض المواثيق التي يتدخل فيها المؤلفون وأصحاب حق استعمال مصنفاتهم .

ويتضح إذن ان المشرع التونسي اراد ان يضع مبدأ مؤداه ان العقود المنبثقة عن الأعمال الفكرية تندرج تحت بند الحق المحدد ، بمعنى انه في الحالات التي لم ينص عليها القانون بشكل صريح ، فان أي لبس او غموض ينبغي تفسيره لصالح المؤلفين » .

ب) عقد النشر المكتوب

تتضمن الفقرة الأولى من المادة 25 تعريفا لعقد النشر المكتوب مؤداه : « ان عقد النشر المكتوب هو ذلك العقد الذي يحول بمقتضاه مؤلف المصنف او خلفه الى الناشر ، وفق شروط محددة ، حق ان ينتج بنفسه ، او عن طريق آخرين ، عددا معينا من النسخ من المصنف ، على ان يتكفل بضمان النشر والتوزيع » .

وتستوجب المادة 25 من قانون 1966 ان يكون العقد محررا كتابة والا يصبح باطلا .

وجدير بالذكر ان القضاء التونسي يطبق هذا النص تطبيقا حرفيا .

وفي تونس ، كانت عمليات التعدى على الحقوق المعنوية او المادية للمؤلف تخضع للجزاءات : فالشخص الذي ينال من حق المؤلف يواجه مسؤولية مدنية على قدر الضرر الذي يلحق بصاحب حق المؤلف (المادة 34) .

كما انه معرض للمسؤولية الجنائية بالقدر الذي يعتبر فيه انتهاكه لحق المؤلف بمثابة جنحة (المادة 35) .

ومن ناحية أخرى يجوز للقاضي ان يتخذ في حالة التعدي على حق المؤلف او انتهاكه ، اجراءات معينة مثل التحفظ على النسخ الصادرة بسبب هذا التعدي على حق المؤلف او انتهاكه ، ومصادرتها أو تدميرها (المادة 36) .

ان هذا التشريع الخاص بحق المؤلف لا ينطبق سوى على الأعمال التي تتم داخل البلاد ذاتها ، أي في تونس ، وليس له أي تأثير في البلاد الأخرى . أما ضمان الحماية في البلاد الأجنبية فلا تتأثر الا من خلال المعاهدات الدولية .

وقد صدقت تونس على معاهدتين من ذلك النوع وهما اتفاقية برن لحماية المصنفات الأدبية والفنية (قوانين باريس ، 1971) والاتفاقية العالمية لحق المؤلف .



متابعات ثقافية من المغـــرب

الدار البيضاء : بوشعيب عوازي

□ مسرح :

المؤلف عبد الكريم برشيد :

[مد الإحتفالية . . وجزر القيمة الدرامية]

ليس من الصعب كي ننظر الى نصوص عبد الكريم برشيد ـ مؤلف مسرحي مغربي احتفالي ـ ونكشف تشابه المواضيع في الشكل أكثر منها في المعنى ، وهذه المقارنة تدفع بنا بالتو نلاحظ فقدان المساحة الابداعية في الكتابة المسرحية بطريقة تشجب قبول المتفرج كل ما هو برشيدي النص رغم اختلاف المخيلة لدى كل مخرج مسرحي مغربي في اجتهاد اعطاء النص رؤيا ابداعية وفنية للبحث عن الحضور المستمر ، اللهم ان الذي يرى غير ذلك هو في الغالب لا يعرف عن المسرح المغربي عامة شيء والكتابة البرشيدية شيء آخر « خاصة » .

والاعتماد على الاحتفالية ، واتخاذ المغالاة في التغريب وتوظيف الغموض في اعظم المشاهد مع الاحتفاظ بالفكرة الواحدة في اثارة الدواخل في الوقف الدرامي شيء غير متكافىء مع مستوى الحوار المحتشد بالعديد من الوقائع السياسية الشائكة في الوطن العربي مما يفسد عدة عناصر في المسرحية ويسيء حتى لمقولاتها وسبلها في المعالجة . .

وقد تساءل الصحفي والناقد المسرحي عبد الستار ناجي حول اعمال عبد الكريم برشيد قائلا : « ما هي الاحتفالية التي يؤكدها الأخ عبد الكريم برشيد وأين هي في هذا العرض (الدجال والقيامة) ؟ هل هي في التصريحات اليمينية واليسارية . فهل نضع اعمالنا المسرحية على رفوف المكتبات ؟ أم انها ستأخذ طريقها للتجسيد ؟ . .

ان واقع فعل تصوير الحلم وفعل اثبات مرحلية الانسان في عالم المظهر والحقيقة والواقع الخارجي والداخلي حيث يصبح المسرح رمزا المجتمع يجتمعا في نقطة واحدة ليكون الالتقاء المتكامل في البناء والأسلوب نتيجة توضيح القيمة الدرامية في المسرحية بتتابع مشاهدها التي لا تهتم او تجمع بينها الحدث او الفعل بقدر ما تؤلف بينها ذات محالة تصوير الحالم نفسه . . وهذا الحالم عند برشيد لا يمكن ان يخرج في الحقيقة من الاحتفالية التي تتحرك وتنطلق خارج الحدث المسرحي بتعقيب وتعليق عليه (الحكي والروي) موصوف عن بعد وقرب .

وفي مهرجان بغداد المسرحي الأول افتتح المخرج والمؤلف المسرحي الدكتور عقيل مهدي مداخلته النقدية بالقول في تقييم لمسرحية (الدجال والقيامة) : « يسرني ان أرى برشيد المبدع العربي وهو ينسج ملامح مسرح عربي منشود مقبل . ان ماشاهدناه لا يعني سقوط تنظيراته المسرحية الكبرى ، يجب ان نفرز بين اعماله وبين تنظيراته التي ستبقى قائمة وقوية . (« شاهدت في العرض ما يسمى بالارتجال المبدع لا العشوائي الذي دعا اليه (د . علي الراعي) وطبقه (د . يوسف ادريس) في مسرحية (السامر) لقد شاهدنا نوعا من (كوميديا دي لارتي) فيها حرية في الارتجال . ») .

حقيقة برشيد انه يفقد عدم التمكن من العثور على هدف تفتيت لحظة الفعل وغياب انهيار الحدث . فالفعل في نصوصه لم يعثر على مكان في الحياة الخارجية فينسحب الى دواخل الانسان ويبحث على مكان له في الحوار ذاته .

فالعرض والبيان لا يتمسكان بطابع المسرحية والشكل الاستعراضي يلتزم بشيء من التحفظ أكثر من شكل الحلم في

ملتقى قوي تدمير التاريخ للانسان وشل عزيمته . وإذا كان الانسان مجرى النهر وتطوير الحركة وانطلاق احلام فالفعل البرشيدي في القيمة الدرامية في الحدث لا تملك القدرة على أي نوع من الفعل وما بطل مسرحياته الى حالة من حالات الانسان البائس الضعيف الذي لا يقوى على شيء ، هناك ضغوط طبيعية أو صناعية تشل من تحركاته وأفكاره في قفص اسمه « اليأس أو الجمود أو العجز » وهي اداة عاجزة في يدها عن الحركة ولأن الوسط الاجتماعي هو الذي يحدد قدرة الانسان فإن برشيد في نهاية مسرحياته يحاول من خلالها ان يرسم طريقة لعلاج مجتمع « الذي هو في الأعم ساذج » تنفك قيوده وتسوده العاطفة .

- قال عبد الكريم برشيد حول مؤلفه

الدجال والقيامة اسطورة من هذا الزمان

هذه المسرحية / الاحتفال ، أين موقعها من الواقع والحقيقة ؟ أكيد ان بها شيئا من الحلم والخيال ، ولكنه الحلم بأعين مفتوحة ، وان بها شيئا من الأساطير . . أساطير من هذا الزمان . .

انها تتصل بالواقع وتقترب منه ، وذلك بالقدر الذي تنفصل عنه وتبتعد عنه . . قد يظهر للوهلة الأولى انها تقف خارج حدود العقل والمنطق ، ولكن الحقيقة غير هذا . .

هذا الاحتفال / العالم كيف ندخله وله حدود ؟

كيف نصل اليه وهو عالم مغلق ؟

قراءة المسرحية لن تكون سهلة أبدا . لماذا لأنها مطالبة الا تكون سياحة بصرية ، لأن الأساس هو ان نقوم بحفريات جادة لعوالم تقع تحت - أو فوق - الأرض . .

عوالم حقيقية لها وجود تحت الجلد ، بعد هذا ، فان كل ما سنعرفه ونذكره سيكون كشفا خطيرا ، لماذا ؟ لأن الأشياء في هذا الاحتفال ستستعيد عجائبيتها ؛ كما ستستعيد سحرها المضيع . ان العادي لن يعود عاديا ، والمألوف لن يكون كذلك ، كل الأشياء جديدة ومتجددة ، نكشفها لأول مرة أو نعيد اكتشافها ، ، نكتشف فيها حاضرها وغائبها ، ظاهرها ومضمرها قريبها وبعيدها ، عرضها وجوهرها ، متغيرها وثابتها ، متحركها وساكنها . في هذه المسرحية / الاحتفال نستعيد لذة اكتشاف العالم ، وبذلك نستعيد اندهاشنا أمام ما هو ساحر وجميل ، كما نستعيد فزعنا وقلقلنا أمام ما هو غريب ومرعب . .

- معنائية الدجال والقيامة . . .

هل تقوم القيامة حقا ؟ ومتى يمكن ان يحدث ذلك ؟

ثم أيضا ، ماذا نعني بالقيامة ؟ هل نعني معناها الديني أو مدلولها العام ؟

في هذه المسرحية الاحتفال يظهر الدجال ، يظهر في مصحة للأمراض العقلية ، انه نبي غريب ، يحمل رسالة غريبة ، يأتي ليعلن الختام ختام الآلام البشرية المرتبطة بالوجود او الحياة انه يدعو لأن تقوم القيامة وحتى يتحقق له ذلك ، فانه يحرص على الخيانة والغدر والقتل والاغتصاب والحرب والشيخوخة والعجز والمرض والفقر والبشاعة ، انه عدو الحلال والجمال ، عدو الزواج ، لأن الزواج قيد وارتباط مقدس يخالف كل العلاقات المدنسة التي يحرص عليها ، وهو ضد الطفولة لأنها تحمل عناصر البقاء والاستمرار والتجدد ، الشيء الذي يؤجل القيامة انه يكره الجمال لأن الجمال يفرز العشق ، والعشق ارتباط بالناس والأشياء وحلول فيها .

هذا النبي المزيف يصطنع الانصار والمريدين في كل مكان انه يستعجل النهاية ، نهاية الحياة بالموت والوجود بالعدم ، وهو يفعل كل هذا (رحمة) بالعالمين وذلك لأنه لا شيء يستحق العناء والشقاء ، وانه لا أمل في العلاج الا بمعانقة الخلاص المتجسد في الموت والقتل والانتحار والاغتيال والحروب والأمراض والأوبئة . . .

بعد هذا نتساءل :

- هل حقا تقوم القيامة ؟ ومتى يمكن ان يتم ذلك ؟ الآن أو بعد . الآن ؟

هذه التساؤلات تقضي بنا الى التساؤل التالي :

- ماذا يمكن ان نسمي هذه الحروب والاغتيالات والجرائم والمجاعات والأوبئة ان لم تكن جزء من مظاهر القيامة ؟
- كل دجال وراءه قيامة . . .

هذه المسرحية هي رؤية بلا شك ، رؤية ماساوية لوجود مأساوي انها المعادل المسرحي للخوف من العالم والخوف عليه .

قد تكون هذه الرؤية غريبة لأنها وليدة الاندهاش أمام الوجود وفي الوجود ، ولكن الواقع أغرب منها وأكثر بشاعة وقتامة .
وأتساءل الآن . لماذا يكون الدجال وتكون القيامة ؟

هل معنى هذا ان كل قيامة لا بد وراءها دجال ؟ وان كل دجال لا بد وراءه القيامة ؟
الدجال هل هو شخص ؟ لا اعتقد . انه أكبر من ان يكون مجرد شخص من الناس هل هو مؤسسة ؟ ان انه روح العجز والمرض والشيخوخة ؟ ان المسرح يقوم على التجسيد ، تجسيد المعنويات وتشخيصها .

فماذا يجسد الدجال وماذا يشخص ؟ ذلك هو السؤال الذي تنبني عليه كل هذه المسرحية / العالم .
هذه المسرحية . قد تكون احداثها غير واقعية . ولكنها بالتأكيد حقيقة . ان الواقع قد استعاد فيها كل ابعاده الضائعة او المضيعة . استعاد أرضا واسعة من اراضيه ، وهي أرض الحلم والجنون والهذيان والأسطورة . ان الحلم لا يقع خارج الواقع اليومي لأنه روح هذا الواقع وجوهره الشفاف ، كما ان الأسطورة لا تشير الى الواقع ولكن الى معناها . اي الى ما هو متكرر ومتغير عبر المكان والزمان .

كل شيء متحرك في هذا الواقع المسرحي كل شيء ينطق ويحيا ، فاعمارنا تمشي أمامنا وخلفنا ، وموتنا نطل عليه داخل حوض الماء ، وغضبنا يتجسد في ولد قابل للانفجار في كل لحظة . أما عجزنا وحمقنا فلهما اسم واحد مشترك هو لقمان . في هذا الواقع الجديد والمتجدد لا مكان للغياب . فكل شيء حاضر - الآن / هنا - ان الخفي حاضر والبعيد والمحال والوهم .

الشخصيات لا تحمل طبائع جامدة ومغلقة . انها مجرد حالات متدفقة ، حالات لا تعرف إلا التغيير والتحول . إن كل شخصية تكشف عن وجهين مختلفين . فنرجس امرأتان ، امرأة فوق الماء والأخرى تحت الماء . ونعناعة تحمل عدوتها فيها ، فهي هي ، كما انها الأخرى التي ليست هي . ولقمان العجوز من يكون ؟ انه الرجل الحي الذي يمسك موته بيده . موته الذي يتجسد في شخص عياش النسر ، اما الهدهد فهو يغيب ويحضر ، وهو في حضوره يحضر غيابه معه ، انه يحمل وجهه الموجود هناك في المكان الآخر والزمان الآخر - أما الطبيب فابيوس فهو الشخصية التي تأكل زمنها وتاريخها لتبدأ كل حين بداية جديدة رأي من الصفر المخلص بصفريته . والولد قنبلة ، ماذا نقول عنه ؟ انه بالتأكيد شخصان ، الأول تخدعه مناورات الدجال اما الثاني فيعي حقيقة الدجال انه يحيا طفولته ورشده في نفس الآن ، هذه الشخصيات إذن ، هي شخصيات زجاجية ، لأنها تظهر كل شيء ولا تخفي أي شيء ، انها شخصيات زجاجية داخل فضاء خارجي فضاء شفاف يظهر الخفي ويحضر الغائب ويحرك الساكن ويجسد المستحيل .

انني في كتاباتي ابدأ منهما ، أي من الدهشة والشك معا . كل شيء لدي قابل للتساؤل والاختبار واعادة الاكتشاف من جديد ، بهذا ، يمكن ان أعيد للواقع غموضه . وسحره وغرابته وشفافيته ووحشيته وذلك حتى يثير الاحساس بالاندهاش ، فيكون مقلقا ومرعبا ومثيرا للشك للتساؤل ودافعا للتفكير والتفسير والتغيير . وان الشك الذي اقصده . هو الذي له وجه ثان يسمى . . يسمى اليقين . .

□ السينما الوطنية المغربية :

رأس في عنق زجاجـة

عند قراءة عمل سينمائي مغربي مهما كان لونه وموضوعه يستحسن بدون تردد جعل هذا العمل محط محاور بحث عن كيفية تقويم الفيلم المغربي في خضم الازمة المتفاقمة التي تعيشها السينما المغربية مع وضع حق الاعتبار للتقويم الموضوعي ومستلزماته وملتبساته .

ان النظرة السينمائية في المغرب ما زالت تؤخذ بعين الرأفة والحنان ، نستطيع ان نقول انها ما زالت طفلا ليس له بعد لسان كي ينطق الكلام .

والعوز والفقر المنصب على السينما المغربية في تقنياتها وعيشها وانعدام وجود مستغلين وموزعين للأفلام داخل الوطن مرحلة اصبحت معتادة ومألوفة لدى السينمائي المغربي ، ذلك انه آمن بهذه المحن وظل يواكب سيره في تحقيق موافقة وتأكيد عزيمته .

[الزفت والورطة]

لقد عرفت قاعات السينما المغربية في غضون هذه السنة فيلمين من آخر ما هو جديد على الساحة الوطنية العملان هما شريط « الزفت » للمسرحي التقني الكبير الطيب الصديقي وشريط « الورطة » للمخرج الناشيء مصطفى الخياطي .

فيما يخص شريط « الزفت » لوحظ انه عرف دعاية كبيرة وواسعة عند الصحف والمجلات المغربية التي خصصتها قبل ظهور الفيلم بنصف سنة ، كانت هذه الدعاية أكبر بكثير من موضوع الفيلم بيد يتبين ان التقنيات والاخراج يجلبا المتفرج للعطف عن ضعف كتابته السينمائية .

وكما هو معروف ان الطيب الصديقي رجل مسرح ودخوله لميدان السينما للمرة الأولى كانت مغامرة تجلى نجاحها في العمل التقني فقط ولعل فوزه الأخير بدرجة أحسن اخراج في مهرجان قرطاج السابق لدليل معترف به سينمائيا .

و « الزفت » أخذ من احدى مسرحياته وهي « سيدي ياسين في الطريق » . حاول الصديقي ان يجعلها شريطا سينمائيا بحيث كانت احداث المسرحية عبارة عن « فلاشات » غير منسقة ومتتابعة او يجمعها ربط فني قد يؤدي الى نتيجة مفهومة مما اعتقد جل المتفرجين ان الصديقي حاول نهج ما يمكن ان نطلق عليه السورياليزم / الواقعية . لكن بعض المثقفين عارضوا الفكرة وقالوا أين الصديقي يسبح في بحر هو نفسه فكيف يتأتى للمتفرج ادراكه بيد ان الجميع من الجمهور الذي شاهد « الزفت » حبذوا فكرة لو كانت المسرحية مصورة كان الأمر افضل وأحب .

ولا ننكر ان الشريط لم يتنازل عن طرحه لما تشمله بقية الأشرطة المغربية للمشاكل والمعاناة وتفسيرها بطرق معينة حسب اجتهاد مخيلة المخرج في الساحة الابداعية التي يعجها .

[الملتقيات السينمائية بادرة طيبة]

ان بادرة خوض ملتقيات ثقافية لمسح بعض الشيء من الجمود الثقافي ثم تحريك الفكر ونشر الوعي بين الشباب

الذين ما فتئوا يهربون من الاستعماريين الاعلامي : الاسباني في الشمال والفرنسي داخل المغرب المتربصان في الحياة اليومية بواسطة البرامج المتلفزة .

وإذا كان شباب شمال المغرب يتعاطون ممارسة برامج اسبانية ناهيك عن اشرطة الفيديو الغزيرة الانتشار في البيوت والمقاهي ليل نهار ، نلاحظ ان مصدر ذلك يعود بالاحساس الى فقر برامج التلفزة المغربية وغياب قناة ثانية .

ولا يخفى ان ملتقى تطوان الأول للسينما المغربية الذي جاء بعد ثلاثة اشهر من مرور الملتقى الوطني الثاني للسينما المغربية بالدار البيضاء ما بين 20 و 27 مارس 1985 كان خطوة « سلاح » من الخطوات الثقافية الهجومية الموجهة ضد الهيمنة الاعلامية الثقافية الاسبانية الذي تخلله تتبع عروض ومناقشات حادة وندوات مشحونة بالتقييمات الثرية بتجارب مثقفي ومتعاطي السينما وتبيان مدى عطش الشباب التطواني ثقافيا .

[البحث عن البديل الغائب !!]

ان هذه الملتقيات السينمائية والثقافية جاءت لتخرج السينما المغربية من قوقعة الرؤيا المعنوية المختصرة والايديولوجيات السامة والبحث عن ما يمكن أن يكون وما لا يمكن ان يكون ، وكيف المسير في الطريق الصحيح للسينما ، وما البديل الغائب !!

فالواقع المزري الذي تعيشه السينما المغربية وقضاياها التي تحتاج الى عدة سبل لتقويمها وما تحاول ان تترجمه من حالات المجتمع الى مخيلة سينمائية لها ما لها وعليها ما عليها من محنة وعنق في مشنقة نجد عدة غيورين من رواد السينما المغربية كالأستاذ نورالدين العايد ، ونورالدين كونجار ، والجيلالي فرحاتي ، ومحمد الركاب يخوضون عدة ندوات ولقاءات ثقافية يستمدون منها مضامين واشكالية ازمة السينما المغربية التي تتأرجح بين شروط الهيمنة وضعف مكوناتها والتأثير السلبي الذي ساق السينمائيين المغاربة اليه وكبلهم في مربط حيث لا فرار الى متجه بديل ويقصد بالتأثير السلبي الانتاجات السينمائية الأمريكية والهندية والمصرية التجارية الرخيصة .

[غياب النقد السينمائي]

يكاد النقد السينمائي في المغرب ينعدم من جراء الركود السينمائي وغياب الحركة الدائبة التي نعرفها في بلدان اخرى من العالم الثالث ولأن كان اصرار رجالات السينما بالمغرب ينفون ان هناك غياب النقد السينمائي بالمغرب ذلك ان النقد الحالي « كما يرون » ليس مقنعا فهو اما يركز على الايديولوجي او الجمالي او الأدبي وغياب نقد يربط بين كل ما ذكر ، وما دامت السينما الوطنية في مرحلة البحث عن صناعة سينما مغربية فكيف يتأتى لنا الحديث عن نقد سينمائي بالمغرب .

[آراء سينمائيين]

وحول اراء رجالات السينما الوطنية بالمغرب في قضية توزيع الأفلام المغربية التي تخلق ازمة أكثر تفاقما تأكد أن الموزع في المغرب لا يجرى الا وراء الربح المادي على حساب المتفرج الذي يقدم له انتاجات بشعة وهدامة لا تساهم في تثقيف الشباب المغربي وتغنى فكره او بكلمة اصح لا تضفي عليه صلاحيته .

وأثار المخرج بن بركة في جواب على انه يتوجب تغيير وضع الموزع على ما هو عليه متوجها الى الدولة كي تبذل ما في وسعها لحماية السينما المغربية وايجاد الحلول الناجعة للنهوض بها الى 'ما ذلك من محاور كانت هي بالأساس من معوقات تقدم السينما المغربية : ظروف الانتاج ، غياب الموزع ، والبحث عن صناعة سينما وطنية .

وحول اجتياح الفيلم الأجنبي للقاعات السينمائية قال في هذا الشأن السينمائي المغربي نورالدين كونجار « هذا راجع الى التوزيع والى واقع القاعات السينمائية فالموزعون المغاربة لا يريدون المغامرة مع الأفلام المغربية وهم يعلمون بأن بامكانهم ان يربحوا الكثير مع افلام تجارة أجنبية .

وحول تكرار المواضيع واستغلال التراث والتقاليد المغربية بطريقة عشوائية قال الفنان المخرج كونجار ان هذا يرجع الى السينما المغربية والسينمائي المغربي الذي لا زال يبحث عن نفسه لكن الموضوع الجيد الذي يفرض نفسه والجمهور المغربي هو جمهور مثقف سينمائيا فإما ان يرفض أو يقبل ثم ان هناك قلة الامكانيات التي تجعل الفلم ناقصا فأنا الآن بصدد انجاز فلم يتطلب 130 مليون فمن سيعطي هذا المبلغ ، ليس هناك نية المغامرة .

☐ اصـدارات]

نساء الغـــرب

صدر مؤخرا للباحثة الاجتماعية فاطمة المرنيسي كتاب جديد بعنوان « نساء الغرب » وهو نتاج لبحث قامت به الباحثة في منطقة الغرب .

وتتناول هذه الدراسة التي تعد جزءا من سلسلة من الدراسات لفاطمة المرنيسي بالتحليل وضعية نساء دوار بكارا بجماعة المساعدة على منطقة الغرب المعروفة بانتاجها الفلاحي المرتفع وكثافة امطارها .

وقد اعتمدت الكاتبة أسلوب الاستجواب كوسيلة مباشرة للاتصال مع نساء المنطقة للحصول على أجوبة لتساؤلاتها حول تطور انماط الحياة في البادية المغربية ومحاولة ادماجها في الاقتصاد الوطني .

وتقول الباحثة فاطمة المرنيسي في مقدمة كتابها ان هذه الدراسة لا تقف عند حدود ابراز التحولات على المستوى الاقتصادي فحسب ولكنها تتجاوز ذلك الى توضيح انعكاسات هذه التحولات على المستوى الايديولوجي والأفكار .

وتضيف فاطمة المرنيسي انه تم اختيار منطقة الغرب لأنها تتوفر على الشروط المثالية لانجاح مشروع التحديث القروي طبقا للمقاييس الراسمالية .

وتتناول الباحثة فاطمة المرنيسي التي تدرس في نفس الوقت بكلية الأداب والعلوم الانسانية بالرباط في هذا الكتاب خطاب الجنسين حول التنمية واشكالية الجنس والصراع الطبقي في المجتمعات العربية - الاسلامية (عودة الى التاريخ) ومساهمة المرأة في الاقتصاد ما قبل الرأسمالي الحديث .

كما قدمت في جزء من كتابها اراء لبعض النساء حول الاصلاح الزراعي ومقتطفات من استجوابات مع نساء يشتغلن في الميدان الفلاحي .

العدد الثامن من « أبحاث » :

الممارسة المغربية للعلاقات الدولية

صدر العدد الثامن من المجلة الفصلية « أبحاث » يتركز هذا العدد حول ملف يجمع بعض الدراسات لمواضيع بارزة حول الممارسة المغربية للعلاقات الدولية (تصورات مغربية تاريخية للعلاقات الخارجية ، الممارسة المغربية

التعاقدية ، سياسة المغرب في ميدان التسلح ، الخ . .) وحول معطيات حاسمة (الوضع الاستراتيجي للمغرب العربي) اولها تأثيرها على المغرب(الاستراتيجية المغاربية في الميادين الاقتصادية الدولية) .

يتضمن العدد المواضيع التالية :

- تصورات مغربية للعلاقات الدولية خلال القرن 19 .
(نموذج الرحلات المغربية لأوروبا خلال القرن 19) عبد اللطيف حسني .
- الأقاليم الصحراوية في الاتفاقيات الدولية قبل الحماية / أحمد السالمي الادريسي .
- التوازن في العلاقات الاتفاقية للمغرب / فاطمة المهبول
- الدبلوماسية المغربية وسياسة المحاور العربية / على كريمي .
- سياسة التسلح في المغرب منذ الاستقلال الى اوائل السبعينات / نورالدين خليفة .
- التوازن الاقليمي والأهمية الاستراتيجية لمنطقة المغرب العربي / حسن حامي .
- الاستراتيجية المغاربية في ميدان التأميم / عبد الغني أبو هاني .

حسن جلاب والدولة الموحدية

بعد صدور الطبعة الأولى من كتاب (الدولة الموحدية : اثر العقيدة في الأدب) عن منشورات (الجامعة) ، لصاحبه (حسن جلاب) ، تعود دار النشر من جديد لاصدار الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وهي طبعة منقحة مع اضافات تطبيقية .

وحسن جلاب أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاضي عياض بمراكش .

ومما جاء في مقدمة هذه الطبعة اخترنا للقراء ما يلي : (تميزت الدولة الموحدية عن باقي الدول التي حكمت المغرب باعتمادها على منهج سياسي ومذهبي خاص ، مكنها من مواجهة الدولة المرابطية وهي في عنفوان شبابها وكان وراء هذا الانتصار عالم كبير ، وسياسي ماهر هو محمد بن تومرت المنظر للدولة ، ومخطط عقيدتها . وقد استفاد في ذلك من دراسته بالمشرق على كبار علماء العصر ، وأخذ العبرة مما عرفه هذا الجزء من العالم الاسلامي من صراع وتمزق) .

ومن خلال ما جاء في هذه الكلمة يتبين لنا أن الكتاب قد أفرد للحديث عن اثر العقيدة في الأدب أبوابا تتناول كل منها مبحثا من المباحث الأساسية لرصد هذه الظاهرة .

جديـد
صـدوق نورالدين

إشكالية الخطاب الروائي العربي هو الكتاب الثاني للناقد المغربي الشاب صدوق نورالدين بعد كتابه الذي صدر مؤخرا تحت عنوان (حدود النص الأدبي) .

صدر هذا الكتاب الأخير في طبعته الأولى عن منشورات « أوراق » التي يشرف عليها القاص والروائي محمـد صوف . والكتاب من الحجم المتوسط ، يقع في 63 صفحة تضم بين طياتها عدة أبواب يتناول خلالها الناقد مجموعة من الأفكار التي تسلط الضوء على (اشكالية الخطاب الروائي العربي) ، ومما جاء على ظهر الغلاف نقرأ ما يلي :

(تعمل هذه الصفحات على اثارة اشكالية تتعلق بالتساؤل حول وجود فن الرواية في الأدب العربي من ناحية .
ومن ناحية أخرى تساهم في توضيح مميزات الشكل التقليدي الغربي . وبديله المستمد من الاعتماد على التراث .
وبذلك تبقى محاولة للفصل ان أمكن ذلك . . .)
ولصدوق نورالدين اهتمام كبير بالأدب المغربي الحديث ، حيث انه يتعامل معه بأدواته النقدية تعامل (أهل مكة ادرى بشعابها) . . .

الموازنة بين أبي تمام والبحتري

عن دار النشر المغربية بالدار البيضاء صدرت الطبعة الأولى من كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري للأمدي) للاستاذ ، الدكتور قاسم مومنى وهو أستاذ سابق بكلية الآداب ـ جامعة اليرموك بإربد بالأردن ، ويشغل حاليا منصب أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء ـ المغرب . والكتاب عبارة عن دراسة وتحليل يهدف من ورائه ايضاح شكل الموازنة بين أبي تمام والبحتري كشاعرين .

ومما جاء في كلمة للناقد المغربي (ادريس الناقوري) على ظهر غلاف هذا الكتاب نقرأ الكلمات الآتية : (تعتبر الموازنة بين الشعراء في النقد العربي القديم منهاجا نقديا اصيلا تمتد جذوره الى المرحلة الجاهلية .
ويبدو ان معالجة الشعر بطريقة تعتمد المقايسة والمفاضلة رافقت العملية الابداعية على امتداد التطور التاريخي والأدبي الى أن بلغت درجة من الوضوح والنضج في القرن الرابع الهجري على يد الناقد العربي الآمدي بكتابه المشهور « الموازنة بين الطائيين »

□ نشاطات متنوعة

فيكتور هيغو ـ جولييت دوروي :

الحب يصنع العظمـة

الشاعر والكاتب الفرنسي فيكتور هيغو زعيم الحركة الرومانطيقية (1802 ـ 1885) امتازت كتاباته ومؤلفاته بقوة المخيلة وتنوع الألفاظ وغنى الوصف المتجلي بدقة واضحة في مؤلفاته الشعرية الشهيرة : الشرقيات ، اغاني الغسق ، ملحمة الأجيال ، أوراق الخريف .
أما المؤلفات النثرية التي لقيت الاقبال الكبير عند النقاد والقراء وجعلت منه كاتبا له وزن عظيم في حقل الأدب العالمي فهي « سيدة باريس » البؤساء ، هرناني . .

اقترن اسم الكاتبة جولييت دوزوي الفرنسية باسم اشهر وأعظم الشعراء الفرنسيين فيكتور هيغو طيلة خمسين سنة من حياتها . هذا الاقتران في الاسم كان معنونا بالعيش تحت سقف واحد ، وهو ثمرة حب تجلت لغة تواصله في كتابة الرسائل والبطاقات المتبادلة التي يغمرها احساس مرهف بفاعلية ايجابية خلقت من الكاتبة جولييت دوزوي امرأة أدبية .

انها مهمة لم تكن تحلم بها قط في مستقبل حياتها بينها نمت وشجعت فيكتور هيغو ان تسوقه هذه العاطفة الى العطاء والاسهام بما هو جيد وأفيد لاغناء الخزينة الأدبية .

نعم ان للضرورة احكام . فحين اصبحت جولييت دوزوي كاتبة بين امسية وضحاها كان الدافع وراء ذلك فاعلية اسمها « ملكة الحب » حيث منبع الموهبة والحذق وما تحمله بين طياتها لها من شدة التأثير القوي الانفعال ما يجعل القاريء يسبح في تيهان التعبير الساحر وما يضمنه من الفاظ أخاذة .

□ نشاطا متنوعة :

لقد كان اسم كتاب جولييت دوزوي بعنوان « المحبة » وهو عبارة عن رسائل غرامية تكشف فيها عن ضعفها أمام عشيقها العبقري « هيغو » الذي تقبل هو الآخر هذا الضعف الكامن في خبيئة نفسها بالاعجاب والاندهاش ذلك انه لم يكن يتوقع ان يصدر من انسانة أحبته واطلعت على خياناته المتكررة برصيد أدبي زاخر وجد فيها ضالته المفقودة والغير المنتظرة الوصول .

انطلاقا من سنة 1833 الى سنة 1838 حيث التاريخ الذي فارقت فيه جولييت دوزوي الحياة الدنيوية ، وهي مرحلة جد مهمة وحاسمة في حياة فيكتور هيغو زخرت بالعطاءات الشعرية المرنة كانت جولييت فيها تتمتع بالحظ الوافر في معانيها اذ تعد بحق كما أوضح ذلك الشاعر العظيم في بعض كتاباته المحرك الدافع لصدق الكلمات وجمالية التعبير .

ان جولييت دوزوي كانت تدعوه بـ « توتو » للتحبب فقط ، مما جعل هذا الاسم ان يظل رسمي الاستعمال في حالات صيفها ممطر وشتاؤها ظهيرة . ومن ضمن الرسائل التي كتبتها سنة 1838 :

« صباح الخير يا حبيبي الصغير ، كيف حالك هذا الصباح ؟ . . أنا أحبك وصحتي جيدة ولله الحمد ، ولا أشكو الا من استحالة رؤيتك في كل لحظة من اللحظات » .

ان في هذه الحياة رجلا اسمه « توتو » أحبه كثيرا واشتهيه كثيرا ، ولكنه مقصر عني أبدا ، وأجد نفسي مضطرة دائما لانتظاره ، اسمح لي إذا لم تفهم هذا التشبيه ، إن أصرح بأننا نحن الاثنين غبيان ، ومع هذا أحبك ، هذه هي قصتي كلها .

لست أرى خطأك ، ولا أشعر سوى الحب لك ، لا أريد أن أتعمق في النظر الى قلبك ، لأنك في قلبي لحما ودما . . ترى أتعود سعادتنا الأولى ؟ اما أنا فإني واثقة من انك وحدك الهي ، ولا ايمان لي سواك ، ان اليأس الشديد الذي هز شجرة حياتي منذ شهر ، لم يقو على اسقاط ثمرة حبنا التي كبرت ونضجت من عصارة اعجابي وشغفي بك .

انها انسانة تملك مشاعر صادقة تجلت في ملكة الحب التي بسطت لها طريق الكتابة وجعلت حرارتها ان تدخل ميدان التأليف . وحقيقة ان الحب في بعض الأحايين يصنع العظمة .

□ جيشلاف ميلوش :

جائزة نوبل لشاعر غير معروف

جيسلاف ميلوش من الشعراء العالميين الكبار ، إلا ان الظاهرة الحقيقية جعلت هذا الشاعر البولندي الذي عاش خارج موطنه في أمريكا انطلاقا من سنة 1951 تفسر بدلالة واضحة وبيراهين قاطعة انه كان غير معرف قط . في الحقل الأدبي الرسمي اللهم اننا نلاحظ ان اشعاره تملأ المجلات والجرائد البولندية .

جيشلاف ميلوش البولندي الأصل والأمريكي الجنسية ولد في مدن ليتوانيا سنة 1911 ، وتابع دراسته المتوسطية والجامعية في بلدة فيلنو ، ثم درس سنتين في باريس .

عند عودته الى بولندا ، عمل كإذاعي بالهيئة الاذاعية البولندية ، وبعدها انتقل الى اذاعة وارشو العاصمة .
ابان الغزو النازي كان عضوا هاما في حركة المقاومة السرية ، كما ساهم في اصدار نشرات تحريضية سرية الشيء الذي اتاح له دخول الميدان الصحفي .

ومن جملة المجلات التي تحمل في صدرها يوميات زاخرة ومعطاءة لها من الوزن والرصيد الأدبي ما يجعله يحظى بالقبول الكبير والحضور الدائم في الحقل الأدبي مجلة أدبية تدعى (تفور غوشغ ، الابداع) .

عمل في السلك الديبلوماسي الى جانب مهمة مندوب ثقافي واعلامي لسفارة بلده في كل من واشنطن وباريس ، لكن ظروفا غامضة أجبرته على البقاء خارج موطنه والتجنس بالأمريكية .

ظل جيشلاف ميلوش يحتفظ باصله وثقافة بلاده وبما أتى من علم ان يعمل كسفير وداعية بولوني وسط مجتمع أمريكي مختلف التقاليد والعادات والأجناس بطرق غير مباشرة في حين انه وطني أمريكي بدون نقاش فالموقف الذي نهج في حياته كسيف ذو حدين : جعل الأمريكيين ينظرون اليه نظرة اعجاب ونقد خصوصا وان جميع الامكانات التي تتطلبها الأمور التي توصل الى خلق الضجة الاعلامية كانت متوفرة لديه . ويعود مصدرها الأساسي الى انه يهودي الأب ومناصرته لاسرائيل والوقوف بجانبها على جميع المستويات العاطفية أو العملية التي تشغل فكره كأنها صنف مهم من المسؤوليات الواجب عليه تطبيقها . ولعل هذا الأمر بالاجمال فتح له ابواب التألق في كل ميدان يعجه وتحقيق اية رغبة يطمح اليها .

في سنة 1958 امتهن التدريس في جامعة بيركيلي بكاليفورنيا . وفي نفس الوقت لم ينس انه بولندي يتوجب عليه خدمة أدب بلاده على حساب امريكيته ، مما دفع به ان ينال جائزة « نادي القلم » التي تمنح من الحكومة البولندية في الأداب وقد خصصت هذه الجائزة جزاء تحويل الأدب البولندي والغالبية من شعره الى اللغة الانجليزية الشيء الذي يجعل القاريء ان ينظر الى ما نقل الى الانجليزية يمتاز بالأصالة في كتابته لما تشمله من توظيف أدبي أخاذ لا يتجرأ الباحث فيه الى التفكير انه مترجم عن لغته الأصلية . وكان ذلك سنة 1974 .

وقد تلقى العالم الأدبي والفكري منح جيشلاف ميلوش جائزة نوبل للسلام باندهاش وغرابة ليس لها مثيل . إذ كيف يتأتى منح جائزة ذو وزن عالمي عظيم لشاعر وأديب نتاجاته غير مذوية أو متوفرة لدى كل متعاطي الأداب علاوة ان اسمه ليس له مكانة مرموقة في الوسط الأدبي او فات ان سمع عنه اللهم ان الأمر لا يتعدى بلده الأصلي بولندا وبعض الدول المجاورة لها .

من ضمن ما جاء به قرار لجنة جائزة نوبل ان جيشلاف ميلوش باحث ومنقب بتدقيق ومحلل دياليكتيكي للمخاطر التي تهدد حياة الشر وسط عالم مزدحم بالصراعات والمضاربات الأشد توترا وعنفا ، ويتجلى هذا البرهان والاعتقاد الصادق في ديوانه « زمن البرودة » وكذا ديوان آخر له « الشتاءات الثلاث » من نفس الهيئة .

وحول التحقيقات التي اجرتها الأكاديمية السويدية ان ميلوش يمتاز بفلسفة شاعرية مرنة تتمخض على أسس الصراع الروحي والعكوف في اقتناء وتشريح بين التوفيق وما يمكن ان يخلق التلفيق في الساحات الثقافية والاجتماعية التي نجد بعض مضمونها طريح الانهيار .

ان عالم شاعرية ميلوش تنحدر من فلسفة طرد آدم وحواء من جنة عدن واشكالية الخير والشر في تكملة تكوين الانسان وكيف كان الأمر ينهج من خلالها في غزو العالم واحتلاله .

والملاحظ ان « زرادتش » حول قضية الثنائية التي يرجع مصدرها في حكم العالم (الخير والشر) ، (الحق والباطل) وهلم جرا . . كانت من الخاصيات المرتكز عليها فكر ميلوش : « ان المخيلة الموظفة في تطبيق الواقع على حقيقته هي بخلاف المخيلة التي تسمح لنا بقيامها أو تطبيقها في جميع الحالات الخاصة ، وهي مسألة بعيدة عن اتخاذ الشك مطية للوصول الى الحل الوسط ، إذ تشرح نفسها بنفسها ان الواقع هو واقع بالنظر لقواعده وملتزماته ، وامكاناته ، وتبقى الصراعات والانشقاقات والدوران في جرم الخداع والنفاق والوعود الشيطانية هي واقع المحرومين حقيقة .

في نظر الأدباء البولنديين ان نيل ميلوش جائزة نوبل هو امر في ميزان متمايل الكفتين وكلا من الكفتين احوال من الموافقة في الاختيار وعدم الموافقة حيث نجد ان من الأدباء البولنديين الأكثر كفاءة في حب الاختيار هو الأديب فيتولد جومبر وفتش الذي رشح للجائزة . في الوقت نفسه يرفض الناقد البولندي ارتير سانديـر ان يمنح ميلوش جـائزة نوبل ، لكن الروائي اندغييفشكي أكد ان الجائزة في محلها في حالة اذا كانت مناصفة مع جومبروفتش .

أما فيما يتعلق برأي الناقد ادام فاغيك فقد كان من جهة ميلوش بتعبير يتسم بروح الثقة والنظرة الصحيحة والاشادة المعطاة لأدبياته .

تلقت بولندة خبر منح جائزة نوبل للشاعر جيشلاف ميلوش بصدر رحب مملوء بالغبطة والفخر والاعتزاز وقد عاشت هذا الحدث بعيون غامضة عن شخصية ميلوش بمالها وعليها من اشكاليات واضحة وضوح الشمس متجاهلة الصورة الحقيقية التي يكمن وراءها منح الجائزة .

ان السر في منح ميلوش الجائزة هو امر يعود بالضرورة الى اصله اليهودي واحتكاكه بالعناصر الصهيونية الاعلامية على مختلف الوسائل ، ومهما يكن في امر ميلوش في نيل جائزة « نوبل للسلام » فقد ظل اسمه كما كان من قبل يعيش في سبات لدى الساحة الأدبية دوليا إذا لم يحاول فرض نفسه بنتاجات تمكن المثقفين والقراء والنقاد من الاهتمام به كشخصية أدبية مرموقة لها مكانة مميزة يمكن أخذها بعين الاعتبار .

02 « الكتاب المغربي » العدد الثالث :

مجلة بيبلوغرافية نقدية

صدر العدد الثالث من المجلة البيبلوغرافية النقدية « الكتاب المغربي » التي تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر وهذه الجمعية تأسست في 7 مارس 1980 ، وهي تضم عددا مهما من الأساتذة الجامعيين ، الباحثين

وتعمل طبقا لقانونها التأسيسي ـ على تنشيط حركة التأليف والترجمة والنشر بالمغرب . والتعريف بالتراث المغربي عن طريق تحقيقه ونشره . وربط الصلات مع الجمعيات والهيآت التي لها نفس الاهتمام داخل المغرب وخارجه للتعريف بالانتاج المغربي .

يقوم نشاط المجلة « الكتاب المغربي » على رصد المنشورات الجديدة من الكتب والمجلات ـ سنويا ـ وطبعا فانه لا تخفى أهمية وجود مثل هذه المجلات والمساعدات الكبيرة التي تقدمها للباحثين فهي مثلا تعلن ـ من ضمن ما تعلن عنه ـ نشرات الادارات والمؤسسات التي لا تعرض في السوق « ولا يتيسر وجودها بسهولة ، فقد يجهل الكثير ممن تهمهم تلك النشرات الدورية وجودها أو صدور اعداد جريدة منها . . » .

وحسب افتتاحية العدد الثالث منها فإن المجلة الآن بصدد التفكير في تخصيص العدد الرئيسي من المجلة للكتب وتخصيص عدد ثان للمجلات . وعدد ثالث للاطروحات والرسائل الجامعية اي ان المجلة تفكر في اصدار ثلاثة اعداد في كل سنة من « الكتاب المغربي » وذلك ابتداء من السنة القادمة . يحتوي العدد الثالث على منشورات 1984 ويضم عرضا لحوالي خمسة وأربعين كتابا ، بالاضافة الى فهرس للكتب والمجلات وهو يقع في 455 صفحة .

□ المهرجان الوطني الأول للأغنية المغربية

اختيار 23 أغنية من ضمن 87 مشاركا

اختارت اللجنة المكلفة بفرز الأغاني التي سيتم ادراجها في برنامج المهرجان الأول للأغنية المغربية الحديثة يومي 13 و 14 ديسمبر القادم بمدينة المحدية 23 أغنية .

وفي فرزها للأغاني المقترحة اعتمدت اللجنة المجتمعة ايام 18 و 19 و 20 أكتوبر الماضي على التقييم الفني لمجمل الأغاني المقدمة وعددها 87 أغنية .

واللائحة الرسمية للأغاني 23 المرشحة في مسابقات المهرجان الوطني الأول للأغنية العصرية كالتالي :

« كان يا مكان » عبد الوهاب الدكالي
« فرقتنا ليام » عبد الحق ليلاني
« ما بقاش علاش نخاف » غيثة بنعبد السلام
« هذا جهدي عليك » محمود الأدريبي
« دعني أنام » شكيب العاصمي
« لولا الحب » ليلى علي
« زين الجلسة » رفيعة غيلان
« شكون انا » فتيحة مستقيم
« لمن اهوى » البشير عبده
« خليك يا قلبي » هدى رمزي
« الساقية » اعويدس مليكة
« بحر الجمال » سعيد بناني

« مكتوب لغيري » محمد سعيد
« الصدمة » عبد الحق مرابي
« ما نعاتبشي قلبي » عائشة العلوي
« نجمة » عواطف رشدي
« أول مرة » محمد صبري
« جانفيلبي » مبارك عمور - باللهجة البربرية »
« صاحبي اللي كان » - المفضل العدراوي
« تاه أيام » ميمون لوليد
« لا تدعني » سمية قيصر
« حب واخلاص » نزهة الشعباوي

[إبـ ـهيم الألغى في ذمة الله]

توفي في نهاية شهر اكتوبر الأخير الأديب المغربي ابراهيم بن علي الالغي عن سن تناهز الخامسة والسبعين .

والأديب الذي سجلت اسرته حديثا في سجلات الحالة المدنية باسم رضا الله هو أخو العالم والأديب المغربي المرحوم المختار السوسي .

وكان جلالة المغفور له محمد الخامس قد عينه بعد الاستقلال قاضيا مستشارا بالمجلس الأعلى للقضاء ثم نائبا عاما .

وقد خلف الأديب ابراهيم الألغي الذي ولد بقرية الغ بتافراوت سنة 1910 مجموعة من المؤلفات والكتب الأدبية من بينها ستة دواوين شعرية .

القصة التونسية بين بحث مرقون وتلخيص منشور

الحفناوي الماجري

كنت أعددت في سنة 1976 بحثا جامعيا تحت عنوان « القصة التونسية في النصف الأول من القرن العشرين » وقدمته مرقونا في مائتي صفحة من الحجم الكبير لنيل شهادة التعمق في البحث .

واطلعت أخيرا في مجلة « الحياة الثقافية » الغراء على مقال للأخ فوزي الزمرلي بعنوان « الحركة القصصية في تونس من النشأة الى الاستقلال » . وما إن انتهيت من قراءة الفصل الأول منه حتى انتابني الاستغراب لسببين ، أولهما أن الأخ الزمرلي لم يذكر بحثي ضمن مراجعه ، وثانيهما أن ما كتبه ليس إلا تلخيصا لما كنت سبقته اليه منذ تسع سنوات . وهو لئن ذكرني في الفصلين الثاني والثالث ، فبطريقة هامشية توهمنا أن ذلك البحث ليس أساسيا في تأريخ القصة التونسية ، والحال أن الفصلين الثاني والثالث أكدا لي ظاهرة التلخيص . ويمكن إبرازها في النواحي التالية :

أولا : ان الفترة الزمانية التي اختارها الأخ الزمرلي في تلخيصه هي نفس الفترة التي استغرقت بحثي . فهو يحصرها « من النشأة الى الاستقلال » وأنا أقول في مقدمة البحث . . « ان اختياري لهذه الفترة يعود الى أنها حلقة متكاملة عرفت الجزء الأكبر من الحضور الاستعماري وعرفت النشاط الأكبر للتحرر من ذلك الحضور » .

ثانيا : لم يشذ التقسيم الداخلي عن التلخيص .

فالطور الأول عنونته بـ « الأرضية القصصية 1860 ـ 1905 » وحدّده الأخ الزمرلي بين 1860 ـ 1906 . ولئن ظهر بيننا اختلاف طفيف بسنة واحدة فإنه سرعان ما يزول ، بما أنه يحدد المرحلة الأولى بظهور قصة « السهرة الأخيرة بغرناطة » لحسن حسني عبد الوهاب ، وهو يعرف انها نشرت في مارس 1905 .

وحددت المرحلة الثانية بين 1905 و 1925 بينما يذكرها صاحب التلخيص بعنوان « من 1906 الى نهاية العشرينات » ولكنه يحصر « نهاية العشرينات » هذه بنشر قصص سعيد أبي بكر ، والحال ان ذلك كان في سبتمبر 1924 .

الطور الثالث يذكره الأخ الزمرلي « من بداية الثلاثينات الى الاستقلال » والغريب انه انتهى بهذه الفترة الى ظهور روايات المسعدي أي حوالي 1945 ، وهي نفس المرحلة التي وصلت اليها في بحثي ، وبالتالي تبقى عشر سنوات كاملة من فترة الاستقلال التي كان تقيد بها الأخ الزمرلي في عنوان تلخيصه . وحاول أن يسد هذا الفراغ بحشر المقامات وهي شكل مستقل عن القصة ، وبالادعاء أن الحركة القصصية شهدت ضعفا . وذلك دلالة أنه لم يقم بمجهود إضافي فيطلع على قصاصين كثيرين نشطوا في تلك الفترة نذكر منهم :

- توفيق بوغدير ـ وقد نشر في الأفكار ، والثريا ، والأسبوع
- محمد دبور ـ نشر في الأسبوع
- زين العابدين السنوسي ـ نشر في جريدة الأسبوع قصة « ابنة قصر الجم » في ثلاث عشرة حلقة .

- محمد المرزوقي - كتب أقاصيص وطنية نشرها في مجموعة بعنوان « في سبيل الحرية »
- أحمد رضا حوحو - نشر رواية تناول فيها قضايا اجتماعية

ثالثا : ليس من الصعب ، بالمقارنة بين بحثي ومقال الأخ الزمرلي ، التفطن الى تلخيص الفصول الداخلية . فما خصصه في المرحلة الثانية من تلخيصه من فقرة موجزة لتأثير الترجمة في الحركة القصصية ليس الا اختزالا لفصل كامل من بحثي استغرق عشر صفحات تحت عنوان كبير « الترجمة » وعناوين صغيرة : العوامل لانبعاث حركة الترجمة ، الغاية من الترجمة ، مواضيع الترجمة ، كيفية الترجمة .

رابعا : لم يستطع الأخ الزمرلي التملص من بحثي ، رغم اجهاده ، فيلتجيء عندئذ الى طمس ما أثيره من قضايا للايهام بأنها ليست أساسية ، كل ذلك بطريقة غامضة لا يفهمها إلا من اطلع على بحثي . وأذكر لذلك مثالين :
- قال الأخ الزمرلي عن قصة « الخشاس الصغير » لمصطفى كردة : « وأيا كان المنبع الذي استقى منه الكاتب هذا الأثر ، فإنه يهمنا أنه يمثل أول أثر قصصي يكتبه تونسي » وهويشير بذلك ، لكن دون صراحة ، الى ما كنت ذكرته في بحثي أننا نجد هذه القصة في الأدب العربي القديم ، وقد كان نقلها الكاتب الفرنسي الاسكندر دوماس تحت عنوان « شجاعة الخياط الصغير » ، بل ولعله نقلها عن حكاية شعبية تونسية .

○ ذكر الأخ الزمرلي ، عند تعرضه الى سعيد أبي بكر ، الخصومة التي حدثت بينه وبين الكاتب الفرنسي ارتو بليقران قائلا : « ليس هدفنا في هذا المقام ان نتعرض لهذه الخصومة . . . » وهو يشير بذلك - لكن دون صراحة - الى التفاصيل التي كنت ذكرتها حول هذه الخصومة في فصل مطول بعنوان : « سعيد أبو بكر » تعرضت فيه الى سبب اقباله على كتابة القصة وحللت آثاره القصصية .

خامسا : ولأن ما قام به الأخ الزمرلي ليس إلا تلخيصا ، فإنه اسقط كثيرا من القصاصين . ولا يمكن ، بأي حال من الأحوال ، أن ينساهم من اهتم اهتماما موضوعيا بالقصة التونسية من النشأة حتى الاستقلال . ونـذكر منهم :
- عبد الرزاق كرباكة 6 قصص
- توفيق بوغدير 6 قصص
- عياش معرف 10 قصص

سادسا : ويسهل على القارىء الفطن ان يلاحظ في فصول الأخ الزمرلي من تقطع واشارات سطحية وانتقالات فجئية واختزال مضر ليتأكدان ما قام به ليس الا تلخيصا لبحث ما .

وإذ أنا أذكر كل ما سبق فمن باب التذكير فقط . وما عدا هذا فالأخ الكريم فوزي الزمرلي مشكور كل الشكر لاهتمامه بالقصة التونسية ، بقطع النظر عن شكل هذا الاهتمام . وهو مشكور أكثر ، لنشره تلك الفصول ، بقطع النظر عن شكل هذا النشر ، لأنه بذلك التلخيص عرف بالقصة التونسية لدى قراء « الحياة الثقافية » .
وقد رأيت ، لنفس الغاية ، أن أعرض على هؤلاء القراء الفهارس التي أثبتها في آخر البحث الذي كنت قمت به ، لعل الباحثين يجدون فيه معينا لدراسة الأطوار الأولى من القصة التونسية دراسة معمقة .

○ الفهرست العـام للبحث ○

□ المقدمة :

الباب الأول :
الأرضية القصصية قبل أوائل القرن العشرين 3 ـ 17

علاقة القصة بالحكاية 4
نقل بعض الحكايات المترجمة 5
نقل فصول من كتاب كليلة ودمنة 8
القصص الشعبي 10
اهتمام الاستعمار بالقصص الشعبي 11
أول نشر للقصة التونسية 1895 11
الحياة التونسية وأثرها في القصاص الفرنسي 13

البـاب الثانـي



القصة التونسية في طورها الأول :
الاتجاه التعليمي : 1905 ـ 1925 ـ 18 ـ 17

المظهر السلفي 21
قصة الهيفاء وسراج الليل 24
المظهر السياسي
ـ الأوضاع السياسية في أوائل القرن العشرين 28
ـ سليمان الجادوى : رواية دلماس 29
ـ عثمان الكعاك : السحاب 33
ـ محمد الحبيب : بسالة تركية ، وطنية الاتراب 35
ـ سعيد أبو بكر
ـ كيف بدأ كتابة القصة 40
ـ قصة اليزابيت تنصب فخها 41
ـ ضحية الحرب 45
المظهر الاجتماعي والاقتصادي
ـ الحالة الاجتماعية والاقتصادية في الربع الأول من القرن العشرين 48
ـ الصادق الرزقي : الساحرة التونسية 49
ـ على فراش الموت 53
ـ عبد الرحمان الكعاك : حقيقة لا خيال 56

- صالح السويسي : الهيفاء وسراج الليل (ف 2) 58
- سعيد أبو بكر : الانتقام 60

الترجمة
- عوامل انبعاث حركة الترجمة 61
- الغاية من ترجمة القصص 63
- مواضيع الترجمة 64
- كيفية الترجمة 67

الاقتباس 70

الخصائص العامة للقصة التعليمية 76

الباب الثالث
القصة التونسية في طورها الثاني

الفصل الأول : الوعي القصصي 81

الفصل الثاني : الاتجاه الواقعي
- عوامل ظهور الواقعية 88
- زين العابدين السنوسي 92
- محمد عبد الخالق البشروش 100
- محمد العريبي 108
- علي الدوعاجي 120
- عبد الرزاق كرباكة 133
- محمود بيرم التونسي 136
- عياش معرف 140
- الخصائص العامة للقصة الواقعية 144

الفصل الثالث : الاتجاه الهزلي
- عوامل نشأة الاتجاه الهزلي 146
- خصائص الاتجاه الهزلي 150

الفصل الرابع : القصة الرمزية
- العوامل السياسية والأدبية لظهور القصة الرمزية 155
- محمود المسعدي 160

الخاتمة 171

الفهارس :
- حصر كامل للقصص التونسية المنشورة في النصف الأول من القرن العشرين 172
- حصر كامل للقصص المترجمة 179
- الفهرس المصادر والمراجع 182
- الفهرس العام . 184

حصر كامل للقصص التونسية المنشورة في النصف الأول من القرن العشرين .

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
ابن سالم التيجاني	هل كان مجنونا	العالم الأدبي 14 مارس 1932
ابن رشيد نورالدين	كيف العمل	الحياة 29 نوفمبر 1936
ابن محمود نورالدين	من لغو العشرين	الأفكار 1 نوفمبر 1936
ابن محمود نورالدين	شاب وشيخ	الأفكار نوفمبر 1936
أبوبكر سعيد	الانتقام	10 سبتمبر 1924 (لسان الشعب)
أبوبكر سعيد	ضحية الحرب	لسان الشعب 24 سبتمبر 1924
أبوبكر سعيد	عيد الكرنفال	لسان الشعب 5 نوفمبر 1924 مجلة العالم الأدبي س 2 عد 3 د 32
أبوبكر سعيد	اليزابيت تنصب فخها	لسان الشعب 3 سبتمبر 1924
* أبو حاتم	نسخة ذلك	المباحث أوت 1947
الأحمر صالح رضا	الفردوس المفقود	المسرح 1 ماي 1937
الأكحل محمد صالح	ضحية الحب الصادق	تونس المصورة 4 نوفمبر 1937
* أم بنات	-	القلم الحر 5 جوان 1938
الباجي محمود	الشحاذ العاشق	الثريا 3 ـ مارس 1946
الباجي محمود	انتقام رهيب	الثريا 2 ـ 1946
البشروش	زوجة أحمد شرودة	العالم الأدبي 14 أفريل 1932
البشروش	استعباد البنين	العالم الأدبي سبتمبر 1930
البشروش	من تكون هذه الساحرة	العالم الأدبي سبتمبر 1932
البشروش	البرية	العالم الأدبي 7 مارس 1932
البشروش	الطيب بوغدير	العالم الأدبي 27 جوان 1932
البشروش	علي العياري	العالم الأدبي 29 أوت 1932
البشروش	فنان	المباحث جانفي 1938
بكير أ . ع	الوليمة	المباحث ماي 1945
بكير محمد	يأكل الدنيا ويتسحر الآخرة	المباحث فيفري 1946
بكير محمد	الحلاق	المباحث 2 ـ 1944
بوغدير توفيق	قبلة الموت	الأفكار 1 جانفي 1936
بوغدير توفيق	ثمن المجد	الثريا 10 ـ 1945
بوغدير توفيق	القربان الأعظم	الثريا 11 ـ نوفمبر 1945
بوغدير توفيق	الجزاء	الثريا 9 ـ 1945
بوغدير توفيق	حفلة فاشلة	الأسبوع 14 جانفي 1946
بوغدير توفيق	لفة الرسائل	الأسبوع 4 مارس 1946

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
بيرم التونسي	وراء الستار	الزمان 9 جانفي 1933
« «	الجارة المجهولة	الزمان 23 جانفي 1933
« «	العقاقير	الزمان 6 فيفري 1933
« «	زنوج باريس	الزمان 21 فيفري 1933
« «	السكاران	الزمان 28 فيفير 1933
« «	حدائق شارع المدارس	الزمان 1 مارس 1933
« «	الانتقام	الزمان 28 مارس 1933
« «	الأحباب	الزمان 25 أفريل 1933
« «	الصديق الرذل	الزمان 9 ماي 1933
« «	المرأة القبيحة	الزمان 23 ماي 1933
« «	دعوة القبطي	الزمان 13 جوان 1933
« «	القاضي الصغير	الزمان 20 جوان 1933
« «	الدبوزة فين	الزمان 4 جويلية 1933
« «	بركة اليوم	الزمان 18 جويلية 1933
« «	الأميرة التركية	الزمان 8 أوت 1933
« «	المهدي	الزمان 10 أكتوبر 1933
« «	أغنية على صفحة البحر	الزمان 19 سبتمبر 1933
« «	صيد القطار	الزمان 26 سبتمبر 1933
« «	الالماسة المزيفة	الزمان 14 نوفمبر 1933
« «	حماسة ساعة	الزمان 21 نوفمبر 1933
« «	العشاء	الزمان 28 نوفمبر 1933
« «	الحب الهمجي	الزمان 2 أكتوبر 1934
« «	حلاق للنساء	الشباب 25 ديسمبر 1936
« «	عم علي الرايس	الشباب 8 جانفي 1937
« «	طاحونة الأمس وطاحونة اليوم	الشباب 22 جانفي 1937
« «	أوتيل أبي القاسم	الشباب 29 جانفي 1937
« «	الحاج الكيلاني الجزار	الشباب 5 فيفري 1937
« «	تذكرة الطرام	الشباب 17 فيفري 1937
« «	كبش العيد	الشباب 26 فيفري 1937
« «	كبش العيد	الشباب 26 فيفري 1937
« «	أنا وهو	الجامعة جويلية 1937
« «	الكهرباجي	الشباب 10 ديسمبر 1937
« «	مؤتمر السمك	العالم الحر 26 جوان 1938

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
الجادوى سليمان	رواية فخامة دلماس	أبونواس عدد 9 الى 14 ـ 1909
جلولي محمد العربي	اليد البيضاء	مطبعة الارادة تونس 1360 هـ
الجندوبي علي	سامية	التطور الاجتماعي 2 ـ 1936
الحبيب محمد	بسالة تركية	طبعة مستقلة
محمد الصالح الجابري :		القصة التونسية
		ص 139 تونس 1975
« «	وطنية الاتراك	طبعة مستقلة
حسن حسني عبد الوهاب	السهرة الأخيرة بغرناطة	مجلة النهضة الشمال افريقية (بالفرنسية)
		مارس 1905
		مجلة قصص عدد 17 ـ 1970
		(ترجمة حمادي الساحلي)
		محمد الصالح الجابري : القصة التونسية
حوحو أحمد رضا	فتاة أحلامي	الأسبوع 4 مارس 1949
خريف البشير (صمصام)	ليلة الوطية	الدستور 10 سبتمبر 1937
خريف مصطفى	دموع القمر	العالم الأدبي أكتوبر 1930
خريف مصطفى (الجاحظ)	الحاج علي	المباحث جويلية 1944
دبور محمد	وأخيرا آمنت	الأسبوع 1 أوت 1949
الدوعاجي علي	كنز الفقراء	العالم الأدبي أوت 1935
« «	في شاطىء حمام الأنف	السرور سبتمبر 1936
« «	جارتي	التطور الاجتماعي 1936
« «	المصباح المظلم	القلم الحر 26 جوان 1938
« «	أمن تذكر جيران بذى سلم	المباحث فيفري 1945
«	سهرت منه الليالي	الأسبوع 11 مارس 1946
« «	سر الغرفة السابعة	الأسبوع 26 ماي 1946
« «	راعي النجوم	المباحث جوان 1944
« «	أحلام حدى	المباحث جويلية 1944
« «	الركن النير	الثريا نوفمبر 1944
« «	مجرم رغم أنفه	الأسبوع 24 ديسمبر 1945
« «	قتلت غالية	الأسبوع 7 جانفي 1946
« «	موت العم باخير	الأسبوع 21 جانفي 1946
« «	نزهة رائقة	المباحث جوان 1946
« «	أم حواء	الفكر جويلية 1959
« «	شارع الاقدام المضخمة	يذكرها له فريد غازي

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
* الرّاوي	خبر أكلة البشر	العالم الأدبي ماي 1930
« «	امرأة عاهر	العالم الأدبي س 3 عدد 4 28 .
« «	10 فرنك	الزمان 6 جوان 1939
الرزقي الصادق	الساحرة التونسية	المطبعة التونسية 1910
		مجلة قصص 1967
		محمد الصالح الجابري : ص 123
زروق محمد	نجاة	الزمان 18 ديسمبر 1933 الى 10 جانفي 1934
* السائح التونسي	-	القلم الحر 16 ماي 1938
« «	-	القلم الحر 12 جوان 1938
« «	-	القلم الحر 18 جوان 1938
سحار عبد الحميد	شجرة الشيطان	الوطن 14 أفريل 1949
سعداوي عبد العزيز	بين النفس والايمان	المباحث ديسمبر 1944
السنوسي زين العابدين	عجز أديب	العالم الأدبي 1 ـ 1930
« «	الحبيبة	العالم فيفري 1930
« «	حديث شاب مسلم مع حسان باريسيات	العالم الأدبي مارس 1930
« «	من ضحايا الانقلاب	العالم الأدبي أوت 1930
« «	عزاء العروس	العالم الأدبي ديسمبر 1930
« «	المهاجر	تونس 15 سبتمبر 1936
« «	ابنة قصر الجم	الأسبوع 4 جانفي الى 2 ماي 1948
	1	4 جانفي 1948
	2	11 جانفي 1948
	3 الصيد البشرى	18 جانفي 1948
	4 المعركة المسحورة	25 جانفي 1948
	5	1 فيفري 1948
	6 الولد الذبيح	8 فيفري 1948
	7 المعراج	15 فيفري 1948
	8 العروس العجيبة	29 فيفري 1948
	9 المتسولة	21 مارس 1948
	10 كاهن روادة	28 مارس 1948
	11 المدخل الرهيب	11 أفريل 1948
	12 أموات تتحرك	25 أفريل 1948
	13 الخلود المحمدي	2 ماي 1948

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
السويسي صالح	الهيفاء وسراج الليل	فصل 1 مجلة خيرالدين 6 .7 (606) فصل 1ـ2 جريدة القيروان 15 الى 20 سنة 1921 مجلة قصص 6 ـ 1968 محمد الصالح الجابري ص 103 .
* شاب	رشالتي	تونس المصورة 1 مارس 1940
الشابي أبو القاسم	روح ثائرة	العالم الأدبي 30 أفريل 1932
ضيف الله الشاذلي	صديقي والخمر	الزمان 1938
العبيدي الهادي	فطومة	القلم الحر 11 نوفمبر 1938
العنابي الطيب	حسناء الصغيرة	تونس الفتاة 2 عدد 12
العريبي محمد	عزيزة	العالم الأدبي 11 نوفمبر 1935
« «	قلب للكراء	السردوك 12 ماي 1937
« «	غني لي	السردوك 26 ماي 1937
« «	شيرى	السرور 30 أوت 1936
« «	قشع روح	السرور 27 سبتمبر 1936
« «	ليلة 27 رمضان	السردوك 30 أوت 1937
« «	حوار في الظلام	صبرة 15 ديسمبر 1937
« «	هــو	الوطن 2 جانفي 1938
« «	النهد المجرم	صبرة 11 جانفي 1938
« «	بنات اليوم	القلم الحر 10 جويلية 1938
« «	الرماد	المباحث جانفي 1945
* فداوى الحياة	لقاء	الحياة 3 ـ 23 أكتوبر 1936
« «	في الحياة	الحياة 4 ـ 6 نوفمبر 1936
الفهري الشاذلي	تونس تغني	سردوك 7 أفريل 1937
كرباكة عبد الرزاق	عبرة في قصة	الثريا 2 . 1944
« «	بدعة وحماد	الثريا 4 ـ 1944
« «	عبرة في قصة أبو القطط	الثريا 4 ـ 1945
« «	في موسم الحصاد	ديسمبر 1945 (الثريا)
« «	عبرة في قصة	الثريا أكتوبر 1946
« «	عبرة في قصة	الثريا سبتمبر 1944
الكعاك عبد الرحمان	حقيقة لا خيال	الفجر ديسمبر 1920 الزمان 23 نوفمبر 1938 .
الكعكاك عثمان	السحـار	البرهان 7 سبتمبر 1921

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
المؤدب مصطفى	الوفية	الأفكار 1 نوفمبر 1936
محمد نورالدين	الحب الضائع	الأسبوع 18 أوت 1946
مجيدي حسن	أب عصري	الحياة 2ـ11 أكتوبر 1936
مجيدي حسن	ضحية المال	الحياة 4 ـ 13 نوفمبر 1936
« «	حبي الضائع	تونس المصورة 4 ديسمبر 1938
المسعدي محمود	حدّث أبو هريرة	
	حديث البعث	الزمان 5 جانفي 1939
	حديث العمى	الزمان 26 جانفي 1939
	حديث الأبد	الزمان 26 جانفي 1939
	حديث القيامة	المباحث أوت 1944
	حديث البعث الأول	المباحث سبتمبر 1944
	حديث الكلب	المباحث نوفمبر 1944
	حديث العدد	المباحث نوفمبر 1944
	حديث الغيبة تطلب فلا فلا تدرك	الفكر 6/1956
المسعدي محمود	مولد النسيان	المباحث 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، أفريل ـ جويلية 1945
« «	السندباد والطهارة	المباحث 1947
« «	المسافر	نشر مع « السد » ، تونس 1955
المسيري م . أ	الرجولة الذليلة	الزمان 29 أوت 1933
المرزوقي محمد	جريمة حبّ	التطور الاجتماعي 2/1936
« «	الرشيد على أبواب هرقلة	الأفكار 1 ديسمبر 1937
« «	بين مضارب البدو	الأسبوع 27 جوان 1949
« «	بين زوجتين	يذكرها له فريد غازي
المرزوقي نصر	الضحية	الأفكار 1 سبتمبر 1936
معرف عياش	العلقة	الأسبوع 18 أفريل 1949
« «	الساحر	الأسبوع 25 أفريل 1949
« «	صاحبة التذكار	الأسبوع 2 ماي 1949
« «	ابتسامة الذهب	الأسبوع 06 ماي 1949
« «	الولي	الأسبوع 23 ماي 1949
« «	الغيرة	الأسبوع 13 جوان 1949
« «	آدم وحواء	الأسبوع 19 جوان 1949
« «	العبقري	الأسبوع 4 جويلية 1949
« «	أوفا قالينا	الأسبوع 25 جويلية 1949
« «	غرائب حواء	الأسبوع 30 جانفي 1950

المؤلف	عنوان القصة	المصدر
* * هدى	فطومة	القلم الحر 11 نوفمبر 1938
الهلالي محمد جابر	ابن الخطيئة	الأسبوع 10 أفريل 1949
الهلالي محمد جابر	الانتحار	الأسبوع 9 ماي 1949
وسلاتي عبد العزيز	لكم فنكم ولي فني	العالم الأدبي س 4 عدد 13 ـ 1933
-	جزاء الخيانة	الأنيس 3 ـ 1937
-	ابن العيد	الانيس عدد 4 ـ 1937
-	غرور الامرأة	الأنيس 5 ـ 1937
-	غرام مضطرب	الأنيس 31 مارس 1937
-	وطنية ابنتي	الأنيس 6 ـ 1937
-	ثورة المهرجا	الأنيس 7 ـ 1937
-	صديقي	الأنيس 8 ـ 1937
-	خبث الغني	الأنيس 10 ـ 1937
-	الزوج المحتال	الأنيس 12 ـ 1937
-	الموعظة الخالدة	الأنيس 14 ـ 1937
-		الأنيس 15 ـ 1937
-	الرحمة المزيفة	الأنيس ـ 17 ـ 1937
-	هل أنت سامع يا فيكتور	تونس المصورة 23 نوفمبر 1938
-	أسطورة الورود	تونس المصورة 1 مارس 1939
-	منانة	الحياة 1 ـ أكتوبر 1936
-	المبرات تصون العفاف أو على فراش الموت	الفجر سبتمبر ، أكتوبر 1920
-	في الدربية	الوطن 2 جوان 1949
-	الميت الحي	تونس المصورة 1 أكتوبر 1940

* الملاحظة :

* اسم رمزي

ـ ذكرت بدون اسم المؤلف أو بدون عنوان .

حصر كامل للقصص المترجمة والمنشورة في النصف الأول من القرن العشرين

المترجم	المترجم عنه	النص المترجم	
البشروش محمد	قاي دي موباسان	السعادة	العالم الأدبي أوت 1932
البشروش	قاي دي موباسان	الاعتراف	المباحث مارس 1938
البشروش محمد	أوجلين هلتي	المصفوع	الزمان 13 جوان 1939
البشروش محمد	قوستاف فلوبير	القربان	المباحث 15 أفريل 1944
بهجت محمد	الفونس دوداي	الموت	الزمان 16 ماي 1933
الحبيب محمد	-	أتته السعادة على قدر	
الدبابي محمد	الفريد ديموسان	فريدريك وبيرنريت	العالم الأدبي 4 جويلية 1932
الدرعي أحمد	أرتير بليقران	الراقبوش أو محمد علي	العالم الأدبي أفريل 1932
* الراوي	دي دومان	مدينة الذهب والبرص	العالم الأدبي 7 مارس 1932
* الراوي	جون ميستلاي	قيام الساعة	العالم الأدبي س 3 عدد 3
* الراوي	برنار نابون	فتاة مخطرة	العالم الأدبي س 3 عدد 6
* الراوي	أوديت بانيتي	لأنه مات	العالم الأدبي س 3 عدد 9
* الراوي	اميل هريو	شابة البئر	العالم الأدبي مجلد 2/4
* الراوي	اندري فيربو	محبة ومحبة	العالم الأدبي 1 أفريل 1935
* العربي	الابريار	الأبله	
* ع . ع	فولتير	سليم (كنديد)	البدرج 2 عدد 1
العريبي محمد	-	ماساة في مخدع	البدرج 2/2 ، 3 ، 4
العريبي محمد	-	سر العائلة	تونس من 9 أوت الى 26 أوت 1936
محسن بن حميدة	كسافي مركيس	حياة الإنسان	تونس 3 سبتمبر 1936
«	هيدلماطوراس	الأكذوبة اللطيفة	المباحث أفريل 1946
«	كلوديو ديسوزان	لم مطمئن	المباحث أفريل 1946
«	أتزوك بيريتر	الشاعر	المباحث جوان 1946
«	ميخائيل فلداي	التصنيف الأكمل	المباحث سبتمبر 1946
مشيرقي محمد	طولستوي	سلطان الظلال	المباحث ديسمبر 1946
مشيرقي محمد	شاتوبريان	خاتم عقد بني سراج	طبعة مستقلة 1911
الوسلاتي عبد العزيز	-	المختبر الرهيب	طبعة مستقلة 1909
الوسلاتي عبد العزيز	-	السهرة	
وسلاتي عبد العزيز	-	في معركة الجماد والانسانية	العالم الأدبي سبتمبر 1930 العالم الأدبي نوفمبر 1930
الوسلاتي عبد العزيز	-	الوداع	العالم الأدبي 20 جوان 1932

قصص مترجمة لم تذكر أسماء مترجميها
فذكرناها حسب مؤلفيها

اسم المترجم عنه	عنوان نص الترجمة	المصدر
الاسكندر دوماس	العبقرية العائلية	طبعة مستقلة
أفيم زوزوليا	أثاث من البشر	العالم الأدبي عدد 10 1930
بلاسكو جيناز	ذئاب البحر	العالم الأدبي جوان 1930
تشيكوف	صه	الزمان 27 فيفري 1934
جاوشفيلي . م	عبد الله	العالم الأدبي جويلية 1930
جورج لاكومب	مكيدة المرأة	الزمان 14 جانفي 1936
جوليان سرفييه	الأخت الضحية	الزمان 17 مارس 1936
جون فرسفوري	الملاك الأشهب	العالم الأدبي 26 ديسمبر 1932
جون رافييه	الابن المنقذ	الزمان 24 ديسمبر 1935
جون مارتان	المرأة المخدوعة	الزمان 28 أفريل 1936
رالف كورفولد	آلام حب ضائع	« تونس » 1 أكتوبر 1936
روجي ريجس	صديق الصدفة	الزمان 25 ديسمبر 1934
روجي فنسان	الشهيدة	الزمان 5 فيفري 1935
روني قزمان	لقاء العاشقين	العالم الأدبي جوان 1932

المترجم عنه	عنوان نص الترجمة	المصدر
طولستوي	الطمع	الوطن 12 فيفري 1939
فنسان مارني	صديقة عاقلة	الزمان 2 جوان 1936
فولتير	دهليز الاغراء	المباحث أفريل 1945
الفونس دوداي	عنز السيد سيقان	الثريا عدد 1943/2
كرستيان برنار	المرأة على الرصيف	العالم الأهبي
مكسيم قوركي	القلب الناري	الوطن 1 جانفي 1939
موريس لاكومب	حق الحياة	الزمان 18 فيفري 1936
يوبولد أوبير	الشبه	الزمان 4 ديسمبر 1934

قصص مترجمة لم نذكر أسماء مؤلفيها ولا أسماء مترجميها
فرتبناها حسب الصحف التي نشرت فيها

* الصحيفة	* عنوان نص الترجمة
البدر شوال 1340	مصائب الفلسفة
البدر 4/2	من هو
التقويم الاجتماعي 21 أوت 1925	هل أنا مجنون
تونس 10 سبتمبر 1936	شجرة الاثم
تونس 21 سبتمبر 1936	مانقا
تونس المصورة 1 فيفري 1939	الثوب الشافي
الزمان 12 نوفمبر 1935	هل يبقى مصورا
الزمان 15 فيفري 1938	صوت الوطن
العالم الأدبي 16 ماي 1932	روح نيكولا لاسنيدر

